مناهل الصفا

في

مآثر موالينا الشرفا

لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي

دراسة وتحقيق

الدكتور عبد الكريم كريم

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الخامس الرباط

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة

مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا

لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي

دراسة وتحقيق
الدكتور عبد الكريم كريم
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس الرباط

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

عرف القرن العاشر للهجرة الموافق للسادس عشر للميلاد صراعا قويا بين امبراطوريات ثلاث : الاتراك العثمانيون في الشرق الاسلامي ، والاسبان والبرتغال في الغرب المسيحي ، من أجل السيطرة والتحكم في حوض البحر المتوسط ، وقد تمركز هذا الصراع منذ منتصف هذا القرن في الشمال الافريقي وفي بلاد المغرب الاقصى بوجه خاص للاهمية الستراتيجية التي كانت للمغرب :

فالاتراك العثمانيون الذين أعلنوا الخلافة الاسلامية سعوا الى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجومات الخارجية المسيحية ، ولتأمين حدود امبراطوريتهم الغربية ثم لاستغلال الموقع المغربي في مهاجمة غربي أوربا وشبه جزيرة ايبريا قلعة المسيحية الحصينة ، بالاضافة الى أن التوسع في المغرب يمكن الاتراك من التحكم في طرق المواصلات البحرية الاسبانية والبرتغالية مع العالم الجديد والشرق الاقصى وتهديدها .

ومن جهة أخرى فقد ادرك الاسبان والبرتغال بدورهم أهمية الموقع المغربي للدفاع عن غربي أوربا المسيحية ضد خطر العثمانيين المسلمين ، وللتسرب نحو افريقيا لاستغلال خيراتها ولنشر المسيحية بها ، وقد احتلوا لذلك قواعد مختلفة على شواطىء المغرب الشمالية والغربية وعززوا تحصيناتهم بها .

وأمام هذه الاخطار الخارجية ، برزت القيادة السعدية التي تزعمت الجهاد الوطني لرد الاخطار الخارجية ولتوحيد البلاد ثم للحيلولة دون تسرب النفوذ العثماني ولمقاومة أي تدخل عسكري أوروبي وقد كللت اعمال السعديين بالنجاح عند انتصارهم على الحملة الصليبية البرتغالية في معركة وادي المخازن يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578م ، والتي بويع على اثرها المولى أحمد خليفة باسم المنصور تخليدا لهذا الانتصار العظيم .

لقد عرف المنصور كيف يستغل انتصار المغاربة في وادي المخازن لتدعيم نفوذه الداخلي ولفرض احترامه على خصوم المغرب في الخارج وأعني السلطان العثماني مراد الثالث في صطامبول والملك الاسباني فيليب الثاني في مدريد ، فأوجد بذلك

للمغرب كيانا مستقلا امام التيارات الخارجية التي كانت تتربص به الدوائر ، ولم يقف المنصور عند هذا الحد ، بل استغل سمعة المغرب الخارجية وموقع بلاده الستراتيجي للتدخل في مشاكل خصومه الداخلية : سواء بالنسبة للاتراك في الشرق الاسلامي والبلاد العربية ، أو الاسبان في شبه جزيرة ايبريا وغربي أوربا ، مما أجبر هؤلاء الخصوم على التقرب منه والسعي الى كسب وده ، واصبحت لذلك بين يدي المنصور ولفترة من الزمن وسائل التأثير على حفظ التوازن الدولي وترجيح كفة أي من الجانبين المتصارعين . وكنتيجة لذلك تمكن المنصور من تأسيس امبراطورية واسعة بغربي افريقيا لا تقل عظمة وغنى واتساعا عن امبراطوريات معاصريه : الاتراك والاسبان . كما ازدهرت مختلف المظاهر الحضارية في المغرب الى الحد الذي جعل دولة المنصور تتصف بأنها الدولة التي (أثرت العديم واكسبت المحروم) (1) .

وللوقوف على الكثير من الحقائق التي تميز بها المغرب في عهد السعديين والمولى أحمد المنصور بوجه خاص في المجالين السياسي والحضاري ، نرجع الى مخطوط (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) لابي فارس عبد العزيز الفشتالي الذي تم العثور عليه اخيرا والذي توجد منه نسختان في خزانة القصر الملكي بالرباط .

ابو فارس عبد العزيز الفشتالي :

اختلف في تاريخ ولادة عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الصنهاجي الفشتالي : فاحمد ابن القاضي جعلها عام 952 هـ في حين ان المقري أخر ولادته الى عام 956 هـ . نشأ عبد العزيز في قبيلته فشتالة بنواحي فاس حيث درس بها على (الامام العالم ابي العباس أحمد بن علي المنجور والقاضي الجليل أبي مالك عبد الواحد الحميدي والفقيه الاستاذ النحوي أبي العباس أحمد الزموري) (2) .

وعن اتصال الفشتالي بدولة المنصور وانخراطه في سلك كتاب الانشاء ، فالذي دلت عليه دراسة مخطوط (مناهل الصفا) هو أن أبا فارس ربما بدأ حياته ككاتب في ديوان انشاء ولي عهد المنصور المولى محمد المامون بفاس ، فقد تحدث في الصفحة (210) من المخطوط عن وصول الشاعر المكي الى فاس واعتناء المامون به (وكان ممن أزجى مطيته الى حضرته العلية مادحا ومسترفدا شاعر المشرق والمغرب بلا مدافع الشريف الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المكي وفد على حضرة امير المومنين أيده الله من مكة .. فسقط على المغرب في عام ثمانية وثمانين (أي 988 هـ / 1580 م) وأناخ على

---

(1) مخطوط مناهل الصفا للفشتالي ، ص 146 .
(2) المقري : روضة الآس ، ص 163 .

ولى العهد بفاس .. فأكرم وفادته .. ثم وصل صحبة ركابه العالى الى باب اميـر المومنين ايده الله عند مقدمه عليه لمعسكره على نهر تانسيفت فى جمادى العام .. فمدح امير المومنين بقصيدتيه الطنانتين) .

فهل انتقل الفشتالى مع ولى العهد من فاس الى نهر تانسيفت عام 1581/989 لما استدعى المنصور ابنه ليأخذ له البيعة بـولاية العهد مصافحة ؟

هناك ما يدل على حضور الفشتالى هذا اللقاء على نهر تانسيفت :

اولا : الوصف الدقيق للاستقبال الذى خص به المنصور ابنه وولى عهـده المامون (ولما هوى الى الارض ساعـيا على اقدامه الطاهرة للثم الركاب العلى الامامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز امير المومنيـن ايـده الله عـن العساكر ووقفـت بمركزهـا وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطـا حتى أمكنه من لثم قدمه المشرفه وحنى متطأطئا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسـارا معا فى الالوية والعساكر) . (1)

ثانيا : لقد ذكر الفشتالى بأن من الحاضرين فى هذا اللقاء سفير اسبانيا الـذى رغب فى الحضور وأذن لـه المنصور بذلك (حضر جمعه العظيم رسـول عظيم الملة النصرانية طاغيـة قشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش سفيـرا الى حضرة امير المومنين فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله فى البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام وسـار مـن الحضـرة الى مخيـم عسـاكر المسلمين)(2) .

وأول اشارة وردت على لسان الفشتـالى فى المقطوط تدلنا على انخراطه فى عداد موظفى الدولة ، ترجع الى عام 990 هـ / 1582م وذلك فى معرض الاشادة بفصاحة المنصور وبلاغة ولى عهده المامون كما جـاء فى احـدى توقيعاتهما ، وقد جرت الحادثة (بظهر الزاوية من ساحة فاس المحروسة عام تسعين .. فلم نـدر ساعتئذ بأيهـم ايـدهم الله نعجب)(3) . وربما انتقل الفشتالى فى هذه السنة من خدمة ولى العهد الى خدمة المنصور الذى كان قد وصل الى فاس فى زيارته الاولى لها ، وعاد مع الخليفة الى مراكش حيث بدأ بها أعماله فى ديوان الانشاء بتحرير نص بيعة برنو المؤرخة بعام 991 هـ/1583م(4)

(1) الفشتالى : مخطوط المناهـل ص 32
(2) » » » ص 35
(3) » » » ص 254
(4) » » » ص 19

ومما يؤكد هذا الرأى هو أن الفشتالى لما شرع فى تدوين تاريخ دولة المنصور أكد غير ما مرة بأنه قد اعتمد فى جمع اخبار المنصور فى نشأته واثناء ولاية اخيه المعتصم والصدر الاول من حكمه على عدد من المعاصرين بما فيهم الخليفة المنصور :

- (من ذلك ما اخبرنى به الشيخ ...) (1)

- (وسمعته ايده الله يحدث أنه لما ...) (2)

- (ورأيت أن أعول فى تحقيق هذا على تقييد شريف بخط يده الكريمة ناولنيه ايده الله) . (3)

لم يصبح الفشتالى من جلساء المنصور وخاصته المقربين الا فى عام 993هـ/1585م كما اثبت هو نفسه فى الصفحة (201) من المخطوط (ومن كرمه الذى كاد ان يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التى يصل بها ايده الله خاصته وأهل بساطه غالبا عند المواسم ... حضرت مجلس الخواص مع بابه العالى ايده الله ليلة عيد الفطر عام ثلاثة وتسعين وقد استدعانى لشغل تعين وكتب تاكد فالفيت القوم ينتظرون الخلع الموسمية لوعد سبق لهم بها وتقدم من قبل أن أخرج فبرزت اليهم ونثرت عليهم فقلت فى ذلك اخاطب مولانا الامام المنصور بالله امير المومنين ايده الله .. ثم مازال ينثال على بعد ذلك من شآبيب احسانه ايده الله المتواليه ... ما افعم الكيس واثقل الظهر والرأس) .

وقد ازدادت مكانة الفشتالى عند المنصور خلال هذه السنة بدليل أنه قد كلف بتحرير نص بيعة ولى العهد المامون وبقراءتها على الملأ (وأمرنى ايده الله بالقيام على رؤوس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيرتى ليتأدى الى الناس فهمه .. وقام الى جنبى قاضى الجماعة .. مفسرا لما اشكل على الناس من احكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم) (4) .

وهكذا أصبح أبو فارس عبد العزيز الفشتالى (وزير القلم الاعلا) (5) فى دولة المنصور بحيث ان معظم رسائل المنصور وظهائره من انشائه ، ولم يكن هناك من أحد يجاريه فى هذا المجال (فتركت ايدكم الله الصدر لمن هو منى أقعد وتحاميت عقده لمن هو له أعقد أبى فارس عبد العزيز الفشتالى) . (6) .

---

(1) الفشتالى : مخطوط المناهل ص 5
(2) » » » ص 213
(3) » » » ص 219
(4) » » » ص 91
(5) ابن القاضى : درة الحجال ، ج 2 ص 377
(6) الفشتالى : مخطوط المناهل ، ص 45 ، وذلك كما جاء فى الرسالة التى وجهها العالم الجليل ابومالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الى المنصور بعد أن كلفه بتسويد رسالة الى اسكيا اسحق ملك السودان

وقد كلف المنصور أبا فارس بتدوين اخبار الدولة السعدية وتسجيل وقائعهـا (ويأمر لي أنا عبده ومن خصه من كتاب الانشاء ببابه العالي بكتب ما يجدد بعلامته الكريمة من رسوم اسلافه الكرام والاوامر القديمة) (1) فأصبح الفشتالي بذلك مؤرخ الدولة الرسمي على غرار ما كان عند الاتراك العثمانيين في الشرق الاسلامي والمعروف بكاتب وقائع آل عثمان . وقد اكد هذه الوضعية معاصره أحمد بن القاضي في درة الحجال (وهو متولي تاريخ الدولة المنصورية أبقاها الله) (2) .

شرع الفشتالي في تأليف كتاب تاريخي عام عن الدولة السعدية منذ نشأتها في مطلع القرن السادس عشر وقد أطلع عليه بعض اصدقائه كابن القاضي (وتاريخه المذكور في مجلدات اشتمل على تاريخ ساداتنا الشرفاء من أولها الى الآن) (3) وأحمد المقري (ولهذا الكاتب اسماه الله جملة تآليف .. منها (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) المشتمل على عد اسفار اجاد فيها غاية الاجادة وذكر ما اشتملت عليه الدولة الاحمدية من الاعلام وكذا ما يسر الله لها من الفتوحات التي لم يوجد مثلها في ملوك الاسلام) (4) .

ولعل الباعث على التأليف يرجع فيما يبدو الى أن المنصور كان قد توصل من بعض علماء الشرق الاسلامي – وقد يكون القاضي مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد الجنابي قاضي حلب وصاحب كتاب (العيلم الزاخر في اخبار الاوائل والاواخر) – بتأليف تاريخي وجد المنصور به اخطاء ومغالطات تاريخية ، دفعته الى أن يكلف الفشتالي بتدوين تاريخ الدولة السعدية ، والى التعجيل بالكتابة الى العالم المذكور لينبهه الى الاخطاء التي تضمنها مؤلفه السابق (وعلمنا لذلك أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأسا حقائقها واشتبهت على علمكم طرائقها وعذركم في ذلك واضح لتنائي الديار وبعد الآفاق والاقطار) (5) ، وأنه قد كلف احد كتابه المشهورين بتأليف كتاب تاريخي عن الدولة السعدية ليعتمد عليه في تواريخه (ولما انفنا أن يبقى ذلك الخبال والغلط المنبت الحبال فيكون في تأليفكم وصمة وفي جانب الدولة العلية ثلمة توجهت اشارتنا الامامية المشرفة الى احد كتابنا وعميد أيادينا وفرسان الانشاء بعلي بابنا .. بتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب والموجز المسهب يعتمد الفضلاء أمثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه ويتخذونه ان شاء الله قبلة يصلون اليه ... وعرفناكم لتمسكوا ان شاء الله عن نشره ما لفقتموه في تاريخكم هذا ... حتى يأتيكم ان شاء الله من قبلنا مرتبة في اسلاكها) (6)

(1) الفشتالي : مخطوط المناهل ، ص 194 .
(2) ابن القاضي : درة الحجال ، ج 2 ، ص 377 .
(3) ابن القاضي : درة الحجال ، ج 2 ص 378 .
(4) المقري : روضة الآس ، ص 161 .
(5) عبد الله كنون : رسائل سعدية ، ص 237
(6) المصدر السابق .

ورغم أن الرسالة قد اغفلت ذكر اسم الكاتب الذى كلفه المنصور بتدوين اخبار السعديين فان أوصاف الكاتب المذكور تنطبق جميعها على أبى فارس الذى كان (صاحب القلم الاعلا بحضرة الامامة مع كثرة الاعلام بها فحاز قصب السبق واتخذه قسهم وسحبانهم فى غرض البلاغة امامه) (1) .

ومهما كانت الاسباب التى أدت الى قيام الفشتالى بتأليف كتاب (المناهل) فان ظروف المولى احمد المنصور الداخلية والخارجية وفتوحاته العظيمة وما بلغته دولته من عز وعظمة وغنى بالاضافة الى ما كان يطمح اليه المنصور من نشر مآثره فى الشرق العربى الخاضع للعثمانيين ، كل ذلك يعد من الاسباب الرئيسية التى دفعت الفشتالى الى تدوين الكتاب التاريخى والاشادة بالمولى أحمد وامبراطوريته وبدولته التى قال عنها (انها اثرت العديم واكسبت المحروم)(2).

واعتمادا على ما أورده المعاصرون فان (مناهل الصفا) قد تعددت اجزاؤه واسفاره (عهدى به أنه أكمل منه ثمانية مجلدات وهو مقصور على السلطان المذكور وذويه) (3) ، وان بعض المجلدات كانت متعلقة بموضوعات خاصة (أخبرنى أنه ذكر فى فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخم فما ظنك بغيره) (4) الا أن معظم ما دونه الفشتالى قد ضاع أو هو فى حكم المجهول وقد تجود به الايام يوما ما .

عمر الفشتالى بعد المنصور بنحو عشرين سنة حيث عاصر الاحداث المؤلمة التى عاشها المغرب بعد وفاة المنصور ، ولاسيما النكبات الثلاث التى حلت بالبلاد والعباد من جراء الطاعون الاسود المميت والمجاعة الاقتصادية الخطيرة والحرب الاهلية الطويلة التى دامت بين ابناء المنصور واحفاده سنوات طويلة ، ضاع بسببها ثرات حضارى عظيم وامجاد سياسية لا تنسى ، ومن بين ذلك الخزائن العلمية العديدة التى بلغت شأوا رفيعا أيام المنصور ، فطويت بعدها الى أجل غير مسمى صفحة مشرقة فى تاريخ المغرب الحديث . وتوفى الفشتالى عام 1031 هـ/ 1621 م .

ظلت مؤلفات أبى فارس والكثيرين من أمثاله فى حكم المفقود خلال القرون الاربعة الماضية ولا يعلم عنها الا ما تناقله الرواة من اخبار متفرقة ومتقطعة وبالاخص ما حرص بعض المؤرخين الثقات على ابرازه والاشادة به والتنبيه الى مؤلفه الحقيقى الذى أصبح فى حكم المجهول ، الى أن سمحت الظروف أخيرا بالعثور على مجموع مخطوط للفشتالى من كتابه (مناهل الصفا) يتعلق بدراسة بعض الاحداث والوقائع التى تعود الى عهد المولى أحمد المنصور بوجه خاص ، وهذا هو مخطوطنا الذى نحن بصدد دراسته والاعتماد عليه للتعرف على مؤرخنا الفشتالى ولكشف النقاب عن الكثير من الاخبار التى دونها عن أوضاع المغرب الداخلية أواخر القرن السادس عشر وعن بعض البلاد الخارجية المعاصرة له فى الشرق الاسلامى والغرب المسيحى .

(1) المقرى : روضة الآس ، ص 151
(2) الفشتالى : مخطوط المناهل ص 146
(3) المقرى : نفح الطيب ، ج 5 ص 645 .
(4) المقرى : روضة الآس ، ص162 .

توجد النسخة المخطوطة من المناهل فى خزانة القصر الملكى بالرباط تحت رقم (274) ، عدد صفحاتها (304) صفحات ، كل صفحة بحجم (26،5) سم طولا و (21) سم عرضا . وبكل صفحة (26) سطـرا وكـل سطر يتضمن نحو (15) كلمة (1) .

أصالـة المخطـوط :

مخطوطنا هذا ليس النسخة الاصلية التى كتبها الفشتالى أو أطلع عليها لخلوها من أية اشارة الى ذلك ، ولان اضطراب مـوضوعاتها وعدم تصنيفها يؤكد بأنها منقولة عن نسخة أخرى ، وربما ترجع الى ناسخها على اعتبار أنه قد أطلع على مذكرات الفشتالى مسؤولية عدم ترتيب ما جاء بها من معلومات وفق الترتيب الزمنى سهوا منه أو جهلا.

وعندما نتساءل : هل هناك ما يكشف النقاب عن هوية الناسخ ، ومـتى نسخ ، وأين ؟ نلاحظ :

أولا : بأن العبارات والتراكيب وصيغ الافعال فى الخبر والتكلم والمخاطبة ، لايترك أى مجال للشك بأننا نقرأ مذكرات الفشتالى كما وضعت لاول مرة ، والفضل فى ذلك يرجع فيما يبدو الى الناسخ الاول ومـن نسخ عنه ، الذين سعـوا الى المحافظة عـلى الاصل والمجيء باللفظ دونمـا تصرف يـذكر ، وان كان فى ذلك ما يزيد من عنائنا فى البحث والتنقيب عن الناسخ المجهول .

---

(1) توجد بخزانة القصر الملكى بالرباط نسختان مخطوطتان للمناهل ، اعتمـدت احداهـما رقـم (274) • والاخرى تحت رقم 5182 وهى مشكولة تم الفراغ من نسخها اوائل رمضان عام 1128 هـ • وفى دار الوثائق التابعة للخزانة العـامة بالرباط (ميكرو فيلم) تحت رقم 779 لنسخة المناهل المخطوطة الموجودة بتونس ، ومن مقارنة النسخة التونسية مع التى اعتمدتها ، تاكدت من أن النسخة التونسية منقولة عن المغربية • ومن أبرز الادلة على ذلك : النقص الموجود فى النسخة التونسية والمترتب عن النسخ بالدرجة الاولى ، وعلى سبيل الامثلة لا الحصر صفحات 38 ، 75 ، 76 ، 92 ••• من النسخة التونسية

لقد اشتبه الامر على ناسخ المخطوط التونسى عند عبارة (مما ذهب اليه) المتكررة (ص 38) :

(ان ذلك اكثر مما ذهب اليه ابن خلدون باضعاف الا أن يكون قد قصد فيما ذهب اليه تيكورارين) فحذف سهوا الكلمات (ابن خلدون باضعاف الا أن يكون قد قصد) •

فى صفحة 75 ينقص النسخة التونسية سطر (لما تم لمولانا الامام الخليفة المنصور بالله امير المؤمنين أيده الله) •

وفى صفحة 76 اشتبهت كلمة (جنود) على الناسخ وحذف العبارة التالية :

(لعلمهم أنه لا طاقة لهم بمقاومة عساكر المغرب وجنود الامام ولم يكن الا أن بادر ملوكهـم باللحـاق الى المعسكر واللياذ بالطاعة دفعا لتيار الهلكة بذلك عنهم وعن قومهم وتفاديا من هجوم العساكر عليهم فى منازلهم واستخراجهم من صياصيهم ووصلوا الى معسكر جنود الامام)

ومن الادلة ايضا عدم وجود زيادة ما فى النسخة التونسية ، بالاضافـة الى اتفاقهـا مع النسخـة المغربية فى الملاحظات العامة التى اثبتناها عند الدراسة والتحقيق من اضطراب فى ترتيـب المعلومات ووجود نفس البياض وغير ذلك •

وأصالة مذكرات الفشتالي قد تدفعنا من جهة أخرى الى القول بأن مخطوطنا لم تتداوله الايدى الكثيرة أو على الاقل لم يتيسر لاى كان الاطلاع عليه والعبث به ، اذ توارثته اياد أمينة حافظت عليه وأخذت عنه بكل نزاهة ، ومن هذا القبيل : الافرانى في (نزهة الحادى) ، وبلقاسم أحمد الزيانى في (الترجمان المعرب) الذى سجل على هوامش المخطوط بعض ملاحظاته ، ومحمد اكنسوس فى (الجيش العرمرم) الذى ذكر بأن السلطان محمد بن عبد الله قد أمر أحد كتابه اثناء رحلته الى أغمات عام 1178 ه أن يروى له فصلا من فصول الفشتالى . وقد اورد صاحب دليل مؤرخ المغرب بأن الوزير أحمد بن موسى كانت له نسخة من المناهل يطالعها كلما فرغ من اشغاله في دار المخزن .

ثانيا : اما عن زمن النسخ : فالذى تأكد هو أن المخطوط قد نسخ في فترة سابقة لعهد الزيانى الذى عاش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فهل كتب المخطوط في القرن السابع عشر ؟

ثالثا : وعن مكان النسخ : لا توجد أية اشارة الى ذلك ، ولا يدفعنا العثور على المخطوط بفاس الى القول بأن نسخه قد تم فى هذه المدينة ، فقد يكون في فاس أو فى مراكش أو فى غيرهما .

والسؤال المطروح : هل يمكن القول بأن ناسخ المخطوط قد اعتمد على بعض الكراريس من مسودة الكتاب التاريخي الذى الفه الفشتالى عن السعديين وعن عهد المنصور باشارة من الخليفة ، والذى كان المولى أحمد حريصا على ارساله الى الشرق العربى ؟ وهل كانت من مهام السفارة المغربية التى سعى المنصور الى توجيهها الى حلب عام 1008 ه/1600 م القيام بنقل الكتاب التاريخى ونشره في المشرق العربى ؟

ففى الوثائق التاريخية رسالتان من المنصور الى ايليزابيت ملكة انجلترا :

الاولى بتاريخ 12 رمضان 1008/17 مارس 1600 جاء بها (والذى أوجبه لمكانك المكين انه يرد على مملكتك خدامنا حملة الكتاب الكريم الذين وجهناهم الى حلب لقضاء بعض مآربنا مما عن من اغراضنا)(1) .

والثانية بتاريخ 23 شعبان 1009/1 ماى 1601 جاء بها (وأماما اقامه مكانكم من العذر عن عدم تجهيز أصحابنا الى جهة حلب فقد قبلنا عذركم)(2) .

أى ان الملكة الانكليزية قد رفضت السماح للسفارة المغربية بالتوجه مع الاسطول البريطانى الى الشرق العربى للتوتر الذى عرفته العلاقات المغربية ــ الانجليزية وللروابط

(1) مجلة تطوان ، العدد الثامن ، ص 79 .
(2) المصدر السابق ، ص 81 .

الحسنة التجارية والسياسية التى كانت تربط الانجليز والاتراك ، ولم تكن تخفى عن الملكة نوايا المنصور الحقيقية وما كان يسعى اليه من تدخل فى الشرق العربى الخاضع للعثمانيين لصالح خلافته ودولته .

ان فى هذا الرأى أى كون ناسخ المخطوط قد اعتمد على بعض الكراريس من مسودة (مناهل الصفا) ما يفسر لنا الاضطراب الموجود بمخطوطنا سواء فيما يتعلق بالموضوعات الغير المرتبة او فيما يرجع الى الكثير من أماكن البياض للكلمات والحروف التى ربما صعب على الناسخ فهمها ونقلها .

ويبقى هناك سؤال آخر : هل تمكن المنصور من ارسال كتاب (مناهل الصفا) الى الشرق العربى أم أن الايام لم تساعده على ذلك ؟

متى بدأ الفشتالى فى تدوين اخباره ؟

أول ملاحظة تعترضنا فى هذا المجال : هو أن الفشتالى قد دون معلوماته بشكل كراريس منفصلة عن بعضها يتعلق قسم منها بوقائع مختلفة من عهد المنصور ويكون القسم الآخر موضوعات خاصة ، وقد اشتبه الامر على جامع المذكرات او ناسخها فقدم وأخر ، ومن هنا جاء الاضطراب الذى نلاحظه فى مخطوطنا والذى سنفصل فيه القول فيما بعد .

وعند تصنيف مذكرات الفشتالى وترتيبها تاريخيا ، نتأكد بأن مؤرخنا لم يشرع فى تدوين اخباره الا فى حدود عام 997 هـ /1589 م بعد تولية المنصور بأحد عشر عاما أى بعد أن توجهت اليه اشارة المنصور بالتأليف أو لان الاحداث الهامة الداخلية والخارجية التى عرفتها هذه السنة يمكن اتخاذها نقطة انطلاق للامجاد والعظمة التى تميز بها عهد المنصور ، فقد شهدت هذه السنة :

1 ــ معركة الارماد البحرية وانهزام الاسبان لاول مرة امام الانجليز .

2 ــ محاولة الاستفادة من الانهزام الاسبانى لتحرير مدينة سبتة بوجه خاص من الاحتلال الاسبانى .

3 ــ وصول اميرين اجنبيين لاجئين الى المغرب هما : (دون كريستوف) البرتغالى وداود بن على السودانى .

4 ــ تفكير المنصور الجدى فى غزو السودان والتمهيد لذلك .

5 ــ اتصالات المنصور القوية مع الحلف (البروتستانتى) ومع الانجليز بوجه خاص للعمل ضد الاسبان .

6 ــ قيام المنصور برحلة ثانية الى فاس بعد القضاء على ثورة ابن قرقوش التى لم يشك المنصور فى مساعدة الاسبان لها .

7 ـ استرجاع المنصور لمدينة أصيلا وتحريرها من الاحتلال البرتغالي ـ الاسباني .

ودليلنا على ما ذهبنا اليه ، هو أن أبا فارس الفشتالي منذ هذه السنة (997 هـ / 1589) قد استعمل في مذكراته عبارات تؤكد بأن التدوين كان في حينه ، علاوة على اثباته للتواريخ التي وقعت خلالها هذه الاحداث باليوم والشهر والسنة .

واعتمادا على ذلك ، فان الفشتالي قد دون معلوماته كما يلي :

اولا : لقد سجل الاحداث التي عرفها العهد الاول من حكم المنصور خلال السنوات (986 ـ 993) بعد حدوثها وذلك كما يفهم من العبارات التالية التي تؤكد بأنه يدون أخبارا يعرف جميع تفاصيلها وتطوراتها :

ـ (وبلغت الدولة الى اشرف نصابها حسبما نذكر هذا كله ونحسنه ان شاء الله) . ص 3

ـ (وقارن ذلك كله .. حسبما يأتي التعريف بذلك ان شاء الله في محله) . ص5

ـ (حسبما نذكر ان شاء الله عند قسمة الاعمال بين الامراء) . ص 34

ـ لما تحدث الفشتالي عن السفير المغربي الهوزالي قال انه قد توفي عام (994 هـ) في حين أنه كان يتحدث عن سفارته الى صطامبول عام (989 هـ).

عندما ذكر مكائد المنصور في السودان عاد بها الى سنة (991 هـ) واستمر في سرد التفاصيل الى عام (997 هـ) .

ـ يلاحظ ترابط قوي بين الفصول والمذكرات بأن يشير في نهاية الفصل الى ما سيتعرض له في الفصل التالي بل ويتخذ أحيانا آخر جملة من الفصل السابق عنوانا للفصل الذي يليه .

ثانيا : هناك فترة دامت سنتين تقريبا لم يدون الفشتالي عنها شيئا يذكر (بين 994 هـ و 995 هـ) ، ولعل ذلك كان بسبب المرض الذي ألزمه الفراش سنتين ، فقد ذكر في الصفحة (259) من المخطوط : (وأما ما قابلتني به عنايته ايده الله عند انغماسي في العلة المتطاولة لامد من حولين كاملين) .

ثالثا : بدأ الفشتالي منذ عام 997 هـ/1589م يدون الاحداث بشكل مذكرات يحمل بعضها تواريخ تدوينها وتتضمن ايضا عبارات يفهم منها أن الموضوع الذي هو بصدد الحديث عنه لم ترد بشأنه معلومات جديدة بعد ، ويلاحظ على هذه المذكرات :

ا ـ التدوين حسب الموضوعات غالبا : فتح السودان ، ثورة الناصر .

ب ـ الدقة والضبط في الوصف وتحديد الزمان والمكان ، كما فعل مثلا في وصفه لرحلة المنصور الثانية لفاس .

ج ـ الاكثار من استعمال هذه العبارات : (لهذا العهد) ، (وفى هذا التاريخ) ، (شرع الآن) ، ومن الامثلة :

ـ (وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على أهبة الاستعداد) . ص 90 .

ـ (وهم لهذا العهد غائبون تجاهها كتب الله سلامتهم) . ص 112

ـ (وشرع امير المومنين الآن بعد ارسال الرسول فى تجهيز العساكر) . ص 57

ـ (على امداده بالعساكر ليجلب بها على السلطان اليوم بكاغو) . ص 69

ـ (وتسايلت لهذا العهد كتائبها على هذا النمط) . ص 97 .

ـ (فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه ... واتصل العمل مهذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة) . ص 226 .

ـ (فتهالكوا لهذا العهد فى مضايقته) . ص 136 .

ـ (وفى هذا التاريخ صمد اليه اسطول بلاد نكلطيره فى مائتى مركب) . ص 36 1.

د ـ تقف مذكرات المخطوط السياسية عند حدود عام 1005 هـ /1596 م .

رابعا : والى جانب الاحداث السياسية ، هناك موضوعات هامة تتعلق بمظاهر حضارية مختلفة لعهد المنصور ويمكن تصنيفها كما يلى :

ـ جوانب ادارية مع تنظيم القوات العسكرية والبحرية .

ـ اوضاع اقتصادية تتعلق بزراعة قصب السكر ومعامله وببعض المصانع الحربية .

ـ مظاهر اجتماعية وعمرانية .

ـ الناحية الثقافية ومميزاتها فى عهد المنصور .

والذى اكدته الدراسة والبحث ، أن الفشتالى قد دون المظاهر الحضارية السالفة الذكر اثر انتهائه من تسجيل اخبار الفتوحات المغربية فى السودان ، وبالضبط غداة الانتصارات العسكرية التى احرزها محمود باشا فى السودان خلال عام 1002هـ /1594م بدليل أنه :

1 ـ عندما تحدث عن بناء المنصور لقصر البديع قال (فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته السعيدة فى عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل لهذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة) . 226 .

2 ـ عندما تحدث عن القائد المغربى منصور باشا الذى ولاه المنصور القيادة للجيش بعد تعيين محمود باشا حاكما على السودان قال (فمن الاكابر .. منصور باى ..

لما رقاه لهذا العهد من قيادة الانكشارية) . (ص 197) . ومعلوم أن محمود باشا قد حكم السودان بين (999 ه و 1002).ولا تتضمن مذكرات الفشتالي الحضارية اية اشارة الى اى حدث تاريخي وقع بعد عام 1002هـ/1594 .

هل المخطوط كل ما دونه الفشتالي ؟

ان مخطوط المناهل يتكون من مجموع عدة أسفار تتعلق بموضوعات سياسية وحضارية ، ومن بينها موضوع فتح السودان الذى اكد المقرى - وهو معاصر - بأنه يكون سفرا خاصا ، فأين بقية الاسفار ؟

1 - هناك الاشارات العديدة الى الاسفار التى دونها الفشتالى عن العهود التى سبقت حكم المنصور (حتى اذا كان زحف صالح رايس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور بوحسون .. حسبما قدمنا) . ص 59 .

2 - وهناك العزم على أنه سيستمر فى التأليف (فقد آن لنا أن نختم هذا السفر بمآثره الشريفة ... الى أن يسنى الله تعالى بفضله من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به ان شاء الله سفر آخر). ص 170 .

3 - لقد أكد المقرى فى (روضة الآس) بأن الفشتالى لم ينقطع عن التأليف والتدوين ، ففى الصفحة (162) ذكر من جملة مؤلفات الفشتالى كتاب (تقديم الامام) وقال : (عهدى به فى المحلة المنصورية عام عشرة والف قد كتب جله) أى قبيل وفاة المنصور بسنتين تقريبا .

لقد ضاع جزء هام مما كتبه الفشتالى للاحداث الخطيرة التى عرفها المغرب منذ وفاة المنصور ، وأرى أن أبا فارس يتحمل قسطا من المسؤولية فى ضياع بعض مدوناته وفى التحريف والبتر الذى اصاب البعض الآخر منها : فقد ذكر المقرى فى (روضة الآس) (وقال ايضا ابقاه الله فى غرض يضاهى ما تقدم من قصيدة لم أجد أولها فلذلك كتبت منها ما وجدت فقط ولعلى أجد أولها ان شاء الله تعالى فالحقه) . (ص 167) . وفى الصفحة (150) من المناهل دليل آخر على ما ذهبنا اليه وهو أن الفشتالى لم يكن يولى عناية كبرى بجمع كل ما دون وبحفظه (وكنت شرعت ساعتئذ فى قصيدة اساجل بها القوم فتجاذبتها مع الاشغال المنثالة حينئذ فغلبتنى عليها من بعد الجهد فى المكافحة وأنا مورد ما خلص لى منها) . وربما يلاحظ البعض أن عدم اهتمامه بتدوين جميع القصائد مثلا لا يفهم منه اهماله لتدوين الاحداث السياسية ، الا ان الدراسة تستلزم الاشارة الى ذلك ولان تدوين بعض القصائد التى قيلت فى مناسبات سياسية مثلا قد تكشف الكثير من التفاصيل التى تساعدنا على فهم بعض الاسباب والنتائج . ولهذه

الاسباب وغيرها ضاع قسم من اخبار الفشتالي عن السعديين والمنصور ، وجاءت معلومات المخطوط مضطربة وغير مرتبة :

1 — ان ما جاء في بعض المذكرات يفرض معرفتنا لبعض الاحداث التاريخية التي كانت الاشارة قد سبقت اليها في حين ان الخبر عن هذه الاحداث جاء متأخرا :

أ — في الصفحة (52) يتحدث عن (ارتجاع العساكر من كاغو الى تنبكتو) ثم في الصفحة (68) يتحدث عن وصول القوات المغربية الفاتحة الى كاغو .

ب — في الصفحة (62) يتحدث عن رجوع القوات المغربية بعد اخماد ثورة توات ، في حين ان الحديث عن هذه الثورة ورد في الصفحة (112) .

ج — في الصفحة (67) ذكر بأن المنصور قد فتح المناطق الصحراوية الشاطئية كتمهيد لفتح السودان في حين أن الحديث المفصل عن فتح هذه المناطق قد جاء في الصفحة (84) .

2 — لقد تنبه المؤرخ الزياني الى هذه الملاحظة ودون على هامش الصفحة (48) من المخطوط قوله (هذه الترجمة التي جعلها المؤلف هنا محلها يأتي عند فتح السودان وليس هذا محلها .. كتبه بلقاسم بن أحمد الزياني) .

3 — الفصل بين معلومات الموضوع الواحد : فمعلومات الصفحة (114) هي تتمة لما في الصفحة (54) ، ونفس الامر بالنسبة لمعلومات الصفحة (163) و الصفحة (58) .

وعلى سبيل المثال : لقد حاول المنصور استغلال وجود الامير السوداني داود بمراكش للضغط على أخيه اسكيا اسحق في كاغو بالسودان ، وتحدث الفشتالي في مخطوطه عن ذلك فقال : (ورأى أن له بذلك التحكم فيما يشاء عند صاحب السودان فابتدر من انتهاز الفرصة في تثمير الخراج الموظف على معدن تغازى واعتمل في اتمام ذلك بأن دس مع ولده المولى أبي فارس عثانها) (وقبض على ولد سكية الوافد على الحضرة في مغيبه بأن يكتب الى امير المومنين يرغبه على امداده بالعساكر ليجلب بها السلطان اليوم بكاغو) .

فالفقرة الاولى توجد في الصفحة (114) بينما الفقرة الثانية في الصفحة (54) .

4 — هناك احداث ووقائع حصلت في عهد المنصور واشار اليها بعض المعاصرين، وتدخل ضمن الاحداث التي تحدث عنها المخطوط دون أن نجد لها اشارة ما ، ولا يخالجنا شك في أنها قد ضاعت ، ومن ذلك مثلا :

— الاشعار الكثيرة التي نقشت على جدران البديع وهي في معظمها للفشتالي وقد اثبت المقري في روضه الآس بعضها .

ـ زيارة الفشتالي لفاس في سفارة خاصة خلال محرم 1007 هـ لدى ولي العهد كما اشار الى ذلك المقري .

ـ وصول جوذر باشا من السودان الى مراكش في قعدة عام 1007 وقد سجل المقري وصفا لذلك .

5 لقد نشر الاستاذ الفاضل عبد الله كنون ملخصا لمناهل الصفا ، وقد تصرف الملخص كثيرا والى حد بعيد في اثبات وحذف العديد من الموضوعات والمعلومات الهامة التي لا تدرك قيمتها الا بالرجوع الى المخطوط أولا والمختصر ثانيا ، الامر الذي يؤكد لنا بأن مذكرات الفشتالي قد تعرضت كثيرا للتحريف والتشويه من قبل بعض المغرضين والنساخ ويجعلنا نقف على حقيقة الرأي القائل (كم من ناسخ ما سخ) . ولعل هذا من الاسباب التي جعلت الاستاذ الفاضل عبد الله كنون يثبت في الصفحة (13) قوله : (فضلا عن أنه اذا نشر الاصل فان هـذا الملخص سوف لا يرى النور ولا يجد سبيلا الى الظهور أبدا) .

6 ـ ومن الاحداث الخطيرة التي عـرفها العهد الاخير من حكم المنصور والتي لم يتضمن المخطوط أية اشارة اليها :

ـ الطاعون الذي حل بالمغرب منذ عام 1598/1007 ودام نحو خمسة عشر عاما .

ـ موت فيليب الثاني ملك اسبانيا وعدو المنصور اللدود وتولية ابنه 1598 .

ـ اتصالات المنصور السرية مـع الانجليز للعمل سوية ضد الاسبان .

ـ تمرد المامون ضد والده والقضاء على ثورته .

ـ موت المنصور في فاس 1603/1012 وتحارب ابنائه على الحكم والنكبات التي توالت على العباد والبلاد .

وهكذا ضاع الكثير مما دونه المؤرخ الفشتالي عن احداث المغرب في عهد المنصور بوجه خاص ، فالفشتالي قد أرخ للدولة السعدية منذ تأسيسها في مطلع القرن السادس عشر وفصل احداث عصر المنصور كما كتب الكثير عن المغرب بعد المنصور حتى وفاته عام 1621/1031 أي ان تواريخه قد شملت حوادث قرن تقريبا ، الامر الذي يؤكد ما ذكره بعض المعاصرين من أن الفشتالي قد دون تاريخ السعديين بما ملأ به مجلدات ضخمة وعديدة (عهدي به أنه أكمل منه ثمانية مجلدات وهـو مقصـور عـلى السلطان المذكـور ودونه) (1) و (اخبرني أنه ذكر في فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخم فـما ظنـك بغيره)(2) ويضيف ابن القاضي : (وتاريخه المذكور في مجلدات اشتمـل عـلى تاريـخ ساداتنا الشرفاء من اولها الى الآن)(3) .

(1) المقري : نفح الطيب ، ج 4 ، ص 645 .
(2) المقري : روضة الآس ، ص 126 .
(3) ابن القاضي : درة الحجال ، ج 2 ص 378 .

أما مخطوطنا فلا يؤرخ الا لسنوات معدودة من حكم المنصور لا تزيد عن خمسة عشر عاما ، ولا يتضمن جميع تفاصيل الاحداث التى عرفتها هذه السنوات المعدودة التى أرخ لها اذ يوجد بها نقص وبتر كثيرا ما يحولان دون تتبع الوقائع مما يدل على أن المخطوط الذى بين ايدينا لا يمثل الا جزءا يسيرا من اخبار الفشتالى ويجسم لنا فى نفس الوقت الخسارة التى لحقت بمؤلفات الفشتالى التاريخية وعرضت معظمها للتلف والضياع .

النقـد التـاريخـي :

الاسلـوب : يغلب على المخطوط الطابع الادبى الى حد بعيد ، لدرجة يمكن اتخاذ الكتاب نموذجا ادبيا للنثر الفنى الراقى وللعبقرية الشعرية الواسعة الخيال ، التى اتصف بها بعض الادباء المغاربـة فى هـذا العصر ، ولا غرابة فى ذلك اذ الفشتالى كان اديبا وشاعرا قبل أن يكون مؤرخا رسميا ، وهذا الطابع الادبى تجلى فى عنوان الكتاب الذى هو على شكل قافية موزونة (مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا) . وظهر فى الاستطرادات الكثيرة التى لا تخلو منـها صفحة من الصفحات ثم فى تـعدد القطع السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ،.الشعرية التى القيت فى مختلف المناسبات وقد تضمن المخطوط نحو (27) قطعة شعـرية لعدد من الشعراء المعاصرين يصل تعداد أبياتها الى (850) بيتا تقريبا .

ولقد حاول الفشتالى أن يجعل مؤلفه التاريخى وقفا على مآثـر الخليفة المنصـور والاشادة باعماله فى الداخل والخارج ، وتناول الاحداث السياسيـة ومختلـف المظاهـر الحضارية التى تميز بها هذا العهد ، ونادرا ما كان يتعرض الى احوال العامة او يقف على نواح من انماط حياتهم اليومية .

وعن الفشتالى المـؤرخ وثقافتـه التاريخية ، يثير اهتمامنا :

1 ـ المصادر التى اعتمد عليها فى تدوين الاحداث ، وترجع فى معظمها الى :

أ ـ ما نقلـه عـن معاصريه من وجهـاء القوم ، وذلك فيما يتعلق بالحـوادث التـى حصلت فى العهود السابقة لحكم المنصور أو خلال الفترة الاولى من حكمه :

(من ذلك ما أخبرنى به الشيخ ...) ص 4 .

(ما حدثنا به سفير الخلفاء ...) ص 5.

ب ـ ما رواه عن الخليفة المنصور : (وهى ما حدثنا به ايده الله ونصره) ص 2 .

(قال امير المومنين أيده الله ولم أشعر يومئذ) . ص 3 .

ج ـ ما نقله عن المراسلات والوثائق الرسمية بحكم وظيفته :

(قرأت فى كتاب الفتـح الى امير المـومنين ان الشيخ...) ص 43 .

د ـ ما اطلع عليه وسمعه (فالذى يدل عليه خبر من لقيناه بالابواب العليـة) . ص 39 .

هـ ـ ما شـاهده ووقف عليه وعاصره من احداث (فرفعت بقراءته عقيرتى .. وقام الى جنبى قاضى الجماعة ... مفسرا لما أشكل من احكام البيعـة التى تضمنهـا الـرسـم الكريم) . ص 92 .

و ـ وهناك معلومات رجع فيها الى مصادر تاريخية كابن خلدون (وقد ألـم الامـام ابن خلدون فى كتاب العبـر بذكـر تيكـورارين) . ص 38 .

2 ـ سعة معلوماته التاريخية : فقد تعرض الى اخبار تتعلـق بالمغرب فى عـهد المنصور وأخرى بالعالم الخـارجى المعاصـر شرقا وغربا وسياتى التفصيل فى ذلـك فيما بعد .

اما طريقة التدوين : فالفشتالى جمع بين طريقتين فى التدوين :

هناك المذكرات التى دونها وفـق الترتيب الزمنى واثبـت فى نهايتـها تاريـخ التدوين ، فجاءت بشكل حوليات : (ومما يحكى فى هذا الباب ... فى صفر من عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين) . ص 190 .

وهناك المذكرات التى خصصها لموضوع خاص (ذكر ما اشتملت عليه هذه المالك المنتظمة فى سلك الايالة العليـة المنصـورية من الخصائص والمزايا والمفاخر التى لا توازى) . ص 129 .

اما قيمة المؤرخ الفشتالى كشاهد للاحداث التى رواها ومعرفة مدى عدالته وضبطه ، فنشير أول الامر الى أن ابا فارس قد ساعدته ظروفه الخاصة كجليس للمنصور وكوزير للقلم أن يطلع على الاسرار والمعلومات التى لم يكن من السهل على أى كان التعرف عليها والوصول اليها ، فهو لذلـك كان يحظـى بجميع شروط المشاهدة الصحيحة ، وقـد سعى الفشتالى الى :

أ ـ تدوين الكثير من المعلومات فى الحين (وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قـدم الاهبـة والاستعداد لذلك) (ص 90) . ويبدو أن مؤرخنا كان يهتم كثيرا بالاحداث السياسية قبل غيرها فى التدوين ، مما كان سببا فى ضياع الكثير من القصائد الشعريـة مثلا والتى قيلت فى مناسـبات سياسيـة (وزجرت له يوم خروجه على عادة الشعراء الفال الحسن بابيـات شـذ عـن حفظى بعضها) (ص 140) .

ب ـ تحديد زمان ومكان الحادث مما يعطى صورة واضحة عن مقدار ضبطـه لمـا يروى (فقال لهم امير المومنين لذلك محتجا عليهم أرأيتم لو فرضنا قيام اخى عبد الله

بنفسه فضلا عن ولده وبيعتي في اعناقكم أيسوغ لكم اتباعه .. ثم عرض اجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع شيخنا العلامة .. فحدثني بشأن القضية لعدم اتفاق حضوري ساعتئذ .. فقال شاهدت اليوم أو أمس ..) (ص 193) .

ويدخل هنا وصفه لنفسية المنصور وما كان يشعر بهأحيانا من فرح وسرور (فاهتز له سرورا من اعواده وزجر فيه الفال الحسن لرحلته) (ص 109) . أ ومن ألم واستياء (ووصل الخبر الى امير المومنين بفاس فانبعثت له حفائظه) (ص 112) .

ج - تدوينه لعدد من الوثائق المتعلقة بعهد المنصور ، وهي كما يلي :

1 - بيعة ملك برنو (ص 19 - 23) .

2 - رسالة المنصور الى الجهات والاقطار بعد فتح السودان (ص 48 - 52) .

3 - رسالة المنصور الى اسكية اسحاق (ص 55 - 57) .

4 - رسالة المنصور الى عمر بن محمود بن عمر قاضي تنبكتو (ص 74 - 77) .

5 - نص البيعة بولاية العهد للمولى محمد الشيخ بن المنصور (ص 92 - 103) .

6 - رسالة المنصور الى قائديه بالسودان جوذر باشا ومحمود باشا بعد القضاء على ثورة الناصر (ص 151 - 153) .

7 - رسالة المنصور الى اهل فاس واهل الثغور من بلاد الغرب يشكرهم على الثبات على العهد وعلى مواقفهم أيام ثورة الناصر (ص 154 - 156) .

8 - رسالة المنصور الى صاحب مكة والمدينة وارض الحجاز السلطان حسن (ص 156 - 157) .

9 - رسالة المنصور الى كبير المشايخ علم الطريقة بالديار المصرية زين العابدين البكري (ص 158 - 160) .

10 - تقييد شريف بخط يد المولى أحمد متضمنا لذكر ما قرأ من العلوم وذكر من أخذ عنه من الشيوخ وسنده عنهم (ص 219 - 221) .

11 - نص اجازة الشيخ الامام رئيس ائمة العلم بالديار المصرية أبي عبد الله محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي للمولى أحمد المنصور (ص 222 - 226) .

12 - نص اجازة الشيخ الامام قاضي القضاة المالكية بمصر بدر الدين القرافي للمنصور (ص 226 - 250) .

13 - مقدمة كتاب (المعارف في كل ما تحتاج اليه الخلائف) للمنصور (ص 258 - 259).

14 - مقدمة كتاب الادعية للمنصور (ص 259 - 260) .

15 - ظهير تولية المنصور لابراهيم الشط على رئاسة الاسطول المغربي (ص 302 - 303)

ومن جهة أخرى ، نشير الى أن الفشتالى لم يدون الكثير من مراسلات المنصور الصادرة عنه او الواردة عليه من الداخل والخارج ولعله اعتبر ذلك من اسرار الدولة ومما يستلزم السكوت عنه ، أو لان بعضها كان مكتوبا برموز خاصة أى بشيفرة يرجع الى المنصور فضل ابتداعها (اخترع اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسراره ومهمات أموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب او سقط أو ضاع أو وقع في يد عدو لأمنت غوائل الاطلاع على اسراره .. ثم نوع أيده الله هذا الخط الى انواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معمى كتبه ثم اذا جهز أحد بالعساكر الى جهة أو بعثه في غرض رسالة أو قلده جانبا من اطراف ممالكه وثغوره ناوله خطا من تلك الخطوط يفك به رسائل امير المومنين اليه ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الاخبار وخبايا الاسرار) . (ص 206) .

ورغم أن الفشتالى لم يثبت نصوص العديد من الوثائق فانه قد استفاد منها فى وصفه للاحداث والوقائع وضبط تفاصيلها كانه شاهد عيان ، والامثلة كثيرة : الفتح المغربى للسودان والمعارك الحربية التى خاضتها قوات المنصور ضد السودانيين ، تفاصيل عن ثورة الناصر ضد عمه المنصور..

وعدم اثبات الكثير من المراسلات فى مخطوطنا هذا لا يدفعنا الى القول بان الفشتالى قد اهمل ذلك ، فقد سبقت الاشارة الى أن المخطوط ليس كل ما دونه الفشتالى ، ثم ان وجود بعض الوثائق فى مصادر نقلت عن الفشتالى كالافرانى فى (النزهة) مثلا ، لا يترك مجالا للشك بأن مذكرات الفشتالى قد ضاع قسم منها وقد تجود به الايام يوما ما .

اما قيمة شهادة الفشتالى : فيزكى جانبا هاما منها أخلاقه الفاضلة التى عرف بها وشهادات المعاصرين له (فتركت ايدكم الله الصدر لمن هو منى أقعد وتحميت عقده لمن هو له أعقد أبى فارس عبد العزيز الفشتالى) (ص 54) .

على أن وصف الفشتالى بالعدالة والضبط وصدق الرواية ليس امرا جامعا مانعا ، فهو أبعد ما يكون عن ذلك عندما يصف المولى أحمد المنصور ويعدد محاسنه الخلقية والخلقية وخاصة شجاعته التى فاقت الحد والوصف اذ تصبح روايته مخالفة للمنطق ومعقولية الاحداث (ان رجاله الابطال كانوا اذا أحرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بامير المومنين ويمتدوا من ورائه حبلاً فيبدو تحت الالوية غير متوار بدو القمر من تحت الغمام) . (ص 213) .

ورغم البعض من هذه الهفوات التي اخذت على الفشتالى فانه لم يفقد ثقة معاصريه واحترامهم ووصفهم اياه بأحسن النعوت وافضلها ، ويكفينا دليلا على ذلك أن معلومات هامة عن دولة المنصور قد تناقلها الرواة والمؤرخون خلال القرون الاربعة السابقة ، (الافراني ، الزياني ، اكنسوس ، الناصري ...) وأن العثور اخيرا على هذا المخطوط قد كشف عن كثير من الحقائق التاريخية والسياسية والحضارية التى تميز بها المغرب في عهد المنصور . ومن الانصاف أن نثبت هنا ما ذكره الخليفة المنصور عن مؤرخنا الفشتالى كما اورد ذلك المقرى في نفح الطيب (ص 852) : (ان الفشتالى نفتخر به على ملوك الارض ونبارى به لسان الدين ابن الخطيب) .

مميزات المخطوط العامة :

اولا : يعتبر مخطوط (مناهل الصفا) كتاب تاريخ خاص ، من حيث كونه يتعلق بدراسة احوال المغرب ومختلف التطورات التى عرفتها دولة المنصور ، وصفة الخصوصية هذه تشمل النواحى السياسية والحضارية . ولما كان الفشتالى قد ترك أخباره بشكل مذكرات وكراريس رتبت من قبل الغير ترتيبا مشوها يحول دون الاستفادة من المعلومات التى تضمنتها ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك من قبل ــ فهل يمكن القيام بترتيب مذكرات الفشتالى ترتيبا يساعد على البحث والدراسة ويجعل الدارس يستفيد أكثر ما يمكن من اخبار الفشتالى وتواريخه عن مغرب المنصور ؟

لقد أكدت لى الدراسة أن أفضل طريقة يمكن اتباعها في هذا المجال هى ترتيب مذكرات المخطوط ترتيبا زمنيا وفق التسلسل التاريخي لان احداث التاريخ يؤثر بعضها في البعض الآخر ولا يمكن فهم حوادث اليوم الا بالتعرف على مشاكل يوم أمس ، ولا أخفى هنا مدى الصعوبات التى وجدتها عند ترتيب المعلومات ترتيبا زمنيا : فقد كان على أن أعيد المخطوط الى كراريس وأسفار كما وضعها صاحبها وكما وجدها ناسخ مخطوطنا ، وحتى في هذه الحالة لم يتيسر لى ترتيب المعلومات لأول وهلة ، لأن الناسخ سامحه الله قد تصرف أو اشتبه عليه الأمر فجمع بين كراريس وأوراق تختلف موضوعيا عن بعضها البعض ولأن المذكرات من جهة أخرى بها الكثير من البتر والنقص الامر الذى استلزم قراءة كل مذكرة على حدة وتنظيم ما جاء بها من معلومات سياسية وموضوعات حضارية .

وترتيبي لمعلومات المخطوط لم يقع معه اغفال حرف واحد مما في الأصل ، ولم يخرج عن نطاق السعى الى تصحيح الطريقة التى اتبعها جامع مذكرات الفشتالى أو ناسخها والتى لو قدر لمؤلفها أن يقوم هو نفسه بترتيبها لنهج المسلك نفسه ودون أن يكون هناك اختلاف يذكر بين الطريقتين .

والترتيب الذي انتهيت اليه كالتالي : الاحـداث السياسيـة :

1 ـ معلومات متفرقة عن الحكام السعديين الاوائل :

ـ النزاع بين الاخوين أحمد الاعرج ومحمد الشيخ (ص 40 ـ 41) .

ـ الصراع بين محمد الشيـخ وأبي حسون وحلفائه الاتراك (ص 58 ـ 60) .

ـ اخبار عن الغالب وابنه المتوكل .

2 ـ المنصور قبل توليه الخلافة :

ـ صفاته ونشأته (ص 1 ـ 6) .

ـ هجرته الى تلمسان (188 ـ 189) .

ـ حروبه بسوس (189ـ190) + (217 ـ 218) + (213 ـ 217) .

ـ معركة المخازن (212 ـ 213) + (301 ـ 302) .

ـ المغرب عند تولية المنصور (6ـ7) .

3 ـ الخليـفـة المنـصـور :

ـ في فاس غداة توليته (7 ـ 14) .

ـ في مراكش خلال السنوات الاولى لحكمه (14ـ16) + (23ـ38) .

ـ زيارته لفاس (16ـ23) .

ـ التوسع في الصحراء الشرقية (39ـ44) .

ـ التوسع في الصحـراء الجنوبية وبيعةاد نه (87ـ105) .

ـ ثورة ابن قرقوش (105ـ107) + (184) .

ـ زيارته الثانية لفاس (107ـ112) + (57) .

ـ تأديب بعض القبائل (163ـ169) + (58ـ62) + (192ـ193)

ـ عودته لمراكش 57ـ58) .

ـ استرجاع أصيلا (64ـ65) .

ـ تأديب ثوار توات (52ـ57) + (58ـ64) .

ـ فتح السودان { (65ـ68) + (114) + (113ـ114) + (54ـ57) + (69ـ87)
+ (48ـ54) + (114ـ124) + (44ـ48) + (124ـ133) .

ـ ثورة الناصر (133ـ134) + (138ـ160) .

ـ تأديب قبائل الخلط (160ـ163) .

ـ اوضاع أوربا الغربية المعاصرة (112ـ113) + (134ـ137) .

ـ عزيمة المنصور الجهادية (303) .

المظـــاهـر الحضـاريـــة :

لقد قمت بترتيبـها حسب الموضوعـات ، ولم أجد صعوبة كبرى كما حصل عند ترتيب الاحداث السياسية طالما أن المؤلف قد جعل كل مظهر من مظاهر الحياة فى عهد المنصور موضوعا مستقلا ، فاقتصر عملى على ترتيب هذه الموضوعات كالتالى :

- تمهيد (169ـ170).
- الناحية الادارية وتنظيـم القـوات العسكرية والاسطول (193ـ200) + (302ـ303ـ) + (204ـ208) .
- الناحية الاقتصادية (279ـ281) + (303ـ304) .
- الناحية الاجتماعية (170ـ212) + (281ـ303) + (264ـ279) + (218) .
- الناحية الفكرية (218ـ264) .

ثانيا : يمكن اعتبار المخطوط كتاب تاريخ عام ، للاهتمام الـذى أولاه الفشـتالى للاحداث الخارجية سواء فى الشرق الاسـلامى أو فى الغرب المسيحى ، مما يمكن اتخاذه حجة لابطال الرى الذى طالما أبداه بعض المؤرخين الاجانـب ، من أن المسلمين والعرب عامة والمغاربة خاصة قلما ابدى مؤرخوهم اهتماما كبيرا باحداث اقطارهم بله الاقطار المعاصرة لهم والتى كانت معاديـة لهم بـوجه خاص .

ويمكن تفصيل هذه العمومية كما يلى :

- أوضاع الموريسكوس بالاندلـس وهجراتهم الى المغرب .
- أحوال بـلاد السـودان والمناطـق الصحراوية فى شرق المغرب وجنوبه .
- الاتراك العثمانيون فى الشرق واحوال مصر بوجه خاص .
- احداث أوربا الغربية وتفصيل القول فى الصراع الكاثوليـكى ـ البروتستانتى أواخر القرن 16م .
- دراسة عامة لتاريخ بعض القبائل العربية بالمشرق والمغرب خلال احقاب مختلفة من التاريخ .

ثالثـا : أغنى وجود المخطوط عن الرجوع الى المراجع التى نقلت عنه : لقد نقـل عن (مناهل الصفا) مؤرخون عديدون كالافرانى فى (نزهـة الحـادى) والـزيـانى فـى (الترجمان المعرب) واكنسوس فى (الجيش العرمرم) والناصرى فى (الاستقصا) وخلال العصر الحديث وبعد ضياع مؤلفات الفشتالى أصبح الاعتماد على ما نقلته هذه الكتب عن (المناهل) من قبيل : اذا ضـاع الاصل حل الفرع محله . والآن وقد وجد الاصل فان الباحث عن السعديين وعهد المنصور ملزم بالرجوع الى المناهل الا ما كان يتعلـق

ببعض الموضوعات والاحداث والوثائق التى سبق لهذه المراجع قد نقلتها عـن الفشتالى والتى لا يتضمنها مخطوطنا هذا عملا بالقاعدة السابقة .

رابعـــا : يطلعنا المخطوط على نموذج عام للتأليف التاريخى فى المغرب عند مطلع العصور الحديثة ، وذلك من حيث :

1 ـ السعى الى جمع الاخبار بالرجوع الى الوثائق الاصلية المدونة منها والمروية ، والحرص على ذكر مصادرها جريـا عـلى قاعدة السند والمتن .

2 ـ التنوع فى طرق تدوين الاخبـار كأن يهتم المـؤرخ الى جانـب الاخبـار السياسية والحوادث العامة ، بتسجيل الانطباعات الخاصة ومختلف الوقائع اليومية ، مما يعدد الموضوعات من جهة ويجعل المـؤلف انعكاسا لواقع الحياة من جهة أخرى .

3 ـ اتباع احدى الطريقتين فى تسجيل الاخبار : حسب السنين بشكـل حوليات أو حسب الموضوعات مع السعى الى تـدوين الاحداث فى حينها وضبط تواريخ وقوعها بالسنة والشهر واليوم وهذا منتهى الدقة والضبط .

4 ـ الكتاب من انواع التأليف التاريخى التى تدخل فى عداد التراجم والسير والاسـر الحاكمة ، فهو يهتم بتاريخ الاسرة المالكة وبسيرة أحد ملوكها ، كما يدون اخبار دولته واهم مميزاتها دون أن يغفل عن التعرض لأهم رجالاتها فى ميادين السياسة والحرب والعلوم .

5 ـ سعة المعلومات التاريخية التى لا تقف عند حدود الاخبار الداخلية وانما تهتم أيضا بالاحداث الخارجية المعاصرة ومختلف التطورات التى عرفتها بلدان الشرق والغرب.

6 ـ محاولة تعليل بعض الاحداث التاريخية بالوقوف عـلى اسبابـها وأهـم نتـائجهـا ومضاعفاتها أى عدم الاقتصار على السرد وحشو المعلومات كما درج على ذلك العديد من المؤرخين السابقين .

7 ـ توجيه عناية كبرى للمظاهـر الحضارية المختلفة التى تكون جميعها مع دراســـة الاحداث السياسية صورة متكاملة عن واقع الحياة خلال الفترة المؤرخ لها وهذا تطور هام فى التأليف التاريخى فى المغرب عند مطلع العصور الحديثة .

خامسا : يبرز المخطوط صورة عامة لثقافة العصر فى أواخر القرن السادس عشر فى المغرب بعلومها الاسلامية ولغتها بما فى ذلك قواعد القراءة والكتابة المتبعة يومئذ مع ملاحظة الكثير من الالفاظ والمصطلحات الاجنبية التى دخلت اللغة العربية فى المغرب شرقية كانت أو غربية وذلك لوجود عدد من الجاليات الاجنبية فى المغـرب وللتعامـل اليومى معها والاتصال المستمر بها أى أن دراسة المخطوط تطلعنا على مرحلة هامـة مـن مراحل تاريخ الادب واللغة العربية فى المغرب عند مطلع العصور الحديثة ، وهذا جانب

هام يحرص المؤرخ المعاصر على الوقوف عليه كما يسعى الى التعرف على الاحداث السياسية ومختلف المظاهر الحضارية .

المآخذ على المخطوط :

كان بودنا أن نقف طويلا عند هذا الموضوع لولا أن المخطوط الذى بين ايدينا قد ثبت بأنه ليس كل ما دونه الفشتالى بل ضاعت اقسام هامة منه نجهل نسبتها لمجموع الكتاب ونجهل الموضوعات التى تضمنتها واهم ما جاء بها .

وكيفما كان الامر فان المآخذ التى تلفت النظر فى هذا المخطوط والتى تتعلق خاصة بما كتبه عن عهد المنصور هى :

1 ـ لم يدون جميع معلوماته فى حينها ، فقد اثبتت الدراسة أنه لم يبدأ فى التأليف الا منذ عام 1589/997 أى بعد مرور أحد عشر عاما من تولية المنصور .

2 ـ لم يدون كل شىء عن عهد المنصور فقد اعترف الفشتالى بأنه لم يول العناية الكبرى للقصائد الشعرية مثلا التى قيلت فى مختلف المناسبات والتى كان من الممكن أن تلقى بعض الاضواء على هذا العهد .

3 ـ غلبة الاسلوب الادبى ، بل انه قد أغرق كثيرا فى التعابير الادبية والاستطرادات ومختلف ضروب التعبير الادبى .

4 ـ عدم الاهتمام بالطبقات الشعبية والدنيا من المجتمع المغربى .

5 ـ لم يثبت الكثير من الوثائق والمواسلات الواردة الى المنصور أو الصادرة عنه .

6 ـ غلوه فى تعظيم المنصور وتحيزه المطلق لدولته ، وسعيه أحيانا الى تبرير بعض تصرفات المنصور مثل تسليم جثة دون سباستيان دون عوض وعدم تحرير المنصور لقواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء المغربية قبل التوجه الى فتح السودان ومحاولة تبرير سلوك قوات المنصور الغازية فى السودان .

7 ـ يبدو أن الفشتالى قد أولى عناية كبرى للمولى احمد المنصور ولوالده المولى محمد الشيخ كما تدل على ذلك دراسة وثيقة عقد بيعة المامون ، وكأنه جعل عهد محمد الشيخ مرحلة البناء والتأسيس للدولة السعدية ، وعهد ابنه المنصور هو فترة الازدهار والعظمة .

وخلاصة القول ان من أهم النتائج التى أدت اليها دراسة مخطوط (مناهل الصفا) للمؤرخ الفشتالى :

الوقوف على ما لحق بعض مصادر التاريخ المغربى على قلتها من عوامل التلف والضياع والبتر والتحريف ، الامر الذى يستلزم الاهتمام الكبير بجمع مصادر التاريخ من وثائق ومخطوطات كيفما كانت وانى وجدت فى الداخل والخارج للوقوف عليها

ولحفظها وتبويبها وتصنيفها ، ويستوجب اهتمام المسؤولين وتضافر جهود الاختصاصيين لدراسة هذه المصادر والاستفادة منها وذلك لكشف النقاب عن حقائق التاريخ المغربي خلال عصور التاريخ وسعيا الى كتابة تاريخنا بأسلوب علمي وفق طرق البحث ومناهج الدراسة العلمية الحديثة .

والامل كبير في وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة لتحقيق غايات ثلاث :

اولا : السعي الى جمع المخطوطات والوثائق التاريخية ، واقامة معرض جلالة الملك الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق محاولة هامة لجمع مصادر التاريخ الموجودة بالمغرب والتعرف عليها ، ونرجو أن تتلوها خطوات أخرى وخاصة فيما يتعلق بالبحث عن المصادر التاريخية المغربية الموجودة في الخارج ، وعلى سبيل المثال في خزانة الايسكوريال ودار الوثائق بسيمانكاس باسبانيا وفي صطامبول بتركيا .

ثانيا : تكوين لجان من الاختصاصيين لدراسة مصادر التاريخ المغربي وتصنيفها وتبويبها واجعلها في متناول الباحثين والدارسين .

ثالثا : القيام بطبع مصادر التاريخ المغربي ونشرها .

الرباط في 1972/12/29

الدكتور عبد الكريم كريم

ص 1 بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما .

ذكر خلافة أمير المؤمنين المنصور بالله المولى أبي العباس المجاهد أحمد (1) بن الامام مهدي الأمة أبي عبد الله محمد بن الشيخ الخليفة الامام القائم بأمر الله رضي الله عنهم.

وأمير المؤمنين هذا أعلى الله كعبه ، وأناخ في صدور المسلمين رعبه ، هو اليوم امام الجماعة وانسان حدقة الاسلام وقبة تاج الخلافة النبوية ومقتعد كرسيها المنصوب على قواعد العدل وسريرها المرفوع على دعائم الحق وركن الامامة المستلم عند أهل الارض والخليفة المخصوص بثرات الرسالة ومالك امرة المؤمنين بحكم الولاء والكفالة سنام هذه الدولة الحسنية وذروة عزها وأوج فلكها ووسطى عقدها كان أيده الله جوادا كريما سخيا دمث الاخلاق ظاهر الحياء والحشمة بعيد الهمة ناهض الجد سعيد الطلقة ميمون النقيبة مطعم النصر محمي الحوزة مرهوب السيف معطى القبول في الارض مؤثرا للعدل حسن السيرة جيد الطريقة ناهج المسعى موفق الرأي عفيف الازار نزيه الخلوة مطواعا للحق نافذ العزيمة قوي الشكيمة شديد الوطاة على الاعداء مرضخا في البر للاولياء محبا للعلماء خدن العاقبة مخدوم الاقدار جماعة للمال مستكثرا من ذخائر الملك مولعا باقتناء نفيسها طامح العين الى كل مرمى بعيد موهوب الكمال واسع الخطة رحب المجال يقظ الجفن ساهر العين نهوضا باعباء الخلافة مباشرا الامور سلطانه مخدوم المقام عزيز الجوار راعي الذمام منتاب الجناب غاص الفناء بارسال ملوك الدنيا ووفود الارض وما عسى أن يطنب اللسان أو تفي العبارة أو يسنح القول في وصف من خرق الله له سياج العادة وأقر الوجود بفضله وعقم الزمان عن ولادة مثله اجماعا لا تحليه وقولا بالحق وبعدا عن الاهواء ونشر اللواء النصفة ولولا الاختصار الذي اشترطنا لأوردنا من شريف خلاله ما يضيق عنه الرحب ولا يسعه الكتب ، حفظ الله على الاسلام

ص 2 ظله الوارف وخلع على * الدنيا نور كماله ورواء جماله أبهى الحلي والمطارف بعزته وقدرته بويع له ايده الله عشي الاثنين الآخر من جمادى الاولى بمشهد الفتح(2) الذي حضرته ملائكة الرحمن وجليت فيه حور الجنان وشهدته جنود الارض والسماء فكان ذلك

---

(1) هو المولى أحمد بن محمد الشيخ بن محمد بن عبد الرحمن الملقب بالقائم بأمر الله، وأمه مسعودة بنت الشيخ أحمد بن عبد الله الوزكيتي ، ولد عام 956 هـ / 1549 م أي في السنة التي دخل فيها المولى محمد الشيخ مدينة فاس فاتحا بعد القضاء على الوطاسيين الحاكمين بها .

(2) جرت معركة وادي المخازن يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م ، وتعرف هذه المعركة أيضا بمعركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة . وعلى اثرها بويع المولى أحمد خلفا لاخيه المعتصم واتخذ لقب الخليفة المنصور تخليدا لهذا الانتصار العظيم .

القران السعيد من دلائل القدرة وعلامات السعادة وشواهد الاقبال الدالة على عناية الله بانتظام آخر هذا الأمر العزيز بأوله وكانت ولايته ايده الله على رأس الثلاثين سنة من ولادته فكان ذلك تعبير رؤياه المباركة الشهيرة وهى ما حدثنا به أيده الله ونصره مرارا أنه لما ترامت به همته العلية الى منصب الخلافة الذى أهلته له خلاله الشريفة وصفاته فى الفضل والكمال النفسية وتاق الى اقتعاد كرسيها وتسنم سريرها وشغل باله الكريم الاهتمام والتفكير فيما طوى له من ذلك فى جب الغيب رأى ذات ليلة فى عالم النوم النبى صلى الله عليه وسلم وهو على شرف عال شبه الربوة والى جنبه شخصان تشهد لهما منزلة الدنو منه صلى الله عليه وسلم بانهما من كبار الصحابة رضى الله عنهم غير أنه لا يسميهما قال فعن لى عندما بصرت به صلى الله عليه وسلم أن أسأله عن ثلاث مسائل اهمنى أمرها احداها نصيبى من هذه الخلافة ومصير أمرها الي قال فصمدت تجاهه صلى الله عليه وسلم بهذه النية الى أن شارفت الوصول اليه صلى الله عليه وسلم والدنو منه فأدركته وهو قائم وواقف وأرى قيامه عليه السلام قد كان لي من أجلي ترحيبا بقدومي واقبالا علي وعندما استقبلت وجهه الكريم لاداء التحية فاضت علي أنوار النبوة واعشت بصرى اشعتها وبهرتنى هيبته فارتج علي ووقفت أمامه مطرقا وبصرى الى الارض خاشعا مهابة له صلى الله عليه وسلم وتأدبا لعظيم جلاله ولم أملك من نفسى نطقا بكلمة ولا نبسا ببنت شفة قال ثم كاشفنى صلى الله عليه وسلم فيما عن لي السؤال عنه فأجابنى عن الخلافة بما حقق لي منالها ومصير أمرها الي ثم اشار لى عندما أفهمنى ذلك وكشف لى الغطاء عنه بأصابعه صلى الله عليه وسلم الثلاثة وقد ضم الابهام منها الى السبابة والوسطى قال أمير المؤمنين ثم استيقظت وأنا بما وعيت من كلامه صلى الله عليه وسلم وارتسم من خيال صورته الحسنة فى ذهنى أشد يقينا أن لو شاهدته صلى الله عليه وسلم بحال اليقظة أو رأيته رؤية بصرية قال فلم أرتب من
ص 3 يومئذ فى منال الخلافة ببشارة النبى صلى الله عليه وسلم وخبر الصادق المصدوق ★ الذى لا ينطق عن الهوى فطويت على ذلك السر من يومئذ كشحى وزررت عليه أزرار ضميرى ولم يتعد العلم به صدرى الى أحد الى أن كان من زحف طاغية برتقال(1) فى

---

(1) دون سباستيان Don Sabastian بن الملك جان الثالث ، تولى عرش لشبونة سنة 1562 م وقد كان يراود خياله أمل استعادة الامجاد البرتغالية فى المغرب بعد الهزائم التى منى بها البرتغال منذ قيام السعديين وأول محاولة قام بها لغزو المغرب كانت سنة 1574 اذ ارسل ابن عمه دون انطونيو Don Antonio حاكما على طنجة ثم لحق به على رأس قوات عسكرية يوم 17 غشت لمفاجأة المناطق الشمالية المغربية الا أن القوات المغربية كانت له بالمرصاد (دى كاسترى : De Castries فرنسا ج 1 • ص 339) •
وقد ظل ملك البرتغال يعمل فى الخفاء ويتحين الفرص الى ان حصل الخلاف بين المتوكل وعمه المعتصم ، فاتى مسرعا لتلبية طلب النجدة الذى تقدم به المولى محمد المتوكل •

جموع الشرك لوادى المخازن وارجاف الناس بمرض أخي المعتصم(1) ما بلغ من اجله الحزام الطبيبين فارتبك الامر وأرعدت سماء الهول وابرقت بتداعى زحوف العدوتين واحزاب الملتين الى اللقاء للغد واضطربت أحوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين منهم وراء قائد القواد كان عند المنصور حينئذ أبو عبد الله محمد بن سليمان من تلك الاهوال ما هاله قال امير المؤمنين المنصور أيده الله ولم أشعر يومئذ حتى استأذن علي الدخول علي بالفسطاط مذعورا فوصف لي من اضطراب أحوال الناس لهول اليوم وانحلال عزائم المسلمين ما شاهده وأذهله قال فضحكت من حال فزعه واشتباه المسالك عليه حتى بدت نواجذى ثم قلت له هلم أبشرك ببشارة تعفى على قنطك وتبعث من نشاطك فقصصت عليه رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وبشارته لي بمصير الخلافة الى حتى انتهيت الى عقد اصابعه الثلاثة صلى الله عليه وسلم فتاولتها له ساعتئذ بانها كناية عن الثلاثين سنة مبلغ السعن حين الولاية وأخبرته أن بتلك السنة استكملت العدد فسر حينئذ بتلك البشارة وسرى عنه من حينه وخرج مستبشرا وقد راجعته حياته وزايله قنطه فكان من مصداق تلك الرؤيا الكريمة للقرب بما صنع الله فيه على يد امير المؤمنين من الفتح العظيم الطائر الصيت في جميع المعمور ومصير الخلافة اليه بذلك المشهد الكريم الذى حضرته ملائكة الرحمان وجنود الارض والسماء ما شمل الناس يمنه وبركته وسعدوا بطائره الى يومنا هذا ولله المنه وكان هذا الخليفة المنصور ايده الله منذ نشأ في حجر الامامة المهدية ونيطت به تمائم المجدوزر على جيده طوق العلا تلوح عليه مخايل السعادة وتسمه احواله الطاهرة بقدر الفضل الواضحة وحجوله وتزاول منه العيون في سن الشبيبة هلال الكمال ودرى الاريكة وشعلة ذكاء وفرع نباهة ولبنة التمام وأنموذج الفضل وجوهر السؤدد الفرد وسر النصبة وحكمة البيت والاشارات الكريمة الامامية المهدية تحوم أيضا عليه دائما بما له في الغيب من السر المكنون بشهادة الاثر المخزون وتنيط به آمال الخلق وتصرف لجاهه وجوه الغبطة والرجاء بما ينبىء أن الوارثة له حتى صار بذلك عند الامام رضى الله عنه وبما لاح عليه من المخايل وتفرس فيه من الشواهد انسان عينه وعين انسانه وملهج لسانه وقسيم روحه وزين مجلسه وداعية بسطه ومورد حبه
ومصرف دعائه والمعتمد برضاه ★ من بنيه والمخصوص منهم لديه بالمكان الإخص من خلده ص 4
وقد حدث عنه رضي الله عنه في شأنه الثقات من كبار الدولة باشياء تدل على علو الشأن وامتداد السلطان من ذلك ما اخبرني به الشيخ المعمر القائد أبو محمد مومن بن غازى

(1)- يؤكد المؤرخ المغربى المعاصر احمد بن القاضى بان الاتراك هم الذين دبروا مؤامرة تسميم المعتصم : (أن قائد الاتراك الذين كان معه - اى مع المعتصم - بعث لبعض قواده أن يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جوازهم عليهم قصد بذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم فيها) • درة السلوك • مخطوط بدار الوثائق بالرباط • رقم د 1428 •

العمرى المعقلى وكان ممن ربى فى جو الدولة المهدية أن امير المؤمنين المنصور أيده الله أقبل يوما فى شبيبته طفلا يافعا على أبيـه الامام والمجلس غاص بالخاصة والاكابر من أرباب الدولة فاندفع يخترق السماطين قال وكنت أحد من حضر ذلك النادى الكريم فلم أشعر أن صاح بى الامـام رضى الله عنه وأنا أصغر القوم يا مومن ارفعه فسينفعـك وينفع عقبك فابتدرت حمله وتخطى الاعناق به حتى اجلسته الى جنب الامام على سريره قلت ان الرجل اليوم لحى يرزق وقد أمهلته الايام وساله الحمام وقطع به نحيب العمـر من عشرة السبعين عقبه كؤد حتى أشرف من دولة أمير المؤمنين المنصور هذا وأيامه الهنية على جناب مريح وحمى منيع ورياض أريضة ودنيا عريضة وانـه اليـوم لبحـال المشاهدة راتع هو وعقبه بنين وحفـدة فى جميمها وغريق فى بحر نعيمها جانيا ثمرات ذلك الخبر وواقف منه على العين من بعد الاثر وحدثنى الرجل ايضا من هذا النمط أن الامام رضى الله عنه لمـا أدرك بنوه الامراء الاصاغر واهتبل بأخذ البيعـة عليهم لـولى عهده المولى عبد الله(1) بما كانـوا صغارا حين العقد لـه بفـاس خرج فى جنود المغرب من الحضرة لمخيمه بتامسنا(2) وأهاب بولى العهد من فاس دار الامارة وعندمـا اقترب ركابه اقتضى التنويه بشأنه استركاب الاجناد للقائه على رسم الخلفاء فى ذلك فنادى الامام رضى الله عنه بالمولى المنصور امير المؤمنين من بين ولـده وكان اصغرهم وجميع أرباب الدولة وعلية الاكابر والخاصة فقال لـهم قوموا وأركبوا مع سلطانكم يعنى المنصور الى لقاء أخيه فكانت تلك المقالة الكريمة من احدى البشائر التى استبصر الناس بها فى شأن المنصور أمير المؤمنين ايده الله واستوضحوا منها سر الله فيه ثم قال لى هو وغيره ان من أقوى العزائم الباعثة حينئذ على عقـد الجمع الذى كان آخر ملتقى الامام رضى الله عنه فى دار الدنيا بولى عهده ايصاء بأخيه المنصور والاخذ عليه بعهود الوفاء فى كل ما تضمنته وصايته الكريمة الشهيرة وممن حدثنى أيضا بشأن هذه الوصاة الكريمة القائـد الشهير الكبير أبو محمد عبد النبى ابن أحمد أحد أوتاد الدولة وبيوت الاحلاف الكبار قال سعى يوما بى الى الخليفة الغالب بالله أبى محمد عبد الله خاله صنو أمه الشيخ أبو يعقـوب
ص 5 يوسف بن محمد الملولى * بما أمل به اهتمام ركنى لديه لانطواء كشح ابى يعقوب على الكره فى ورسوخ إلعداوة القديمة لى فى صـدره لسوابق الحلف الكائن بين قومه بنى ملول وأخواننا الاضداد كانوا لنا من الاحلاف واولادعبد الكريم قال فنبا سمع الخليفة عن الاصغاء

(1) المولى عبد الله الغالب بالله رابع ملوك الدولة السعدية تولى بعد اغتيال والده المولى محمد الشيخ من قبل الاتراك يوم لاربعاء 27 ذى الحجة عام 964 الموافق 23 أكتوبر 1557 • وقد تميز عهـده بالتقارب القوى الذى حصل بين المغرب ودول غربى أوربا وذلك لمقاومة الخطر العثمانى وصداى هجوم تركى ضد المغرب •

(2) تامسنا : المنطقة السهلية الواسعة الممتدة بين وادى أبى رقراق شمالا ونهر أم الربيع جنوبا •

الى تلك السعاية بى وأبطل كيد خاله فى ذلك بأن قال له ان الامام رضى الله عنه لـم
يوصنى حين العهد الى بشىء من أمور الدنيا والدين كوصاته الى باخي المنصور وبخالصتنا
القائد أبي محمد عبد النبي هذا واخبار الامام رضى الله عنه الواردة فى شأن امير المؤمنين
المنصور وفراساته فيه الصادقـة لا تحيط بجمعها هذه القلادة من ذلك ما يحـكي ايضا
عنه رضى الله عنه مستفيضا انـه كثيرا مـا كان يقول ويشير الى امير المؤمنين المنصور
هذا شيخ الشرفاء يعنى أهل بيتهم الكريم تكرر منه ذلك مرات عديدة فى مجالس شتى
وذكر القائد أبو محمد مومن بن غازى المتقدم الذكر أن امير المؤمنين المنصور كان قد أقبل
يوما الى أبيه الامام فى مجلسه الكريم حال الشبيبة فهش اليه على العادة ورحب وفدى
وضمه اليه وجعل يمسح على رأسه وهو يقول ما اكثر ما ضم هذا الرأس من الرأى وجمع
من التدبير وأخذ يكرره حتى وعاه الحاضرون وأقول ليته اليوم رضى الله عنه نشر ونفخ
فى شخصه الكريم روحه حتى يشاهد صدق فراسته الربانية ويرى من ثقافـة الرأى
واحكام التدبير واستبحار الدهاء ما تقربه عينه ويعلم منه أن للامة مـن خلفـه الكريم
خليفة كاملا كافـلا واماما روينا مـن طرق شتى فى شأنه ايده الله عـن كبار
الاولياء ومشيخة الدين وأهل المكاشفة فاعلاه سندا واثبته فى مركز الصحة قدما ما حدثنا
به سفير الخلفاء الشيخ الفقيه العالم الولى الحاج أبو عبد الله محمد بن الولى الصالح
أبي عبد الله محمد بن الشيخ البركة الصالح القـدوة العالـم أبى الحسن على بن محمـد
الدرعى الدار الجزولى النجار أنـه لـقى فى حجته الاولى بالديار المصرية بعـض أهل
المكاشفة من أولياء الله تعالى والعلماء العاملين قال فسألنى لما ضمنى معـه مجلس الخـلوة
بمنزله عن ابناء الامام رضى الله عنه وبحث عن أسمائهم فجعلت أذكرهم واحدا فواحدا
حتى أتيت عليهم عدا وهو يستزيدنى ذكـر من بقى ولم يكن لى من علم بكون المنصور أمير
المؤمنين هذا حينئذ عند الامام لصغره وازدياده فى مغيبى عن دار الخلافة فقلت له لم أحط
علما بغير من سميت فقال اليس فيهم أحمد فقلت كلا وقوفا مع علمى فقال أى فهو خليفة
ص 189 الاسلام العظيم الشأن القوى السلطان المفتوح له وعلى يـده * بتمهيد الاقـطار وافتتـاح
الامصار والاوطان(1) قال أبو عبد الله ولـما قفل بنا الركاب الى المغرب ووقفت بنا مطايا
الترحال على الوطن تنكبت عن المنزل بدرعة وجعلت وجهى الى حضرة الخليفة بدار الخلافة
مراكش فالفيته غائبا فى بعض حركاته الى السوس فأزجيت المطية تجاهه حتى أتمت على
مقامه العالى برباط ماسه(2) . فرحب رضى الله عنه وبر وعظم وأكـرم قال وعند مـا

(1) يدخل هذا فى اطار فكرة المهدوية التى عادت الى الظهور زمـن المنصور ، ومن ذلك ما ذكره الافرانى (ان دخول رايات السلطان ابى العبـاس فى حيـاتـه للسـودان واستيلائه على سلطانها .. كل ذلك من امارات قرب خروج الامام الفاطمى (المهدى) (نزهة الحادى : ص ١٤٤) . فهل كان المنصور يمنى نفسـه بأن يكون هذا الامام المهدي المنتظر ؟

(2) ماسة : من مدن القطر السوسى الساحلية .

جاذبني اطراف الحديث والمسايلة عن أحوال المشرق(1) كـان أول شيء قصصت عليـه وفضضت عنه خـتام المقـال حديث الرجـل الصالح وما اشار اليه في شـأن المنصور أمير المؤمنين قال فسر الامام رضى الله عنه بتلك المقالة سرورا هزه من أجله الارتياح على وقاره وفي الحين قال أهاب من فسطاطه الكريم بالخليفة المنصور بما كان لا يفارقه في حركاته وسكناته لفرط حبـه والقـاء محبته عليه فأوتى به اليه قـال وهـو صبي صغير فقال رضى الله عنه هـذا هو ذاكم ولدي أحمد واياه يعـني الـرجل الصالـح ففديت وهنأت ودعوت قال أبـو عبد الله ولم أكن أرتاب من يومئذ بعد علمي بالمنصور وبما وعيت من مقالة ذلك الصالح وخبرت من حاله ومقامه في الولاية أن المنصور لا محالة بالغ امره قال ولجزمي بذلك والقطـع بـه تجشمت بنه يوما الى أخيـه الخليفة الغالب بالله ولم يظهر منه انكار لذلك ثم أسررت أيضا بذلك الى المنصور لعهد أخيه الغالب بالله هذا أبشره بمصير الامـر اليه قال فاصغى الى حتى اسـتوعبت مقالتي وحصل على كل ما لدى من ذلك وانتقل بي لبعد غوره وعظيم دهائه الى غير ما أفضنا فيه من ذلك الحديث وأضرب عن ذلك صفحا ولم يجبني عنه بنفي ولا اثبات مكـرا ودهـاء ومـا زال الحزى والمنجمون وأهل الاثارة بكل قطر وفي كل أرض الى اليوم يحومون عليه بظنونهم ويجرون في شأنه بما دل انتظام أول الامر فيه على تمام آخره بمن (2) .

وقد شهد له بالتوكل وجميل الاخلاص وصلاح النية وطيب السريرة والطوية فيما وصفنا من أحواله أيده الله ما صحبه من النجح والاستقامة في جميع أحواله فلا يلقى في أموره عسرا ولا يعرف صعبا ولا يعـتاد شدة ولا يفتقد من الله لطفا وهو الآن أيده الله على أحسن مما وصفنا وأما صبره أيده الله عند الشدائد واحتماله العظائم وتجلده عند جلول الخطب ونزول المقدور فحدث عن الجبل سكونا ورسوخ قدم وعـن الضيغم ثبوت جأش وعن الماء المطرد عـلى الحصى الرضراض حسن خلـق وبسط نفس وكرم شيمة يزداد ذلك عند ازدياد الامـر الجلل ويعظم بحسب العظائم ولنورد نبـذا ممـا

(1) دخل المولى محمد الشيخ في صراع حاد ومسلح ضد الاتراك وذلك منذ أن اصبحت للسعديين حدود مجاورة للاتراك في الجزائـر سنة 1549 م ، ويرجع سبب ذلك الى رفض الشيخ الاعتراف بالسلطان العثماني سليمان القانوني ، والى قيامه بمهاجمة الاتراك في وجدة خلال ابريـل 1549 وفي تلمـسان في يونيو 1550 . وقد كان رد الفعل التركي قويا اذ تمكن القائد حسن كورسو من اخراج السعديين من تلمسان ووجدة ، كـما استطاعت القوات التركية أن تدخل مدينة فاس في مطلع سنة 1554 وأن تعلن بيعة الامير الوطاسي (ابو حسون) بها . ورغم أن المـولى محمد الشيخ قد استعاد مدينة فاس وأرجع القوات التركية الى الجزائر خلال أواخر سنة 1554 م فان الجو لم يصف بـين السعـديين والعثمانيين ، واتقاء لاى تدخل عسكري تركي في المغرب ، أخذ الشيخ يتقرب من دول أوربا الغربية ويتعاون بصفة خاصة مع الاسبان والبرتغال خصوم الاتراك العثمانيين ، وقد كان ذلك من أهم العوامل التي دفعت السلطان العثماني الى تدبير مؤامرة اغتيال الشيخ وهو يهم بعقد حلف عسكري مع الاسبان والبرتغال ضد الاتـراك في شمال الفريقية . وقد اغتيل الشيخ يـوم الاربعـاء 27 ذي الحجـة 964 الموافق 23 أكتوبر 1557 .

(2) يقتضي سيـاق الحديث عـن المنصور والتعرض الى أوضاعه قبل توليه الخلافة الانتقال الى صفحة 188 .

شاهدناه من ذلك أو حدثنا بـه أيده الله وأعلى كعبه من ذلك ما لقيه من العنت والشدة منصرفه من سجلماسـة الى تلمسان عنـد صيرورة الخلافة الى المتوكل (1) حسبمـا قدمنا اخبرنا أيده الله في مجالـس شتى وأصحابه أهل الهجرة حضور غائب انه لما نزع من سجلماسة الى تلمسان وركب اليها القفر والفلاة وافتقد العمران ونفـد الزاد وأعوز الاقتيات وتفاقم الامـر حتى ضن كـل مـن الحاشية والخدام بما احتكره من القوت ليسد به رمقه فلا نجد أحدا يرحم أحدا فكان أيده الله اذا نزل على ماء لصلاة أو ابتغاء راحـة واراقة نفس من دؤب السير وحيث الاعداء عمد أصحابه الى خبئاتهم فاقبل كل على مـا عنده فيأكلون مثنى وفـرادى ومولانـا أمير المؤمنين مجردا منهم منتبذا عنهم وحده ولا يلوى أحد مهم عليه بغرض لنزول القحط بهم من اشتداد المسغبة وربما لعن بعضهم بعضا وتناشدوا بمحابـاة اميـر المـؤمنين ببعـض ما لديهم فمنهم من يجود بما لا بال له ومنهم من يبخل فاذا أكلوا اجتمعوا اليه ليركبوا فلا يزيد هو على جرعة ماء يشربها فيركب فيهم ويقبل عليهم بوجه طلق لا يبدو عليه أثر انقباض ولا مخايل الموجدة والانحراف ولا افتقدوا قط ما الفوه من كرم الخلـق وبسط النفس صبرا منه ايده الله واحتمالا للشدائد ولقد افضى بهم الهلع وءال به هو أيده الله الاحتمال الى أن تصيدت له يوما في وجهته تلك أرنب وجيء بها اليه فنـزل على ماء وأمر بها لتشوى بين يديه فأحدق بها أصحابه احداق العين الجائعة وتهافتوا عليها تهافت الفراش من فرط الجوع والمسغبة فكانت هيبة اميـر المـؤمنين تمنعـهم مـن اصطلامها ثم استدبـرهم أيـده الله وجعـل يتوضأ فاغتنموا لذلك فلم يلتفت حتى الفاهم قد اختطفوها من قبل ان تنضج ولم يبق منها غير نتفه في يد الحرس الـذى تـولى شواءها فابتلعها وأمير المؤمنين ينظـر فلـم يزد أيده الله على أن استضحكوا عليه فقـد كان ايده الله اشدهم قوة وأكثـر نشاطـا وأعظم صبرا وتجلدا على مواصلـة السرى بالتاويب وطى الشقة واحتمال المشقة معه قدس الله وتاييدا أعجز أصحاب الاكلة فكانوا يقتضون العجب العجاب ويتحدثون بذلك الى هلـم .

وأعجب من هذا صبرا وأفظع خطبا وأعظم شدة مصابرتـه الاهـوال التى تلقـاها بالسوس في خلافة أخيه المعتصم (2) والشدائد الـتى كابدهـا هنالـك في سنيـن كسنين

(1) هو محمد المتوكل بن الغالب بالله ، تولى بعد وفاة والده عام 1574 وحكم الى عام 1576 حيث انهزم امام عمه المعتصم ، والتجأ الى بلاد سوس ومنها الى طنجة احدى قواعد الاحتلال البرتغالي بشمال المغرب طلبا لنجدة البرتغال ومساعدتهم .

(2) دامت خلافة المعتصم سنتين تقريبا (1576 ، 1578) ، وقد كلف المعتصم أخاه المولى أحمد بملاحقة محمد المتوكل ومحاربته ببلاد سوس التى التجأ اليها ، وفى الجنوب المغربى جرت عدة معارك حربية بين المتوكل وعمه المولى أحمد أهمها : معركة تيزنزت ، ومعركة أساطس التى يفصل المؤرخ الفشتالى الحديث عنهما .

يوسف فاجتمع عليه أيده الله من حروب العدو وانحراف الرعايا وفساد الضمائر ونفاذ المال واقواء المخازن من الحبوب واعراض أخيه الخليفة عنه بمدد يجهزه أو مال ينفذه ما لا يقدر على النهوض باعبائه والثبات الا عظيم مثله فقاوم أيده الله تلك الشدائد الهائلة بعظيم صبره وقوة جلده وكريم احتماله حتى تقشعت غياهبها وانجاب ليلها وكان أصحابه اذا نزل بهم القنط خلال ذلك عند اعياء الحيلة وفراغ التدبير فزعوا الى بابه
ص 190 ءايسين ومستفزين فاذا رأوه ★ رأوا جبلا راسيا وبحرا لا تكدره الدلاء فيطامنوا أنفسهم ويراجعوا صبرهم وتبعث قواهم ويتحايون بجميل صبره حتى عصم الله به من ذلك الطوفان وأرسى به عمود الاسلام من عواصف تلك الزلازل وجعل الله من بعد العسر يسرا ببركته وجميل صبره نفعه الله بذلك ولقد بلغت به الشدة ايام القابلة مع المتوكل فى الحركة الشهيرة بتينزرت التى استجر فيها ابن ويسعدن ظهير المتوكل الشوك والمدر من قبائل السوس وذؤبان البربر حسبما قدمنا الى أن هجر أيده الله مرقده مدة من خمسة عشر يوما انقطع فيها بقسطاط جلوسه عن مضربه وحرمه ولم يكتحل فى تلك الليالى جفنه بالكرى الا لماما وسنة طالت القابلة بانقباض العدو عن الانحدار للسهل حتى اشتدت المسغبة فى معسكر امير المؤمنين لانقباض الرعايا عنه وانحرافها الى المتوكل الباعليه باغراء غويهم ابن ويسعدن فبلغ به الصبر أيده الله عند تفاقم الامر وتناهى اشده يومئذ الى أن عمد لما فى خزانته الكريمة من الدقيق فقسمه على أهل العسكر كافة ولم يضرب لنفسه الا بما نابه فى سهمه من بينهم وهو قومة تلك الليلة لا غيره وللغد أرسل الله الفرج من بعد الشدة فاتيح له الظفر والظهور على العدو وعلى نحو ما وصفنا فى محله فكان شأنه أيده الله فى الصبر والاحتساب ءاية عجبا نفعه الله واجزل مثوبته .

ومنها(1) ما كان من ايقاعه أيده الله بالمتوكل وظهيره ابن ويسعدن فى جموعهم المذكرة بالحشد يوم تينزرت الكائنة قبل وقيعة اساطس وهو أقل ما كان أيده الله يومئذ عددا والعدو ابسط ما كان قوة وأوفر جمعا فقد كان اقصى ما تبلغ اليه عساكر مولانا أمير المؤمنين ذلك اليوم الفا وثلاثمائة ما بين عساكر النار والاسل وجموع العدو تناهز ستين الفا ما بين المدونة والخوارج وتهيأت الملحمة فى بسيط من الارض وأطبق على جميعه سوادهم المنتشر أطباق الجفن على الحدقة فصعبت الورطة من ضنك المقام فنظم ايده الله التعبية نظاما محكما أحاط على الظهر من خلفه سياجا من النار حذارا عليه من نهب العدو المحيط به أن ينشب به أظفاره من وراء وصمم أيده الله أمامه فلم

(1) يقتضى الترتيب الزمنى لسرد الاحداث الانتقال الى صفحة 217

بهنه لمر تلك الجموع ولا ارتاع لهـا وعدل بنفسه وشجاعته ما زادت به جموع العدو على جمعه فاشتبكت الحـرب واشتعلت وأشـار أيده الله على سعيد بن فرج الدغالى وكان قائد جيش الاندلس وممن يـدلى بالصرامة والشجاعة أن يصمم بعسكره من جيش النار تجاه المتوكل وكان قد تخيز يومئذ عن القلب الى جهة الميمنة ليخفى نفسه واعتاض بابن ويسعدن ليتيامن به زعم وليس بما اعطاه من الاله فتفرس مولانـا اميـر المـؤمنين فى المتوكل بما رءاه على جهته من شعار الجنديه وحدة الشوكة واستنجد لصدمته الدغالى من بعد أن ناوله تهليل أوراده وأدعيته وعلقه عليه تميمة فخام عن ذلك واحجـم فاعرض عنه أمير المؤمنين وصمم أيده الله نحوه وعلم أن بانفضاض المتوكل تنفض سائر الجموع وارتفع القتال الى السماء وطبق منه على أمير المؤمنين وجنوده ليل دامس فصب أيده الله من خلل النقع على المتوكل كأنه شهاب ثقاب فانصاع منهزما أمامه ولم يتمالك لصدمته وافض بانفضاضـه ابن ويسعـدن وسائـر جموع الخوارج والحشود واستمـرت عليهـم

ص 218 الهـزيمة وبعـدت عنهم الجـبال فركبتـهم * جنود امير المؤمنين بالعـراء وحكمت فيهـم أسيافهم وأحصيت القتلى فى الملحمة فكانوا أربعة ءالاف ويقال قتـل رجلان مـن جيش النار وحدهما تسعين شخصا من الخوارج فكانت هزيمة لم يسمع بأعظم منها ولا أشنع من خطبها وحدثنى الفقيه القائد أبو الحسن على بن منصور الشيظمى وكان ممـن شهـد المعترك مع أمير المؤمنين أنه لما التقى الجمعان واشتد الزلزال واستحكم الطعن واستفحل الامر وشوهد المـوت ومولانا امير المؤمنين أيـده الله ثابت الجأش راسخ القدم مترام بطرفه الى العدو كالصقر الى سرب الكراكى قال انشدته أيـده الله بيـتى ابـن عيسى الكاتب من قصيدة له فى امداحه الشريفة وهمـا :

هو الغيث ثم البحر فى الجـود والندى وليـث اذا جـد الطـعـان هصـور
يفـوق السهـام عـزمـه وانبعـاثـه ويقصـر عـنـه فـى الثـبـات ثبيـر

قال فأجابنى أيده الله عـلى البديهـة ببيتى أبى فراس وهما :

ونحـن أنـاس لا تـوسـط عندنـا لنـا الصدر دون العالمين أو القـبـر
تهـون علينـا فـى المعـالى نفـوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغله المهـر

فصار ظهوره أيده الله بجمعه القليل على جموع العدو المتكاثرة واقتحـامه لذلـك السواد الاعظم فى ذلك المقام الضنك والمجال الضيق ءاية مع الايام تتلى وأجل منقبته فى الشجاعة تروى ويقال ان أهل السوس لمـا وضعت الحرب أوزارها وسكن رجفان المغرب بالجبل الذى ارسى الله به أرضه من أمير المؤمنين عند مصير الخلافة اليه احصى كل قبيل من القبائل ما اساره الموت واستجمه السيف فى حروب امير المؤمنين مع المتوكل لحوليـن كامليـن فكانـت جملة المفقود مـن العدد الذى اثبتوا بـه فى دواوين الخراج

سنة عشر الفا ولو تتبعنا ماله أيده الله في هذا الباب من المآثر لكلت جياد الاقلام وتقطعت اجيادها في هذا المضمار واقتصرت على ما ذكرت ليدل دلالة الغدير على المطر والله ولي التوفيق والاعانة .

ومنها(1) اجلابه أيده الله على ابن أخيه المتوكل وعلى جنوده بمضيق اساطس في حروبه معه بالسوس واقتحامه عليه وهو ما هو منعة وحصانة ومازال الخوارج على الدول في الحديث والقديم يتمنعون به ويدفعون في صدور الملوك والخلفاء ولقد لجأ

ص 214 اليه علي بن يدر لما استبد بالسوس ونبذ طاعة بني عبد المومن فنهض اليه ★ أبو دبوس اخر خلفائهم في عساكر الموحدين قاطبة ومدد بني مرين الذين ظهر بهم على المرتضى وابتز ملكه فأناخ بتلك الجنود على ابن ايدر ثم عظم على شأن ذلك المضيق ونكل على اقتحامه وتخشمه فافرج عنه ولم يغن شيئا وارتاده المتوكل لاجل حصانته وزاده منعة بما ضرب على بابه من الاسداد بالصخور فختم عليه بجنوده ومن معه من الاتراك النازعين اليه وكان من خبرهم أن هذه الفئة من الاتراك كانت من حصة جنود امير المؤمنين المتحيزة اليه من جيوش الشرق التي استجرها هو وأخوه المولى عبد الملك المعتصم بالله للمغرب ثم بدا للخليفة المعتصم من بعد استوائه على كرسي الخلافة أن يستبد بجيش الاتراك كلها ويجمعهم اليه فساعده مولانا امير المؤمنين على ذلك ونزل له عن الحصة التي عنده منهم فما كان الا أن انحرف المعتصم عن سيرة مولانا أمير المؤمنين معهم ولم يحسن في مسايستهم فنزعوا عنه الى المتوكل بالجبل ولقاهم مبرة واجل لهم العطاء وانزلهم بمنازل القرب والاختصاص لديه فامحضوا له النصح والمخالصة وعضوا على خدمته والاستماتة دونه بنواجذهم وكانوا أحد شوكته في الحروب السوسية وحذر مولانا امير المؤمنين ايده الله مغبة هؤلاء الاتراك ان جثم بهم المتوكل على تلك الاسداد المضروبة على باب أساطس ومطاولة نزالهم مع نفود الاقوات وقطع الميرة والعلوفة عن معسكره فكان ذلك مما اضطره الى اقتحام اساطس على المتوكل على علمه بشدة حصانته ومنعته واعتياصه على سلف الدول .

اذا لم يكن الا الاسنة مركبا   فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فما كان الا أن اعتمل أيده الله في استفساد الاتراك عن المتوكل بمكيدة نفث بها بالوساوس فيما بينه وبينهم فاستحكمت النفرة وتمكنت الاسترابة وهو أنه أيده الله بعث الى رئيس هؤلاء الاتراك وقائد زمامهم قارى حماد تذكره بسوالف الخدمة ومواقع الاحسان ووعده ومناه وزين له النزوع عن المتوكل والفتك به فتفادى من ذلك حماد

(1) يقتضي الترتيب التاريخي للوقائع الانتقال الى صفحة 213 .

بمعاذير القاها الى مولانا امير المؤمنين ولما استيئس أيده الله منه اعتمل فى كتاب انشأه على لسان حماد وكأنه جواب منه الى أمير المؤمنين عن خطاب سبق ومحاورة تقدمت وأنه يخبره بما كان من عزمه على الغدر بالمتوكل بواقعة الملتقى باساطس ثم أكد ايده الله المكيدة بأن ذكر فى الكتاب على لسان حماد أنه يقرر لامير المؤمنين سوالف العداوة والبغضاء التى بين جيش الاتراك وزواوة منذ المشاقة الكائنة بين الجيشين المذكورين على عهد المعتصم حسبما قدمنا وانه يطلب لذلك من امير المؤمنين أن

ص 215 يخلى لهم وجه المصاف عند التقاء الجمعين ★ من زواوة مخافة ما يلقاهم منهم عند النزوع الى أمير المؤمنين فى المعترك واقام شاهدا عدلا على صدق ذلك بأن جعل أيده الله جيش زواوة يومئذ فى الساقة وبنى ذلك على ما ورى لهم به ايده الله من الضنانة بهم فى اصطلاء الحروب وفنائهم فيها وأراهم الرغبة فى استبقائهم ذخرا لامثالها لكونهم من جيوشه المختصة به ثم تحيل على ايصال هذا الكتاب الى المتوكل فاطلع على هذه المكايد ولم يشك فى صدقها وقامت لها قيامته فاستراب بالاتراك واتهمهم على نفسهم وسكت بدائه وبلغت به الحيرة والاياس من الناس والاسترابة بهم حتى من ثوبه بسبب مكيدة امير المؤمنين له الى أن وقع بخطه على ظهر الكتاب ما نصه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طالت به حياته (   )(1) ووقع هذا الكتاب بيد مولانا امير المؤمنين لما استولى اثاته وملابسه فى وقيعه أساطس هذه ثم ما وسعه يوم الزحف الا أن أقصى الاتراك عن مصافه استرابة بهم فوقفوا على ربوة منتبذين عنه وحدهم وتم من ذلك لامير المؤمنين أيده الله ما أراد ثم ما أخل مع ذلك أيده الله بالحزم ولا عول على تمام المكيدة بل عمل على محاربة الجميع واستجر الانفاض من المحمدية(2) قاعدة السوس وصمم نحو المتوكل والاتراك وسائر جموع الخوارج وحمله فرط شجاعته وجرأته وشدة بأسه واقدامه على اقتحام ذلك المضيق الذى لم يفتض احد من الخلفاء والملوك قبله عذرته فالح على المتوكل وجموعه واخترق اليهم الاسداد المنضودة رصفا بالصخور ففضهم واجفلوا أمامه فركبتهم سيوفه أيده الله واستولى على محلتهم وسوادها وانحجر معهم فى المضيق وأوغل فيه رجاء أن يقبض على المتوكل ويكبس جموعه فيه فكان الناس يمرون على الصراط من ذلك المضيق لكون طريقهم على شفا جرف هار لا يصل من زلت به القدم منها الى الحضيض حتى ينقطع شلوه قطعا وفى اثناء المضيق وقعت نفرة فى جنود امير المؤمنين أيده الله لالتقاء أول طلائع خيله المغاوره مع الاتراك الذين كانوا مع المتوكل وقد كانوا افترقوا عنه وسلكوا على غير طريقه لانتباذهم عنه فى المعترك

(1) يوجد بياض فى المخوط .
(2) نسبة الى المولى محمد الشيخ ، وهى تارودانت اليوم ببلاد سوس .

ووقوفهم للقتال وحدهم على ربوة تحيزوا لها لاسترابة المتوكل بهم لمكيدة حسبما قدمنا فما كان الا أن فرت الاتراك على غير سبيل المتوكل عند استمرارهم الهزيمة فقذفت بهم الشعاب والجبال الى خيل امير المؤمنين على حين غفلة وكانوا نزولا على ماء هنالك فاجفلوا ناكصين الى امير المؤمنين فانجفل بانجفالهم سائر الاجناد وولوا الادبار وقد انسدت في وجوههم المسالك لاطباق الجبال عليهم من كل جهة وانسداد الطريق بالكراع
والظهر ★ فصاروا يبتغون نفقا في الارض أو سلما في السماء خشية ورهبة وهنالك ص 216
حل الخطب وعمت الفضيحة من كان لا يرضى الدنية من الابطال واسود القراع والنزال فاخترط حينئذ امير المؤمنين ايده الله سيفه واعترض الناس في المضيق ولم يترك أحد يتخطاه الى وراء وربما ترجل بعض الفرسان من شدة الرعب رجاء أن يتوارى عن امير المؤمنين ويبرىء من خلال أرجل الخيل وحمل أيده الله على الرجوع الى العدو كارهين فتدامروا ثم بصر عن يمينه وشماله بالبرابر في قنن الجبال وقد تأهبوا للانقضاض على الجنود عند تحقق الهزيمة وأعدوا الصخور لرجمهم بها فيهلكوا جميعا والناس كلهم من شدة الرعب وهول الهيعة في غفلة فاغرى امير المؤمنين أيده الله من حف بركائبه من صنف السلاق بالرمي عليهم بالبندق واحراقهم بالرصاص فسردهم واجفلوا فانقذ الناس بذلك من الهلكة وهم لايشعرون وشد على الاجناد في الكرع ودفع عليهم بسيفه مسلولا فتراجعوا هيبة وخشية وثبت في المضيق ثبوت الاسد العاوى فانقذ الناس من الورطة بفضل شجاعته وثبوته للصدمة وذهب بفخر ذلك اليوم وحده أيده الله وقد تحدث الناس بشأن اقدامه ورسوخ قدمه في ذلك المقام الصعب وصار حديثا للسمر الى اليوم وما زال الحاضرون يغربون به حدثني صاحبنا الفقيه الاديب شاعر الدولة ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي وكان ممن شهد الزلزلة وحضر هولها انه لما عظمت الحيرة واستفحلت المحنة بارتداد الجنود على اعقابها كافة الابطال منهم والمستضعفين حتى جعل يقول لمن حوله هلم الى التوديع قطعا بحلول المنية لعدم المسلك واستداد طرق النجاة قال ثم استثبتني أحد الاعيان من قبائل السوس كان بازائها وقال لي اتئد واسكن ولا تنظر لشيء سوى امير المؤمنين فان ثبت للصدمة وجبر لزلزال الهيعة فارج المياه والا كلا لا وزر الا الموت قال وجعلت لذلك انظر الى مولانا امير المؤمنين وهو معترض للاجناد الذين ذهبت بهم النفرة اعتراض الاسد وسيفه بيده مسلول يسوق به الناس للكرة سوقا عنيفا حتى تسايلوا مع المضيق اثر العدو ونصلوا الى المتسع وحمدوا العاقبة قال فلم يكن انجى للناس من الورطة في ذلك المقام الصعب الا مولانا امير المؤمنين ايده الله وحده بفرط شجاعته وعظيم صبره وقوة جأشه والا كان آخر العهد بجميع من حشره الله في ذلك المضيق من العساكر والاجناد وسائر السواد فكان له في اقتحام

اساطس الذى انفرد بانقضاض عدرته وصبره النفرة الواقعة فى الاجناد اثناءه الفخر الباقى مع الايام ومن قصيدة للفقيه الاديب * ابى الحسن على بن منصور الشيظمى يصف التحام الحرب فى وقيعة اساطس قوله :

اثخنتهم يوم وجل الما فلم يجدوا — من بأسه نفقا ينجى ولا سببا
لله اقدامه المشهور حين سطا — بهم وقد رجموا من ساطس شغبا
وهال هول بغاة فى الكد اصعدت — اذ أرسل الجو من احجارهم سحبا
والجيش قد جاش وارتجت جوانبه — وهاله الخطب وشط الشعب فاضطربا
ثم تقدم كالليث الهزبر وقد — هاجت حفيظته وأرعدت غضبا
فرد فردا صروف الدهر مرغمة — لحين ما صرفت انيابها نوبا

واما(1) الشجاعة فحدث عن الاسد فى تاموره صرامة وبأسا واقداما وثبوت جأش ورسوخ قدم فى مناقع الموت والمآزق الهائلة التى تشيب لها النواصى وناهيك بما كان له فى ذلك من الايام المذكورة والوقائع المشهورة فمنها ما كان من فخر الجلاد والثبات يوم الركن ووقيعة الريحان وبوادى المخازن الذى اجتمعت فيه جموع الملتين وأمم الكلمتين فقاوم أيده الله احزاب الشرك وطواغيت الكفر وحده لانقضاء أخيه المولى عبد الملك أمير المؤمنين رحمه الله لاول المصطدم وعندما اقتدح زناد الحرب فكان فى موته ساعتئذ واحزاب الطاغوت فاغرة الافواه لالتهام انصار الملة كبوة للاسلام وعثار لجد الدين لولا أن الله تعالى جبر الصدع وأقال العثار بمولانا امير المؤمنين مقيم أود الملة ومجدد الدين للامة اذ لا خفاء بما يعترى الدول عند موت الخلفاء والملوك وعلى مهاد الاطمئنان وسرير العافية من اضطراب حبلها وتزلزل قواعدها ويخامر الفحول من ولاة العهد عند تحويل الدعوة اليهم من الحيرة والجزع وهذا بحيث لا يخفى على احد فى الحديث والقديم نظر عبد الملك بن مروان لما حضرته الوفاة الى ولده الوليد بن عبد الملك وهو ما هو جرءة واقداما وكان يدعى فارس بنى مروان فرءاه يبكى جزعا فقال له ما هذا أحنين الحمامة اذا أنامت فشمر واتزر والبس جلدة هر وضع سيفك على عاتقك فمن ابدى ذات نفسه اليك فاضرب عنقه ومن سكت مات بدائه وقد شاهدنا من الاضطراب فى المغرب وتلون الخطوب عند وفاة المولى عبد الله الغالب بالله أمير المؤمنين رحمه الله على سرير ملكه ما أغنى فيه الخبر عن الخبر واذا كانت الامور تشتبه على فحول الخلفاء عند تحويل
ص 213 الدعوة اليهم وهم * فى سعة من الامر وفسحة من الزمان والمكان فما بالك بذلك

(1) يقتضى سياق الحديث عن المولى أحمد قبل توليته وذكر حروبه ببلاد سوس فى معركة وادى المخازن الانتقال الى صفحة 212 .

عند ضيق المجال ومصافحة الاجال ومقارعة السيوف والنصال هذا والاهواء مفترقة والعزائم ضعيفة والقلوب دخيلة وعلى هذا فما ارتبك امير المؤمنين لخطب ولا اعترته حيرة لهول اليوم وضنك المقام ولا تضعضع لذلك ركن جلده وصبره بل تعاظم عند العظائم ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت أخيه(1) ولازاد أيده الله على أن وكل برعى محفته من وثق بمكانه وصمم هو أمام فى الوثبة الى المشركين حتى زحزحهم عن مصافهم واجحرهم فى عريشهم وصبر لهول اليوم وجربه وثبت محتسبا لزلازل المشركين وصدماتهم المتتالية ثبوت الجبل الراسى حتى منحه الله العافية وحكم له بالفتح والظفر فاستولى على سواد المشركين من بعد اختلال صفوف المسلمين وارتداد جنودهم كافة على اعقابها الاجيشه المظفر المنصور الذى ضبطه ايده الله بهيبته ووقاه بنفسه لما قدمنا أن رجاله الابطال كانوا اذا احرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بأمير المؤمنين ويمتدوا من ورائه جبلا فيبدوا تحت الالوية غير متوار بدو القمر تحت الغمام والليث تحت اللبد حتى كان المشركون يجعلونه غرضا للرمى فاصابته ايده الله يومئذ جراحات بالبندق مشطت احداها ظاهر قدمه وخاضت فى احشاء فرسه من تحت ركابه فمات الفرس منها فى المعترك واصابته أخرى أيده الله فى صدره فكانت بردا وسلاما وخارقا أظهر الله به عجائب لطفه وعصمته للمسلمين والا كانت القاضية وسمعته أيده الله يحدث أنه لما وكزته فى صدره لم يشك لشدتها أنها نافذة من تابوته قال أيده الله فادخلت يدى من تحت الاطواق لالمس الجرح فوجدت حصاة البندق وقد اخترقت الاطواق وبردت عند الثوب الذى هو الشعار وتورم المكان من ساعته ورما مفرطا عقب الله فيه باللطف الشامل فكانت احدى الكرامات التى أظهر الله بها عصمة الاسلام وصار أثره أيده الله فى هذه الغزوة العظيمة وشجاعته فى ذلك المصطدم الهائل ومصابرته لذلك الزلزال اثرا مجمعا على استغرابه والتحدث به فى البلاد .

واما(1) ما له أيده الله من المآثر الشريفة فى الجهاد الذى جليت على منصته عروس خلافته واقتعد كرسى الامامة الشريفة بمشهده واعتنق بكر الفتوح التى حضرت ملائكة الرحمن زفافها الشريف دولته فما عسى أن أعد أو أذكر بعد يوم المخازن الذى حضرته ملوك العدوتين وجموع الملتين وانصار الكلمتين على حين ما انقضى أخوه الخليفة وفاضت نفسه واترع من الحمام كأسه وواراه من المحفة الحجبة رمسه ولاذ بالخذلان من مثل به للشقاء تعسه ونحسه فاظلم الجو وتلون الدهر واشتد الخطب وتفاقم الامر

(1) يقتضى سياق الحديث عن دور المنصور فى معركة المخازن ادراج ما جاء من الاخبار فى صفحة 301 .

واستأسد الكفر وانشب الناب والظفر فاثبت أيده الله في مستنقع الموت قدمه واحتسب في الذب عن الملة نفسه وتدفقت عليه كتائب المشركين وجموع الكفر وطواغيت الشرك واحزاب التثليت فصابر زلزالها كالجبال الرواسي وثبت تحت الالوية كالليث العادى وانصرف وجه القتال لموكب واحرق البندق رجاله الابطال واسود الحرب والنزال فتزحزحوا عن مراكزهم وتدرق بعضهم ببعض تى تدرقوا جميعا بمولانا امير المؤمنين أيده الله وامتدوا من ورائه حبلا فخلا وجه القتال للمشركين من رجاله وأبطاله الا من ★ منحه الله الصبر وقليل ما هم حتى صار أيده الله هدفا لرمى المشركين فاصابته جراحة بالبندق مسحت احداها ظاهر قدمه الطاهر في الركاب وخاضت احشاء فرسه فمات منها حسبما بسطته هول في ذلك في محله وثبت أيده الله لضنك المقام وهول اليوم حتى جبر الله الصدع وأقال العثار وحكم لدينه بالنصر والظهور ونصر على يده الاسلام وتل عرش الكفر واستأصل شافة الاصنام فذهب ايده الله وحده بفخر اليوم جلادا وصبرا وثباتا واقداما على كثرة من ضمه المعترك من ابطال الملتين على تجهم اليوم وضنك المقام وخشونة المعترك واشتداد زلزال الحرب وناهيك من يوم اجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريق وفائض النفس حتف الانف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل واسير حسبما تقرر في موضعه كل ذلك نتيجة صبر امير المؤمنين الذى أجمل الله به العقبى وجلب للاسلام المسرة الكبرى أبقاه الله للامة يحمى سرحها وللملة ينصر دينها وحزبها .

ولما(1) انعقدت بيعته المباركة باصفاق المسلمين عليها كافة في مشهد الفتح ورسخت بذلك قواعد خلافته نظر في اعطاف الدولة وقد ادركها بآخر الرمق تجود بنفسها لتوالى المرض عليها خمسة اعوام تباع عمر دولتى المتوكل والمعتصم(2) التى نفقت فيها أسواق الفتن وأظلم الجو فيها بالهرج في سائر اقطار المغرب حتى تنمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطغى الجند الذى به قوام مائلها فغلب فساده على صلاحه وتعذر النفع به وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفد الطارف والتالد واقوت بيوت المال من كل صفراء وبيضاء وانتسفت مخازن الحبوب والاقوات واصبحت خاوية كأن لم تغن بالامس واستشرى الداء ★ واعضل الخطب وكاد سلك الدولة يتنسر وذيلها يتقلص ثم ص 201

(1) الانتقال الى صفحة 6 .

(2) المولى محمد المتوكل بن عبد الله الغالب بالله ، بويع بعد وفاة والده سنة 1574 م ، الا أن عمه المولى عبد الملك المعتصم استطاع أن يحصل على مساعدات عسكرية تركية من الجزائر وان يهزمه بعد معارك طاحنة اضطر معها المتوكل الى الالتجاء الى طنجة طلبا لمساعدة البرتغاليين . وفي شهر مارس 1576 دخل المولى عبد الملك مدينة فاس ومنها انتقل الى مراكش. واستمر المعتصم حاكما الى ان توفى صبيحة المعركة (4 غشت 1578) .

جبر الله الصدع بامير المؤمنين أيـده الله فشمر لابتداء الامر من أوله وتشييد الملك من أساسه وافتتاح المغرب فتحا ثانيا من أصله فسكن زعازع هوله واقتلع جرثومـة أهـل البغي والشقاق من اجناده ثانيا واستأصل شافة الخوارج والثوار على الدولة ثالثا وطاب الجني وذرت اخلاف الجباية فامتلأت بيوت المال وغصت بالحبوب مخازن الاقوات ثـم جاء نصر الله فذرت الفتـوح واتسع نطاق الملك وبلغت الدولـة الى اشـرف نصابهـا حسبما نذكر هذا كله ونحسنه ان شاء الله بعد .

ولما كانت فاس أقرب الى مشهد الفتح من مراكش رءا أيده الله أن يتبدىء أمـره بتثقيف أطرافها وتمهيد ممالكها وأعمالهـا فارتحل ثالثة الفتح من مخيمه بوادي المخازن يوم الاربعاء الثاني من جمادي الاخرى ووصل لفاس للنصف منها فدخل في يوم مشهود عند اهلها دخولا فخما لكثرة ما استاق من سبي المشركين واقتاد من جنود الله وعلاه من نور الخلافة ورواء الغزو والجهاد ولايام من مقامه وافاه وفـد مراكش دار الخلافـة ببيعة أهلها جنديهم وحضريهم والملأ المقيمين لرسم النيابة بها من أهل الدولة ثم انثالت عليه بيعات سائر المـدن والامصار ووفـود الاقطار وتخللت الدعوة جميع ممالك المغرب وجهاتها الدانية والقاصية(1) فانقاد الناس لها وتطامنوا الى ظلها واغتبطوا بما جمع الله لهم لوقت واحد مـن سرور الفتح العظيـم المصنوع على يد امير المؤمنين وسرور ولايته التي تقارنه وترجح به وزنـا فاعتدوا تلك الايام من اعمارهم مواسم وأعيادا ولما تكامل صنـع الله لديـه باستياق وفـود الجـهات ببيعاتهم لبابه العالي واستوسق بذلك ملكه ورسخت قدمـه جهز العساكر بفاس وعقد عليها لمولاه العامل كان على خراجه من قبل الخلافة القائد الكبير ابي عبد الله حـم بن بركـة وسرحـه للطواف على ممالك فـاس وأعمالها وسائر جبالها التي نعق بها ناعق الفتنة منذ اجتياز المتوكل عليها منصرفه من السوس لسبته فدوخ ومـهد ومر يستقـر في السهول والحـزون حتى سلـك تلـك الجهات كلها وانتهى منها الى قاصية الريف(2) وقفل لاشهر من مغيبـه بعـد استكـمال

(1) دخل المنصور الى فاس يوم السبت 16 غشت 1578 واستمر مقامه بها الى اكتوبر 1578 وفي فاس ضرب لاول مرة نقودا ذهبية بقيمة الدينار ونصفه ، وقد جاء في هذا الدينار (بسم الله اللحمن الرحيم عن امير المؤمنين المجاهد فيسبيل الله أمير المومنين ابي العباس ضرب بمدينة فـاس عـام ستـة وثمانين وتسعمائة) .

Brethes : Contribution à l'histoire du Maroc. P. 202.

(2) يرجع اهتمام المنصور بتوطيد سلطانه على شمالي المغرب خلال الفترة الاولى من حكمه ، الى أن هـذه المنطقة كانت مثار نزاع كبير ، وهدفا لتدخل عسكري خارجي ، لما تمثله من استراتيجية بالغة الاهمية في الصراع والحروب القائمة بين لاتراك والاسبان ، وقد ازداد التدخل العسكري الاسباني في شمال المغرب منذ انهزام البرتغال فيوادي المخازن ، وحسب الوثائق التاريخية فان المجلس العسكري الاسباني المنعقد يوم 16 غشت 1578 قد اسند مهمة الدفاع عن مدن سبتة وطنجة واصيلا ـ وهي قواعد احتلال برتغالي ـ الى القائد الاسبـاني Antonio Manso كما أن القوات الاسبانية المرابطة بجنوبي اسبانيا قد أمرت بان تكون على اهبة الاستعداد لرد اي خطر خارجي يوجه ضد ايبريا من قبل المسلمين (دي كاستري . اسبانيا . ج 3 . ص 451) .

التمهيد فوصل لفاس من بعد انصراف أمير المؤمنين لمراكش وكان من السطو بالدغالي

والملأ من قواد الاندلس بفاس ما نذكر ان شاء الله تعالى ★ ص 8

نكبة الملأ من قواد الاندلس (1) وهم سعيد ابن فرج الدغالي ومحمد بن أخيه ومحمد زرقون الكاهية وأبو الفضل الغري ومقتلهم ليوم واحد وذكر جرائرهم الموبقة

فأما الدغالي منهم وهو سعيد بن فرج يعسوب فئتهم وجرثومة عصابتهم ومشب نار الفساد التي صلوا حرها فأصله من نطيش قرية من قرى شلين الجبل المطل على غرناطة ولما كانت الحالة التي التهم فيها العدو جزيرة الاندلس على حين ما فشلت ريح دول الاسلام بالمغرب في المائة التاسعة وتقلصت أذيالها عن القاصية وتقاصرت قدرتها عن الدفاع لعهد المستضعفين من بني مرين ملوك المغرب الاقصى حينئذ وبني زيان أهل المغرب الاوسط وبني أبي حفص ملوك افريقية(2) وملك الطاغية غرناطة في حدود تسعة وتسعين من المائة التاسعة لعهد المستضعفين من بني الاحمر وسكيت حلبتهم السلطان أبي عبد الله الشهير بالزغيبي واستولى بها الكفر على الصبابة الباقية وانقرضت دولة الاسلام بالاندلس وطمست معالمها وابتز الكفر ملكها واستولى طواغيث الشرك على سائر امصارها وقواعدها واستباحوا حماها وادال الله في جميع صقعها الطيب بالخبيث لجأ من استنكف من ذل الكفر ومن الاقامة على الهضيمة الى بلاد المسلمين بالعدوة وصبر على غالب حب الوطن ورضى بضرب الذلة عليه والمسكنة واعطاء الجزية عن يد فكان سلف سعيد ممن رضى بالاقامة على الهضيمة بدار الذل فنبا هنالك بالاندلس على حالة من الدعارة ومخالطة أولى الجرابة ثم عبر البحر الى العدوة

(1) من الاسباب الرئيسية التي دفعت المنصور الى نكبة هؤلاء القادة العسكريين ، اتهامهم بالتآمر مع الاتراك في الجزائر لضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية ، وقد ابتدأت هذه الخطة بتدبير مؤامرة تسميم المعتصم ، الا أن المتآمرين أسقط في ايديهم لما أعلن عن تولية المولى احمد خلفا لاخيه المعتصم عشية المعركة ، فكان أن اثاروا الشغب بين أوساط الجند والعامة وأخذوا ينادون باحقية الامير الصغير اسماعيل بن المعتصم الموجود بالجزائر في الخلافة ، مستغلين سمعة المعتصم الملك الشهيد الامر الذى حذا بالمولى احمد الى الفرار (خوفا من ان يقتلوه) (تاريخ السودان : عبد الرحمن السعدى ص 208) •
الا أن المغاربة اصروا على بيعة المولى احمد والتمسك بها مما لم يجد معه المتآمرون بدا من قبول الامر الواقع (فلم يقبل ذلك أهل مراكش فجيء بمولاى احمد اينما كان في الساعة فولوه فكان مولاى احمد اميرا) (المصدر نفسه ص 208) •
يضاف الى ذلك أن المعتصم كان قد اوصى بالامر للمولى احمد من بعده (فاعلم انى لا أحب احدا بعد نفسي محبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الامر بعدى الا اليك لالغيرك) (الافرانى : نزهة لحادي • ص 71) •

(2) بعد ضعف الموحدين تجزأت امبراطوريتهم بالغرب الاسلامي الى دول وامارات : ففي شمال افريقية ظهر الحفصيون بتونس (603 ــ 981) وبنوزيان في الجزائر (631 هـ ــ 922 هـ) والمرينيون في المغرب (669 ، 889 هـ) • وفي الاندلس بعثت من جديد امارات الطوائف ، كان من ابرزها بنو الاحمر بغرناطة (929 ــ 899) التي سقطت اخيرا بيد الاسبان يوم 2 يناير 1492م •

في سبيل الجولة ومطاوعة جنون الصبوة وطغيان الشباب ونزل بتيطاون(1) من ثغور المغرب وولع بالسفر في البحر خليع الرسن ثم اتصل لعهد الغالب بالله بعظيم دولته أبي علي الحسن بن ابي كر واختلف لداره بفاس أيام رياسته فجذب بضبعه ومكن قومه عند الخليفة وعقد له على الغرباء من قومه النازعين الى المغرب من بلاد الاندلس فجمعهم من كل قطر وتألف منهم على يده جيش كثيف من النار بمراكش واقطعتهم الدولة اراضي فسيحة بالجانب الغربي من فحصها الافيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به ولم يزل الدغالي متوغلا هضبات العز عند الخلفاء الى أن كان من امره في ارتكاب سنن الغدر والتربص بالدولة والسعي في تخييب الكلمة ما ذكرناه مستوفى في مواضع شتى من هذا الكتاب فأما أولا فبمداخلة المولى أبي النصر بن
ص 9 الغالب بالله في الانتزاء على الامر ووعده اياه بالنصر على الثورة والمظاهر على* الاستبداد واما ثانيا فبغدره في الوكن (2) ومكره بقومه واما ثالثا فباستيام الثورة والاستبداد بالسوس في مغيب المولى المنصور عنه لتشريد المتوكل الى ارض النصارى (3) حسبما قدمنا ولما خلص الامر الى امير المؤمنين المنصور وواتته الخلافة منقادة اليه تجر أذيالها وكان الدغالي هذا بالسوس منذ تركه به كما ذكرنا مع ولده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ واتفق ما كان من اجتماعه مع الحاجب عبد الكريم بن موسى بن يحيى في محلة واحدة بما كان المعتصم سرحه اليه من الحضرة لتخويل عزابه عند ايناس الغدر منه واستيام الثورة بالسوس ثم تلاحق بهما قواد بلاد درعة وولاتها القائد المعظم الصدر الشهير ابو عبد الله محمد بن أحمد الكبير خال أمير المؤمنين المنصور وحاجبه اليوم القائد أبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتاني وتوافوا جميعا بمعسكر واحد من بلاد سكتانة اجمعوا امرهم على الوفادة على أمير المؤمنين بفاس ليهنوه بالفتح والخلافة فلم يسع الدغالي حينئذ غير المسير معهم فتاخر من القوم خال امير المؤمنين وأبو محمد عزوز بن سعيد وانقلبا الى أعمالهما لتثقيف البلاد وقوض الحاجب مع الدغالي

(1) تطوان : من المدن المغربية الشمالية المطلة على البحر المتوسط ، التجا اليها عدد عظيم من المهاجرين الاندلسيين ، وقد استقلوا بحكمها وقاموا بدور هام في رد الغارات الخارجية عن شمالي البلاد ، كما خاضوا غمار حروب بحرية طويلة ضد الاسبان والبرتغال مما افسد على الغزاة خططهم التوسعية في المغرب وشماله بوجه خاص .

(2) وقعة الركن : معركة جرت باحواز فاس في مارس 1576 حيث انتصر فيها المولى عبد الملك المعتصم على ابن اخيه محمد المتوكل.

(3) خلال ولاية المعتصم ، كلف المولى أحمد المنصور بمحاربة المتوكل ومطاردته ، وقد لاقى من ذلك عناء كبيرا الى أن تمكن في النهاية من اجبار المتوكل على الالتجاء الى طنجة احدى قواعد الاحتلال البرتغالي في شمالا لمغرب .

وساروا حتى اذا انحدروا الى الحضرة وأناخوا بساحتها رام الدغالى الدخول للاراحة بها أياما وهو يسر حسوا فى ارتغاء فمنعه من ذلك أصلا الملأ المقيمون برسم النيابة بها من أهل الدولة وانصرف لقصده بفاس فوفد بها هو والحاجب على امير المؤمنين غب الفتح فلقاهما برا وترحيبا سرورا بمقامهما وأكرم نزلهما ولم يلبث الدغالى أن استعمل المرض وشكى الى الخليفة وخاصة المنزل وفساد مزاجه بفاس وطلب منه الاذن فى القدوم لسلا بما كانت تحت ولايته من عهد المعتصم يستنيب بها محمد بن أخيه فتفطن الخليفة لمكره وانطوائه على النكث واعتل عليه فى الاذن واظهر له غاية الحاجة الى حضوره بمجلسه للمفاوضة معه فى أمور سلطانه وصالح مملكته توثقا بنصحه واعتدادا بمخالصته فلم يصرفه بذلك كله عن عزمه وصمم على الغدو وألح فى الطلب فسدد له الخليفة باب الاذن فاجترا حينئذ لحتفه (   )(1) مع الجهد والفضاضة الى الغاية فخرج نهارا من غير اذن وصمم الى وجهه وبعث اليه الخليفة أولا مع قائد القواد كان عنده أبى عبد الله محمد بن سليمان بالملاينة والملاطفة على الرجوع وحذره انتقاض المرض عليه بمشقة السفر فامتنع من الرجوع وأبى لها امضاء عزيمته على الغدر ومضى حتى انتهى الى المستقى وضرب ابنيته على ضفة وادى الجواهر وتلوم على خروج اثقاله وماله من فاس فاستغضب حينئذ الخليفة بما ارتكبه من سوء السيرة فى الافتيات على الامر والخروج من غير الاذن وجاهر بما أتاه من ذلك بالعصيان
ص 10 والمخالفة (2) فحق ★ عليه القول واتجه الى قتله السبيل وبحث على حتفه بظلفه واقام على صوره من الحجة الواضحة فلم يجد أمير المؤمنين حينئذ وليجة من دون الاراحة منه فسرح الى قتله عظيم الدولة القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفيانى وانفذ معه الفاتك أحمد الزواوى وقريعه حدو الزواوى وعبد العزيز بن يخلف اليفرنى وعبد الله التلمسانى وكلهم قواد عشائرهم زواوة وعصابة الشراقة من جيوش النار وكان فى اختصاص الخليفة هؤلاء النفر بهذا الفتك نعم السياسة النافعة حينئذ لاستحداث العداوة الباقية بسبب ذلك من يومئذ الى الآن بين عساكر الاندلس والشراقة من جيوش النار وما راع الدغالى الا دخول ابى اسحاق عليه فى مضربه والفاتك أحمد

(1) يوجد بياض بالاصل .

(2) يفهم من كلام الفشتالى ان سعيد الدغالى كان يتآمر على دولة المنصور باثارته للفتن والثورات الداخلية وباتصاله مع خصوم المنصور فى الخارج ، وخاصة الاتراك فى الجزائر . وفى الوثائق التاريخية رسالة وجهها الاسبانى Luis de Herrera من سبتة بتاريخ 13 غشت 1578 الى الملك الاسبانى فيليب الثانى جاء فيها بان القائد التركى لجنود المنصور قد كتب الى باشا الجزائر يعلمه بان الوقت قد حان لاحتلال المغرب وتحقيق رغبة السلطان العثمانى ، وذلك لان الحاكم المغربى الجديد غير قادر على تسلم السلطة وليس هناك من يخلفه (دى كاسترى . اسبانيا . ج 3 . ص 453) . فهل قام سعيد الدغالى أو أحد من الثلاثة الآخرين الذين نكبهم المنصور بهذا الاتصال مع الاتراك مما كان سببا فى التعجيل بنكبتهم ؟

الزواوى على اثره وتقاعس الآخرون خارج المضرب واستشعر الدغالى الشر وكان مستلقيا على قفاه لما يظهر من التمارض فاستخذى لابى اسحاق واستكان ورغبة على ارسال يده واقسم له على استمكانه منها فجعل يقبلها فعل التدليل الجازع وخرج بذلك عن مالفه فى الغلظة والفضاضة الى الغاية فى التواضع والاستكانة ذلا وخورا وكان القائد اسحاق ذهب من عند الخليفة على الحالة التى ركب بها اليه من داره أعزل من السلاح واتفق أن وجد محمد بن اخى الدغالى واقفا حينئذ بسيفه على رأس عمه فحذر أبو اسحاق غائلته وجعل يختل سيفه ويختل عمه بالمحادثة لما أظهره من القدوم لتشييعه حتى أمكنته الفرصة فاستقل واقفا ووثب على قائم سيف محمد فاخترطه وأغرى أحمد الزواوى بالدغالى فأوما بسيفه العضب الى سالفته وهو مستلق فطارت هامته لضربة واحدة وشد ابو اسحاق هو على محمد بسيفه فعصب جبينه ثم اعتورته سيوف النفر فاستلحمته واحتزوا رأسه وحمل مع رأس عمه فى مخالة حتى وضعا بين يدى امير المؤمنين وانتهب القوم فساطيطهما واستبد كل بما حصل فى يده من الخرشى والخيل والسريات الزنجيات والروميات وبينما ابو اسحاق مقبل لفاس من المستقى اذ تلقته على ظهر الزاوية بغال الدغالى الحاملة لماله واثقاله وكانت نهايته ستين الفا من الذهب العين فاستردها وجعل بها وجهه الى امير المؤمنين واشتق بالمال والرأسين معسكر قومهما وعشائرهما الاندلس المخيم حينئذ بظهر الزاوية منذ بلوغ امير المؤمنين من مشهد الفتح لفاس فاستكان الجميع للأمر واستخذى ولم ينبس منهم احد ببنت شفة ولا نبضت له عروق الحمية وذهبا مثلا فى الغابرين وما بكتهما عين واما محمد زرقون الشهير بالكاهية فاصله من وادى أش وكان ممن حضر قيام المسلمين ببلاد الاندلس على

ص 11 النصارى ثورتهم المشهورة * للمشركين الكائنة على عهد الغالب بالله من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم فى حدود عام سبعة وسبعين(1) ثم محض الله تلك الصبابة من المسلمين فكانت عليهم دائرة السوء للمشركين لقتلهم وانقطاعهم عن أهل دينهم وملتهم وبناء أمر قيامهم من أول وهلة على غير أساس من الرأى وانحلال عزائمهم من قبل مبلغ صريخ اخوانهم المسلمين وراء البحر لعدم من يملك نظامهم ويرجعون فى

(1) هناك مصدران هامان تحدثا عن ثورة الموريسكوس بالاندلس عام 977/1569 : احدهما رسالة معاصلة بعثها السفير الفرنسى فى مدريد وقد جاء فيها بان المسلمين قد ثاروا فى جبال البوشرات بضواحي غرناطة تحت قيادة (محمد بن أمية) Don Fernando de Valor وأن فيليب الثانى ملك اسبانيا قد تمكن من القضاء على الثورة أخيرا وتشريد الثوار (دى كاسترى-فرنسا ج 1 - ص 286) .
واما المصدر الثانى فهو المؤرخ المجهول فى كتابه (تاريخ الدولة السعدية) الذى أكد بان فشل ثورة الاندلسيين يرجع الى تخلى الغالب عن نجدتهم (فقد أمرهم - أى الغالب ، غشا منه بان يقوموا مع النصارى ليثق بهم فى قولهم بظهور فعلهم فلما قاموا على يد النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات) ص 38 - ويزداد فهمنا للاحداث اذا علمنا بان الغالب قد تعاون مع دول أوربا الغربية ومع اسبانيا والبرتغال بوجه خاص ليتخذ منهم حلفاء ضد الاتراك العثمانيين.

الاقبال والادبار الى كلمته مـن اولى الامـر فاستأصلت بسيوف الكفـر فى الملاحم مـن قضى الله له بالشهادة منهم وغربت الصبابة الباقية الى أقصى بلاد الشرك وتفرقوا بها يادى سبا وخلص محمد زرقون هذا فيمن خلص من تلك الورطة وعبر البحر الى المغرب فانتظم فى جيوش النار لعهد الغالب بالله ثم نزع الى الجزائر عند الاتراك فأقام لديهم متحيزا الى فئتهم الى أن اجلب بهم المعتصم على المغرب وكان قد داخلـه وصحبـه أيـام الاغتراب بالمشرق الى أن صارت اليه الخلافة فرعى له تلك السوابق ورفع منزلته وأوفى برتبته على سائر الرتب والقى بيده زمـام الدولة وصرف اليه تدبير عساكر النار فانفرد بالتكلم فى أمورهم وملك بذلك زمامهم وكان من القوانين التى أخذ فيها المعتصم بسيرة العجم فى دولته التبرع لعساكر النار حين مصير الخلافـة اليه بالزيادة لسائرهـم فى اعطياتهم المفروضة وفى الديوان ومال يبث فيهم ويفـرق عليهـم ويعبـرون عنـه فى مصطلحهم بالبشيش وحذى فى ذلك حذو ملوك العجم ولما صنع الله مـن اخيـه أمير المؤمنين ما صنع من الفتـح العظيم والغزوة الشهيرة بوادى المخازن وشفع له نعمتها بما اصار اليه من الملك والخلافة وجل الصنع علم العساكر لا محالة يطالبونه بالشرطين العاديين فرءا أن يتبرع لهـم قبل السؤال بأحدهما ليتركوا الآخر وليكون بـذل ذلك لهم المصافة من باب المن لا من باب المشارطة وبعث لذلك عن الكاهية ثانى الفتح ففاوضه فيما عزم عليه بما كان زمام عساكر النـار فى يده كما قدمنـا وكشف لـه عـن ذات صدره وما ذهب اليه فأبى عليه مـن ذلك وبين له احتجاز ماله وزعم له بصرف العساكر عن مطالبته بشيء من ذلك وضمن لـه عنهم الرضى بما افـاء الله عليهم مـن السبـى والمغانم التى خـرج لهم عـن جميعها أمير المؤمنين مموها فى ذلك بالنصح ومظهرا من نفسه الشفقة وهو يسر حسوا فى ارتغـاء فحسن امير المؤمنين به الظن وعمل برأيه وامسك يده عن العطاء ثقة بما زعم ولما كان يوم الدخول لفاس اعترض الاجناد بباب دار الملك امير المؤمنين عنـد الدخول بمكاحلهـم واشتبكت اشتباك الاصابع ليستوقفوه بذلك حتى ينعم الشرطين العاديين عادة عجمية أحدثها المعتصم فى المغرب وقطعها ★ المنصور ص 12
فيما قطع مـن الحـوادث المبتدعة والكلـف الشاقة واقتحم ايده الله الاجناد المعترضة ومر يدوسهم بأرجل فرسه مغيظا ومتجهما فافرجوا له رهبة من بأسه فدخل قصوره وقد اسخط فعلهم ونمى اليه أن ذلك اغراء محمد زرقون من اشارته تشفيا وسعيا فى الفساد واستأبنت للخليفة عاقبة غشه فيما كان اشار به من احتجان ماله وامساك يده عن التبرع للاجناد بأحد الشرطين العاديين فأسرها فى نفسه ولم يبدها له ثم أغرى الغوغاء من الاجناد ثانيا وحضهم على الطلب وأسرى فى تنفيق سـوق الشقـاق للذلـك والتغريب بين الجند والخليفة والحم حتـى تفاقم الامر وأفضى الحال الى أن اجتمع جند

النار وقوض من معسكره بظهر الزاوية وذهب مغاضبا لخرق العادة واستنكف امير المؤمنين من الاذعان ساعتئذ ما طلبوه الا من بعد أن يسكنوا ويذعنوا فيكون ذلك حينئذ على وجه أمن المحض لا على وجه العنف الموذن بالتحكم والعسف وبعث لذلك عن محمد زرقون وبدبه لتلاف الامر واسترجاع الجند بالملاطفة والملاينة وكان جيش الموالى المعلوجى وجيش الاندلس وهما أعظم جيوش النار متبرءين من الدخول فى حزب غيرهم من تلك الاجناد فما كان الا أن صحبهم فى وجهته واغراهم بالدخول فى حزب اخوانهم وانغمس معهم باشارته وحطب لنار تلك المغاضبة فزاده اشتعالا ولم يرجع لامير المؤمنين مرسله الا وقد جمع كلمة الاجناد كافة على افساد فاضطربت الاحوال ومرج أمر الناس وتحقق امير المؤمنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده فى هدم بناء دولته وسعيه فى فساد ملكه وتفريق امر الجماعة فحقد عليه ذلك وعزم على الفتك به وارجأه حتى استصلح احوال الاجناد وكان قد اعرض عنه فى أمره وضرب عن وساطته صفحا وندب لذلك أولياءه وقعد له بنفسه فرتق بحسن سياسته ذلك الخرق من حينه فاستقام أمر الجند واسترضاهم بالقول أولا وبالعطاء ثانيا واخفق أمل زرقون وبدى له ما لم يحتسب ولما كان يوم قتل الدغالى وأخيه تقبض عليه امير المؤمنين فلحقه بهما جزاء بما ابدى فيه من السعى فى الفساد وأعاد وأصبح مثلا فى الآخرين وأما أبو الفضل الغرى فأصله من لندراش قرية من قرى جبل شلير المطل على غرناطة وكان يزعم أنه من ذرية أبى الوليد بن زيدون وزير المعتمد بن عباد وصاحب ولادة بنت المستكفى وكثيرا ما كان يردد قصيدته النونية الشهيرة عن أهل الادب التى صدرها بقوله :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

ويقول ما زال الصبيان عندنا بالاندلس منذ اليوم يحفظونها فى المكاتب وكان ممن
ص 13 قذفت به * النوى عندما عصفت بالاندلس رياح الكفر وطوحت به الطوائح الى الجزائر فنزل على أمرائها من الاتراك فرسموه بديوانهم واثبتوا له الجراية لديهم ثم حصلت له من بعد ذلك المداخلة التامة هنالك بالمعتصم(1) رحمه الله فتقرب اليه

(1) سعى الغالب الى عقد ولاية العهد لابنه محمد المتوكل ، وقد قام لاجل ذلك بشليد اخوته مما اضطر معه المولى عبد الملك (المعتصم)والمولى عبد المومن الى الالتجاء عند الاتراك فى الجزائر طلبا للحماية والمساعدة ومن الجزائر خرج المعتصم بقوات عسكرية تمكن بفضلها من محاربة ابن اخيه المتوكل الذى انهزم لتخلى القوات الاندلسية عنه وانضمامها الى عمه فى معركة الركن بأحواز فاس عام 1576.

بالبحث عن اخبار المغرب ونقلها بما كان يعلم ميله لذلك وتشوفه له ثم افضى الحال الى أن اشخصه المعتصم الى المغرب عينا له وسفيرا عنه الى اشياعه ومن كان يداخله في أمره فوصل الى مراكش بعهد الغالب بالله في صورة التاجر وحمل معه احجارا من الياقوت فكان يطوف بها على منازل الاكابر توصلا الى مكالمة اشياع المعتصم وايصال كتبه اليهم ثم رجع لفاس وكان المتوكل ولي العهد اميرها حينئذ وتلطف حتى اتصل به ورسمه في خدمته ثم عقد له على حصة من جيوش النار لديه وهو في ذلك كله حاطب في حبل المعتصم مرسله والمتوكل ووالده في غفلة من أمره وكان في خلال ذلك يسرى مع الدغالي في الغدر ويلحم حتى اذا كان يوم الركن الذى تحيناه لما تعاقدا عليه من الغدر والخلاف نزعا بقومهما مكرا ومخادعة الى الخليفتين لاول احتدام الرعي واشتعال نار الحرب فرعى الخليفتان لابى الفضل تلك الموات ورفعا منزلته في أهل الدولة وأعده المعتصم من بطانته وبسط عليه نعمته فلم يرض بما غمره من طوفانها وصار يسمو بنفسه الى العظائم التى ليس لها بأهل من تقليد الاعمال وولاية الثغور بقود عساكر الاسنة وكان قد داخل ايضا الدغالي ظهيره في الخلاف ومساعده بغدر في شأن استيام الثورة التى جنح اليها واحتمل في أمرها بالسوس ولما سطى أمير المؤمنين بالدغالى وعلم ما بينهما من الخلة واجتماع الكلمة على الشر حذر مغبة امهاله وأكد ذلك ما كان من انقباضه عن مجلس الخليفة في تلك الايام باستعمال المرض فاستراب لذلك به وتقبض عليه يوم الفتك بالدغالى وأصحابه وجنب الى مصرعه فالحقه بهم وقتل النفر الاربعة جميعا ليوم واحد في شهر رجب من عام ستة وثمانين(1) وأصبحت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من أبواب البلد الجديد وسر الناس قاطبة بقتلهم بما كانوا يضطغنون عليهم اعتيادا لغدر دائما والجنوح الى الفساد واعتدوا قتلهم فتحا ثانيا لما عقبه من التمهيد واطمئنان الاحوال واقتلعت جرثومة الشقاق باقتلاع جلوءهم واستقامت أحوال الجند من يومئذ رهبة ورغبة واستوت قدم امير المؤمنين في ملكه واجمع الرحلة لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة(2) فانزل ولده المولى الامير أبا عبد الله محمد الشيخ بقصوره من فاس لاقامة رسم الملك وكان اذ ذاك طفلا صغيرا فضرب بذلك تدبير الامور والنقض والابرام ساعتئذ لخالصته القائد ابى اسحاق ابراهيم ابن محمد السفياني وانزله مع المولى أبى عبد الله بالباب الجديد توثقا بمكانه واستنامة * اليه ص 14

(1) يوافق هذا شهر سبتمبر 1578 •

(2) قبل أن يتوجه المنصور الى مراكش استقبل وفدا اسبانيا برتغاليا وصل لى فاس لافتداء جثة سباستيان، وسيتعرض الفشتالي الى ذلك في الصفحة التالية رقم 15 •

وعقد على الشرطة لمولاه القائد أبى عبد الله محمد بن سالم ثم عقد على مكناسة لداود بن أخيه المولى الامير بد المومن وجعل امرها الى نظره ورتب بها من انتقاه للنيابة عنه فيها من الخدام وصحبه هو لمراكش واسكنه بها بازائه وتحت رقبته استرابة به وثقف سائر ممالك واطرافها برجاله وخرج فى غرة شعبان عام ستة وثمانين (1) وتلوم بمعسكره من ظهر الزاوية بساحة فاس حتى استكمل أهبة السفر وفرغ من ابرام ما عن عن له من الامور فارتحل للنصف من شعبان ووصل لمراكش فى الثانى عشر من رمضان العام فاستوى على كرسى الخلافة بها وتسنم سرير الامارة وامتطى مهادها فكان يوم دخوله عند أهلها غرة فى جبين الدهر سرورا بما يسر الله لهم وللمسلمين من اسباب الخير والسعادة بولايته أيده الله وبركة خلافته الطالعة على سائر الامم بالعدل والامان وشمول العافية والاحسان وكف ايدى العدوان ورتع الناس فى ظل ظليل ورعى جميم الى هلم كما نذكر ان شاء الله تعالى .

ذكر وفادة ارسال ملوك الارض للتهنئة بالفتح والخلافة ومباراتهم فى الهدايا والمتاحفة واغرابهم بالذخائر النفيسة وفاخر الطرف واسنى التحف وبيعة صاحب برنوا من ملوك السودان .

لما سنى الله لامير المؤمنين من غزوته الشهيرة السائرة الذكر ما سنى وصنع على يده من فتحها الذى عفى على ذكر الفتوح السالفة فى دول الاسلام منذ الصدر الاول الى هلم ما صنع وتحدث الناس بقتل الطاغية والاستيلاء على مئين من ألوف أمم النصرانية(2) وغريب ما اتفق من هلاك الملوك الثلاثة وما كان لأمير المؤمنين من سورة التغلب وءاية العز وشاعت اخبار ذلك الصنيع الخارق فى المشارق والمغارب وسائر الآفاق وزويت لصيته الارض فطار ذكره وانتشر فى المعمور خبره وشفع الله ذلك بما اصار اليه من الخلافة التى جلا عروس فتحها على منصة ذلك الفتح وبسط بها جناح العدل على الامة خاطب لحينه صاحب القسطنطينة العظمى (3) وسائر ملوك الاسلام المجاورين للمغرب وعرفهم بالفتح وظهور حزب الله على حزب الشيطان فأقيمت أسواق التباشير بنصر الملة واعتزاز الدين واعلاء الكلمة فى كل أرض وارتفعت الى الله كلمات الشكر

(1) الموافق لاكتوبر 1578 .

(2) ذكرت وثيقة معاصرة ان سادة البرتغال من ابن دو: براكانس Bragance الى حامل الترس قد قتلوا أو وقعوا فى الاسر ، وهذا أمر لم يره احد من الناس ولاسمع به (دى كاسترى • بريطانيا • ج 1 • ص 297)

(3) هو السلطان مراد الثالث (1574 ـ 1595) •
وقد عرفت الامبراطورية العثمانية فى عهده أقصى اتساعها (اعظم سلطان خفقت عليه البنود وأكبر ملك قد جند الجنود •• كثر فى زمنه العلماء وما اجتمع فى زمن أحد من آل عثمان ما اجتمع فى زمنه من الفضلاء) : نصرة أهل الايمان لمحمد البكرى • دار الوثائق بالرباط • رقم د 527 •

الطيبة فى كل أفق وقطر فسمت بذلك ملوك الدنيا من أهـل الملتين الى مخاطبـة امير المؤمنين وايفاد ارسالهم عليه للتهنية بالفتح والخلافة فخاضـوا اليه البحار وشقوا القفار متبارين فى السبق الى حضرته الكريمة فكان اولهم ورودا عـلى سدتـه الشريفة وأبوابه
ص 15 العلية المنيعـة رسول صاحب الجـزائـر (1) لاقترابه فبلغ الرسالة * وادى الهدية وكان فيها من فساطيط الهنـد الغريبـة الشكـل والصنعة وزرابى مبثوثة وطرف نفيسة مـا يستحسن من أمثاله ثم تلته ارسال طاغية برتقال انريك(2) القائم بالدولة من بعد ولد أخيـه بستيان(3) فريسـة اميـر المـؤمنيـن المنصور وارسال طاغية قشتالة فليـب (4) وكان الطاغيتان قد أوفدا معا قبل ذلك على امير المؤمنين رسلهـم الاولين يرغبونـه فى الامتنان عليهم بشلو الطاغية بستيان الموارى بالقصر فى تابـوتـه ووافـوه أيام مقامـه بمعسكره من ساحة فاس بين يدى ارتحاله لمراكش(5) فتطارحوا عليه متضرعين وخاضعين لعز الاسلام فرءا أيده الله ما فى اسلام الشلو لهم والذهاب به الى ارضهم من مزيد الفخر للاسلام وتجـدد الاحـزان لعبـدة الاصنام بمشاهدته وغبطتهم برؤيته ونكايتهم بالوقوف على فريسته فامتن لذلك به عليهم واسلمه اليـ م من غير عوض بعد أن كانوا مذعنين لبذل الاموال العظيمة فيه (6) وتباروا لذلك فى مكافاة امير المؤمنين ومجازاته بالحسنى فاوفدوا عليه رسلهم رهبـة ورغبـة ووافوا جميعا حضرته العلية الامامية فى جمادى الاولى (7) متفاوتين بيومين أو ثلاثـة وكان اسبقهم بلوغا لدار الخلافة صاحب برتـقال وكانوا قد بلغـوا الى البريجـة(8) بجمـادى الاولى ثم تلقاهـم بهـا خبـر اعتلال أمير المؤمنين بمرضه الذى وعك منه حينئذ وعكا شديدا فأقاموا هنالك الى أن أبـل وجاءهـم أنه قد استقل من علته فوفدوا عليه ووصلوا مراكش بهدايا مرسلهم وكان يوم بلوغهم اليها يوما مشهودا عند اهلها تحدث الناس به دهرا لكثرة ما شاهدوا من تلك الهديـة العظمى التى تفوت الحصر واعجابهـم مـن احتفال مهديها وكانوا وقروها يوم الدخول على العجلات والقراريط فاشتقوا بها الحضرة مـن باب فـاس الى (9) فتهافـت الناس على رؤيتها تهافت الفراش وغصت بهم طرق المدينة وسككها وحطوا أثقالها بالايوان

---

(1) كان على الجزائر حسن البندقى (بكلر بك شمالى افريقية) دامت ولايته من سنة 1577 الى 1580 •

(2) اى الكاردينال هنرى الذى حكم بالبرتغال بين سنتى 78ـ1580 •

(3) يقصد سابستيان : Don Sabastion

(4) فيليب الثانى Philipe II ملك اسبانيا (55ـ1598) يمثل عهد الاوج فى تاريخ اسبانيا الحديث •

(5) أستقبل المنصور الوفديـن الاسبانى والبرتغال بظهر الزاوية بناحية فاس اكتوبر 1578 قبل توجهه الى مراكش •

(6) يتضح من هذا أن المنصور كان يهدف الى خلق جو من التعاون مع الاسبان والبرتغال ولم يشا الضغط على البرتغال للتخلى عن بعض قواعد الاحتلال بشمالى المغرب كما كان متوقعا •

(7) جمادى الاولى 987 يوليوز 1579 •

(8) البريجة : مدينة الجديدة ، كانت من مراكز الاحتلال البرتغالى فى المغرب •

(9) بياض بالاصل .

فضاق بها رحب فضائه على سعته وانفساح أرجائه وكان الذى ظهر منها للناس واحصوه ثلاثمائة الف دقات من ريال الفضة وأما ما يرجع الى أحمال السلع النفيسة من كل جنس وغريب كل نوع من الحرير والخز والديباج والسندس الى غير ذلك من أسرة هندية مذهبة بستورها وأوطيتها من رقيق الديباج والوشى وكراسى مكللة وعجائب من طرف الهند وبلادهم وتحف أرضهم وأوانى صنعهم وذخائر ملكهم فبحر لا ساحل له كثرة ودنيا لا يحاط بها وصفا وزينة وجلس لهم امير المؤمنين عند السلام جلوسا مما اعرب عن قدرته وأبهى سلطانه ثم وصلت على اثرهم ارسال صاحب قشتالة وبلغوا مراكش على جهة أسفى مرسى فلكهم ومحط رحالهم للثالثة من وصول ارسال صاحب برتقال اليها فأدوا رسالة ملكهم وعظيم ملتهم وقدموا بين ايديهم هديته
ص 16 المشتملة على كل نفيس من حجر الياقوت ★ الكبير الحصيات المنتقى لذخائر الملوك انتزعت من تاج ابائه واسلافه والذخيرة العظمى عند قومه وربعة مملوءة من حصباء الدر الفاخر وقصب الزمرد كانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوت سائر الاحجار مقدارا وشكلا وحسنا وعلقت بها زمردة أخرى أقل منها جرما وأشبه بها حسنا وكلتاهما من ذخائر الملوك العظيمة ونحو ذلك من الذخائر النفيسة والتحف الدالة على همة مرسلها وعظمة المترف بها ثم رام الناس تحقيق ما بين الهديتين من التفاوت بمكيال التقدير وميزان التخمين عند المقارنة والمقابلة فأشكل عليهم ذلك وتوقفوا عن الحكم لاحداهما بالشفوف عن الاخرى لاحتفال كلتيهما فى نوعها ووصل الرسول الى امير المؤمنين لاداء التحية فقعد لهم افخم قعود وبالغوا فى الخضوع له والاستخذاء لوطء بساطه والاستكانة لعظيم سلطانه وتلقاهم بما يليق به كرماء القوم من البر والحيا ثم وردت على تفئة ذلك ارسال سلطان الروم وبلاد المشرق وصاحب القسطنطينية العظمى خاقان الترك من بنى عثمان السلطان مراد خان اوفدهم من ضرته وأوعز الى مفتى جزائر من ايالته الشيخ العالم الصدر الكبير الخطيب الشهير ابى الطيب (   )(1) البسكرى بصحابتهم الى المغرب واختاره لشهرته ومكانه فى العلم والرياسة ليحسن اداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما فى الضمائر وليدل بارساله على علو عمله وشرف مقدار المرسل اليه فوفدوا على سدة امير المؤمنين المنصور فى جمادى الاولى من عام سبعة وثمانين يقدمهم أبو الطيب فبلغوا الرسالة وادوا الهدية وكان انتخب فيها خاقان ما انتقاه من الملابس الفاخرة وبعث معها بسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلى والزينة فاسحنفر ابو الطيب فى شأن التهنية والاعراب عن مقاصد الرسالة وادى الهدية فاهتز

(1) يوجد بياض فى الاصل .

لذلك امير المؤمنين سرورا من اعواده ولقاهم مبرة التكريم واختار النزل والارغاد في القرى واقامة رسم الضيافة وتوسيع الجراية حتى انقلبوا الى مرسلهم محبورين وكان ممن وصل أيضا على تفئة ذلك عامئذ ارسال طاغية الافرنجة (1) ويقال افرنصة وبه يعرفون اليوم فقضوا فرض التهنية واقتفوا سنن غيرهم من ارسال ملوك الارض .

ذكر تجهيز الحركة الاولى لتمهيد السوس (2)

قد قدمنا ما كان من اضطراب أحوال المغرب في أيام المعتصم رحمه الله واضطرامه نارا وفتنة وهبوب زلازل الهول في كل قطر من اقطاره واظلام الجو في سائر ممالكه وجهاته واتصل ذلك مدة حياته حتى مال عمود الخلافة او كاد وهلك رحمه الله والشر والفساد في عنفوانهما ومرجل الهول شديد الغليان والدنيا يموج بعض في بعض فجاء الله من امير المؤمنين بالجبل العاصم من الطوفان فرست به قواعد الملك وتثبت اركان الخلافة وركدت عواصف الهول الدائمة الهبوب خمسة أعوام تباعا عمر دولتي المتوكل والمعتصم ولما استوسق لامير المؤمنين الامر ورجع من مشهد الفتح واقتلع لاول مرة جرثومة البغي والشقاق من قواد الاندلس على ما قدمنا بفاس ووصل لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة فاقتعد بها كرسي الملك واستوى على سرير الخلافة وانثالت على بابه بها ارسال ملوك الارض مهنئين كما سبق بما صنع الله على يده من الفتح واتاه من الملك ورسخت قدمه وتمكنت قواعده نظر في اعطاف دولته فلم أرأهم لديه ولا أشد عليه من تقويم مائلها وتثقيف أطرافها واستيصال الخوارج عليها وتدويخ النازعين الى الخلاف من رعاياها وتمهيد القاصية والدانية من أعمالها وكان من أول ما صرف اليه همه من ذلك ووجه اليه عنايته بلاد السوس وممالكه بما كان قطره منبعث الدعوة ومطلع شمس الامامة الكريمة وقبائله اشد شوكة واقوى عصبية وكان شأنه في
ص 24 الانتفاض سهلاً وحزنا منذ نهوض امير المؤمنين منه في عساكر * لتشريد المتوكل (3) من أعمال الحضرة أيام اطلاله عليها على ما وصفنا من قبل وانه عادت فيه هيف الى اديانها من لدن مغيبه عنه ايده الله في خلافة أخيه المعتصم الى حين ولايته هو فاجمع أمره حينئذ على تدويخ جهاته وتمهيد اقطاره فجهز العساكر من الرامحة والنار وعقد عليها

(1) بعث الملك الفرنسي هنرى الثالث سفارة الى المغرب تحت رئاسة Guillaume Berard وذلك لتهنئة المنصور وتذكيره بالعلاقات الطيبة التي كانت بين المغرب وفرنسا زمن المعتصم ، ولتقديم بعض المطالب كفتح الموانيء المغربية في وجه السفن الفرنسية وتحرير الاسرى الفرنسيين ، وكذا لشراء مقادير هامة من ملح البارود واخيرا الطلب قرض مالى بمبلغ مائة وخمسين الف دوكة . (دى كاسترى . فرنسا . ج 2 . ص 22) .

(2) يقتضى الترتيب الزمني للاحداث الانتقال الى صفحة 23 .

(3) اثناء خلافة المعتصم ، كلف المولى أحمد بمحاربة المتوكل وملاحقته بالسوس ، وقد استغرق في قتاله سنتين متتاليتين 985ـ986/77ـ1578 .

لحاجبه اليوم الخالصة القائد أبى محمد عزوز بن سعيد الوزكيتى وجعل اليه أمر تدبير الاجناد والحروب فاقلعوا عن الحضرة فى شهر (1) ومن بعد انفصالهم بدا لامير المؤمنين أن يسرح معهم خاله القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد الصغير وصاحب الاشغال بالحضرة الصدر ابا عبد الله محمد بن مومن السوسى وكان ببلاد حاحة انفذه اليه امير المؤمنين من قبل ذلك في حصة من الجيش لاقتضاء خراجها فاوعز اليه بالنفور مع العساكر رديفا لخاله والحاجب في الشورى والمفاوضة بما كان عارفا بأحوال السوس وبصيرا بأموره لاستعماله على الشرطة والخراج به دهرا من خلافة الغالب بالله وصدرا من خلافة المعتصم فلحق بالعساكر وتوجه ثالث القواد تحت رايات امير المؤمنين وساروا حتى اذا نزلوا بالسوس صمدوا الى جباله على جهة تاكراكرى من بلاد هشتوكة ومروا مجتمعين حتى أناخوا ببلاد هلالة فافترقوا هنالك محلتين توجه باحداهما خال امير المؤمنين وعاج بها الى جهة القبائل المجاورين لجبل درن ومروا يتقصون تمهيد البلاد ارضا أرضا وقبيلة قبيلة ويجوسون بالعساكر خلال ديار الخوارج وأهل الشقاق والعصبية فاكتسحوا السرح وانتسفوا الزرع وخربوا العمران ودمروا أرض المارقين تدميرا حتى اذعن لهم جل قبائل السوس ومدوا يد الانقياد للطاعة واشرفوا على التمهيد واستكمال التدويخ وبينما هم فى جد من امرهم واقتبال من شأنهم اذ عرض لامير المؤمنين مرضه الشديد الذى بلغ الى حد الارجاف به فكتب اليهم أيده الله يسترجعهم عندما عوفي من طائلة فوردوا الحضرة في شهر ((2)) وارجأ امير المؤمنين امر السوس في استكمال تمهيده ومعاودة تدويخه حتى استأنف له حركة أخرى واردف اليه الكتائب والعساكر حتى ادلت عصيه واقامت الى اليوم مائلة على ما سنذكر ان شاء الله بعد .

ذكر اعتلال امير المؤمنين وتجهم الزمان لطروق مرضه وجزع المسلمين عند اشتداد زلزاله وما كان عقب ذلك لابنه المولى الامير الهمام أبى عبد الله محمد الشيخ المامون ابقى الله ايامهم .

ص 25 كان طروق هذا المرض والمام طائفه بذات مولانا امير المؤمنين فى جمادى الاولى من سبعة وثمانين (3) ووافق ذلك من الزمان فصل الحر والقيظ ولفح سموم الهواجر

(1) ارسلت هذه القوات غالبا خلال الاشهر الاولى عام 987/1579 ، وقد استدعيت للعودة الى مراكش اثر مرض المنصور فى جمادى الاولى 987/غشت 1579 ، وفى الاصل يوجد بياض .

(2) حسب الفشتالى : استدعى المنصور قواته المحاربة بالسوس الى العودة الى مراكش اثر ابلاله من المرض أى قبيل رمضان 987/1579 .

(3) جمادى الاولى 987 يوافق شهر غشت 1579 .

قشبت بذلك نار الحميات ونفخ عليها كير الحر بلهب تلك السموم فازدادت توقدا واشتعالا فاهتاجت حينئذ سورة المرض بما كان من الامراض الحادة اهتياجا قام له فى ركائبه رئيس الاطباء بباب الخلفاء رضوان الله عليهم الشيخ ابو عبد الله محمد الطبيب احد كبار مواليهم العلوجي حتى كان من مهرة الفن وءاية فى العمل والتجريب ووحيدا فى فهم أمراض الخلفاء ومعرفة طباعهم لطول مازاول فى الجاهلية والاسلام بباب دارهم مدة من ثلاثين سنة أو اربعين فعكف على باب امير المؤمنين وشمر لمصارعة ذلك المرض فكان الحرب بينهما سجالا ثم طال الامر بالناس واطرقوا الوجوم الاسد فى خيسه وانبهمت عليهم الامور أيام اشتداد الوجع وتكالب العلة فملكتهم الحيرة واطبق على الدنيا ليل الهول واغبر وجه الارض وتجهم الزمان ومرج أمر الناس فبلغت القلوب الحناجر جزعا على امير المؤمنين أيده الله وضنانة به وشفقا لامة من عدم تعيين من يكفلها ويحمى من بعد الامام بيضتها فتصرف اليه الوجوه وتناط به الامال اذ كان امير المؤمنين مازال لم يعهد الى احد ساعتئذ بأمر الامة ولا نصب للناس خليفة يكفلهم من بعده ثم تدارك الله تعالى الاسلام بما شأنه أن يتدارك به المضطر من عباده فهبت على الناس من راحة امير المؤمنين ريح عاطرة واستنشقوا الانتعاشة وافاقته نسيم الفرج طيب الارج فانجاب عن الدنيا الهول المطبق وتقشعت عنها غياهب الحيرة فسكنت النفوس الواجفة واطمأنت الخواطر المتأوهة ولما أطاق أيده الله الحركة وخلص ابريزه من ذلك السبك وأهل قمره من بعد المحاق وطلع بأفق قصره اعتزم على البدو للناس لاول انتعاشه لما يعلم من تشوقهم الى وجهه الكريم واستطلاعهم لغرته السعيدة والاقتباس من انوارها الساطعة وارتباكهم لمغيبه عن ابصارهم فبرز صبحا الى الايوان الكريم الامامي ونصب له كرسى الخلافة بقبته الكبرى ذات الاساطين فلاح بها لياح القمر بهالته وتسامع الناس بخبر ظهوره فنسلوا اليه من كل حدب وقذفت بهم سلك الحضرة من كل أوب واشرع باب الايوان فتهافت الناس عليه أيده الله تهافت الفراش وكادوا أن يختطفوه شوقا اليه وشغفا به لما القى الله من محبتهم عليه فازدحموا على رويته وتقبيل بساطه ولثم اطرافه واستقبال جميل محياه فرحين بمشاهدة طلعته الكريمة ورافعين الى الله أكف الشكر والثناء على فضله
ص 26 بما امتن به عليهم من عصمة دينهم ودنياهم بعصمة مولانا الامام * كهف الاسلام وظل الله فى الانام ثم تنافس ارباب الدولة وصدور المملكة وأهل البساط فى اتحاف الطبيب شكرا لله على ما خولهم من نعمة ابلال امير المؤمنين فانهالوا عليه بين يدى الامام بشآبيب الدنانير والدراهم والخلع انهلال الغمامة الوطفاء وتهالكوا فى ذلك وتبعهم فيه سائر القواد ورؤساء الاجناد فلم يبرح الطبيب من ذلك المجلس الكريم الا بألوف من العين واحمال من الخلع اكسبته ثروة وابقت فى ورثته الى اليوم غنى مخلدا

وكان ذلك اليوم المبارك عيدا بالحضرة بما قام من اسواق الفرح والسرور وابتهاج الافئدة والصدور وبروز العذارى من وراء الحجال والستور ورفع الشعراء الى امير المومنين كلماتهم يهنونه بالصحة والابلال فقال في ذلك شاعر الدولة الفقيه البليغ ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي :

تردى اذى من سقمك البر والبحر ... وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مسهدا ... وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي افاق بهـــــا من غمـــه البدو والحضـــر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها ... وعاد الى ايامها ذلك البشـر
وصار بك الاسلام في كل بلدة ... يهني ويدعوا أن يطال لك العمـر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها ... وعادت الى الايناع أغصنها النضـر
ولا غرو ان خافت على سمط الندى ... اذا اغبر وجه الارض واحتبس القطر
بسيف ابى العباس انفقت عجافها ... قديما فخافت ان يعادوها الضمـر
لئن جزلت بيض المعالي فقد غدت ... تشاوى الظبابة البيض واللدن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ... ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

ولما اجزل الله تعالى بكمال صحة مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله وصلاح بدنه ومزاجه وعوده الى أحسن قوامه واعتداله ودفع الله تعالى الخطب بما رفع عن ذاته المشرفة صان الله تعالى جوهرها النفيس عن الآلام وعوارض الاسقام وجعل في ذلك سبحانه عصمة للاسلام جنة واقية لامة نبيه عليه السلام انتدب الملأ من اكابر الدولة وأهل الحل والعقد الذي يقتدى بآثارهم ويهتدى في الاراء الصالحة بمنارهم واجتمعوا على رفع رسائلهم وتوجيه رغباتهم الى مولانا الامام امير المؤمنين أيده الله في النظر للامة بتعيين امام يصرف اليه عهده وينصبه خليفة للاسلام بعده وكان اشدهم على هذا الامر حرصا واخلصهم فيه الى الله نية واصدقهم عزيمة الشيخ المسن الصدر الكبير المعمر بقية
ص 27 اصحاب الامام * رضى الله عنه القائد ابو محمد مومن بن غازى العمرى تقدم الى امير المؤمنين لاول ما برز للناس من قصره غب مرضه فمثل يوما بين يديه وأكب على قدمه الشريفة لاثما ومستعبرا وقال له وقد تجرد من ثوب الريا وأطرح رداء المداهنة ولبس حلة النصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وقال أيده الله مولانا أمير المؤمنين اننا معشر الامة مسائلوك ومطالبوك عند الله بحقنا عليك في النظر لنا بمن يحفظ كلمتنا ويصون عن الافتراق جماعتنا وقد كان ابوك الامام رضى الله عنه لما بدا وتمم لم يقبضه الله اليه حتى عين من اخيك الغالب بالله اماما يرجع اليه فاتبعناه وأطعناه فحفظ النظام وحميت بيضة الاسلام ثم عين أخوك ابنه فرجعنا اليه حتى اداله الله بغيره فجاء باخيك المعتصم

وبك رداء له فخلع عليك عهده ونصبك للامة خير امام بعده فاطعناك واتبعناك فكنت الكافي الكافل والامام الكامل وان مع اليوم غدا فلمن تكل امر الامة بعدك وما عذرك في ترك الناس هدى ولم تنصب عليهم اماما يرجعون اليه وخليفة تدور امورهم من بعدك عليه ثم قال له وهذا ابنك يفرى الفرى ويرمي الى كل غرض فيصيب شاكلة الرمية يشير الى كبير ولده الجاري على هديه والمقتدى بصالح علمه ومشكور سعيه المولى الامير الهمام ابى عبد الله محمد الشيخ المامون وسماه له باسمه ورغبه ان يشد به اركان الملة ويخلع عليه امر الامة لكونه مستودع آياته الصادقة وصاحب علاماته الناطقة وبقي امير المؤمنين أيده الله يستخير الله في ذلك ويسأل منه الالهام والتوفيق لما فيه صلاح الامة الى أن تلاحق وفد فاس من علمائها واشرافها وأهل الحل والعقد من أهلها وقد اهمهم أيضا ما اهم الملأ من أهل الحضرة من حفظ نظام الكلمة وصون الجماعةو تشييد اركان الملة بمن يحمى ذمارها ويحوط بعد الامام بيضتها فتقدموا الى أمير المؤمنين ونور الله يسعى بين ايديهم فتطارحوا على فضله أيده الله في اسعافهم الى هذا الامر الذي أهمهم شأنه وخاضوا القفار الى بابه العالي من أجله والقوا اليه اضطرار الامة الى من يلم بعده شعثها ويحفظ نظامها ويصون عن الافتراق جماعتها ثم اصفقوا في ذلك على اختيار كبير ولده ومن أجمع الناس على فضله من بعده المولى ألامير أبي عبد الله محمد الشيخ المامون لما علموا من أهليته وتحققوا من افضليته فلم تزل رغباتهم الى امير المؤمنين ممتدة حتى اسعفوا الى قصدهم الجميل وقد ذكروا منه أيده الله من لم يكن ناسيا ونبهوا ساهيا فجمع أهل الحل والعقد من سائر الاجناد فعهد فيهم بأمره الى ولده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ وأخذ له البيعة عليهم فأعطوها طواعية باصفاق منهم واجماع من خاصتهم ★ وجمهورهم وأعطوا عليها صفقة ايمانهم طائعين ومتبرعين ص 28
وفرحين ومغتبطين وكان ذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان العام فاطمأن الناس بذلك وسكنت نفوسهم واستمرت الاحوال على ذلك الى ان جدد امير المؤمنين أيده الله هذا العهد وأكده لولده لما ادرك بنوه الصغار فاخذ له عليهم وعلى الناس البيعة ثانيا بالملتقى المبارك الذى جمع الاحمر والاسود بتامسنا عام ثلاثة وتسعين حسبما ياتي التعريف بذلك ان شاء الله في محله .

ذكر مفر داوود بن المولى الامير عبد المومن من الحضرة وخروجه بالسوس وتجهيز العساكر اليه وما كان من خروج الامام اثرهم وعسكرته بفم تانوت الى أن جاء الفتح .

(1) الاثنين 2 شعبان 987/24 سبتمبر 1579 .

كان الامير داوود هذا ممن تزايد من البنين للمولى عبد المومن بن المهدي الامام بمسقط اغترابه من تلمسان وهلك فتركه هو وأخوه عمر الكبير كان منهما في كفالة عمهما المولى عبد الملك المعتصم واصحبهما ركابه الى المغرب فمات عمر لاول خلافة عمه المعتصم وبقي داوود تحت كفالته الى أن زحف من الحضرة في العساكر لغزاة وادي المخازن منذ خروج الطاغية فجهزه في حصة من الجيش وسائر مطوعة الحضرة الى دكالة لمقابلة ولد المتوكل ومن معه من المشركين بالبريجة (1) وسرح معه القائد ابا الفضل الغري الاندلسي المتقدم الذكر عند نكبته هو وقومه فأقاموا هنالك الى أن صنع الله على يد أمير المؤمنين من الفتح ما صنع وهلك المعتصم فصار اليه الملك والخلافة فبعث عن داوود لاول أمره من مشهد الفتح وسرح اليه القائد أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة يستقدمه من دكالة فوفد عليه بفاس مرجعه من الغزو ولقاه برا وترحيبا وعقد له على مكناسة محل امارة ابيه المولى عبد المومن ولما فرغ من ابرام الامور بفاس حلا وعقدا وتثقيف جهاتها وأطرافها والولاية على ممالكها وأعمالها واعتزم على المسير لمراكش دار الخلافة أجمع أمره على استصحابه معه للحضرة حذارا مما تفرس فيه من الشواهد وتوسم في أمره من المخايل التي اسفرت عنها العاقبة ولما قارن ذلك أيضا من اعتلال الدولة ومرضها منذ خلافة المعتصم بتغلب الجيش واستطالة يد عدوانه وزبونه واضطراب أحوال المغرب وتوقي لذلك ما ينشأ عن بقاء داوود وراءه وحذر مغبته فرءا جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة فعمل بمقتضى الحزم الذي من شيمته واصحبه ركابه بخاصة نفسه واستبقى مكناسة بذمته وترك بها عماله وولات الامر بها من قبله لتمشية اوامره فيها واحكامه
ص 29 وأخفى عنه وجه التقية موريا * بأنه يحتاجه للنيابة عنه في قود العساكر الى السوس والقيام بتمهيده وتدويخ اقطاره على علمه بأنه يضعف عن ذلك كاهل اقتداره وعن النهوض باعبائه وانما يسر له حسوا في ارتغاء ولما احتل امير المؤمنين أيده الله بمراكش انزله من قصورهم بداره المطلة على اساراك المخصوصة من قبل الخلافة بسكناه ايثارا ومحاباة ثم مهد له اكناف العز وبسط له أوطية القبول والاحتفاء وجرى في مصانعته ومحاباته بكل ما يسع من وجوه البر وحسن الايثار الى أبعد ورجاء أن يستخلصه ويستل سخائمه فلم تنسل واتصلت به الشرذمة التي سطى أمير المؤمنين في خبر نذكره من أصحاب المعتصم فأظهروا له الميل الى جانبه ومتوا اليه باسباب الانتماء الى حزب عمه المعتصم وجعلوا يوسوسون اليه ويبثون في آذانه الا لاقي بما كانوا مرضى القلوب على

(1) انزل الملك البرتغالي دون سباستيان المولى الشيخ بن المتوكل في حصن البريجة (الجديدة) رهينة الى أن تنتهي المعركة ، وبعد انهزام البرتغاليين في وادي المخازن نقل الشيخ الى لشبونة التي استقر بها لاجئا سياسيا .

الدولة وصادفوا منه قلبا خليا وفؤادا شجيا فتكمنت منه وساوسهم واسودت نكثتها فى قلبه فانطوى على النكث حتى اذا سمع ما عزم عليه امير المؤمنين بالعهد بالخلافة لابنه الاحق بمنصبها المولى الامير الهمام ابى عبد الله محمد الشيخ المامون بتقديم رغبات أهل الحل والعقد كما مر وأخذ لـه البيعة على الناس أسفه ذلك وحرك من احنه ونفس على ابن عمه ولاية العهد واغتنم ذلك سماسـرة الفتن فحطبوا لنار موجودته فازدادت لهبا ونزع من حينـه عـن الحضرة الى جبـال سكساوة المطل من درن وأوعـز اليهـم أمير المؤمنين بالقبـض عليـه ودس اليهم بذلـك وتوعدهم عليه فنفـطن لذلـك داوود وفـر بنفسه فلحق بالسوس ونزل على المنحرفين عن الطاعة من أهله فاجتمعوا اليه ثم صرخ فى سائر القبائل بالخلاف والعصيان وكان عهدهم بالطاعة حديثا لم ترسخ فيهم قواعدها كل الرسوخ فلبوا لذلـك داعيتـه واعلنوا بالعصيان وتواطئوا على الشقاق كافة فتعاون ذيابهم على رأس كل يفاع واضطـرم بذلـك السوس نارا وورى فيه زند الشيرفى سائر البقاع فاعتزم اميـر المؤمنين حينـئذ عـلى استيناف الاهبة وتجهيز العساكر ثانيا لحسم أدواء الفساد واستيصال الخوارج ومنازلـة داوود فى معصيته فبعث عن العساكر المجمرة ببلاد سجتانه من السوس مع خاله والحاجب وابى عبد الله محمد بن موسى فوصلوا الى الحضرة وخلا بذلك الجـو لـداوود فاغتنم الفرصة فى الاجلاب على درعة(1) فى فصل الشتاء وانقطاع الثنايا المفضية اليـها مـن الحضرة على الفائجة بما تراكم فيها من الثلج واذن فى الخوارج ببلاد السوس بالمسير اليها واغذ نحوها فى جموع من اوباشهم وبلغ الخبر الى امير المؤمنين فسرح اليه عسكرا من الحضرة واوعز الى القبائل بتمهيد المجازله على ثنية الكلاوى وسابقوه اليـها فشردوه عنها فرجع الى السوس مفلولا ثـم انصـرم

ص 30 فصل الشتاء واحتفل اميـر المـؤمنين فى الاهبة * وخرج من عساكر الحضرة جيشا عرمرما يحمل الاسل والنار وعقد عليه للزعيم الشهم القائد أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة احد رجال دولته وأوتـاد مملكته وفحل العصابة التى فخر الهجرة(2) وسوابق الخدمة السالفـة ودفـعـه الى حـرب داوود واستيصال الخـوارج فنهـض فى الالويـة

(1) كان داود بن عبد المومن يسعى الى الوصول الى درعة والصحراء المغربية الشرقية ، من أجـل الاتـصال بالاتراك فى الجزائر ، ومن الوثائق النادرة التى تلقى ضوءا على هذه الثورة ، رسالـة موجهـة مـن رمضان باشا حاكم الجزائر الى داود بتاريخ اواخر ربيع الاول 988/ماى 1580 وقد جاء فيها (ولما عزمنا الآن قدومنا الى مدينةتلمسان فاول ما سالنا عن احوالكم واين استقر مقالكم لكي ننشؤوا معكم عهدا تقدم لنا مع اسلافكم فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلمونا فى جوابكم لنا بما عندكم من مامول ومرغوب .. فلا تغيبوا عنا شيئا من مقاصدكم السنية) .

سيمانكاس باسبانيا (Simancas)رقم الوثيقة 114 L - E

ويوجد نص الرسالة فى ملحق أطروحة الدكتوراه : عصر المولى أحمد المنصور الذهبى . ص 449 .

(2) يقصد بالهجرة خروج المولى أحمد من المغرب الى الجزائر جلاثا عندما تولى ابن أخيه المتوكل الحكم بعد وفاة الغالب بالله ، خوفـا من أن يبطش به .

والعساكر من مراكش في تاريخ ((1) .) ثم خرج امير المؤمنين اثرهم من الحضرة في
اجناده الامامية منتصف صفر من عام ثمانية وثمانين وتلوم بساحة الحضرة اياما وسار
الى شوشاوة واراح بها شهرا أو يزيد ثـم انتقل الى ايمى انتانوت وهـو باب الطـود
الاعظم المفضى الى القصـر السوسى فاقـام هنالك في جنوده مطلا عـلى سائر المملكة
اقطار من مرقبته ومشارفا لاحوال عساكره ولـما اشرف القائد ابـو عبد الله محمد بـن
ابراهيم بالعساكر على السوس اعتمد داوود برأس الوادي وصمـم اليـه فاجفـل امامه
وتصاعد الى جبل هوزالة فاعتصم بذروته واوعز امير المؤمنين الى أبى عبد الله باقتحامه
في معتصمه وكان اتخـذ عليـه اسـدادا من الحجارة والصخـور وتاشبـت جمـوع من
الغوغاء واحزاب مـن الخوارج واستعدوا للدفاع فزحف اليهم القائد ابو عبد الله وقد
جمعوا له فاقتحم عليهم الجـبل والـح عليهم بالقتال فعضتهم ناب الحرب وفض جموعهم
فاستولى على معقلهم ومحل اعتصامهمو واجفل داوود يولى الى وادى هرغة عصابة الامام المهدى
القائم بدعوة الموحدين ثم جهز امير المؤمنين من معسكر بفم تانوت عساكر أخرى مـن
الرامحة والنار وعقد عليها لمولاه القائد ابى على منصور بن عبد الرحمن وسرحه لاعتراض
داوود فصمد اليه عـلى جهـة بـلاد جطيـوة وأهرقته العساكر التى الى نظر القائد ابى
عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة وزحفت اليه الاجناد من كـل جـانب فطلب منجاتـه
واجفل الى القفر برأس طمرة ولجام فنزل علىعرب الوداية وبقي يتقلب في احيائهمحتىاغتيل
وهلك في الغابرين فلم تبكه عين ثم جالت الكتائب والعساكـر في ممالـك السـوس
وانبسطت في جهاته ومـرت تنقـرى جبالـه وأوطانه ارضا ارضا وقطرا قطرا حتى دوخت
القصى واستنزلت مـن صيـاصيه العـصى وحسمـت ادواء الفساد واستأصلـت شافـة
الخوارج ومحت اثار الثوار فخفتت في عرض السوس وطوله الى هلم اصواتهم وسكـن
ارجافهم واتحت عليهم الدولة بكلكها فالقت الطاعة بحيرانها وجاء خبر الفتح الى اميـر
المؤمنين ايده الله بمعسكره المبارك من فـم تانوت وأوفد عليه القائد ابو عبد الله ابن
ابراهيـم وفـدا مـن الخـوارج ومشيختهم المنغمسين في العصيان منذ اعوام خاضعين
وتائبين ومستأمنين فامنهـم اميـر المؤمنيـن ووسعهم صفحه وعـفى عفوه على جرائرهم
فحسنت طاعتهم وخلصت انابتهم واستقامت أحوال السوس وتخللت الطاعـة والعافيـة
ص 31 ممالكه قاطبة فدرت * بذلك ضروع جبايتها وقسمها امير المؤمنين بين الزعيم أبى عبد
الله ومولاه أبى على شطرين فبث كل منهما العمال في جهته لاقتضـاء خراجـها فسـال

(1) من سياق الكلام يبدو أن خروج القوات العسكرية كان في مطلع صفر 988/ابريل 1580 .
وفي الاصل يوجد بياض .

عليهما من ذلك بحر لا ساحل له وقفلوا الى الإبواب عند استيفاء سائر تلك الوضائع والمغارم فوصلوا متفاوتين واستاق كلاهما بين يديه عيرا من الذهب والفضة وأحمالا من المال تفوت التقدير لم يتأت جلبها من من هذا القطر فيما علمنا لدولة من دول الاسلام بالمغرب لتقاصر صولتها عن تدويخه والاستبلاغ فى تمهيده فكان ذلك من دلائل القدرة لهذه الدولة الكريمة الامامية على صلابة عودها وقوة عصاها التى لا يستقل من خبطها كل من علت مفرقه ولله الحول والقوة لا اله الا هو ولما كمل الفتح وانثالت على معسكر امير المؤمنين وفود القبائل وهرعوا الى بابه والولوج فى طاعته افواجا حتى اجتمع منهم خلق كبير غصت بهم محلاته السعيدة على اتساع معسكرها فسرحهم الى حضرته ثم تلتهم وفود أخرى يقدمهم رؤساء الخوارج وكبار الثوار الذين تولوا كسر ذلك الشقاق وادارو بيد اعتياصهم رحى تلك الفتن موسى بن على كبير قومه هوزالة وقريعه المساهم كان له فى الثورة وتخريب الاحزاب واضرام نار الشر وتحريك اسباب الفساد والدعاء الى الخلاف محمد بن ابراهيم الزودتى كان اوفد اخاه وابنه اولا على باب امير المؤمنين ثم قدم بنفسه اخيرا الى اقيالها من رؤساء الخوارج واعيان القبائل فكان ورودهم هؤلاء الثوار خاتمة الفتح والعلامة الكبرى على التمهيد والاستقامة ازمع امير المؤمنين ايده الله حينئذ القفول الى الحضرة فقوض الركاب ورجع على غير الطريق التى اتى منها فارتحل مع السفح ونزل على القاهرة وواصل الترحال حتى احتل بالحضرة ميمون السفر مظفر اللواء فاستقر بها على مهاد الغبطة الى أن كان ما نذكر ان شاء الله .

ذكر خروج امير المؤمنين وعسكرته بتانسيفت وما كان من مبايعة الناس لولده المولى الامير ابى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله هنالك مصافحة .

لما كانت البيعة التى أخذها امير المؤمنين لولده على الناس غب ابلاله من مرضه كما قدمنا قد انبرمت بالحضرة والمولى ابو عبد الله بفاس فلم يصافحه الناس بها مباشرة ولا اقتضيت منهم ايمانها مشاهدة وكان عهد الناس برؤيته ايضا قديما لمغيبه بفاس منذ سن الطفولة الى أن اقمر هلاله السعيد ودوح غصنه الباسق رءا لذلك أمير المؤمنين ان يأتى بتلك البيعة المباركة على اتم شروطها واكمل ربوطها وان يستقدم ولى عهده من فاس حتى يشهد الناس أهليته لمنصب الخلافة النبوية واولويته برتبتها الشريفة بما يبلون من كماله وشريف خلاله فخرج لذلك من الحضرة ★ فى الثانى عشر ص 32
من صفر عام تسعة وثمانين(1) واضطرب معسكره على شط نهر تانسيفت واوعز الى

(1) يوم 12 صفر 989 هـ يوافق مارس 1580 .

ولي عهده بالقدوم وتلوم عليه حتى وصل غرةجمادى الثانية(1) من العام في اجناد فاس وعساكرها وسائر اهل الحل والعقد الذين عليهم مدار الامور واليهم ترجع الخاصة والجمهور من علمائها واشرافها واعيانها ولما كان يوم وصول ركابه العالي وطلوع طلائع السعد أمام موكبه الزاخر العباب ركب امير المؤمنين أيده الله في العساكر للقائه تكرمة واجلالا وبرورا بمقدمه وبرزوا الى الصحراء خارج معسكره السعيد فوقف في الاجناد واقبل المولى ألامير ابو عبد الله في كتائبه وقد ملأت الربى والاباطح في افخم زى وأحسن أبهة وأجمل شارة وانبرت الكتائب تنسرب للسلام على امير المؤمنين فوجا من بعد فوج حتى قضى جميعهم فرض التحية وتدافع المولى أبو عبد الله في موكبه المتلاطم وقد تطلع من خلال الرايات كالكوكب الدرى ولما هوى الى الارض ساعيا على اقدامه الطاهرة للثم الركاب العلي الامامي شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المؤمنين أيده الله عن العساكر ووقفت بمركزها وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى امكنه من لثم قدمه المشرفة وحنى متطأطئا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا في الالوية والعساكر والارض تموج بالكتائب حتى نزلا بفسطاط جلوس أمير المؤمنين أيده الله وأرح المولى أبو عبد الله ريثما ضربت قبابه واستوعب معسكره النزول لصق معسكر امير المؤمنين والده فركب اليه فكان ذلك اليوم أحد الايام المعدودة بما جمع الله من الاجناد وأظهر من عز الملة ووفور الحامية حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش سفيرا الى حضرة امير المؤمنين من عند ملكه(2) فاستأذن المقام العلي الامامي أيده الله في البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام فاسعف الى ذلك وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين ومجمع بحريها فشاهد من جنود الله وشدة شوكة الدين ووفور حامية الملة وضخامة عساكر الاسلام وابهته وجموعه المذكرة بالحشر سوادا ودويا ما لم يشاهده قط في ارضهم ولا عدل ببعضه جموع ملتهم وطواغيت اخرابهم فراح بما هاله واذهله ولله الحمد على اعلاء كلمته واعزاز ملته ولايام من مبلغ المولى الامير ابى عبد الله جمع امير المؤمنين أرباب الدولة وأهل الحل والعقد وسائر الاجناد والعساكر وجلس لهم المولى ابو عبد الله بخيمة امير المؤمنين العظمى فازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الايمان بمحضره فكمل الغرض من ذلك الجمع المبارك فثنى

(1) جمادى الثانية 989 يوافق يوليوز 1580 .

(2) في الوثائق التاريخية رسالة بعثها من مراكش الانكليزى Ralph Lane يذكر فيها بان ملك اسبانيا فيليب الثاني قد ارسل سفارة الى المنصور مع هدية خاصة ، وان الطرفين قد دخلا في مفاوضة لعقد تحالف بينهما (دى كاسترى . بريطانيا . ج 1 ، ص 356) .

عنانه لدار الامارة بفاس قرير العين مثلج بما أوتي من ولاية العهد والخلافة وقفل امير المؤمنين لمراكش منتصف جمادى الثانية فجرت الاحوال على ما تقر به عين الاسلام الى أن كان ★ من مسير امير المؤمنين أيده الله لفاس ما نذكر ان شاء الله تعالى . ص 33

ذكر ارتحال أمير المومنين في العساكر لفاس ومقامه بها حولا كاملا وتفويضه لولي عهده في ولايتها وما تدبره من الامور وأمضى من العزائم

كما قدمنا التعريف بما كان من مراسلة أمير المومنين لسلطان بلاد الروم والمشرق وايفاد رسائله عليه في مشهد الفتح الى القسطنطينية يخبره بما هيأ الله من نصر دينه واعلاء كلمته والاستيلاء على أحزاب الشرك وطواغيت الكفر ونبهنا على ما كان من احتفال خاقان في الهدية وايفاد ارساله بها على حضرة أمير المومنين وسدته الشريفة للتهنية بالفتح والخلافة فبلغ الارسال وأدوا حق الرسالة في التهنية وتقرير المودة والمبالغة فيما يوكد أسباب الاتصال بين الملكتين وانقلبوا فتشوق خاقان الى مثلها من أمير المومنين فتثاقل (1) عن ذلك لما شغله من تمهيد الملكة وقطع الشواغب عن الدولة واستيصال الخوارج عليها وحسم أدواء الفساد من أقطارها وارجا الامر في ايفاد ارساله على خاقان الى فراغه مما هو بصدده من ذلك ثم ان علوج على (2) وزير البحر كان عند بني عثمان وقائد أسطولهم لما كان خديث العهد بالكفر لتأخر اسلامه الى مجاوزة سن الاكتمال صار يستبطن لذلك عداوة للاسلام ويجاهر بها خصوصا لابناء النبي عليه السلام الخلفاء الراشدين بالمغرب رضوان الله عليهم ويجزل قسطهم من ذلك بمقدار ما لهم من العراقة في الدين والهداية بالنشأة من طينة النبوءة والتكون من معدن الرسالة فشمر بذلك لاثارة الوحشة والغيظة بين الملكتين واستيصال رحم الدين الجامع بينهما ليفت بذلك من عضد الملة باختلاف كلمة الاسلام وافتراق جماعة حزب الهدى ودبت لذلك عقارب سعايته على ما سلف من هديته وحرك منه بذلك النزعات الملوكية وزين له الانحدار المغرب (3) في أسطولهم الذى ألقوا بيده زمامه

---

(1) تفيد كلمة (تثاقل) بان المنصور قد تعمد عدم الاهتمام بالوفد العثماني لعدة عوامل أهمها : موقف الاتراك منه ساعة بيعته وتآمرهم مع بعض قادة الجيش للاطاحة بحكمه في الشهر الاول من توليته ، ثم الاتصالات التى كانت لهم مع داود بن عبد المومن • علاوة على ايوائهم للامير اسماعيل بن المعتصم في الجزائر ، فهذه العوامل باعدت بين المنصور والاتراك ودفعته الى التقرب من الاسبان •

(2) علوج علي : من أسرى نصارى صقلية ، تربى في احضان القراصنة ووصل الى أعلى مرتبة في البحرية العثمانية ، ولاه السلطان على الجزائر في غشت 1568 (بكلربك افريقية) ثم اصبح وزيرا للبحرية الى ان توفى سنة 1587 •

وتهجم الفشتالي وزير المنصور على علوج علي هوفي الواقع تعريض غير مباشر بالاتراك العثمانيين ومواقفهم من الخلفاء السعديين بالمغرب •

(3) هناك عوامل خارجية دفعت السلطان مراد الثالث الى التفكير في مهاجمة المغرب ، أهمها الهدنة التى عقدها الاتراك مع لاسبان يوم 7 يبراير 1578 • وفي سيمانكاس باسبانيا يوجد النص الكامل لهذه الهدنة Simancas E 489

توصلا الى ما يريد من كيد الاسلام بافتراق كلمته وتحريك أسباب العداوة والبغضاء
بين المملكتين واستياما لما يحاول كان أيضا ويعتمل فيه من الاستبداد عند استواء قدمه
بالجزائر قاعدة المغرب الاوسط اليوم واتصال يده بيد قومه من طواغيث الكفر وأحزاب
الشرك المجاورين له ويدفع بذلك في صدر بني عثمان وأسدى في هذه المكيدة عند
سلطانه وألحم حتى وجد منه أذنا صاغية وبرز له الاذن بتجهيز الاساطيل فشحنها
بالحامية ولم يال جهدا في الاحتفال وأقلع فيها الى المغرب وكان أمير المومنين عندما
ص 34 اتصل به في مخيمه بجنوده على تانسيقت خبر اعتمال ★ علوج على هذا في شأن
الحركة الى المغرب قصدا لتحبيب الكلمة وحطبا في حبل الكفر باستحداث الشقاق
بين المسلمين وافتراق جماعتهم وبلغ اليه خبر اجتهاده في ذلك من قبل انحداره في
الاساطيل بستة أشهر بادر أيده الله دفع مكيدته وأرهف حده لنكايته فجهز العساكر
مرجع ولي عهده لفاس من المجمع المبارك بتانسيقت وسرحهم الى بلاد الريف ★
ورتبهم بمسالح المغرب وثغوره وسرح الى بلاد الفحص كبير الدولة وصدر الخاصة
القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني وكان قد وصل في ركاب ولي العهد الامير
أبي عبد الله بما كان القائم بأموره ومنفذ أوامره واحكامه بفاس أيام صغره وقبل
افضاء العهد اليه فخيم في العساكر والاجناد بساحة العرائش (3) ودفع بذلك أمير
المومنين في صدر علي باشي وكان عند استفراغه أيده الله قبل ذلك من تمهيد
المغرب وازالة الشواغب عن الدولة أوفد ارساله على القسطنطينية حضرة بني عثمان
وسرحهم اليها في السفن فلقيهم علي باشى على ثبج البحر منحدره في الاسطول الى
المغرب فحذر مغبة بلوغهم للابواب العثمانية وافساد النصبة عليه بالكشف عن مساوئه
والادلال على عورته ومكايده التي يسر بها حسوا في ارتغاء للاسلام وينصبها سلما الى
هدم بناء الملة بمعاول غشه وخديعته ورام استرجاع الارسال جملة حذارا من سوء
المغبة فتوقع سطوة السلطان في صدهم عن بابه ثم اعتمل في رد البعض لينقص من
كيدهم ويفت في عضدهم فتحير منهم لصحابته الى المغرب القائد أبا العباس احمد

---

(1) وصل علوج علي الى الجزائر في شهر يونيه 1581 على راس اسطول حربي يتكون من ستين قطعة حربية لغزو المغرب (دي كاستري • فرنسا • ج 2 ـ ص 96) .

(2) كان الدافع الاساسي لبعث القوات المسلحة الى شمال المغرب ، هو استراتيجية هذه المنطقة وسعى كل من الاتراك والاسبان لاحتلالها ولتوسع فيها •

(3) يعد وضع المنصور للقوات العسكرية بحصن الفتح بالعرائش وماحولها ، خطة دفاعية ضد اي هجوم خارجي تركي أو اسباني ، ففيليب الثاني ملك اسبانيا طالما سعى الى الاستيلاء على العرائش لتدعيم مركز القوات الاسبانية في شمال المغرب ، واعتمادا على المصادر المعاصرة فان المنصور كان يمني فليب الثاني بالتخلي عن العرائش مقابل مساعدته العسكرية للمغرب ضد الاتراك (دي كاستري : فرنسا • ج2 ص 96) •

ابن ودة بما توسم فيه من الدهاء بكبر السن ورد معه فى سفن أمير المومنين وأسلم رفيقه الكاتب السرى النبيل النبيه أباالعباسأحمد بن يحيى الهوزالي وأركبه فى احدى سفنه للقسطنطينة لتبليغ الرسالة استخفافا بأمره لصغر سنه وجهلا منه بوفور عقله وصحة نبله وذكائه فعكس عليه رحمه الله الامر عندما وصل الابواب العثمانية بما أبطل من كيده ونقض من تدبيره وانفصل ابن ودة عن على باشى من الجزائر مرسى أساطيله ومحط رحال عساكره ووصل الى سدة أمير المومنين يقص عليه القصص فشمر أيده الله لتجهيز عساكره الهاشمية وكتائبه المظفرة الامامية فأزاح عللها ويسر أسباب سفرها وارتحالها الى تخوم المملكة لسد فروجها وحياطة ثغورها مخافة أن يفاجيء على بعضها على حين غفلة وأرصدت له العساكر على كل ثنية بالمغرب وجلست للوثبة على براثنها وقد شحذ أمير المومنين سيوفها وأرهف عزائمها على السطو به ان لو زلت به القدم ثم جاء الامر على اثره بقفوله فى الاسطول والحامية الى القسطنطينة على يد مبدى هناته ومبيد صفقته الكاتب أبى العباس فانقلب من الجزائر خائب
ص 35 المسعى لشهر أو نحوه من مقامه بها * (1) ووصل أبو العباس الى سدة أمير المومنين بمراكش فحمدت سفارته وجلى فى أغراضها واستنبلت فيها اراؤه وأنجحت مساعيه فجذب ذلك بضبعه عند أمير المومنين ورقاه عند وصوله من القلم الى السيف فجعله اولا قائد محلاته السعيدة فى سفره الكائن غب وصوله لفاس ثم رقاه الى قيادة القواد عند ولى عهده المولى الامير أبى عبد الله وأنزله معه بفاس ورمى به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية واضطلع بما دفع الله فحمدت فيه سيرته وحسنت طريقته الى أن طرقه حمامه وهلك عفى الله عنه عن سادس ذى حجة متم عام أربعة وتسعين والى الله المصير رجع ولما وصل أبو العباس وأنهى الى أمير المومنين ارتجاع على فى الاسطول من الجزائر وكانت الاجناد على قدم الاهبة والاستعداد للسفر أجمع أمير المومنين المسير لفاس برسم تفقد احوالها والنظر فى ممالكها واعمالها فخرج من مراكش أواخر شوال من عام تسعة وثمانين (2) واضطرب معسكره بباب اغمات وتلوم به أياما ثم ارتحل أوائل ذى قعدة وسار يطوى المراحل حتى اذا اقترب ركابه العالى من فاس خرج ولى عهده الامير أبو عبد الله محمد الشيخ فى اجنادها وعساكرها للقائه فكان

(1) استدعى السلطان مراد الثالث علوج على وزير البحرية وحسن البندقى باشا الجزائر للتوجه الى الشرق ، وكلفهما بالقضاء على بعض الثورات التى قامت ضد الحكم العثماني هناك ، وحسب الفشتالى فقد غادر الجزائر خلال يوليوز أو غشت 1580م • على أن تراجع الاتراك عن غزو المغرب يرجع الى التقارب القوى بين المغرب والاسبان مما يخشى معه تزايد النفوذ الاسبانى فى المغرب ، والى الحروب الدامية التى كانت تخوضها القوات التركية فى ايران ضد الصفويين •

(2) شوال عام 989 يوافق شهر نوفمبر 1581 •

الملتقى المبارك على رأس الماء فجندت الجنود من الجهتين وغص بها الفضاء وكانت ارسال بني عثمان ملوك القسطنطينة العظمى وارسال طاغية قشتالة حاضرين يومئذ لانتظارهم بفاس ورود أمير المومنين فأذن لهم في السلام يوم التقاء الجمعين فتقدمت منهم للسلام أولا ارسال بني عثمان لمزية الاسلام وأوصلوا الى امير المومنين في الموكب فقضوا فرض التحية ورجعوا الى موقفهم ثم أوتي بارسال الطاغية فاقتفوا اثرهم وجروا على فعلهم ووقف الجمع حتى تمالوا من النظر والاعتبار في جنود الله وكتائب الاسلام وشاهدوا من ذلك ما سر المسلمين وأساء الكافرين ودخل للغد يوم الخميس الاولى من ذي حجة العام في أضخم زى وأعظم أبهة ولما أراح أيده الله واطمأن به الاستقرار كان أول شيء قدمه من أعماله وبدأ به من مهماته وصرف اليه وجه عنايته وشريف همته بعض الزيادة مما يلي البحر في الحصن العظيم الطائر الذكر من بنائه بالعرائش المعروف بحصن الفتح لاختطاطه عقب الفتح وبنائه من مغانمه وبسببه وافتتاح أمر الدولة بتشييده في سبيل البر والزلفى ثم نظر أيده الله في تثقيف أطراف البلاد وادالة بعض ولاتها بمن انتضاه من قراب اختياره وعجم عوده بمسبار اختياره من رجاله الذين علم كفايتهم وحسن غنائهم واضطلاعهم وبرزت التقليدات
ص 36 الشريفة فسرح كلا الى مكانه فثقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالح واستوعب ★ النظر في أمور الرعايا وفي رفع الظلامات عنهم وبسط جناح عدله عليهم فرتعوا في ظل معدلته وناموا تحت افياء كفالته ثم نظر في مخاطبة خاقان صاحب القسطنطينة السلطان مراد خان وايفاد ارساله عليه لما تقرر من سوابق الالفة والمهادات السالفة بينهما وبما كان السلطان مراد خان الاخير منهما في اتحاف صاحبه بالهدية التي أنفذها مع الكاتب أبي العباس الهوزالي مرجعه من حضرته قسطنطينة الى الابواب العلية الامامية شرفها الله فانتقى أمير المومنين للوفادة عليه وحمل رسالته النبوية الكريمة اليه من يحسن الرياسة ويعرب عما في الضمائر ويدل على شرف مرسله فاعتام لذلك قاضي القضاة بحضرته المشمول بعنايته والمعدود في خواص بساطه الكريم ومجلسه الشيخ العالم العلامة أبا القاسم بن علي الشاطبي وربيبهم الناشيء في ظل دولتهم الكريمة ومرعى نعمتها الحاج القائد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور بن سعيد الشيظمي المريدي فسرحهم أمير المومنين في السفين وتلوم وراءهم بفاس ريثما انصرم فصل الشتاء وازينت الارض بزخرفها ابان الربيع فاضطرب معسكره بظهر الزاوية من ساحة فاس وخرج اليه في جمادى الاولى من عام تسعين (1) ثم انتقل الى رأس الماء منبعث النهر المنصب لفاس اخترق في ذلك البسيط من المغرب الى المشرق يشق فاس وتنقسم فيها خلجانه وجداوله المنتحلة لمنازلها ثم يجتمع عند انبعاثه من البلد ويصب على غلوة منها بوادي سبو الجاري مغربا من المشرق الى البحر الرومي فاتخذه أمير المومنين دار اقامته ستة أشهر

(1) جمادى الاولى عام 990 يوافق شهر يونيه 1592

وستة أيام جهز فيها العساكر لفاس فسرح منها أولا مولاه القائد أبا عبد الله حم بن بركة في جيش عرمرم من الاسل والنار الى بلاد الريف والهبط وجبال غمارة لاقتضاء خراجها وتجديد العهد فيها بقواعد الطاعة لاستيحاش طباع أهلها وسرعة استحالتهم فسارت العساكر في تلك الجهات مسير الشمس حتى استوعبوها سلوكا سهلا وجبالا واقتضى خراجها وبث فيها الطاعة فرست فيهم قواعدها ثم سرح داوود بن على المزوار من طبقة العمال في حصة أخرى من الجيش الى قبائل أولاد حسين من العرب المعقل لانتزاع خيلهم لما اشتهر عنهم من قطع السبل والعبث في الاوطان فأرجلوا كافة واستقصيت خيلهم الذكران وجنبت كرادس فتفرقت الاجناد واوطات الدولة أقدامها عرانينهم فنجعوا واستكانوا ثم امتدت عينه أيده الله الى اقليمي توات وتيكورارين وانبعثت عزائمه الماضية الى تجهيز العساكر لتدويخها وانتظامها في مملكته فشحد عزائمه لذلك وأجمع اغزاءها بجيوشه وتخير لقودها والزحف بها الوالي كان على بلاد سجلماسة

ص 37 من بعد أبيه عمر بن الصدر الكبير ★ الراسخ القدم في الولايات والمناصب النبيهة عن الخلفاء القائد أبي عبد الله محمد بن عب وانتقاه الامام أيده الله لذلك بما كان قطر سجلماسة محل ولايته مصاقبا للقطرين وركاب العساكر اليهما وبعث عنه فوصل لبابه الغالي بمخيمه من رأس الماء فعقد له هنالك على العساكر ونهض فيها من معسكر أمير المومنين بين يدي ارتحاله لمراكش بذي قعدة عام تسعين (1) ووصل الى سجلماسة فتثاقل بها حتى انصرم فصل الربيع المعين للركاب على جوب القفر المعترض دون القطرين ثم ارتحل من بعد ذلك وعاج بالعساكر على فجيج وأقام عليها موريا باقتضاء خراجها وشق عليه الزحف لتوات فتلكى يلتمس الوليجة من دون ذلك الى أن تحقق أمير المومنين تقاعسه واحجامه عن الزحف الى القطرين فسخطه وسرح اليه منصور بن على ابن هطهوط من مواليه فتقبض عليه واقتاده الى الحضرة بين يديه مقيدا فتل الى محبسه حتى اقتضى منه ما أنفق من الاموال في أرزاق الجيش ومؤنة سفرهم ذاك وأوعز أيده الله للعساكر بالرجوع لما عزم على استيناف الاهبة من أولها وتجهيز عساكر أخرى الى تلك البلاد حسبما نذكر ان شاء الله فوصلت لبابه وتلوم أيده الله ريثما أمضى هذا العزائم وفرغ من تجهيز العساكر وقفلت ارساله من القسطنطينة وكان من خبرهم انه لما وفدوا على القسطنطينة حضرة بني عثمان وأدوا رسالتهم الى السلطان مراد خان اهتز سرورا من اعداده لمقدمهم ولقاهم مبرة التكريم واختيار النزل والقرى ودار النعمة واستبلغ في اكرام وفادتهم بما أربى على الغاية وكان

(1) قعدة عام 990 ه يوافق دجنبر 1582

القاضي أبو القاسم صنع له كلاما أعرب فيه عن حق الدولتين وأطرا فيه السلطان وقرر فضل أهل بيت النبوءة ومعدن الرسالـة وحض على اتحاد كلمة الاسلام واستأذن في املائه يوم السلام تقدمة بين يدى نجواه فأذن له وصدع به واقفا بمحضر الوزراء فاهتـز السلطان لذلك وحـن اليه واستنبل فيـه أحوال القاضي وحسن تلطفه في الابانة عن أغراضه واستدل بذلك على شرف مرسلـه وهمته في انتقاء أمثاله للسفارة عن أبوابه ووقف السلطان على قدم البر لرسالة الامام أمير المومنين واستبلغ في تعظيمه واجلالـه والاشادة بشرف قدره وسمو مقامه بأن تولى جوابها بخط يده (1) فأغرب في ذلك بما لم يسمع قط عن ملك من ملوكهم الى ملك وعند ما تكاملت هذه الاغـراض وانتظمت لمولانـا الامام أمير المومنين أيده الله أجمع المسيـر لمراكش ففوض الى ولى عهده المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيـخ المامـون دامت سعادته في أمور فاس وممالكها لايفائه على ثنية النجابة وسن الاستقـلال وبما كـان الخليفة ★ الامام طول مقامه على رأس الماء ص 38
بمحلاته السعيدة يجلسه لصق أريكته وحذاء سريره أيام الديوان المتعاهدة لانتياب بـاب السلطان وتناول أمور الملك بالابرام والنقض والحل والعقد حتى حفظ السيرة وتملا من أصول السياسة وقواعد الملك وربما دفعـه أمير المومنين خلال ذلك للنيابـة عنه فـي المظالم والاحكام ابتلاء وترشيحا آونة بمقعد سلطانه وأخرى بالانتصاب لها في فسطاطه هو وديوانه فيجلى في ذلك ويمضى قدما في مذاهب الاضافة وجرت الاحـوال على ذلـك طول مقام أميـر المومنيـن على فاس حتـى استنبل أغراضـه فيما دفعـه الله ووثـق بكفايته وحسن اضطلاعه وقرت عينه بصدق فراسته فيه للاسلام فرمى اليه حينئذ بمقاليد الامور بفاس وألقى في يده زمامها ودفعه الى تدبير الملك والسياسة بها وصرف نحـوه وجوه جندها ورعاياها وأفرده بالنظـر في ذلك وأطلقه من أسار الاشراف والمراقبة التى كانت عليه أيام صغـره لكبير الدولة أبـى اسحاق ابراهيم السفيانى وأرحله عنه أمير المومنين الى الحضـرة وجعله قائد القـواد وكبير الخاصة ببابه وعقد له على بلاد تدلا فاستناب بها من دونـه الى أن عزله الامـام عنها بابنه المولى الاميـر زيدان وأدال لـه بدمنات حسبما نذكر ان شاء الله تعالى عند قسمة الاعمال بين الامراء بين الخليفة الامام ولما كان يوم ارتحال أمير المومنين لمراكـش خرج الفقهاء ومشيخة العلـم والطلبة مـن المدينة وقرىء البخارى سردا في المصحف بين يدى أمير المومنين على الرسم المتعارف في ذلك عند الخلفاء رضوان الله عليهم عند ارادة الاسفار وودع الناس وقوض الركاب

---

(1) يؤكد هذا ما أورده صاحب مخطوط (نصرة أهل الايمان بدولة آل عثمان) من أن السلطان مراد الثالث كان يحسن اللغة العربية • (نصرة أهل الايمان) مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم 527 ز وهو لمحمد البكرى •

فثنى المولى الامير أبو عبد الله الشيخ عنانه لفاس محل امارته وأعمل المولى الامام الخليفة أيده الله المطية لدار الخلافة مراكش فاحتل بها أواخر ذى حجة متم عام تسعين (1) ثم كان من تجهيز العساكر على تفئة ذلك الى توات وتيكورارين على ما نذكر ان شاء الله تعالـى .

ثم وصل (2) عام تسعين (3) رسول صاحب مملكة برنوا من ملوك السودان وجلب فى هديته ما جرت عادتهـم أن يجلبوه فـى مهاداتهم من فتيان العبيد والاماء المختلفـة الاسنان وكان من ذلك عدد كثير ناهز المئين وافى أميـر المومنيـن المنصـور أيده اللـه بمعسكره على رأس الماء من ناحية فاس وكان يوم سلامه يوما مشهودا حسنا وفخامة وأبهة وجلالة وجلس لهم أمير المومنين أفخم جلوس بالقنتين التوأمتين المضروبتين أمام السيـاج
17 المحيط بقباب الخلافة بأفراك واستوقف الموالى والمماليك ★ سماطين من التوأمتين الى القبة العربية ثم منها الى فسطاط الجلوس المعروف بالديوان ثم منه الى باب المعسكـر القبلـى فغودى بالرسول يخترق السماطين حتى أنزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا به وكرسى الامامة وسريـر الخلافة منصوب به وامـاط الامامة الكريمـة ممهدة وأوطيتها مبسوطة والمهابة قد أخرست الالسن وخشعت القلوبـو الابصـار فجلس الرسول هنالك مليا ثم غودى به على سبيل الترقى الى القبة العربية فتلبث بها ريثمـا جاء الاذن الكريم بايصالـه الى مقر الامامـة الكريمة العلية أعلى الله منارها وخلع على أقطار الارضين أشعتها الساطعة وأنوارهـا الباهرة فغودى به الى التوأمتين فمثل بيـن يدى أمير المومنين وشرف النظر الى طلعته السعيدة والاقتبـاس من أنوارهـا النبويـة فأدى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله فىالاعتراف للامامة الكريمة الى معسكر ولى عهد الخلافة العلية وسليل الامامة النبوية تاج الاسلام وكافل الامة ان شاء الله من بعد الامام المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ وكان لصق معسكر أمير المومنين والده أيـده الله وأدام للاسلام ظلهم الوارف فاشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهـة مدهشة ومثابـة هائلـة فوقف موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل لولى العهد وقد قعد له بفسطاط جلوسه افخم قعود فحيى وفدى وهنـى وانصرف الـى موضع منزله ودار كرامته بالقصبة من فاس البلد القديم فاستدر عليه من النعم ما لم يكن له فى حساب وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه فيها سلطانـه طلب المدد من أمير المومنين بالعساكر والاجناد وعدة البنـدق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم زعموا بقاصية

(1) حجة عام 990 هـ يوافق يناير 1583 .
(2) الانتقال الى صفحة 16 .
(3) استقبل المنصور سفارة برنـو بضواحى فاس عام 990 هـ / 1582وذلك اثناء زيارته الاولى لمدينة فاس.

السودان من الكفار (1) وكان قد أوفد مـن قبل ذلك رسوله هذا على سلطان بلاد الروم والمشرق ووصل الى حضرته بالقسطنطينية يسئل منه الامداد بما طلب فأخفق لديه مسعاه ورده خائبا فأوفده اذ ذاك علي أمير المومنين يشحد منه أجناده الامامية بالمغـرب ثم لمـا عرض كتابه على أمير المومنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول جر اليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم والابانة عن أغراضهم من فرسان الانشاء والكتابة لطموس معالم العلوم علـى الجملة ببلادهم وقارن ذلك ما كان من احتفال أمير المومنين وعزمه من قبل مجيء الرسول على تجهيز العساكر التى أنفذها كان عامئذ

ص 18 الى تدويخ بلاد توات * وتيكورارين وأمل أن يجعلها ركابا الى استفتاح أقطار السودان والاستيلاء على ممالكهم التى أوطاها من بعد ذلك عساكره وصارت في ممالك المالى عظيم السودان الى أن وردن بحر النيل على مائة مرحلة حسبما يأتى التعريف بذلك ان شاء الله في محله وصمم الى ذلك أيده الله عزمه وجعل أمره قصده وهمه لما يعلم لنفسه مـن كمال القدرة عليـه بما لاح لـه من شواهـد التأييد الربانى والظهور وتضافر لديه من دلائل السعادة والاقبال وتوفر له مـن عـز السلطان وقوة العساكر والاجنـاد وانتظـام الممالك ورسوخ الدعوة واتصال الكلمة فـي أقطار المغرب فاغتنم لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه فاعتل به على صاحب برنوا ورجع اليه رسوله وكافاه معه بهدية من عتاق الخيل وخلعة شرفه منها بالملابس النبوية ولما وصل الرسول وألقى المعـذرة الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذ ذاك عن قصده ومراده ورد الرسـول ثانية الـى الابواب العلية المشرفة فوافى أمير المومنيـن بحضرته العلية مراكش دار الخلافة فأزاح اللبس وبين الغرض فصدع لهم أمير المومنين حينئذ أيده الله بكلمة الحق والدعاء الى التى هى أقوم وطالبهم بالمبايعة له والدخول في دعوته المباركة النبوية التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد وأقطار البـلاد الانقيـاد لكلمتها المؤسسة على تقوى من الله ورضوان المبنية على أسـاس الشـرع وأوثق قواعـد الايمان وقرر لهم بلسان السنة الناطق بين الكتاب المنزل على جده الصـادق المصـدق عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية أن الجهاد الذى ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لايتم لهم فرصة ولا يكتب عمله ما لـم يستندوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله اليوم أمير المومنين أيده الله بوصفه الشريف وصرف اليه بذلك كفالـة الامة ووراثة الارض وثرات النبوءة والرسالة

(1) يعتبر الخلاف الذى حصل بين الامارتين المسلمتين السودانيتين : برنو وكاغو بسبب تضارب النفوذ والمصالح في بلاد الهوسا الفاصلة بينهما من آهم البواعث التى دفعت الامير ادريس الثالث الى طلب المساعدة العسكرية من المنصور.

وقلده بها حماية بيضة الاسلام لما اختصه به تعالى من شرف الشرف وأتاه من كمال الكمال وفضله على جميع أولى الامر والسلطان من ملوك الارض بالنسب القرشى الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام وايمة السنة الاعلام وورثة الانبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وألزمهم أيده الله القيام فى أقطارهم بدعوته ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم أيده الله الامداد على الوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول وزعم ايضا عن سلطانه بالقبول والاجابة فودع وانصرف وما لبث أن رجعه سلطانه ثالثة وحمله الهدية والرسالة وخاض القفار لدار الخلافة فوصل الى تيكورارين ثم اعترضته هناك منيته فاعتل وهلك واشخص أولو الامر بتيكورارين الهدية صحبة رفقاء الرسول من عند سلطانه فوصلوا بها الى حضرة امير المؤمنين بمراكش وكان الرسول قد حمل معه فى الرجعة الثانية من الابواب العلية الى بلاده نسخة

ص 19 البيعة الكريمة التى * شارطهم عليه امير المؤمنين بما كان سال كتبها واستصحابها معه مخافة الاخلال ببعض شروطها لما قدمنا من غلبة العجمة والجهالة على القوم وكانت من انشاء مؤلف الكتاب ونصها الحمد لله الذى رفع لكلمة الحق منارا يسامت فى مطالعها الكواكب والنجوم وازاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحاب الغواية المركوم وحى على الفلاح بها داعى التوفيق الذى نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة اجلها المعلوم وشرف هذا الوجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنة العلوية التى صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعة واستبان الحق التبلج الصباح فى مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة وكلمتها المتبوعة ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التى هى بسيف النبوءة المصلوت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة وقوض بها مبانى الادعاء التى هى على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التى هى على مشاقة الله ورسوله متابعة ومجموعة وخلع بظهورها على المطاف الحنيفية السمحاء رداء العز الفضفاض واستل بتاييدها للدين المحمدى سيف الانفة والحمية والامتعاض واشار للاعادى من باسها المروع الحية النضناض وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجارى على حصى عدلها الرضراض ومهد بسيوفها المنتضات الافاق والاقطار تمهيدا ازال عن حكمه الاعتراض وجلى بانوارها النبوية المتألقة سدف الجهالة التى ادلهم جوها وغيم واسعد الوجود بيمنها الذى لبث فى اكناف مجدها وخيم وقضى لها بتوارث الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى بن مريم والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة ونهج للدين القويم طريق الحق المثلى وجادته الشارعة وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذب ومشارعة وانتقى لعز الملة السيوف

القارعة لطلا الشرك والضلال وما ادراك ما القارعة واطلع لشرائع الاسلام شموسا لاتزال انوارها في سماء الايمان به ساطعة نبي الرحمة ونبعة الخلافة النبوية التى بسقت بالمجد والعلى افنانها وازهرت بالنعمى الدانية القطاف اغصانها اليانعة وجرثومة الامامة العلوية التى هى لراية سنته الخافقة تابعة وعلى مواطئه فى الاقوال والافعال واقعة وعلى حذوه فى كل حالة من الامور واضعة وعلى ءاله بدور العلى السافرة وشموس الهدى الباهرة وسيوف العد الباترة واسود الشرى القاهرة ومركز الشرف الاصيل ونقطة دارته

ص 20 الدائرة واصحابه ليوث المخافر وحزب الله الوافر وحتف ★ الفاجر والكافر وجيش النصرة الظافر وانصار الملة الموصولة الاواصر وحماة الدين السيوف البواتر واعلام الدين الذين سيدوا بمناقبهم البوادى والحواضر والدعاء لمولانا الامام الخليفة امير المؤمنين ابن مولانا امير المؤمنين نجل سيد المرسلين وخاتم النبيئين وسليل الوصى والسبطين وفخر الخلفاء الاولين والاخرين المفترض طاعته على الخلق اجمعين بنصر يتخلل به امره المشروع وحكمه المسموع زوايا المعمور وتعقد به راية الفتوحات على قناة العدل الذى تدور عليها الامور ويعشو الى نور سراجها الوهاج الخاصة والجمهور وفخر يتحلى به اجياد المنابر والاسرة وظهر تعمر به البشائر والتهانى سوق المسرة وتطرد به لصنع الله الجميل العوائد المستمرة وسعد رائق الحجول والغرة واقبال لا تزال مباسم الزمان عن سنه مفترة وفضله وكرمه وطوله وبعد فانه لما اذن الله فى ليل الجهالة ان ينجاب وفى شمس الحق الوهاجة ان يرتفع عنها الحجاب وفى العز الخلق الجلباب ان ان يعود الى الشباب وفى النجاح والاستقامة أن يفتح لهما باب وفى الامارة أن تستند الى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع باسباب تدارك الله سبحانه الوجود واعز العالم الموجود استطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية والامامة الهاشمية العلوية ففاضت على اديم البسيطة انوارها وارتفع الى حيث السهى والفرقد منارها وتبلج بالاصباح نهارها ولاحت فى سماء المجد بدورها واقمارها وكابرت شهب السماء اتباعها وانصارها وانتشرت فى الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها الشريفة واخبارها وفض لبركتها على اكناف المعمور يمها الزاخر وتيارها خلافة ينتمى الى النبوءة عنصرها وتستنبط من رسالة الوحى اسطرها ويناط بعروتها الوثقى دسترها وامامة على وليها والله نصيرها والسبط بدرها الذى حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذى اصطفى من هذه الروضة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية العلوية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء اماما القى له فى القلوب حبا جميلا وولاء جعله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه فكان يحسن الرعى لخلقه وعباده كفيلا وانتضى من بأسه

وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا مولانا امير المؤمنين وخليفة الله في الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين المفترضة طاعته على الخلق اجمعين والممنون بامامته المقدسة على العالمين بحر الندى والبأس وعصمة الله للناس وشهاب اليوم الخماس امير المؤمنين المنصور بالله مولانا ابا العباس صلوات الله عليه
ص 21 وعلى آله الخلفاء ★ الراشدين والايمة الطيبين الطاهرين وطيب بانفاس المغفرة لحودهم اجمعين امام تهتز لذكره اعطاف المنابر وتتقلد من شريف دعوته ابهى من نفيس الجواهر وتستضيء البلاد باكليل شرفه الزاهر وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ابقى الله ايامه الغر بقاء يستصحب النصر دوامه وخلد له ولاعقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامة ولما طلعت أيده الله على هذه الاصقاع الزنجية طلائع امامته النبوية وخلافته ولاحت في سمئها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وانافته وتليت لمجده الآيات المبينات التي تشهد له بثرات الرسالة وتقضي له على الاسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاعتقاد بامامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم كما قال عليه السلام لاتزال في قريش ما بقي منهم اثنان وكما ورد في صحيح الخبر ان الخلافة في قريش والقضاء في الانصار وفي الحبشة الاذان واذ على هذا تعاضد الخبر والعيان فلا ناكر ان ليس في المعمور على هذا الشرط ايده الله من ثان فنهض بدليل الشرع انه أمام الجماعة حقا المستوفي شروطها والوارث للخلافة النبوية الحريص على بيضة الاسلام ان يحوطها وان القائم بهذا الامر على الاطلاق غيره دعي ومحاوله دون اذنه المشروع بدعي فتعين لذلك ان الرجوع الى الحق فريضة واستبان بما تقرر وعلم أن امارة لا تلاقي في الشرع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة فانتدت لهذه الآثار وصحيح الاخبار وصرف الى رضى الله العناية ووقف مع الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغاية الرئيس ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق على حضرة الاخلاص والتصديق واخلت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضى الله ورسوله حقيق والتأييد صاحب ورفيق وروض الآمال انيق وراح الراحة والاطمئنان عتيق الى تقليد بيعة امام الجماعة مولانا امير المؤمنين المنصور بالله زاده الله قدسا وتشريفا التي تتأسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان وتشهد عقدها الكريم المبارك ملائكة الرحمن وآثر أسعده الله أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الاعيان وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام الى القاصي والدان وينشر سنتها المشروعة في صقعه وما يليه من البقاع والاصقاع بالسودان تقليدا يستضيء ان شاء الله بأنواره ويستشرف للعز المكين به على

مناره ويخمد به للجهل جذوة ناره وينتظم به في اتباع الحق انصاره ويجتلى به صوره
ص 22 انسانه ويستوجب به من الله عوارف صنعه واحسانه ويرهف به * للعون على العزمات
حد سيفه وسنانه ويقرع به لرضى الله باب القبول ويتضاعف له ببركته العمل المقبول
ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة ويعود له به الزمان للشباب والفتوة ويرفع
به منار الامارة على قواعد الشرع لوثيقة ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى
الحقيقة وتتسنى له به وهى المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى الاسوة الحسنة بامامى
بني العباس السفاح والمنصور ويحيى سنتهما التى نقلها ثقاة الاعلام والصدور في مبايعتهما
الخليفة المهدى الاكبر سليل زين الدين وجد مولانا امير المؤمنين الذى رأى امام دار
الهجرة انه بثرات الخلافة النبوية ساعتئذ أولى واحق وفي منصب الامامة على شرطها
أعرق وبسريرها ومنبرها اليق فتأكد للمنتدب اكرمه الله بهذه الاثار الشريفة والمناقب
المنيفة العزم والقصد وانجز له فيما نواه وأراده الوعد وساعد نيته الصالحة فيه السعد
فبايعه أعلى الله يده على الامن والامانة والعفاف والديانة والعدل الذى يشيد للمجد
اركانه مبايعة شائعة على عقدها الكريم أكرمه الله اتباعه وجموعه واشياعه بحكم الوفاق
والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق وبجميع الايمان الصادقة الايمان اعطوا بها صفقة
ايديهم ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين ان يد الله فيها فوق ايديهم وامضوها عى
السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة امضاء يدينون به في الجهر والسر واليسر
والعسر والرخاء والشدة والازمات المتشددة والتزموا شروطها طوعا واستوعبوها اصلا
وفرعا واستوفوها جنسا ونوعا بنيات منهم خالصة صادقة وعدة من الله لهم بالخير
سابقة وسعادة بالحسنى لاحقة ابرموا عقدها واحكموا عهدها على حكم السنة والكتاب
والجماعة والاخذ بسنتها اعقابا عن اعقاب واحقابا اثر احقاب الى يوم القيامة واقتراب
الساعة لا يلحق عقدها الكريم فسخ ولا يعقبه بحول الله تعالى نسخ ولا يتطرق اليه
نقض ولا نكث ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث واجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق
المستحفظة والايمان اللازمة المغلظة هو واتباعه اجماعا شرعيا وحتموه على انفسهم حتما
مقضيا واعتقدوه اعتقادا أبديا وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك فرادى وازواجا
وزمرا وافواجا واشهدوا على الوفاء به بايمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة
الصدور بالله الذى لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات والخبير بآجال
الوفيات وجميع الرسل الكرام والانبياء وملائكة الرحمان في الارض والسماء وعلى أنهم
ان حادوا عن هذه السبيل وانقادوا لداعي التحريف والتبديل فهم براء من حول الله
ص 23 وقوته وعصمته ومستوجبون لغضبه وعذابه وسخطه ونقمته وبعداء من رحمته ومن *
شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لامته وانهم خالعون لربقة الاسلام وخارجون عن سنة

الوسول عليه السلام اعلنـوا بهـذا اعلانـا يعضده النجوى وادوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى واحكامه اللازمة لكلمة التقوى استرضاء لله وللخلافـة النبويـة والامامـة العلوية ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة النقيبة واستيفاء لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبـة والمندوبـة مستسلميـن الى الله بالقلوب الخاشعة ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعة في أن يعرفـهم خيـر هذا العقد الكريم والعهد العظيم بدءا وختاما وان يمنحهم بركته التي تعمهم حالا ودواما لا رب غيره ولا خير الا خيره اشهد على نفسه بما فيه وعلى اتباعه من شهد بهذه البيعة المباركة والتزامها والوفاء بشروطها واحكامها النـدب الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمهوفي تاريخ كذا(1) .

(2) ذكر استيلاء العساكر على قطرى توات وتيكورارين واستفتاحها بالسيف عنوة

هذا الاقليم المفرع الى قطر توات وهو اوسع وطنا وافسح مجالا واقرب للسودان اتصالا وجوارا والى قطـر تيكـورارين وهـو اعظم اشتهارا وأعرف نقيبا واشد شوكـة واخشن جانبا واعظم اقاليم المغرب واكثرها امما وافسحها خطـة انتظم عرانـه واتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثـين مرحلة أو أكثر وقد الم الامام ابن خلدون في كتاب العبر بذكر تيكورارين عنـد الكـلام على المغرب * الاقصى وامه فقال وفي شرقي 39
تسابيت الى ما يلي الجوف قصور تيكورارين وتنتهي الى ثلاثمائة أو اكثر في واد واحد ينحدر من المغرب الى المشرق وفيها أمم من قبائل زناته انتهى قلت وتقدير ابن خلدون عمران القطر وقصوره بما ذكر تقريب لاتحرير يشهد بذلك العطف بأو الشكية من قوله أو أكثر والا فالذى يدل عليه خبر من لقيناه بالابواب العلية من وفد البلاد واجنادها ان ذلك اكثر مما ذهب اليه ابن خلدون باضعاف الا ان يكون قد قصـد فيمـا ذهـب اليـه تيكورارين دون توات بدليل سكوته عنها فلا يبعد عن الصواب والله أعلم وبالجملـة فالقطران عالم من عوالم الارض واقليم من اقاليم الدنيا بما جمع من الامم وتراكم فيه من القصور واتصل من العمران وتخلله من العيون ذات الابار والنخيل المرخى على اكنافه جناحا من الليل الدامـس وكانـت الملـوك المغلوبون في القديم والحديث على أرضـهم وممالك سلطانهم يلجئون اليه عنـد تجهم الزمان وتلون الدهر وعثار الجد لبعده عن منال الجيوش والعساكر بما حف به مـن جميع الجهات من عروق الرمل ومهامه القفر التي تضل بها القطا وتغمرها بحار من الرمل لا تقطعها ذوات الجـناح حـتى صـار بذلك جزيرة في فلاة من الارض لا تهتدى اليها سوافي الرياح فاما من لجا اليه مـن الملوك

---

(1) كتبت البيعة غالبا بعد عودة المنصور الى مراكش اى في أواخر عام 990 او مطلع 991/1583 .

(2) الانتقال الى صفحة 38 .

فالسلطان ابوحم(1) مـن بني زيـان ملوك المغرب الاوسط من بني عبد الوادى لما غلبه بنو مرين لعهد السلطان عبد العزيز بن أبي(2) الحسن منهم عـلى ملـكه وشـردوه مـن تلمسان من بعد أن وقعـت بـه عساكرهم اولا بالدوسن آخر عمل الزاب من جهة المغرب وثانيا بساحة تلمسان مجلبه عليها عند انتياد العساكر عنهـا فاستأصلوا بذلك شافـة جموعه من الجند والعرب وسبوا حرمـه واستاقوا ظعنه وتلاشى امره فنجي بنفسه الى تيكورارين واقام بها الى أن هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين القهقرى لفـاس فطير اليه النجيب اولياؤه من العرب فأغذ السير الى تلمسـان فـعاود بهـا سلطانـه واقتعد اريكته وكانت احدى الغرائب واما من الخلفاء فالمولى ابو العباس أحمد(3) الشريف أمير المؤمنين رحمه الله لحق بها وبنوه ومن تبعهم من حاشيته على حين ما اقصاهم الامام صنوه رضى الله عنه من بلاد سجلماسة التى امتن بها عليهم كان عند استقلاله بالدعوة الكريمـة ومغالبتهم عـلى كـرسى الخلافـة بمراكش فلبثوا بها الى أن اسفوه بمظاهرة بني مرين اعدائه واتصال اليد معهـم عـلى محاربته وتجهيـز المـدد مـع المولى الاميـر زيدان لاستنقادهم من يده ايام جثومه عليهم بظاهر فاس محاصرا لهـم الحـصار الطويل

ص 40 واجلابهم ايضـا فى مغيبـه بالعسـاكـر عـلى الفائجة من اعمال الحضرة ليشغلوه ★ من ورائه ويأخذوا بحجزته عن حصار بنى مرين لمـا كان بينهم من العهد عـلى ذلـك فاحفظـه شانهم وشردهم بذلك عن سجلماسة الى القفر فلحقوا بتكورارين واقاموا بها الى أن كان من اجلاب عرب اليمن اهل مجالاتها عليهم باغراء الامام والتياث احوالهم الى حين القبض عليهم وخمود ذبالتهم باستئصالهم ما ذكرناه مستوعبا فى محله وبقى هذا الصقع منتبذا عن الدولة لانحصار تيارها عنه لشغل الامام رضى الله عنه بفتح المغربين حتى استكمل تمهيدها فجهز اليه العساكر لنظر القائد ابى عبد الله محمد بن عبـد الوالى كان عـلى سجلماسة وبينما هو منازل بلاد توات منـه اذ ورد عليه الخبر بموت الامام(4) رضى الله عنه فأفرج عنها وانقلب الى المغرب من قبل الحصول على طائل منها وقعد الخلفاء من بعد

---

(1) ابو حمو موسى بن عثمان : من ملوك بنى زيان حكم خلال الفترة (697 ـ 718) .

(2) ابو فارس : عبد العزيز بن ابى الحسن المرينى حكم بين (767 ـ 774) .

(3) أبو العباس احمد بن القائم بامر الله المعروف بالاعرج ، بويع ملـكا عـلى سـوس عـام 916 هـ الموافق 1510م وقد نظمت فى عهده المقاومة المسلحة ضد البرتغال بسواحل سوس واحـرز السعديـون تحت قيادته انتصارات عسكرية ضد الغزاة المحتلين كما تخذت مراكش عاصمـة للدولـة السعديـة الناشئة بعد الاستيلاء عليها عام 1525 م وبعد انتقال الاعرج الى مراكش ترك اخاه محمد الشيخ نائبـا عنه فى سوس حيث اهتم بمحاربة البرتغال الى عام 1541 م وهى السنة التى حدث بها خـلاف بيـن الاخوين أدى الى حروب مسلحة بينهما دامت عدة سنوات وانتهـت بانهزام الاعرج عام 1544 والتجائـه الى الصحراء . الا أن الشيخ تمكن من القاء القبض عليه وسجنه وعندما اغتيل الشيخ من قبل الاتراك 1557 تم تنفيذ الاعدام فى الاعرج وابنائه .

(4) اغتيل المولى محمد الشيخ من قبل الاتراك عام 964 هـ الموافق 1557م

الامام عن تطاول لما لم تصل اليه دعوته الكريمة ترضي بالسهل واحرار الخلف وربما تنبعث بعض الاحيان عزائم الغالب بالله منهم الى تجهيز العساكر نحوه فيشغله عن الالتفات الى اضداد الدولة وحذار مغبة مغيب العساكر عن المغرب وخلاء جوه منهم والنظر الى ما يستدعيه جوب القفار وطى الشقة البعيدة من كثرة الظهر ومؤن الاسفار البعيدة شاغل يأخذ بحجزته فتنحل عزائمه ويتفادى من ركوب الخطر في ذلك جنوحا الى العافية وتجافيا عن التهالك في طلب العز والظهور الى أن جاء الله بالفحل الذى لايقدع انفه والهزبر الذى لا يصد عن فريسته صقر قريش والحية الذكر من هاشم مولانا الخليفة الامام العالى الكعب امير المؤمنين المنصور أيده الله فطوى الارض ومهد الدنيا وزلزل قواعد الشرك ونهض بالدولة حتى استفحلت لعهده وبلغت الى اشرف نصابها فاستطال جناحها واتسع نطاقها وضاقت حواصل ممالكها وثغورها القاصية والدانية بما تراكم فيها من الجند وتوفر من الحامية فامتدت عينه لذلك الى فتح الاقطار وتجهيز البعوث تحت راياته المنصورة الى الآفاق الشاسعة لانتظامها في مملكته والدعاء الى التى هى أقوم من طاعته والدخول في دعوته الكريمة التى أوجب الله عليه بثها ونشرها وعلى الخلق الانقياد لشريف كلمتها وامرها بما أوتى من امرة المؤمنين وامامة الجماعة ووراثة الارض ولما كان صقع بلاد توات وتيكورارين من دون سائر الاقطار القاصية بالمحل القريب من جواره رءا أيده الله أن يبدأ أمره بافتتاحه ويجعله ركابا لما وراءه وسلما لما يليه فجهز العساكر اولا وسرحها اليه من فاس مع عمر بن محمد بن عب الوالى كان على سجلماسة

ص 41 فكان من تثاقله ببلاد فكيك واحجامه عن الوصول الى البلاد وسطو امير المؤمنين به * واعتقاله حتى افتدى بما انفق من الاموال على الاجناد ومؤنة الاسفار ما قدمنا ذكره ثم استأنف امير المؤمنين ايده الله الاهبة ثانيا فجهز العساكر من الحضرتين مراكش وفاس وعقد على حصة فاس منهم لمولاه الوالى كان على مكناسة لنظر اميرها المولى أبى فارس بن الامام القائد أبى عبد الله محمد بن بركة وأوعز اليه باستنفار عساكرها معه أيضا من الرامحة فاهطعوا لداعيه ونهضوا صحبته خفا وثقالا لرضاهم عن حسن سيرته فيهم فحسن لذلك بلاؤهم معه في الحروب وعقد امير المؤمنين على حصة مراكش للقائد ابى العباس احمد بن الحداد العمرى المعقلى من صنائعهم وجعله اسوة مولاه ابن بركة في تدبير الحروب دون الخراج ونهضوا جميعا في عام احدى وتسعين(1) وضربوا موعدا للقاء بسجلماسة فتوافوا بها جميعا وزحفوا الى البلاد وخاضوا القفر نحوها في عساكر ضخمة اهتزت أقطار السودان لصيتها وداخلهم الرعب منها ووصلوا الترحال ويمموا

(1) عام 991 هـ يوافق 1583 ــ 1584 .

تيكورارين من قبل توات بما كانت احد شوكة واصلب عودا واعتمدوا تينميمون منها
قاعدة قصورها وأم قراها فنزلوا عليها لسبعين مرحلة من مراكش دار الخلافة
وكانوا قدموا الى أهلها كتب امير المؤمنين بالاعذار والبراءة والدعاء الى الطاعة والارشاد
الى الدخول في حزب الهدى فاساءوا الرد ولاذوا بالمنع واستعدوا للحصار وسولت لهم
نفوسهم القدرة على الدفاع وجعلوا أكبر معولهم على تينميمون مقر الملوك الملتجئين اليها
ومحل أولى الامر من ولاتها والرؤساء من أهلها فارتحل اليها كل من يليها ويجاورها
من القصور والقرى وشحنوها بالمقاتلة وكان نزول العساكر عليها للزوال من يوم ( )(1)
ولم يكونوا عولوا يومئذ على الزحف الى حربها حتى يريحوا ويبنوا عليها مقاعدهم للقتال
من الغد فتفرق الاجناد لذلك في حاجاتهم من بعد ضرب الابنية ومر بعض الرماة
بساحة البلد وكان اهلها بالمرصاد لانتهاز الفرصة فيمن ينفرد منهم عن العساكر حتى
اذا حاذوهم انقضوا عليهم من مكانهم فهيجوا منهم على أنفسهم أسودا ضارية
وعقبانا تقتنص الارواح وتبارى الرياح فزحفوا اليهم حينئذ من ساعتهم واحدقوا بهم في
معتصمهم ونصبوا عليهم مدافع النار وقد كانوا استجروها اليهم من الحضرة وزجروهم
بحصى السماوى منها والحوا بالحرب على اسوارهم ودلفت اليها الاجناد وتنادوا
بشعار النصر وتهافتوا على البلد المحروب تهافت الفراش وارعدت رعود النار من كل
جهة فارسلوا عليها شآبيب الرصاص واطبق عليها ليل ديجوجي من البارود وتبوأ الرجل* ص 42
مقاعدهم للقتال لصق الاسوار والفرسان تحوم حولها حوم العقبان على الفريسة وحمى
الوطيس وضجت الارض من صواعق النار الموقدة وابلى القوم في الدفاع من وراء
الجدران وامتنعوا من القاء اليد فاذاقهم العساكر نكال الحرب وساموهم سوء العذاب
من النار الموقدة وارسال الصواعق عليهم عامة يومهم حتى توارت الشمس بالحجاب
فوصلوه بالليل ولم تمض منهم طائفة حتى اقتحموا عليهم البلد غلابا وتناولتهم السيوف
وانطلقت ايدى العساكر بالنهب والعيث في المنازل حتى ارتفع النداء بالأمان او الابقاء
على من تخطاه الاجل فسكنت الهيعة وتقبض على رؤساء البلاد واعيان القصور الملتجئين
اليه عند الحصار فتلوا الى محبسهم وانقاد بانقياد تينميمون سائر قطر تيكورارين وآتوا
طاعتهم راهبين مما نزل من الخسف باحيائهم المحاصرين الا الفريق الاقصى من الشط
الظهراني آنكمشوا في قصورهم وانقبضوا عن القاء اليد للطاعة فأملى لهم القواد اعذارا
اليهم واقامة للحجة عليهم واعرضوا عنهم فبث القائد ابو عبد الله بن بركة عماله في
البلاد فاقتضوا له خراجها وحملوا اليه جبايتها فزحفوا الى قطر توات واعتمدوا منها

(1) يوجد بياض بالاصل .

تمنطيط قاعدة قصورها ولدة تينميمون وقريعتها فى العصبة والرياسة وكان شيخا ورئيسا والمرجوع الى كلمته فى سائر قطر توات الشيخ عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن اخو السلطان كان بواركلا لامه وكان راسخ القدم فى الرياسة بها آخذا ببعض الشارة الملوكية فى ضرب السكة لديه وارتفاع الرماح بين يديه فنزلت عليه العساكر وخيمت محلاتهم بساحته ووجه اليه القواد بالطاعة وأملوا له ثلاثا فراجع نفسه وكان من أولى البصر بالعواقب فحذر على نفسه وقومه مغبة أهل تينميمون أضداده وعلم أنه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر فتمشت اليهم رجالاته حتى استوثق منهم لنفسه وقومه ما اراد من الامانى وبعث عمن يخرج فى يده من رجال الدولة ويصل تحت خفارته الى القواد فبعثوا اليه القائد أبا عبد الله محمد بن احمد السيورى احد رؤساء جند مكناسة ومن طبقة القواد بها ومن بيوت الاحلاف المتاخمين فى مجالاتهم فى القفر . لتوات فوصل صحبته ولقاه القواد برا وترحيبا وخلع عليه القائد ابو عبد الله موسى وحمله فأفرج روعه وحمد مغبه تم سابقه الى الطاعة والقاء اليد منافسوه من رؤساء البلاد واعيان القطر ومجاذبوه حبل الرياسة به من بعد فوج واتوا طاعتهم راغبين وراهبين واستجابت لهم القاصية والدانية فكان
43 استنزال عمر رئيس البلاد وزعيمها مفتاحا لانقياد سائرها وافتضاض بكر * فتحها من غير قتال فذرت ضروع الجباية فى البلاد وقدر القائد ابو عبد الله بن بركة الوضائع على أهلها وفرض المغارم فأعطوها عن يد وبث العمال فى الجهات فحملوا اليه من ذلك أموالا جمة واقتضى من سائر أهلها الرهن على الطاعة فثنى عنانه الى الشط الظهرانى من تيكورارين فنزلوا عليه بالعساكر وأعذروا الى أهله بالبراءة وايفاد الرسل عليهم من أهل الدين يقدمهم الشيخ عمر رئيس تمنطيط يعظونهم ويدعونهم الى الطاعة فلجوا فى الاباية وأصروا على المعصية جهلا وغباوة وايذانا ان لهم خزى الدنيا وعذاب الاخرة وجمعوا للحصار بقصبة أولاد عبد الله منهم فحقدت عليهم الاجناد المجاهرة بالعصيان وامتعضوا من اساءة الرد فالتهب صدورهم حنقا عليهم فأجمعوا على استيصال شافتهم وقطع دابرهم فزحفوا اليهم وترجل سائر الفرسان والابطال من جيش الاسل يومئذ عن خيلهم واستلاموا واسبغوا من شكهم وتظاهروا فى دروعهم ونصبوا الدرق أمامهم وشمروا سيوفهم وسابقوا الرجل من عساكر النار الى معتصم المخالفين حتى وقفوا لصق اسوار قصبتهم وتنادى باشعار سائر العساكر فأرعدت رعود النار وضج الافق من صواعقها الهاطلة على أهل الشقاق بشئابيب النار الموقدة والرصاص المنهل انهلال القطر وحصى

الحديد المنبعث من أفواه النفط الذى يدك الجبال ويصدع الصخر وصابر القوم حر
اليوم وحربه وأقاموا يصطلون بناره شقاء وغباوة وايذانا بأن لهم خزى الدنيا وعذاب
الاخرة وامتنعوا من القاء اليد حتى اقتحمت عليهم العساكر معتصمهم غلابا من بعد أن
فاء فيء النهار وتبارى جيش الاسل وجيش النار فى تناول راية السبق واحراز الخصل
فى اقتحام القصبة على أهل الشقاق فلم يروعهم الا انثيالهم عليهم من الفرج المتثلمة
من السور بالحاح المدافع عليه انثيال السيل فتناولهم القتل وحكموا السيف فى الرجال
منهم والنساء والولدان حنقا عليهم حتى كلت سواعدهم فتنادوا بهدم القصبة عليهم
واستيصال شافتهم بالردم فلم يكن الا كلمح البصر أو أقرب حتى أصرعوا جدراتها الى
الارض وألصقوها بالرغم وهويت ردما على الخوارج فلم تبق منهم ولا من حيوانهم
وسائر من يدب على الارض من نعمهم ودوابهم عين تطرف فأطبق على الجميع تيار
الهلكة فأصبحوا مثلا فى الغابرين وعادت منازلهم بلاقع كأن لم تغن بالامس وكان
فى ذلك أعظم عبرة للمعتبرين وأجل عظة للمتعظين قرأت فى كتاب الفتح الى أمير
المومنين أن الشيخ عمر صاحب تمنطيط ورئيس سائر قطر توات وكان صحب
العساكر فى مغداهم الى الشط الظهرانى وشاهد ما نزل بأهله من الخسف والتدمير
ص 44 لما وقف يوم الفتح على أطلال القصبة المخروبة الدارسة ★ ومنازلها التى أمست خاوية وقتلا
أهلها تعثر فى دمائهم الخيل اتعظ وارعوى وعلم ما نجاه الله منه هو وقومه فحمد مغبة
الطاعة وحسن العاقبة ثم داخله من النصيحة رعب اعتل له من ساعته وانتهك حتى أشرف
على الثنية فكان الشط خاتمة الفتح وغاية العز والظهور فى تدويخ القطرين وتمهيد
جهاتها الدانية والقاصية وطير القواد لاول الفتح النجيب الى أمير المومنين بمراكش
فعظم لذلك سروره واهتز له من أعواده وحمد مغبة نظره الكريم فى انتظام القطرين
فى ملكته . (1)

ذكر(2) نهوض العساكر الى بلاد السودان وانتهائها الى النيل المنبعث من قاصيتها واقتضاء البيعة من ملوك سواحلها

لما تم لمولانا الامام الخليفة المنصور بالله أمير المومنين أيده الله ما أراد من فتح
اقليمى توات وتيكورارين والاستيلاء على صقعيهما الطويل المديد امتدت عينه الى فتح

(1) كتب المؤرخ الزيانى تعليقا على هامش صفحة 48 من مخطوط المناهل جاء به (الحمد لله هذه الترجمة جعلها المؤلف هنا محلها ياتى عند فتح بلاد السودان وليس هذا محلها ولعل الجامع لهذا التاليف حين استخرجه من المسودة ظن ان الكتاب الذى وجهه المنصور رحمه الله كان فى فتح توات وليس كما ظن وانما هو فى فتح اقاليم السودان وستقف عليه فى محله عند فتح السودان فتامله فانه فى الورقة التاسعة عشر ومائة • كتبه بلقاسم بن احمد الزيانى)•

(2) يقتضى الترتيب التاريخى الانتقال الى صفحة 87 •

ما وراءه من بلاد السودان وكان الذى جاوره من ملوكها وتاخم بجهة الجنوب ممالك سكية
ص 88 صاحب كاغو (1) وما اليها وبجهة الجوف مما يلى ساحل البحر ★ المحيط ملوك جلفو وفلان
فأجمع أيده الله أمره على اغزاء الجميع بالعساكر وتجهيز الحركة الى الجهتين من الغرب ثم لما كان سكية صاحب كاغو منهم أحد شوكة وأقصى وطنا وأبعد شقة وكان شأن الحركة اليه ادعى الى الاستبلاغ فى الاحتفال والاستكثار من العساكر والظهر لطى الشقة البعيدة وحمل الاثقال الحافلة منخزائن العدة والبارود والرصاص وءالات الحركة الى جهة الساحل بما كانت أخف بعض الشىء وأيسر مؤنة من الاخرى يستعين بفتحها وبما تشتاق العساكر من الكراع والظهر المجلوب من زكاة أعراب الفلآت والامم المجاورين من أهل الوبر لممالك السودان على أمر الحركة الى جهة الجنوب وأن يبعث أولا الى سكية رسولا يكون عينا له على عورة البلاد وأحوالها فى الضعف والقدرة وما يحتاج اليه من العساكر وتستدعى من الاحتفال وتخير لذلك من رجال الدولة قس زمانه فى الفصاحة وطلاقة اللسان العمرى الشيخ مومن بن موسى العمرى المعقلى فسرحه بهدية ورسالة الى سكية بكاغوا وأنظر الحركة من جهتها لقفوله وبادر بتجهيز العساكر الى جهة الساحل لينهز فيها الفرصة من قبل أن يرجع مومن فيجده قد أخذ الاهبة والاستعداد الى الحرب ثم استعجل الاوبة فقفل من قبل فصول العساكر فأمضى أمير المومنين عزيمته فى تسريحهم الى الساحل من بعد أن أزاح عللهم ويسر لهم الظهر ومؤن السفر وجهزهم اليها من حامية السوس وجنوده بما كانت ممالكه مضاقبة لممالك السودان وبعث عن مولاه القائد أبى عبد الله محمد بن سالم صاحب الشرطة بفاس فعقد له عليهم وسرحه الى السوس بالمال وخزائن العدة والبارود وأوعز الى القائد ابى محمد عبد المولى بن عيسى بن بر الوالى كان على عمالة تكاوصت ووادى نول بالحركة معه بقومه وسائر عشائره من عبده النازلين معه وجعله اسوة مولاه ابن سالم فى تدبير الحروب دون الخراج فنهضوا من السوس من بعد استكمال الاهبة فى شهور عام اثنين وتسعين وخاضوا القفر مع الساحل الى السودان فوصلوا اليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العرب القبلية ولم يكن لاهل السودان من علم بالعساكر لوحشة القفر حتى نزلوا بساحتهم وكان مناخهم عليها ليلا فلم يرعهم عند انقضاض بازى الصبح على غراب الليل الا ابيضاض الارض بما جللها من القباب ومخيمات الاجناد ولمعان الافق ببريق السيوف ووميض الدروع وشهب الخرصان وخنق الرايات ثم هدرت الطبول وأرعدت رعود

(1) يرجع فضل تاسيس دولة سنغاى فى كاغو بالسودان الى محمد اسكيا الملقب باسكيا الكبير وقد تم ذلك عام 1493 بعد ضعف مبراطورية مالى وانحلالها ، وبعد وفاته توارث ابناؤه حكم البلاد ، ومن أشهرهم اسكيا اسحق الذى سيدخل فى خلاف مع المنصور ينتهى بغزو القوات المغربية المسلحة لبلاد السودان عام 1591 فانقرضت بذلك دولة سنغاى وقضى على الاسرة الحاكمة بها .

ص 89 النار اشعارا * بالبلوغ فاهتزت الارض وربت وضج الافق من هول اليوم وصواعقه فظن أهله أن القيامة قد قامت وحسبوها رجة الصعق أو نفخا في الصور لعدم اعتياد صواعق البارود وايناس ناره في بلادهم فأطرقوا لذلك الهول وطلبوا بطن الارض جزعا فلم تنبعث حفائظهم للدفاع ولا حدثوا أنفسهم بالحرب لعلمهم انه لا طاقة لهم بمقاومة عساكر المغرب وجنود الامام ولم يكن الا أن بادر ملوكهم باللحاق الى المعسكر واللياذ بالطاعة دفعا لتيار الهلكة بذلك عنهم وعن قومهم وتفاديا من هجوم العساكر عليهم في منازلهم واستخراجهم من صياصيهم ووصلوا الى معسكر جنود الامام أمير المومنين يقدمهم كبيرهم الموفى على الغاية في السن والهرم ابراهيم بن رضوان يامر فال وموسى جوب وغولى أخويا مرفال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان وألقوا أنفسهم على القواد مستسلمين فتلقوهم بما يتلقى به أمثالهم من عظماء القوم وملوكهم وأكرموا موصلهم وخلعوا عليهم ودفعوا اليهم كتاب أمير المومنين يدعوهم فيه الى التى هى أقوم من طاعته والدخول في شريف دعوته وأسمعوهم خطابه الكريم فطأطئوا له رؤوس الخضوع والاستكانة لمهابته حتى وعوا مقالته الصادقة وولج أسماعهم وعده ووعيده فسمعوا وأطاعوا وأقبلوا على كتاب أمير المومنين لاثمين ومعفرين وجوههم في علامته الكريمة التى خطتها يمنى ابن النبى عليه السلام ولامستها راحته الطاهرة الشريفة النبوية وطالبهم القواد بالبيعة لامير المومنين فأذعنوا لها وأعطوها طواعية بمحل اجتماعهم من فسطاط محمد بن سالم مولى أمير المومنين واستحلفوهم على الوفاء بما ارتضوه من الايمان المغلظة وأحسنوا الاستماع والاصغاء لشروط الطاعة والانقياد ودانوا بذلك واقتضوا لانفسهم من القواد ما أرادوا من الامان فانطلقوا الى قومهم غرا محجلين بما كساهم من أنوار الهداية وتسربلوه من خلع الامامة الكريمة التى حلت أجيادهم العاطلة بدعواتها الشريفة النبوية وارتحلت العساكر من بعد ذلك وسارت تحت رايات أمير المومنين تخترق ممالك السودان حتى انتهت لخليج النيل المنبعث من قاصية السودان وكرعت خيل المنصور في مائه وخفقت راياتها على شطه وكان في ذلك الفخر الطائر الذكر مع الايام لمولانا أمير المومنين أيده الله وقفلت العساكر الى المغرب ظافرة ظاهرة وكان الذى استجاب لهم ودان بالطاعة والانقياد من عرب الفلات فقط وأممهم الذين ينتجعون الكلأ في مجالات القفر الممتد

ص 90 من ثغور المغرب القبلية الى ممالك السودان * بالجنوب نيفا وأربعين ألف خيمة كلها من أهل الوبر والكراع المربى على النمل كثرة والجراد انتشارا فحصل أمير المومنين من ذلك على ما اراد وفوق ما كان يامل من الاستعانة بكثرة الظهر على ما أجمع عليه من الحركة

(1) يوافق عام 992 هـ 84-1585م

التي سكية بجهة الجنوب وهو الان أيده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الاهبة والاستعداد لذلك توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان وانفساح مجال الاعمال وكثرة الانفال الى التفرغ لما صرف اليه أيده الله عزمه وجعله قصده وهمه من جهاد المشركين واغزاء أرضهم في الجنوب والشمال بعساكره الامامية وموالات البعوث الى أقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في اعلاء كلمة الحق والاستيلاء بفضله على الاقرب والابعد والاحمر والاسود بلغه الله تعالى أمله وجعل أهل الارض عبيد سيفه وخوله وكتبه فيمن أخلص لوجهه الكريم عمله لا اله الا هو جلت قدرته .

ذكر تجدد البيعة لولى العهد الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المامون ابن أمير المومنين خلد الله أيامهم

لما كان الامراء بنو الامام أمير المومنين المنصور أيده الله حين العهد الى المولى أبى عبد الله الشيخ كبيرهم صغارا لم يدركوا ولا بلغوا مبلغ التكليف بشروط البيعة واعطاء صفقة اليمين عليها ثم ترعرعوا من بعد ذلك وأوفى بهم سن الاحتلام على ثنية التكليف بسائر الواجبات رءا أيده الله أن يأخذ له عليهم البيعة خصوصا ويوكد العهد بتجديد أخذها أيضا على سائر الناس عموما فبرز أيده الله من الحضرة في شوال عام اثنين وتسعين (1) واستنفر لها الناس من كل فج عميق وارتاد لمشهدها المبارك بسيط تامسنا وفحصها الافيح وأقام بمعسكره من تانسيفت حتى جهز العساكر الى جهة السودان وسرح اليهم بالسوس مولاه أبا عبد الله محمد بن سالم كما قدمنا وتلوم بمكانه لمشارفة أحوالهم واستحثاثهم بالكتب والمراسلة على المسير حتى انفصلوا عن السوس وخاضوا القفر فارتحل هو حينئذ أيده الله في الاجناد لوادى السد وسرح من هنالك حاجبه القائد أبا محمد عزوز بن سعيد الوزكيتي الى ولى عهده بفاس يستقدمه ويستحثه على الوصول وضرب له موعدا للقائه بمشهد البيعة من تامسنا فارتحل كل منهما وتوافى الركابان بالويدان منها وسبق اليها ركاب أمير المومنين ثم تلاحق ولي العهد لايام من مقامه أيده الله * فاضطرب محلاته لصق معسكر الامام والده واجتمع ص 91
باجتماعهما في ذلك المخيم السعيد والمشهد المبارك أمم لاتحصى من أجناد المغرب ورؤساء القبائل والاشياخ والاعيان وسائر أهل الحل والعقد ومن يشار اليه في المغرب بالبنان سوى أهل الثغور والمسالح وجهوا ببيعاتهم من أمصارهم ولما انتهى ذلك الجمع العظيم وتكاملت الوفود في ذلك المشهد الحافل جلس أمير المومنين أيده الله لاحكام عقد البيعة ثالثة يوم ورود ولى عهده وبلوغ ركابه العالي وشمر لمباشرة ذلك بنفسه ولم يكل أمره أيده الله الى غيره اهتماما بنظام كلمة الاسلام واحتياطا على الجماعة التى استرعى

(1) شوال عام 992 هـ يوافق اكتوبر 1584 .

أمرها ونادى في الناس بالاجتماع الى فسطاط جلوسه وقعد لهم قعودا فخما وفسح لهم المجلس ليسمع الجمع الغفير بانتظام ديوانه الاعظم الى التوأمتين الهائلتين اللتين قدمهما كان بين يديه ولي العهد هدية الى الامام أبيه وجمعهما بسياج محيط من فساطيط الهند الغريبة الشكل والعمل وأسبل على الجميع رواقا سابغا موشيا فكان ذلك المجلس من أجمل مجالس الدنيا زينة وءانقها حسنا وبهجة وأفخمها جلالة وأبهة وأمرني أيده الله بالقيام على رءوس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيرتي ليتادى الى الناس فهمه وبعد فصوله وقام الى جنبي قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية الشيخ العالم العلامة الصدر الاوحد أبو القاسم بن علي الشاطبي مفسرا لما أشكل على الناس من أحكام البيعة التي تضمنها الرسم الكريم حتى أتيت عليه سردا وقد وعته الاسماع وشربته الصدور واستطعمته الافهام ونادى الناس بالسمع والطاعة والرضى والقبول واحضر بين يدي الامام المصحف الكريم لعقبة بن نافع رضي الله عنه الذي من ذخائر الخلفاء رضوان الله عليهم والصحيحان من كف الاسلام واندفع الناس للبيعة واعطاء صفقة الايمان وتسابقوا الى ذلك وازدحموا عليه ازدحام الحجيج على الحجر الاسعد لم نعلم بيعة في الاسلام انشرحت لها الصدور وابتهجت القلوب ووقع اليها الشدة من الخاص والعام وباشرها بنفسه الامام مثل هذه البيعة الكريمة الرضوانية وكان الامراء بنو الامام أمير المومنين أيده الله تأخرت عن الجم الغفير اكراما لهم وصونا لمقامهم عن مواقف الخجل والازدحام مع من دونهم الى أن عقد لهم من الغد مجلس خاص بهم في القبة العربية وأسمعوا رسم البيعة بقراءتي اياه بمحضر الملأ من العلماء والقضات ومشيخة الفتيا والشورى فسمعوا وأطاعوا وأوقعوا على الرسم علاماتهم بالرضى والقبول والتزام الحلف والايمان المنصوص

عليها في رسم البيعة الكريمة ونصه وهو من املاء مولف الكتاب ★ بسم الله الرحمن الرحيم ص 92
صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين أيده الله بالنصر والتمكين وأمد أعلامه الموعود لها من الله بالفتح المبين الى يوم الدين بدوام الظهور والعز والتمكين صدر هذا التقليد الشريف المبارك السعيد الامامي النبوي الكريم والعهد الموسس القواعد والمباني على ما سنه أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم المفتتح بقوله وهو أسعد افتتاح وأكرم داع حي على الفلاح الحمد لله الذي جعل الخلافة للدين قواما وللدنيا عصاما ولشمل الامة نظاما ونشر بالامامة في الامم امانا أرسل على نار البغي والشقاق من جداول البيض الرقاق ماء الرحمة الرقراق فكانت بردا وسلاما وعصم بعصمها مصون النفوس والاموال ونفخ بعدلها روح الامن في اشباح الرجاء والامال وحمى بعزها حمى الاسلام من سوام الهوان والابدال فعز مقاما وطاب معرسا ومقاما والحمد لله الذي رفع

لها بالدعوة النبوية الالوية الخافقة على هضاب النصر واعلاما وقبض لها من الارحام الفاطمية والاصلاب الحسنية السبطية من أعادها الى نصابها الشريف وأقرها فى بيتها المنيف اعتناء بشأنها واهتماما واهلها لوراثة الامامة النبوية القرشية أولا وابتداء كما أحرز لها ارثها الخالص الى مجدها الصميم ءاخرا وانتهاء لتكون لها الحجة البالغة على الخلق افتتاحا واختتاما وصرف الى عهدها الكريم اءامة الجماعة وقضى لها على جميع الملل وسائر الدول بوجوب الانقياد والطاعة ووعدها بميراث الارض ومن عليها الى يوم القيامة واقتراب الساعة وفرض على الطوائف الاسلامية الانخراط فى سلك بيعتها الامامية فرضا عم به الخطاب وجاءت به عن اللـه السنة والكتاب حتما واجبا والتزاما وانظرها حين أنشأها وفطرها لتكون عاقبة حاشرة كما ورد فى صحيح الخبر الى يوم الجزاء والمحشر ولتكون خاتمة الدول كما ختم كل نبى ومرسل بجدها عليه السلام أشرف الخلق وأكرم ولد عدنان الذى أيده بمعجزات القرءان وبين عن الرحمن وأوضح معالم الايمان وسن بيعة الرضوان وأعطى صفقات الايمان وعقد على لزوم الطاعة وحذر من مخالفة الجماعة صلى الله عليه وعلى جميع رسله وأنبيائه وعلى صفوته وخيرة خلقه من أرضه وسمائه

ص 93 صلاة ★ تبلى الجديدين اتصالا ودواما والرضى عن ءاله والصحابة الخلفاء الراشدين الذين نفوا فى الدين الاختلاف وأوجبوا على أنفسهم الاستخلاف وأجمعوا القلوب والاهواء على الوفاق والائتلاف ورأوا أن ينظروا للمسلمين فى مماتهم كما نظروا لهم فى حياتهم فصار الائمة معظما وعقد الامامة منتظما وشمل الاسلام مجموعا وكلام الامام مسموعا واجتهاده العائد بعظيم النجاح والفلاح على العباد والبلاد واجب التقليد واقتداء به وائتماما والحمد لله الذى أوضح لهذا الجناب النبوى الشريف والمقام العلى الامامى المنيف دلائل الفخر على الكمال والتمام واصطفاه من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق وخاتم الانبياء والرسل الكرام وأنشأ مجده الصميم من الارحام الطاهرة الفاطمية واصلاب الوصى الرضى أمير المومنين على رابع الخلفاء الراشدين الاعلام هداة الخلفاء والانام والائمة الذين جددوا معالم الايمان وهدموا البيع وكسروا الاوثان والاصنام وسليلة ريحانة الجنة ابن البتول وسليل الرسول أمير المومنين الحسن السبط الذى قبل ثناياه عليه السلام وقال فى حقه أن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين والشكر لله سبحانه والمنة ان اجتبى من هذه الروضة الحسنية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء اماما ألقى له فى القلوب والارواح محبة واخلاصا والخليفة استرعاه فوجده للامة خير راع عدلا ورحمة وسعت عاما وخاصا وجهادا فى الدين أوجب عن الله زلفى واختصاصا وأوضح للناس وجوب اعتقاد طاعته مسننا قويما ومنهاجا مستقيما وجعله كما قال عز وجل وكان

بالمومنين رحيما مولانا أمير المومنين بن مولانا أمير المومنين بن مولانا أمير المومنين وخليفة الله فى الارضين ووارث الانبياء والمرسلين والمفترض طاعته على الخلق أجمعين الممنون بامامته المقدسة على العالمين مولانا أبا العباس المنصور المجاهد أمير المومنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين الطيبين امام تشرفت بشريف دعوته الامامية المنابر الاسلامية وتحلت أجياد الايام بدرر مناقبه السنية السامية المفروض الطاعة على جميع الملل الحنفية والدول الاعاربية والاعاجمية والمختوم على كل من لم يحل جيده العاطل بعهود امامته القرشية الهاشمية ولم يدن بوجوب الطاعة والانقياد لايالته الكريمة النبوية الفاطمية بسوء الخاتمة الموعد بها فى قوله عليه السلام من مات ولم يعرف امام زمنه مات مينة جاهلية فأدام الله لالويته المنصورة بالله الظافرة وسيوفه الغالية بالله

ص 94 القاهرة * التى ملات أكناف الارض عدلا وأوسعتها بفضلها فضلا رحمت دماءها وأمنت أعداءها وشفت داءها وحفظت أرجاءها وأكدت غبطتها ورجاءها ولمقامه الذى نفخ فى شخص الامن روحه وجر على أفق كفه فكان مسيحه وسنى من الدين لواعجه وتباريجه واهب على القفر زعزعا ريحه نصرا تدور به الافلاك وتنزل به الملائك وتخضع له الاملاك وتنجاب بأنواره المضيئة مدلهمات الاحلاك وتتسق به الفتوحات المتعاقبات الى يوم الدين اتساق الفرائد فى الاسلاك وحفظ على الاسلام والمسلمين مهجته وعلى الايام والانام حدته وأبقى دولته الغراء بقاء يخلق أثواب الايام وهو جديد وجعل أيامه الزاهرة مقرونة بالدوام والتخليد الى يوم الوعيد وواصل لسليله الرضى المستضىء بأضوائه المهتدى باهتدائه المجمع على اختياره وارتضائه مولانا الامير الاظهر الاشرف الاحسب الانسب الاجل الافضل الاكمل الامجد الاسعد الاصعد أبو عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين أسباب السعادة المطردة اطراد الكعوب والمواهب الجارية وفق اختياره على أسلوب بفضله ومنه وتأييده وعونه وبعد فان الله تعالى لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا دعى الى الهدى وأوضح طرق الشريعة منفسحة المدى ووعد وواعد وألان وشدد ويسر وما عسر وبشر وما نفر وفرض فرائض وسنن سننا ونهج الى الهدى طريقا لا حبا وسننا فكان مما سنه عليه السلام وشرعه وضم عليه نظام الخلق وجمعه الامامة القرشية المستدل عليها بالاثار المروية والاحاديث النبوية عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم وعن ابن جرير انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول الناس تبع لقريش فى الخير والشر وقال عليه السلام الائمة من قريش وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار والاذان فى الحبشة ثم أنبأ عليه السلام ووعد باتصال أمرها الكريم

مدى الدهور والازمان فقال لايزال هذا الامر في قريش ما بقى منهم اثنـان والحمد لله الذى أظهر مصـداق حديث نبيه الكريـم بظهور سليله ودعا الحق الى طريق الهـدى وسبيله خليفة الله في الارضين وقامع المشركين والملحدين ورحمت الله الى المسلمين مولانا الامام الخليفة المجاهد أبو عبد الله محمـد الشيخ المهدى بالله ★ المقدس أمير المومنيـن الذى أبتعثه الله بتجديد دعوة الامامة القرشية وصرفه لوراثة امامة جده الامام محمد بـن عبد الله المهدى بن الحسن المثنى الموسسـة على القواعد الشرعيـة الجاريـة على أنهـج الفتاوى المذهبية المالكية والحنفية والسالكة على أوضح المسالك السنية السنية ونشر به دعوته التى كانت فـي الارض مسموعـة والكلمة عليها مجموعة على حين دان ببيعـة المنصور وتقلد بالعهود التى قضت للامام محمد بن عبد الله المهـدى عليه حيـن التشاجـر وهبوب رياح الانتكاث والتقاطع والتهاجـر بالحجة والظهور وراء أمام دار الهجرة وأبـو حنيفة رضى الله عنهما للامام محمد بن عبـد الله المهدى أن الحق حقه والامر قد أحاط به رقه والعهد قد دار بعنق المنصور ربقه حتى لكان ذلك سببا رضى الله عنهما فى محنتهما وداعيا للمنصور الى اذايته ونكبتهما حسبما هو مشهـور وفى كل كتـاب مسطور ثـم وصل الله موصول الامامة بظهوره الكريـم لحين انقراض دعوتها من الارض وأخلص الى مجده الصميم تراث الدولة العباسيـة التـى اغتالتها الايام والاقدار على حين انبعاثه من جميع الاقطار على الطـول والعرض فجمـع سبحانه لايالته المحمدية الكريمة وراثة الدولة الحديثة والقديمة مصداقا لما روى فى الخبر الصحيح وورد فيه الاثر المروى عنـه عليـه السلام بنص ثابت صريح انه قال ما معناه لايزال هذا الامر فى ولد العباس راسخ القدم حتى يسلموه الى هذه الايالة المهدية العاقبة الحاشرة الوارثة لمن تأخر بحول الله وتقدم ولن تزال ظاهرة على الحق بحجته ومالكـة فيه على طريق الحق ولحجته حتى يسلم ان شاء الله الى عيسـى بن مريـم والحمد للـه الذى وفق بامامتـه المحمديـة الكاملة بيـن مذاهب الامم والفرق وجمع عليها من الاهواء ما كان فى الحديث والقديم اختلف وافترض ودل هذا المن الربانى الذى تأتى لها اختصاصا من الله واتفق وانتظم لها بالايثار الالاهـي واتسق على صدق النبأ المستفيض عند كل مومن المتضح لدى كل مسلم موقن والمتحقق من الاثار المستنبطة من علم اليقين المجزوم بها عند العارفين المتقين والابـرار المخلصيـن الصديقين من أن هذا الامر العزيـز متيـن متمكن له فى الارض مخدوم الارادة فى البسط والقبض منصور اللواء على مر الاوقات والاناء الى يوم الدين والمعرض موعود له بالفتـح والنصر والتمكين والظهور ودائم التخليد الى يوم البعث والنشور لايضره من عانده ولا من عاداه ولا يقدح فيه من خذله أو خدعه أو سلك على غير مداه عصمة من الله لايكيدها كيد كائد وأمر محروس بالله لايحل ★ عقـوده المنظمة وعهوده المبرمة وروابطه المحكمة طروق 96

طارق ولا نزول نازل ولا حدوث حادث زائد حتى ينجز الله وعده الكريم في الاستيلاء على الاقرب والابعد والابيض والاسود والاقصى والادنى والانتهاء من مراقي الكمال الى مركزها الاسمى ومصعدها الابعد الاسعد الاسنى والقاء الامامة العظمى على الاحق بها فالاحق والاولى فالاولى عدلا وشرفا واعظاما وانجاز للوعود السابقة والبشرى الصادقة واكمالا لشأنها واتماما ولما أطلع الله بامامته الكريمة شموس الهداية بهذا المغرب الاقصى والدين به غريب وصاحبه مريب والضلال قد دجى ليله وضفى على الاسلام ذيله وسال بالعيث والحيف على البلاد سيله وأوجفت بالبغى والعدوان رجله وخيله صدع بالحق وأظهره ودحض الباطل وهدره ورفع لواء الايمان ونشره وأمات الناس فأقبره وأحيى الدين الحنفي وأنشره وجدد شرائع جده واستقال الاسلام من عثار جده وأشاع المعرفة وغير المنكر قدر جهده وجاهد في الله حق جهاده وجرى في قضاء حق الله في العباد الى أبعد آماده حتى غدى جناب الاسلام مريعا وحصنه منيعا وباع الحق وسيعا ورياض العدل اريضه وساحة الامن والامان طويلة وعريضة وأبواب الجور مغلقة ومقبوضة وحين استنار به رضـي الله عنه وقدسه المسلك والمنهج ولاحت لمن قدرت له السعادة شموس الهداية والوهج لحق بالرفيق الاعلى وسور فضله في صحائف الايام تتلى وءاثاره الواضحة على جبين اليمن تجلى ونبؤه العجيب الصادر عن علم اليقين في شأن سليله الامام الخليفة المجاهد مولانا أبا العباس المنصور أمير المومنين محفوظ والوقت المعلوم لظهور ذلك السر المكتوم مرتقب وملحوظ الى أن أذن الله بانجاز الوعد الموعود والامد المرسوم المحدود أتته الخلافة والفتح يزفهما بين يديه الى جلاله ويسوقها غنيمة الى أسله ونصاله على حين غزوته الشهيرة العظيمة الكبرى وفتحه الذى خلع على الاسلام والمسلمين حلل الفخر والمسرة والبشرى فعقدت بحكم الاحتفال في مشاهدها المباركة وحرص الكافة في احراز المساهمة فيها والمشاركة بيعته السعيدة المباركة الرضوانية التي حضرتها أجناد الارض وملائكة السماء وفتحت لها أبواب المغفرة والرحمة وتضاعفت بها على الحق سوابغ الالاء والنعمى عن وفاق واجماع من أهل الحل والعقد وسائر العساكر والاجناد ومن جميع الاشياخ والاعيان وجماهر القبائل
ص 97 والشعوب من كل بلاد وحاضر وباد ومن كل خاص وعام بمواثيق * وعهود وايمان وربوط مستكملة الشروط على الكمال بحول الله والتمام فشملت المسرة وتشرفت بدعوته المباركة الامامية المنصور المنابر والاسرة وارتفعت الريب ولاح نور الحق فجلا كل غيهب ولما انتظم أمره أيده الله واتسق وتمهد ملكه واستوسق وقمع أهل الشقاق والعناد وقضى حق الله في العباد وعرفت كفه المباركة بالا عنه في الجهاد وتعود عاتقه في سبيل الله حمل النجاد ووطئت كتائبه المنصورة بالله أقصى الاغوار والانجاد وحيطت الثغور

ونام فى خفارة السيف والسنان الخاص والجمهور نظر نزه الله عن السرار بدر
كماله ولا يضح الامة والامامة من وارف ظلاله فى عواقب الامور وصدق نفسه نفس الله
مهلها عن المقدور ولاحظ قول القائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت ان جئت
ولم أجدك فتلقاها عليه السلام بالتصديق واجابها عن الصديق فاهتدى أيده الله بهداه
واقتفى أثره عليه السلام ومداه وتأمل أيده الله أمره وفسح طويلا عمره فى حياطة من
وكل من الخلق الى امامته وعنايته وحفظ بعين كلاءته ورعايته ونظر اليهم نظر الشفيق
والتفت اليهم التفات الرءوف بالمومنين الرفيق ولم يزل أيده الله وشكر اعتناءه يعمل عوامل
رأيه وفكرته ويكحل جفن نظره فى صلاح المسلمين بالسهاد ورويته ويستخير الله فى
مجالس خلواته ويستمنحه التوفيق للاصابة فى مرفوع دعواته ويسئله سبحانه العزيمة
على من فيه الخيرة والصلاح لكفالة الامامة من بعده والامة وللم الشعث ورفع الشتات
ونصر السنة وجمع الكلمة ودفع الصروف الملمة ويستوهب منه تعالى الالهام الى من
هو أهل لتقليد عهده ونصبه اماما للناس ان شاء الله من بعده غير مخل خلال نظره أيده
الله بمشاورة أهل الحل والعقد لديه فى الاصدار والايراد وأرباب الشورى من وزراء
الدولة وخواص الاجناد وغير مستبد أيده الله وهو أحق الناس بالاستبداد ثم ما زالت
أنسأ الله فى اثره وخلع على الايام جمال سيره مخايل الفضل له ولهم تتميز والحق
الى أهله ونور الله بين يدى عقده وحله يرشده الى من رءا الناس دون محله وهو
ابنه المقتفى من سننه ما اقتفى ومجتبى الخلافة نسبا وحسبا وخلفا وفرع الامامة التى تزهى
الدنيا والدين بها جمالا وشرفا مولانا الملك المعظم الهمام الاعظم الاجل الافضل الاكمل
الاظهر الاطهر الاشرف الاحسب الانسب الاسد الاسعد الامجد الاصعد مولانا أبو عبد
الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين الذى لم تزل عيون المسلمين عصمهم
ص 98 الله ممتدة ونفوسهم لتقديمه وتعظيمه * معدة ورغباتهم الى أمير المومنين فى نصبه لعهدهم
مشتدة لما عرفوه وشاهدوه من عدله وهديه وتعرفوه فى كل الاحوال من مشكور سعيه
ويمن نقيبته ورأيه ولما استحكمت السعادة وأذن الله ببلوغ الارادة ونهض بالركاب
العالى الامامى النظر فى صلاح المسلمين العام وقاده رائد السعادة والتوفيق الى أسعد
مخيمه المبارك بتامسنا وايمن مناخ ومقام لعهد الثلاثة وتسعين أنجح سنه مباركة
وأسعد عام تألق بالمجتمع السعيد الذى جمع الاحمر والاسود أو كاد من العساكر والاجناد
ومن انضاف اليهم من جماهير القبائل والاشياخ والاعيان من كل بلاد وحاضر وباد
جمع كبير وحفل كثير وجم غفير ممن يدخل فيما ارتبطوا عليه سائرهم وينتظم فيما عقدوه
جماعتهم وعشائرهم فعزمت على الجميع البواعث الايمانية واشارت على الكل والكافة
العناية الربانية بتجديد البيعة الرضوانية والعهود الاكيدة الايمانية التى سبق لمولانا

الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور أميـر المومنين الاخذ بها من الكافة لنفسه ولولى عهده المسلمين ان شاء الله من بعده مولانـا أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بـن أمير المومنين وأجمع المسلمون عصمهم اللـه قاطبة على اعادتها اكمالا للفريضة ورجاء فى الفضيلة واستنادا الى الاشارات الجليلة بعد الاستخارات الطويلـة فأجمع مولانـا الامـام الخليفة المجاهد أبو العبـاس المنصور باللـه أمير المومنين أيـده الله باجماعهم وبمحـل اجتماعهم ولم يال جهدا فى نصح الدين وفى صلاح المسلمين فأنعم أطال الله أيامه ونصر بنـوده وأعلامـه بعقد هذه البيعـة المباركـة السعيـدة والاخـذ فيها بالعهـود الاكيـدة والمواثيق اللازمة الشديدة ولولده ولى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانـا الامير الاجل الاكمل أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المومنيـن أيده اللـه ونصره وأعلى أمرهما وظفرهما فنادى بهـا منادى الحق فى الانام هى بيعـة الرضـوان فأدخلوها بسلام فابتدر المسلمون عصمهم الله لادائها عجالا وأتوها بصدور منشرحة وءامال منفسحة خفافا وثقالا وانقادوا اليها طائعين متبرعين مغتبطين مرتبطين فبايعوا عصمهـم الله قاطبة لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبـى العباس المنصور أمير المومنين ثم لولده وارث مجده وولى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا أبى عبد الله محمـد الشيـخ المامون بالله ابن أمير المومنيـن على الامـن والامامة والعفاف والديانـة وعلى السمـع
ص 99 والطاعة وحكم السنة والكتاب ★ والجماعـة مبايعة أدوها صفاء الاعتقاد الى السنة وحـط الايدى من جميع الاشراف والوزراء والرؤساء والصلحاء وطبقات العساكر والاجناد والاعيان والاشياخ الخاص والعام من كل حاضر وباد ربطوا نياتهم على الاخلاص لها ربطـا أسس على التقوى وشدوا بعقدهـا الكريم للديـن عضد الحزم الاقوى وشكـروا الله على مـا وفق اليه أمير المومنين من جمع كلمتهم على أفضل ولده وخير الخلق كافة من بعده وتلوه فى الخلائق الحسنى وشرفه الاسنى وابتهلوا اليه سبحانه أن يجازى أمير المومنين علـى سعيه المبرور وعمله الصالح المذخور بافضل ما جزى به خليفة استخلفه فى أرضه فقـام بحق سننه وفرضه وعدل فى بسطه وقبضه وسألوه تعالى أن يديم للخلافة فى يد أمير المومنين طبالها ويطيل اتصالها ويمد بكرها وءاصالها حتى لايخلع أثوابها الا بعد مهـل لايبلغه شأو الخلفاء ولا يتناوله يد الاستيفاء فيصير الامر لولىعهده ووارث مجده والامامة ان شاء الله فى فصلها مستقرة باقية والامة بحول الله بـه مغتبطـة راضيـة ولما عمـت المسلمين هذه البشرى وجاءتهم المذاهب تترى أعطوا بها صفقة الايمان المغلظة وأخلصـوا عقائد ايمانهم المستحفظة والتزمـوا عهودها الاكيدة ودانوا بمواثيقها الشديدة على السمع والطاعة وبذل الجهد والاستطاعة لمولانا الامام المجاهد أبى العباس المنصور أمير المومنيـن ناصر الدين وقامع المشركين والملحدين ثـم لولى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله مـن

بعده قرة عين الاسلام وكافل الامة والامامــة من بعد ما قام الجامع لخصال الفضل علــى
الكمال والتمام الجــارى على ســنــن سيــد المرسلين وعلى جادة أبيه الخليفــة الرضــى
أمير المومنين ومقتفى أثره فى كل فرض مــن فروض العدل ومسنون مولانا الامير الاجــل
الملك الاسعد أبى عبد الله محمــد الشيــخ المامون بالله بن أميــر المومنين وصل اللــه
لايالتهما الكريمة النبوية العز المكين ونصــر ألويتهما الامامية بنواسم النصر والتمكيــن
وأشهد الكل ممن حضر المشهد الكريم والجمع العظيم من أبناء أمير المومنيــن وأهل بيتــه
وقرابته من جميع الاشراف والعلماء والصلحاء والــوزرا. والــرؤســاء والقــواد والاجنــاد
والاشياخ والاعيان من كل حاضر وباد على الوفاء بشروط هذه البيعة المباركة الرضوانية
والمواثيق الشديدة والعهود اللازمة الاكيــدة الايمانية فى اليسر والعسر والقل والكثــر
والرضى والسخط والقــرب والشحط عالــم السر والاعلان ورسوله المصطفى سيد ولــد
عدنان ومن فى الارض والسمــاء من ملائكــة الرحمــن وعلى أن يكونــوا لمــن ود الامــام
100 الخليفة ★ المجاهد مولانا أبا العباس أحمــد المنصور بالله أمير المومنين وود ولده ولــى
عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعــده مولانا أبا عبد الله محمد الشيخ المامون بالله
ابن أمير المومنين واحبها حزبا وعلى من حاد عنهما حربا ولمن والاهمــا أوليــاء وعلى مــن
عاداهما أعداء قريبا كان أو بعيــدا شقيــا أو سعيدا كائنا من كان وحيثما تعين وبان فى
زمن الازمان أو حين من الاحيان ما تعاقــب الملوان واتصل الجديدان واصطحب الفرقدان
لا يستثنى أمير المومنين من هذا الحكم العام من بعد ولى عهده وعهد المسلميــن ان شاء
الله من بعده مولانا الاسعــد أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنيــن
أحدا من بنيه وأهل بيته وقرابته ونسبه وكل من يمت لهذا الامر أو يتعلق بسببه أو يدلى
بقرب أو قرابة أو ينتمى لهذا المقــام العلــى الكريم المثابه فقد أخرج أمير المومنين من هذا
العهد الكريــم الذى قلــده ولى عهده وعهــد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا الامير
الاجل الاكمــل أبا عبد الله محمد الشيــخ المامون بالله بن أمير المومنين عن جميع بنيه
وأهل بيته كافــة وقرابتــه خاصة وعامة مــا تعاقبوا وتناسلوا واتصلوا وتواصلوا وصرفه
عنهم كافة كما صرفهم عنه ولن يضرب لاحد كائنا من كان بحظ ولا نصيب منه غير مبال
أيده الله فى هذه الامانة التى أداها الى مــن رءاه أحق بها وأهلها وأنسب بها حياطة للامة
ونصرة للملة وأولى برحم يصله ولا غــرض لولد أو قريب يحصله ولا مستلزم فيها مــن
بنوة ولا قرابة عن حقه ولا اخوة وألزم أيــده الله الكافة أن لايعبؤوا بكل من يمد بالدعاء
الى نفسه وقتا ما أسبابه أو بفتح الى شــق العصى وحل هذا النظام الذى تألف عليه من
المسلمين الادنى والاقصى وصيد الشقاق بابه وأن يعاجلوا ببيض السيوف وسمر العوالى
الموردة لموارد الحتــوف كل من يترامى بــه الانتكاف والعدوان الى الوثوب على هذا الامر

المحروسى العزيز المكان محتجين بقوله عليه السلام من أراد أن يفرق هذا الامر وهو مجتمع فاضربوا عنقه كائنا من كان بحيث لايعتبرون أحدا غير ولى عهد المسلمين مولانا محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين ولا يعبئون بسواه أيا كان أقبل أو أدبر نفع أو ضر غاب أو حضر عق أو بر وأن لايهزهم عند متخلفات الاهواء زعزع ولا رخاء ولا تستفزهم نزغات الشيطان فى شدة ولا رخاء وأن يطهروا قلوبهم من سخائم الغش والخذلان والخديعة لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور بالله أمير
ص 101 المومنين ولولى عهد المسلمين ان شاء الله من بعده * مولانا أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المومنين وأن يخلصوا مضمراتهم وسرائرهم وطواياهم من شوائب الدلس والخذلان والمداهنة التى وصف الله بها المنافقين وأن تكون كلمتهم على لم الشعث ورفع الشتات ودفع مكائد العدات كلمة واحدة وأهواؤهم وعزماتهم على الخير والصلاح والتظاهر والنصح لمولانا أمير المومنين وولى عهد المسلمين فى السر والجهر متعاضدة وأن لايتأثروا فى خير ولا شر لشيطان مارد أو مارق تهتف به هواتف المناكر والمفاسد أو ماكر يسعى فى حل هذا النظام المحروس بالله بمكيدة من المكائد أو ثائر يثور أو باغ يستمسك بحبل الغرور أو قائم يدلى بطلب ما لم يصرفه الشرع اليه ولا خلع أمير المومنين عهده عليه مصممين على هذه العهود والربوط التى دانوا بها واعتصموا بأوثق عروتها وسببها غير مرتابين ولا شاكين فى أن من رام القطع عن هذا القصد المبارك فالله تعالى به قاطع ومن تصدى لتفرقة هذا النظام فالانتقام من الله تعالى عليه واقع ثم لما تجلى لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور أمير المومنين فى ابنه الاهدى وولى عهده ان شاء الله من بعده فى كل حال على سنن الاستقامة والهدى مولانا الملك الأسعد الاصعد أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين من المخايل الكريمة والشمائل الوسيمة ودلائل النجح الجارية على المسالك القويمة وتعرف أيده الله من أحواله التى اقتفى بها اثاره الواضحة ومقاصده الصالحة ومن عدله الذى لايغيب الاله احسانه وانعامه ولا يعدل فيه عن سنن الخلفاء آبائه الراشدين احكامه ما أداه الى أن استكفاه وبعث أيده الله على أن استرعاه أمر الخلق من بعده فأغناه وكفاه وتعرف اليمن والامان فى كل ما أتاه بعد أن محض عنه أيده الله وعن جميل سيره واختبره وردد البحث تدبراته وحميد اثاره فى كل ورد وصدر وكره وألفاه والتوفيق لارائه رائد والسعادة بحمد الله فى كل حال مطردة العوائد شرط عليه مولانا أمير المومنين أيده الله أداء ما يجب عليه وعلى الخلق كافة من السمع لامير المومنين والطاعة وامتثال أمره ونواهيه المطاعة واعطاء مقاد الانقياد له فى جميع حركاته وسكناته وعوداته فى الامور وبدءاته طول بقاء أمير المومنين أيده الله وطول حياته وأسقط عنه من الاجل الذى لابد

من موافاته كل شرط يتعلق بهذا التقليد المصروف اليه من بعد أمير المومنين وثنيا
وأطلقه من كل عقال وربط لايقتضيه حكم التقبض أمرا ونهيا ثقة منه أيده الله بما يعلمه
102 من كفايته ★ فى الامور وكماله وتحققه من شريف ءاثاره الحميدة وخصاله وأسند الى
نظره السديد أيده الله اختيار من يرتضيه من ولده ان شاء الله وذريته ومن أبناء أمير
المومنين اخوته أهلا لولاية عهده المصروف اليه من قبل أمير المومنين من بعده ووكل أمير
المومنين اليه فى ذلك الرأى الرشيد بحكم التفويض التام والاذن من أمير المومنين المطلق
الشامل العام الا أن يتجدد لامير المومنين نظر يقتضيه الصلاح ويدعو اليه داعى النجاح
باسناد العهد الى أحد أبنائه أولاد أمير المومنين من بعد ولى عهده وعهد المسلمين ان
شاء الله من بعده مولانا أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين فنظر
أمير المومنين وأمره فى ذلك نافذ وماض وحكمه فيما يراه أيده الله ويختاره ليس عليه
اعتراض ثم الخيار من بعد ذلك لولى عهده وعهد المسلمين من بعده مولانا أبى عبد الله
محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين فى صرف ذلك العهد بعد من يرتضيه أمير
المومنين الى من يشاؤه هو ويختاره من ولده لصلبه وذريته وعقبه ما شهد مولانا الامام
الخليفة المجاهد أبو العباس المنصور أمير المومنين أيده الله بما فيه عنه وعن رضى
واختيار منه كما أشهد الكل والكافة ممن حضر الجمع العظيم والمشهد الكريم من أبناء أمير
المومنين وأهل بيته وذوى نسبه وقرابته ومن الاشراف والوزراء والرؤساء والعلماء
والصلحاء والقواد وجمهور العساكر والاجناد والاشياخ والاعيان من كل حاضر وباد على
الوفاء بكل ما تضمنه هذا التقليد الكريم والعهد الشريف المبارك الجارى على ما سنه
خير الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم من العهود والشروط التى التزموها وتقلدوها
والمواثيق والربوط التى دانوا بها وارتضوها طائعين ومتبرعين واعتقدوها وآقسموا على
ذلك بالله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم وبعهد الله ومواثيقه
وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المومنين وذمم المسلمين وباشد ما
أخذ الله من العهود والمواثيق على النبيئين والمرسلين وعلى الملائكة المقربين ووكدها فى
أعناق المسلمين والمومنين وبجميع الايمان المؤكدة والمواثيق المشددة التى أمر الله بالوفاء
بها قليلها وجليلها ونهى عن نقضها وانتكاثها وتبديلها وانهم ان حادوا عن هذا السبيل
أو انحرفوا لداعى التغيير والتبديل أو نقضوا شيئا مما أشرطه أمير المومنين وسماه فى
هذا التقليد الكريم وأخذ به لنفسه ولولى عهده من بعده وعهد المسلمين أو بدلوا فى
ص 103 ذلك وغيروا أو نكثوا ★ فى شىء منه وغدروا فقد برئوا من الله ورسوله ومن ولايته ودينه
ومن ءال محمد صلى الله عليه وسلم ومن حول الله وقوته الى حولهم وقوتهم ومن ذمة الله
الوافية لذمتهم ولقوا الله كفارا مشركين ولكل ما نهى الله عنه ءاتين وما أمروا به

نابذين وتاركين وكل امرأة هي اليوم لرجل منهم أو يتزوجها في جميع بـلاد الله الـى خمسين سنة فهي طالق ثلاثـا البته طـلاق الحرج لاتنويه فيه ولا رجعه وكل مملوك ملكه أحد منهم أو يملكه الى خمسين سنة عبيدا أو اماء ذكورا أو اناثا فهم عتقاء لاحقين بأحرار المسلمين وعلى كل رجل منهـم المشى الـى بيت الله الحرام الذى بمكـة خمسين حجـة نذرا واجبا عليه في عنقه على قدمه حافيا رجلا محرما من منزله بحجة كفارة لاتجزىء عـن حجة الاسلام ولا يقبل الله الا الوفاء بذلـك وكل مال هو لاحدهم أو يملكـه أو يستفيـده الى خمسين سنة عينا وعرضا حيوانا وأرضا وزرعا وضرعا وسائر ما يحويه التملك كلا أو بعضا فهو هدى بالغ الكعبة مخرجا عليـه أن لايصرف شيئا من ذلك الى ملكه لحيلة أو استرعاء يقدمه لنفسه الزموا قاطبة وفقهـم الله هذا كله وأشهدوا به غير مضمرين لسواه ولا ناوين الا اياه متطوعين ومتبرعين غيـر مجبورين ولا مضطرين عالمين بما شرطه عليهم أمير المومنين لنفسـه ولولـى عهـده وعهـد المسلميـن ان شاء الله من بعـده وساريـن ومستبشرين ءاملين ما عد لاصحـاب نبيـه الكريم الذى بايعوه بيعة الرضوان المتلو شأنها في القرآن اذ قال تعالى تعزيزا لهم وتعظيمـا وتعريفـا بسبب الثـواب المرتـب على نيـه القلوب وتكريما لقـد رضى اللـه عن أميـر المومنين الى قوله وكان الله عزيـزا حكيمـا وكتب الملا من أبناء أمير المومنين وأهل بيتـه وقرابته ومن تلاهم أسماؤهم عقب هذا الكتاب ليكون باقيا في الاعقاب وثابتـا ان شاء الله يوم الاحقاب وقد دانوا الله تعالى بما أمضوه وعقدوه والتزموا الوفاء به وشددوه ورضـى الله تعالى يهديهم ويد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما وصلـى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلـم تسليما والحمد لله رب العالمين وفي تاريـخ جمادى الاولى عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة(1).

ذكـر قسيمة الممالك والاعـمال بين الامراء بنى الامام أمير المومنين

ص 104 كان للخليفة الامام أيده الله جماعة من الولد لامهات مختلفات وكان المرشـح منهـم للامارة ومناصب الولاية أربعة أكبرهم سابق حلبتهم والمحل في مضمار مجدهـم وميـدان عزمهم المولى أبو عبد الله محمد الشيخ المامون وشقيقه المولى أبو فارس عبد الله والمولـى الامير أبو الحسن والمولى الامير زيدان ولمـا طلعوا أعزهم الله بافاق دولته الشريفة وطالت فروعهم في دوحته النبوية وازينت بدراريهـم سماء خلافته العلية رءا أيده الله أن يرسـى بهم قواعد ملكه ويشد بهم ازر الاسلام وعضد الملة فجرد لهم العساكر وعقد لهم على الجهات وقسم بينهم الممالك فاما كبيرهم ويعسـوب بيتهم والطود العالى على هضباتهم المولـى

(1) جمادى الاولى عام 993 يوافق ماى 1583

الامير أبو عبد الله محمد الشيخ فانه لما كان له أعزه الله من مزيد الشفوف على الجميع بسنده وهديه وشرف همته وحسن ملكته وكفايته ما شهد له بمغبة حاله قلده الخليفة الامام أيده الله ولاية العهد وألقى عليه أمانته العظمى كما قدمنا وعقد له على فاس وسائر ممالكها فاضطلع بأمرها وحسن فيها غناؤه ولما أخذ له البيعة على اخوته بتامسنا رءا أيده الله أن يقسم لهم من الترشيح الامارة ويزين بهم مناصب الملك فعقد لهم بذلك المشهد المبارك في تامسنا على الولايات والاعمال فأما المولى أبو فارس شقيق ولى العهد ورديفه فعقد له على السوس وسائر ممالكه ونصب فيه النيابة عنه مولاه القائد أبا عبد الله محمد بن بركة وأنزله هو معه بالحضرة ودفعه الى النيابة عنه في مغيبه عنها وسماع المظالم والقعود للجم الغفير بايوان الخلافة متى عن للامام في بعض الاحيان ما يوجب العكوف في قصوره عن مصالح المسلمين والنظر فيما استرعاه من أمور العباد فاستنبلت في جميع ذلك أغراضه وحمد الناس فيه مغبة اختيار أمير المومنين وحسن نظره الكريم في اعتيامه وترشيحه وأما المولى أبو الحسن فعقد له أولا على مكناسة وعقد للمولى زيدان أصغرهم على تدلا ثم بدى له أن يديل كلا منهما بالاخر فنقل المولى أبا الحسن لتدلا وعقد له على مكناسة وولاه أعمالها فسرحه اليها وشد بهم عرى ملكه فازدهت بهم ءافاق الدولة ورست بقواعدهم أركانها الثابتة ونفقت بذلك سوق المنافسة في المعالي والاستباق الى احراز الخصل في اقتناء المكارم والتبريز في ميدان النجدة وثقافة النظر وحسن الضبط وجرى في كل ذلك الى أبعد شأو وأقصى غاية والامور جارية * لهذا العهد على ما وصفنا من أحوالهم جميعا أبقاهم الله وألحفهم 105
سرابيل العز والعناية وجعل هذا الامرالكريم باقيا فيهم الى يوم القيامة .

ذكر خروج الدعى ابن قرقوش بجهات الهبط وجبال غمارة وما كان أمره الى حين هلاكه

كان والد هذا الدعى يدعى بالحاج قرقوش من سفلة البيوت بمدينة مكناسة ونشأ هذا الغمر في حجره محترفا بصناعة الحياكة ثم تلبس بشعار أهل الزهد والورع المنتمين الى الصلاح واغترب عن بلده وذهب يتقلب في الارض منتحلا للمشيخة وطالبا للتلاميذ وكان يتعاطى تدليس السكة ويدعى انه يحيل المعادن الى الذهب والفضة ولم يزل ينتقل في البدو من حي الى حي وكلما أقام بمكان حتى يستوضح أهله جبنه ويفضحه العجب في ما ادعاه فيمقتوه انتقل منه الى مكان ءاخر حتى وصل الى جبال غمارة وكان أهلها على ثنج من الجهل والغباوة والبعد عن مدارك العقلاء فانتمى اليهم الى أهل البيت وادعى الهداية فتحدثوا بشأنه واشتملوا عليه ثم سرى خبره في سائر بلاد الهبط وجبالها فانثالت عليه غوغاؤهم من كل فج عميق وطافوا به وانفعلوا لزيفه فركبوا سنن

الخلاف ولبسوا جلدة النفاق وتفاقم بذلك أمر الدعي فلبس شارة الملك واتخذ الالة وتسمى في كتبه بأمير المومنين فاضطرمت به سائر بلاد الهبط نارا وفتنة وكان مبدأ ظهور ضلاله ومثار نيران فساده وزيفه في النصف من صفر عام ستة وتسعين (2) ووافق شان قيامه اشتداد كلب البرد فاستعان من ذلك على ما أضرم من الفساد وأقام من سوء الفتنة بعدوين ظهيرين له الثلج الذي سد على العساكر المسالك المفضية الى الجبال من السهل وأعواز الحبوب للعلوفة اذ ذاك الفصل بالجبال فتحصن بذلك وبما تسنم من ذروة المنع فجهز أمير المومنين العساكر وأملا له رفقا بجنوده من اقتحام الثلج واحتقارا لشأن الدعي وغوغائه وعلما بأن آمال أمرهم الى الاضلال ونار فسادهم الى الخمود لبناء أمره على غير أساس من الامور التي تتقيها الدول والا فلو آنس من أمره ما يحذر مغبة اهماله ما كان ليملي له أو يضيع في امهاله الحزم أو يصده عن فريسته تراكم الثلج واعواز الحب لكثرة جنوده ووفور كنوزه ومخازن أقواته وحبوبه ولما انصرم الفصل وتقشع عن الطرق الثلج وبدا صلاح الحب زحفت اليه العساكر من فاس في جمادى على يد ولي
ص 106 العهد يقتادها * الشهم القائد أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة وكانت زهاء ستة الاف بين الاسل والنار فجمع اليها الدعي من أحزابه من الغوغاء أولا فصمدت نحوهم العساكر وصمم لحربهم القائد أبو عبد الله والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره الى أن اختل بزحف العساكر اليه نظام حزبه من الغوغاء فتفرقوا عنه وتبرءوا منه وأسلموه فلاذ بالاختفاء وغاص في لجة الجبال مدلجا بالليل وكامنا في النهار طالبا منجاته الى بعض ثغور المشركين بسيف البحر وكان القائد أبو عبد الله قد أذكى عليه العيون وأغرى أولياءه من أهل الجبل بالبحث عليه فأرصدوا بكل ثنية فاتفق أن بعث الدعي بعض أصحابه من زعانفة الغرباء الذين طوحت بهم الطوائح ليلتمسوا له ولانفسهم طعاما من العمران حول مكمنه لفرط ما أذاقهم الله من لباس الجوع والخوف فانطلق منهم ثلاثة أشخاص ملبسين بزي الفقراء أهل السياحة في الارض فعثر بهم شريف من شرفاء العلم الادارسة يعرف بعبد الله بن عبد الرحمن وكان أشد الناس بحثا على الدعي وأحرصهم على الظفر به يبتغي بذلك اليد عند الدولة فتفرس في الاشخاص وركض اليهم فرسه فغلظ لهم في القول فنجعوا وذلوا وارتبكوا واقتادهم بين يديه على كره الى العمران حتى وصل بهم زاوية سريف من طاعة القصر ودعي بالقيم عليها فأغراه بالقبض على الاشخاص وحذره مغبة افلاتهم فشد عليهم الوثاق وفوض اليه في أمرهم فبقي يتهددهم بالعذاب والقتل ويعدهم بالخلاص من الورطة واطلاقهم ان صدقوه كنه الدعي حتى أقروا له وحدثوه عن مكمنه فصرخ في السحر في أهل سريف فساروا معه رجالا وركبانا ونفر

---

(1) منتصف صفر 996 هـ يوافق منتصف يناير 1588 .

الاشخاص ليصون بهم الطريق الى الدعى فلم يرعه الا انقضاض القوم عليه ضحى يوم الجمعة سابع عشر رجب العام (1) وعلى امرأته حمالة الحطب وكان أصهر منها لاول انتزائه الى بعض أشياخ الجبل من أهل تبريزان يعرف بأحمد بن موسى شيخ بنى خالد ليستظهر بعصبته فوكل به وتولى لصاحب القصر القائد أبى العباس أحمد بن عبد الله فسرح اليه من أتاه به وطير الخبر من حينه الى أمير المومنين فوافاه بمعسكره من ظاهر الحضرة راجعا من حركة راحة أعملها لزيارة الصالحين والتبرك بمشاهد الاولياء بمدينة اغمات وجيء بالدعى الى ولى العهد بفاس فقتل هو ومن معه من اتباعه يوم الاربعاء الثانى وعشرين من رجب (2) وعلق شلوه على سور البلد الجديد وطير برأسه الى الحضرة فوافى يوم دخول أمير المومنين من زيارته فنصب على خشبة باساراك من القصبة وبقى هنالك مدة الى أن سقط بجولان الخيل فى الميدان أيام الموسم فألصقت السنابك عظامه بالرغام * وذهب فى غير سبيل مرحمة . ص 107

ودخل (3) أمير المومنين فى يوم الخميس منسلخ رجب أو مهل شعبان عام ستة وتسعين فوافق دخوله ورود رأس الشقى ابن قرقوش الثائر كان ببلاد الهبط حسبما قدمنا فعظم سرور أمير المومنين بما انفق له من ذلك وجاشت فكرتى حينئذ بأبيات صنعتها فى معنى التهنئة فقلت :

انل فبكل كف منك ومر	فالدهر يفعل ما تقول
اطاعك فى عراك بكل ارض	لتعلم انه عبد مثيل
ومن يكن القضاء لديه جندا	تصان عن الدماء له النصول
ومن تنوى ولو عنقاء جوف	فسيفك ذو الفقار به كفيل
ومن سئم الحياة يسم نفاقا	يعاجله لكم أجل عجول
واشقى الناس من يعصى اماما	ولياه على والرسول
اذا زار استكان الاسد رعبا	وترهب منه ان هدر الفحول
بنى الهدى انتم للبرايا شموس	لا يعارضها أفول
وأقرب ما لكم فى ملك الى	عيسى بن مريم لا يزول

ثم قطعت من دون كمالها أشغال سبحت فى تيارها فصرفتنى عن تمامها ولم أرفعها الى جلاله العالى .

(1) الجمعة 17 رجب عام 996 هـ يوافق 12 يونيه 1588 .

(2) الاربعاء 22 رجب 996 هـ يوفق 17 يونيه 1588 .

(3) يقتضى الترتيب الزمنى للاحداث الانتقال الى صفحة 184 .

وضرع (1) سائر أهل الجبال المنغمسين فى الثورة مع الدعى الى أمير المومنين فى الصفح عن جرائرهم فتقبل فئتهم وعفى عنهم الا أهل تبريزان من بنى خالد قوم أحمد بن موسى صهر الدعى ومتولى كبر الفتنة أوعز الى القائد أبى عبد الله بن بجة باستيصال شافتهم وتخريب عمرانهم واقتلاع جرثومهم جزاء على ما اتوه من النكث والمجاهرة بالخلعان ونصرة الدعى وايوائه والقيام بدعوته فاستباحتهم السيوف بالقتل رجالا ونساء وولدانا وغادرتهم حصائد واجتمعت العساكر على عمرانهم فخربوا الديار واقتلعوا الاشجار وعفوا الاثار وترك المنازل أطلالا دراسة كان كأن لم تغن بالامس فكان فى ذلك أعظم العبرة والموعظة لمن سواهم ثم جلت العساكر خلال ديار سائر قبائل الهبط ومرت تتقرى جبال غمارة هضبة هضبة وقنة قنة حتى استوعبتها سلوكا واقتضوا من جميع أهلها العدة وقبضوا منهم الرهن على الطاعة فنصلوا الى بلاد الريف وقد دوخوا سائر الجبال تدويخا ودمروا أرض المارقين تدميرا وحسموا منها داء النفاق واثار الفساد وقفلوا الى ولى العهد بفاس ظاهرين .

ذكر ارتحال امير المؤمنين لفاس للمرة الثانية وما قارن ذلك من الفتوح ودار من الامور وكان من تجهيز العساكر الى الجهات ووصول الابناء من ملوك النصرانية والسودان الى الحضرة فى مغيبه

لما قضى امير المؤمنين وطرا من زيارته ورحل الحضرة فى اخر رجب العام أجمع امره على الرحلة لفاس لتفقد أحوالها وكثرة اشتياق أهلها الى طلعته السعيدة والاقتباس من انوارها النبوية لطول عهدهم به منذ سبعة اعوام فتلوم بالحضرة حتى قضى منسك الاضحى فاضطرب معسكره بباب اغمات وخرج اليه يوم الخميس موفى العشرين من ذى حجة عام ستة وتسعين(2) فأقام هنالك نصف شهر أو نحوه فارتحل وعاج على وادى السد وتثاقل فى الطريق ليقضى وطرا من الصيد ولما نزل بساحة قلعة الكرار وتلوم بها اياما وافته هنالك البشارة بما سنى الله عنده بتيطاون من الفتح والاستيلاء على المشركين أهل سبته وكان من خبرهم فى ذلك ان العصابة القائمة بفروض الغزو والجهاد من المسلمين بتيطاون حاولوا انتهاز الفرصة فى المشركين أهل سبته واجتمع زعماؤهم الذين مارسوا خدعة الحرب تدبر مكيدة توصل الى استيصال شافة العدو والاستبلاغ فى نكايته وتمنحهم رضى الله وتخليد الذكر مع الايام فانتدب لذلك منهم زعيم الفئة ★ احمد بن عيسى النقسيس وكان احد المقدمين على الرجل من ص 108

(1) الانتقال الى صفحة 107 .

(2) يوم 20 حجة 996 هـ يوافق 10 توفمبر 1588 .

حامية الثغر وله في الغزو والجهاد معاهد مشهورة ومشاهد مذكورة وتقدم في جماعة من أصحابه الذين عركتهم مشاهد الحروب مع المشركين الى فحص سبته وكان اعرف الناس بمكامنه واخبرهم[1] بمسالكه لطول مراسه فتنكب عن المكامن التي يعتاد المشركون انبعاث خيل المسلمين منها وطلوع طلائعهم من جهتها وعدل الى جهة ما منهم من جانب الشمال وكان المكان لا يطرقه انيس من كثرة العشب والتفاف الشجر ومحاماته لاقترابه من العدو فعكف هو واصحابه على تسوية الطريق وتمهيد المجاز للمسلمين من تلك الناحية بقطع الشجر وتنحية الصخر ورضه بالفأس الكهام حتى تأتى لخيل الله المجاز منها واوعز للسادس من مقامهم الى قائد الثغر يستحثه على المسارعة والوصول في حامية الرجل والخيل وتلقاهم وقصد بهم الطريق الى الجهة التي سواها وارتادها لشن الغارة منها وكان المشركون قد انسوا راحة من خيل المسلمين في تلك المدة لانكماش مغاورتهم عن الفحو واعراء مكانهم عن الرصد مكرا بالمشركين وخديعة حتى امنوا واطمأنوا وظنوا بالمسلمين الفشل والملل ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم فاتح سبعة وتسعين اجمعوا امرهم على البروز من سبته بسائر سوادهم رجالا ونساء وولدانا برسم النزهة والراحة والتقلب في الفحص وسرحوا مع الصباح عيونهم الى مكامن المسلمين المعروفة ليستكشفوا خبرها ويأخذوا لانفسهم بالاحتياط من جهتها على المعهود من امرهم في ذلك فلم يتراء لهم شخص بالفحص ولا انسوا للمسلمين به حركة وكانوا لهم بالمرصاد من جهة مأمنهم بالشمال ولا هم يشعرون ولما ايقنوا بالبراءة من الفحص ووثقوا بالعافية من جهة المكان الذي يعتادون بانطلاق الغارة منها اذنوا لاخوانهم المشركين بالبروز من سبته فانتشر سوادهم بساحتها رجالا ونساء وولدانا وماج فيها سرحهم واقبل كل على ما بدى له امنين ومطمئنين فاستبشر المسلمون بالفتح فقرعوا الطبول وتنادوا بشعار النصر ولم يرع المشركون الا طلوع خيل الله عليهم من حيث لايحتسبون فانطلقت عليهم مغاورة المسلمين عنانا واحدا فحالت بينهم وبين سبته وتدافعت الساقة تحت الالوية اثرهم فمنحهم الله الظفر واستولوا على سائر سواد المشركين ما بين الاسر والقتل واكتسحوا سراحهم وكادوا أن يستولوا على سبته بما أتيح لهم من الظهور باستيصال عامة أهلها وانتهاز الفرصة في حاميتها ولاكن الله أملى لها حتى ينجز فيها وعده الكريم بفضله ونظم المسلمون * من تخطاه الاجل من المشركين في الحبايل ص 109
سلاسل وحملوا رؤوس القتلى على عجلات اكتسحوها مع السرح للنصارى وقفل المسلمون اعزاء ظاهرين واستاقوا السبي بين ايديهم الى تطاوين فبرز الناس لمشاهدته

(1) الجمعة 22 محرم 997 هـ يوافق 11 ديسمبر 1588 .

فكان يوما مشهودا عندهم وكتبوا بالفتح الى امير المؤمنين فوافاه بخيمه من ساحة قلعة الكرار كما قدمنا فاهتز له سرورا من اعواده وزجر منه الفال الحسن لرحلته المباركة وكتب لقائد الثغر بالتقائه بالسبى لفاس فارتحل ايده الله لتادلا وتلقاه بأطرافها ولده اميرها المولى الحسن في جيش عرمرم من جندها واستاق اليه هدية من العين والجياد والبغال وخيم بمحلاته على نظير منها وقد كان هب من قبل ذلك فيما بين اولاد حسين واولاد مطاع الذين اقطعتهم الدولة ارض بالماغت عاصف من الفتنة أحدثتها المشاحنة في حدود المواطن وانتصر لاولاد حسين سائر أهل حلفهم من قبائل العرب والبربر وجمعوا لاولاد مطاع فأوقد بهم وجاء امير المؤمنين ايده الله وسرح اليهم من مخيمه بنظير قائد القواد وكبير الدولة القائد ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني في قومه سفيان وجيشا من النار وأمره بفرض الوضائع الثقيلة على اولاد حسين وسائر القبائل المنغمسين معهم في الصولة وانتزع خيلهم والمبالغة في ردعهم عقوبة لهم على ما اضرموه من الفتنة وحزبوا الاحزاب فامضى فيهم عزيمته وانفذ في الانتقام منهم أمره وارغم أنوفهم بالزواجر المذلة فنجعوا واستكانوا وانزجروا وقوض امير المؤمنين بالثامن من مقامه بنظير معبر وادى أم ربيع وأناخ على ضفتها بحواته وكان قد احتبس وشحت السماء بمدرارها حتى ادرك الناس القنط من ابيضاض السنة ثم ارسل الله على سائر البلاد الوابل الغزير فأقام له الايام ثمانيا حتى عقب الصحو من بعد الرى فارتحل مستبشرا بذهاب الجدب وظهور الخصب وتلقاه وفد اهل فاس من مشيخة العلم والاشراف يوم ارتحاله من حواته واعتسفوا اليه الشقة البعيدة وتجسموا الامطار المسترسلة لشدة اشتياقهم اليه وحنينهم الى مشاهدة طلعته السعيدة فلقاهم البر والترحيب وأفاض عليهم انوار بشره وارغد لهم في الكرامة ثلاثا وسرحهم الى منازلهم امامه بفاس رفقا بهم من تعسف الظعن والاقامة مع الركاب ثم شفع الله ذلك الغيث بالثلج فارسلت السماء به على سائر بلاد المغرب فتراكم بالسهل والجبل بعضه على بعض تراكم الجبال وواصل فيه الركاب الترحال ما بين ابى الخمائر وعين اغبال وكف الله لامير المؤمنين من اللطف به في ذلك وبجنوده بالخلاص من الورطة خارقا
ص 110 دل على * عناية الله بشأنه وعصمة لحزبه وعدل أيده الله بالناس الى مدينة مكناسة رفقا بهم وشفقا عليهم واراح بهم ثلاثا حتى ذهب العناء عن سائر الركاب وقوض في جنوده لفاس وكان ولى عهده المولى الامير ابو عبد الله محمد الشيخ المامون بالله عن زهو أعزه الله من فاس للقاء امير المؤمنين في جنودها وعساكرها وخيم على رأس الماء من ساحتها وملأ بمخيماته ومحلاته بطاحها واستبلغ اعزه الله في الاحتفال وانتقاء الاجناد بما كان له من العناية بجمعها والاستكثار من عددها وعدتها وانتقاء الابطال

من رجلها وخيلها وانتهى فى ذلك الى ما لا مزيد فوقه من الكفاية الدالة على الحزم وحسن الملكة والضبط ولما كان يوم التقاء امير المؤمنين وولده ولى العهد بمجمع البحرين وملتقى الثقلين برأس الماء اختلفت جنود الله للسلام من الجبهتين وتظاهرت فى زيها الذى هو زينة الايام وشعار الاسلام وخفقت فى اكف رياح النصر والاقبال الرايات وجندت جنود الاسل والنار فملأ الارض سوادها وهزت الارض بزءيرها ضراغمها وءاسادها ووقف امير المؤمنين لعرض كتائب ولده عند السلام افواجا افواجا حتى قضى فرض التحية على ما هو المعلوم فى ذلك عند الخلفاء وركب ولى العهد الى جنب الخليفة ابيه وسارا معا الى معسكرهما واختلطت جنود الله حينئذ ومدت على الارض جناحا واطلعت من آفاق النصر صباحا وأرعدت رعود النار وهدرت الطبول وماجت الارض بمن عليها وغصت بكتائب الاسلام الدنيا فلا الجبال جبالا ولا الوهاد وهادا واهتزت الاقطار لصيت ذلك اليوم وكان من اجل الايام المارة فى الاسلام حسنا وفخامة وشفع بمثله من الغد عند الدخول فاحتفلت جنود الله على سبيلها وامتدت عساكر النار جبلين من العساكر الى ظهر الزاوية وجنبت الجنائب صفوفا وعليها الديباج الموشى وماج ركب الخليفة كالبحر المتلاطم وكانت الارسال الوافدة من جهة بني عثمان بالقسطنطينة مقيمة بفاس لانتظار بلوغ امير المؤمنين اليها فاذن لهم يومئذ بالصعود على سطح الدار المعدة لنزولهم بالرياض من البلد الجديد لما سألوا ذلك لينزهوا الطرف فى جنود الله وكتائب الاسلام وكانوا يميزون امير المؤمنين فى عبابها الزاخر بالمظل الكبير والراية البيضاء التى هى من شعار الدولة كما قدمنا فشاهدوا من زين اليوم وجماله ما اجتنبوه للحديث فى السمر ببلادهم غرابة واعجابا وبرز من نظارة أهل فاس للصعيد عالم لا يحصيهم الا رازقهم ودخل امير المؤمنين ايده الله افخم دخول وكان ذلك فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع النبوى عام سبعة وتسعين(1) ولما فرغ من شأن الموسم النبوى الكريم الذى يبالغ الخلفاء * فى التنويه بيومه المبارك الكريم كان أول شيء قام به ايده الله من اعماله النظر فى أمور الرعايا ورفع الظلامات عنها فجلس لسماع شكاياتهم وأرهف الحد للعمال وحذرهم المغيب عن ديوان الخلافة العلية أيام القعود للشكاية واخذهم بغرم ما جاروا به على الرعية واصغى فيهم الى قولها واعتوزت الرفيع منهم والوضيع زواجره فارعدوا وازدجروا واتقوا سطوته فلاذوا بالانتصاف من انفسهم للرعايا من قبل الوصول اليه فرارا من فضيحة الزجر وخجل الموقف بين يديه فكانت احدى مناقبه فى العدل الذى نهج فيه منهج والده الامام رضى الله عنه وفعله الذى اقتفى فيه اثره غب دخوله لفاس فى الفتح الثانى

(1) الثلاثاء 16 ربيع الاول 997 هـ يوافق 1 يبراير 1589 .

وجبرت القلوب وخلصت النيات ورفعت الى الله أكف الضراعة من الخاصة والعامة في استدامة ايامه الهنية وبقاء ظلال عدله الوارفة على الامة ثم وصل على تفئة ذلك قائد الثغر والمقدمون على الغزات بسبى سبته واشتقوا به فاسا على التعبية والالوية وبرز العذارى لمشاهدة ذلك من وراء حجابها فكان يوما مشهودا عند أهل فاس وجلس لهم امير المؤمنين ايده الله بمجلس المنكانة المطل على ايوانهم الكريم الذى اختط بباب قصور ملكهم بالباب الجديد فعرض عليه السبي وسلم أهل الثغر فكان من الايام التى اعز الله فيها الاسلام واذال عبدة الاصنام ورفع الشعراء اليه قصائدهم يهنونه بما صنع الله له في ذلك الفتح وكان ممن رفع اليه همته في ذلك صاحبنا وبلدينا الكاتب البارع ابو عبد الله محمد بن على الفشتالى ببيتين زجر له منهما الفال بأنه يستولى على سبته وينقاد له ما وراءها فاهتز لهما وحسن لديه موقعهما وهما :

هذه سبته تزف عروسا نحو ناديك في شباب وشيب

وهي بشرى وأنت كفء اللواتي كلفت بعدها بفتح قريب

ورفع اليه ابن السائح من طلبة فاس قصيدة مطلعها :

اعرف الزهر ساح من الكمائم أم البشرى أتتنا بالغنائم

ثم انتهى اليه أيده الله بعد ذلك ما كان من اجلاب عرب اليمن أهل مجالات تيكورارين على عسكرها وقتل قائدها سعيد بن الحسن وكان من خبره معهم أنه لما عقد له امير المؤمنين على بلاد توات وتيكورارين وقلده خراجها فسرحه اليها أواخر عام اربعة وتسعين كان من اعماله التى اساء فيها السيرة وخرج عن سياج السياسة ارهاف الحد لعربها من اليمن وكان عهدهم بالجاهلية حديث فتنكر لهم وقتل من اعيانهم وشردهم عن البلاد ومنعهم من ورودها وكانت معاشهم ومجتلب ارزاقهم فسخطوا احواله وتآمروا * ص 112

على العيث في اوطانها فأجلبوا على اطرافها واضاع الجهد في النهوض اليهم وكان أن يستألفهم لرسوخ قواعد الطاعة فيهم فابعد المذاهب في اتباعهم فتذامروا ورجعوا اليه فتخرم جمعه وقتلوه من بعد أن اتخنت فيهم العساكر ووصل الخبر الى امير المؤمنين بفاس فانبعثت له حفائظه واجمع أمره على السطو بهم فجهز العساكر من فاس والسوس وعقد عليها للقائد ابى عبد الله محمد بن بركة الذى كان فتح البلاد على يده وامر اليه بالنهوض من السوس في عساكره من الاسل والنار وسرح من فاس عساكر أخرى عقد على جيش النار منها لمولاه القائد سليمن مهرباشى من المعلوجى وعلى جيش الاسل لربى دارهم الكريمة علال بن القائد مهر بن عبو وجعل الجميع الى نظر القائد ابى عبد الله بن بركة وضرب لهم وعد اللقاء بسجلماسة ليرجعوا مجتمعين تحت راية واحدة وهم لهذا العهد غائبون تجاهلها كتب الله سلامتهم في الظعن والاقامة ومنحهم الظفر

والغنيمة واتفق ايضا ما كان من وصول ولد صاحب برتقال من ملوك النصرانية وولد سكية صاحب كاغو من ملوك السودان الى الحضرة فى مغيبه عنها(1) .

فأما ولد طاغية برتقال دون أنطون (2) فقد كان من خبره ان امير المؤمنين المنصور لما أوقع بجموع الشرك يوم النهر بوادى المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان(3) برتقال واستولى المسلمون على من تخطاه الاجل من سواد المشركين كان ممن ياسر يومئذ من طواغيت الشرك دون انطون عم بستيان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانفة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستمالهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه الى أصيلا وعبر البحر الى الاشبونة قاعدة برتقال وكان القائم بها يومئذ بامر برتقال من بعد بستيان عمه فرديال(4) ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالامر من بعده دون انطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة(5) ان يغلبه على ملكه بها واعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشى امر برتقال باستيصال شافتهم وهلاك جموعهم بوادى المخازن الكائن عليهم للمسلمين على يد امير المؤمنين فزحف اليهم بعساكر قشتالة وكانت امم النصرانية جمعا فخرج دون انطون لدفاعه فيمن بقى من جموع برتقال فالتقى الجمعان بساحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون انطون ونجى الى ملكة بلاد نكلطيرة ابذبيل(6) فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته ثم نظر فى امره فرءا أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى الا على يد امير المؤمنين الذى فى ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وانه لاقدرة على تشييد ركنهم الا لمن نقضه بمعاول * سيوفه الامامية واسنته اللهذمية فاستخدم له ومد له اليه يد التأميل من وراء البحر وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخا وضارعا فنزل بأسفى قاعدة البحر وبلغ الى امير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى فسرح الى ابنه المولى الامير ابى فارس بالحضرة يأمره بارسال كبير الموالى المعلوجى ببابه القائد محمود لصحابته فوصل به وانزل بسهريج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة واقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم امثاله .

ولما استوعب(7) امير المؤمنين ايده الله النظر فى أمور فاس وممالكها وازمع

---

(1) اثناء غياب المنصور عن مراكش فى رحلته الثانية لفاس ، وصل الى العاصمة اميران لاجئان هما داود بن على السودانى ودون كريستوف البرتغالى طلبا لنجدة المنصور ومساعدته .
(2) دون انطونيو
(3) دون سباستيان
(4) أى الكاردينال هنرى .
(5) يقصد فيليب الثانى .
(6) يقصد ايليزابيت ملكة بريطانيا .
(7) الانتقال الى صفحة 57 .

القفول الى الحضرة اضطرب معسكره بظهر الزاوية من ساحة فاس يوم الخميس رابع جمادى الاخرى وخرج اليه فى العساكر يوم الخميس ثانى عشر الشهر وتلوم به ريثما جهز منه العساكر الى بلاد ازغار لانتزاع خيل العرب حسبما نذكر ان شاء الله .

ذكر انتزاع الخيل من عرب الخلط وسائر قبائل ازغار وضرب الخراج عليهم(1)

ص 163 قلت وقبائل جشم التى منها هؤلاء الخلط اولوا العصبة القوية طالما شقيت بهم الدول وركبوا سنن الانحراف والخروج على الخلفاء فى الحديث والقديم يمتون فى ذلك بسند عال وقدم راسخة لا يجاريهم فى هذا الميدان مجار ولا يباريهم فيها مبار شنشنة اشتهروا بها وامتازوا عن جنس العرب قاطبة بنوعها حتى لو كانت العرب أهل الانفة واخذان الوفاء يعتدون هذه الخصلة الخسيسة عندهم مزية تشاد ومنقبة تخلد لذهب بفخرها عنهم قبائل جشم التى منها هذه العصابة الخبيثة لما لهم من الشفوف فيها على من سواهم لا تكاد تعقد لهم راية ولا تلوح لهم بارقة ولا تخرج لهم صائفة او شاتية الا فى سبيل الميل مع أهل الاهواء أو خروج على الملوك والخلفاء او هبوب الى ناعق اولى الثورة والانتزاء ديدنا دربوا عليه على مر الليالى وتتابع الاناء فلقد كانوا نكثوا أولا فى حدود المائة الثالثة على الموفق العباسي وانحرفوا عن الدولة فأرهف اليهم الحد وسدد نحوهم سطوة من عزائم صولته فلاذوا منه بالهرب وتحيزوا الى القرمطى(2) فلم تنل منهم سيوفه وكانت اغمادها حنقا عليهم وشرق الموفق بغصتهم ثم جاءت الدولة العبيدية واقتسمت ممالك الشرق مع الدولة العباسية وتجاذبتها حبل المغالبة والمدافعة والمشاقة على الاعمال والاقطار والاوطان فاغتنموا اختلاف الكلمتين وانقسام الدعوتين فتداعوا الى العيث والفساد واعتزوا على الدولتين ونالوا من الفئتين واقاموا على مشاغبة الفريقين الى أن اراحهم المستنصر العبيدى(3) رغبة منهم لا رهبة على الدخول الى افريقية فى جملة من دخل حين نزوع صنهاجة امراء الخلفاء بنى عبيد على افريقية عن طاعتهم وتحويل

ص 164 الدعوة الى الدولة العباسية على نحو ما اشتهر * عند ائمة التاريخ فرمى المستنصر منهم صنهاجة المنحرفين عن طاعته بالداهية الدهياء النئاد فانتشروا ببلاد افريقية ودمروا الاوطان وانتسفوها واهلكوا الحرث والنسل ثم دافعوا صنهاجة عن البسائط الى الساحل وغلبوهم على المدن والامصار واجهضوهم عن القيروان دار ملكهم فلجأوا الى المهدية وتقلصت

---

(1) يوجد هذا العنوان في الصفحة 58 من المخطوط ، وقد اثبتت الدراسة ان ما جاء فى الصفحات : (58ـ62) هو تتمه لما ورد فى الصفحات (163 ـ 169) حيث يتحدث المؤرخ الفشتالى عن قبائل جشم والخلط وادوارها فى التاريخ العربى شرقا وغربا وطوال عدة قرون •

(2) يعنى حمدان قرمط مؤسس حركة القرامطة فى شرقى الجزيرة العربية فى الربع الاخير من القرن الثالث الهجرى •

(3) المستنصر الفاطمى : (427 ـ 487) وفى عهده خرج المعز بن باديس الصنهاجى فى المهدية عام 443 هـ عن طاعة الفاطميين فى مصر ، فارسل المستنصر ضد الصنهاجيين قبائل بنى هلال وسليم التى نشرت الخراب والدمار فى ليبيا وتونس وقضت على الكثير من معالم الحضارة الاسلامية بهذه البلاد ، وقد تم ذلك منذ منتصف القرن الخامس للهجرة •

ظلال صولتهم وتقاصرت عن مدافعة هذه القبائل قدرتهم وصارت البلاد تحت قهر العرب وقد خربوا ملكها وثبروا سلكها وضربوا الاتاوة على أهلها فأقاموا تحت خسف منهم يتجرعون مغص هضيمتهم ويشرقون بغصص التحكم عليهم الى أن جاءت دولة التوحيد(1) فعانى ملوكها الخلفاء من بنى عبد المومن المشاق العظيمة فى تمهيد افريقية وتداولوا النهوض اليها بعساكرهم من مراكش ولقوا العنف من مشاغبة عربها هؤلاء وكانوا وصلوا يدهم بيد ابن غانية (2) صاحب ميورقة من عصابة دولة اللثام (3) فكانت بينهم وبين الموحدين وقائع وحروب استنفد فيها الموحدون وسعهم وشابت لها نواصيهم الى أن أعياهم شأن هؤلاء العرب وطال بهم الامد فى ارتكاب الجهد والمشاق المجحفة بهم فى النهوض اليهم بالعساكر من اقصى المغرب وكلما اقلعوا عن البلاد عادت هيف الى اديانها فاحتال منصورهم على ادخال هؤلاء العرب لقطع عادية فسادهم من افريقية واراحة من شغبهم الملجىء الى اتصال الحركات وجوب الارضين اليهم فجاجأ بهم الى الجهاد وورى لهم بالعبور بهم الى جزيرة الاندلس بنية الرباط فجذبهم برسن المكيدة وزمام الحيلة الى أن ادخل منهم هؤلاء الخلط ومن معهم الى المغرب ليكونوا تحت قهر الدولة وضغطها وعلى رهب من صولتها فما كان الا ان ابتلى بهم هذه الاقطار وتبين له فى رأيه عدم الاستبصار ويقال ان ذلك من احدى المسائل الثلاث التى ادركته عليها الندامة عند موته وشقى بهم بنوه من بعده وأول من صلى منهم بنار نكثهم والانحراف عنه والخروج عليه وقلب ظهر المجن اليه ومظاهرة العدو عليه يحيى (4) بن الناصر بن المنصور وذلك أن الخلط هؤلاء كانوا متربصين بالدولة منذ استجرارهم بحبل المكيدة الى الدخول للمغرب على يد المنصور كما قدمنا ومتحينين لها وقت انتهاز الفرصة الى أن أفضى الامر الى يحيى بن الناصر كما ذكرنا وجاذبه عمه المامون حبل الخلافة ودعى الى نفسه بالاندلس محل امارته فاغتنم هؤلاء الاشقياء سماسرة الفتن هبوب ريح اختلاف الكلمة فتناولوا راية السبق الى النكث والانحراف غير متمالكين وركبوا سننهم فى الخروج على الدولة وخلع ربقة الدين من اعناقهم وفى شق العصى والمروق من الجماعة فوجه رئيسهم هلال ابن المقدم ببيعته الى المامون باشبيلية حضرته

(1) اى دولة الموحدين (515 ـ 668 هـ) •
(2) ابن غانية : ثار ضد الموحدين (580ـ595هـ) زمن يعقوب المنصور بليبيا وتونس وتحالف مع قبائل بني هلال كما وجد من بعض الامراء الايوبيين مساعدات مادية ومعنوية ، الامر الذى دفع المنصور الى توجيه حروبه من الاندلس الى شمالى افريقية للقضاء على ابن غانية •
(3) يعنى دولة المرابطين (449 ـ 515) هـ •
(4) يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدى : بايعه اشياخ الموحدين فى مراكش ، فاستنجد الخليفة المامون الموحدى الذى بايعه أشياخ الموحدين بالاندلس ، بالنصارى واستولى بالقوة على مراكش بعد أن تمت له الغلبة والانتصار على عدد عظيم من اشياخ الموحدين بالمغرب ، وقد اقدم المامون بعد استقراره فى مراكش على الغاء الدعوة الموحدية التى كانت المذهب الرسمى للدولة •

ص 165 وأنه تحت * طاعته وداخل فى سلك جماعته فكتب اليه المامون بقصيدة من نظم الكاتب ابى زيد الفازازى يشكره على فعله ويعده بأقصى امانيه وأمله وهى :

الطعن والضرب منسوبان للعرب ... بالسمهرية والهندية القصب
والحرب تبعث منها كل معترك ... حفائظا تترك الاعداء فى حرب
حازوا الوفاء الى الاقدام وانتسبوا ... الى خلال المعالى كل منتسب
تجشمت جشم نصر المفيد لها ... اسنى الجوائز من مال ومن نشب
وجاءت الخلط المشكور مقدمها ... كالاسد تبدو عيها سورة الغضب
خفوا الى نصرة حزب الله واحتفلوا ... فى عسكر صخب أو جحفل لجب
كتائب ضاقت الارض الفضاء بها ... فى ظل الوية منشورة العذب
فمن صوارم مثل النار فى صعد ... ومن سوابق مثل الماء فى صبب
بحر على البر مرتج غواربه ... من فوقه قطع الرايات كالسحب
شواهد صدقت فيهم مخائلها ... بما لهم من صميم الدين والحسب
تذكروا منن المنصور فاعترفوا ... لنجله بعد كرات من الحقب
والفضل يبدو على الاحرار رونقه ... وليس يخفى على الباقى من العقب
اما هلال فقد أوفى بذمته ... وفاء راع لحق الدين والادب
رءا الخلافة حلت غير موضعها ... فادركته عليها غيرة العرب
وقال لا سلم حتى يستقاد لها ... من ظلم مستلب أو جور مغتصب
وسلم الامر لالال الاحق به ... بالرغم من انف أهل الغدر والكذب
وافت مصرحة بالود بيعته ... طليقة بجزيل النصر والغلب
جمعا لفضلين يلقى الحسنيين به ... نصر الكتائب فى الهيجاء والكتب
صبرا أبا النجم صبرا انها نجم ... تجلى وتمحى بفضل الله عن كثب
ودم على حالة تجنى عواقبها ... اذكى من المسك فى أحلى من الضرب
فعندنا لك ايثار ومرتبة ... تنحط عنها مزايا سائر الرتب
وسوف تلقى بعون الله ماثرة ... تحظى براحتها من ذلك التعب

ولما تحصلت هذه القصيدة بيد يحيى بن الناصر ورءا ما فيها من التمجيد لهلال بن مقدم المذكور امر الاستاذ ابا عبد الله بن الصفار المعروف بالبرنامج ان يجاوبه * ص 166
عليها وينهج فى هلال غير تلك المناهج فقال الاستاذ المذكور :

نسبت شر عبيد العجم للعرب ... جهلا بفضل رسول الله والنسب
اصغ لتسمع انساب الذين هم ... شعاركم فى الخطوب السود والنوب

كانت عبيد العصا للقرمطي اذا وافى الموفق لاذت منه بالهرب
خلت محلاة بتسرا وقد رحلت عنها بنو جشم من مائها الاشب
خانتهم الخيل رعيان الشياه لها فلم تضرها وجدت بعد فى الطلب
لو أعلمت وائل يوما بدعوتها فيها لما شربت ماء من القلب
ونيطت الخلد الرذلى بهم نسبا كأنها القبس الصيفى بالذهب
فان تكن الوغى من طلحة سلمت فذا الموفق وصفا ليس باللقب
وليس من رهب ينجيهم هرب ما يبعدوا يقربوا للحين والشجب
اما هلال فقد حاق المحاق به لاقى الوبالين من حرب ومن حرب
حل الحضيض سقوطا وهو محترق تحت الشعاع بشهب الهند لا الشهب
وغره خلب من شاعر ملق فنال صاعقة لاواكف السحب
وظل من رتب العليا على عدة فالترب يعلوه ما يرقى على الرتب
وصار يطمع فى مال وفى نشب وصار منتشبا فى برثن النشب
فقل له اراد الخير فاز به الصيف ضيعت جهلا حافل الحلب
ولو أوت عاصم للدين واعتصمت بحبله نالت الدنيا بلا نصب
فان يك مهتد منها بكم فكما تلقى خلال رماد قطعة الذهب
ومن عصى منكم فالموت يطلبه يمسى ويصبح معدودا من النهب
والحق شمس سناها ليس يحجبه وان تراكم غيم الزور والكذب
يحيى خليفة رب العالمين ومن يجهله يعلوه حد السيف والقضب
نال الخلافة عن خبر وعن خبر محقق وبارث من أخ وأب
اختاره الله فاختارته صفوته من البرية أهل الدين والحسب
لم يدخر نصحهم للدين واجتهدوا ما كان عن رهب منهم ولا رغب
ليس بنكث ولا كتب قد اختلفت ولا كتائب أهل البغى والصلب
ص 167 لم ينتصر بالنصارى والبغاة على المطهرين من الادناس والريب*
خليفة مرتضى أنصار دولته انصار امر الهدى الباقى على الحقب
طعن الصدور وضرب الهام عندهم ماء الحيا شبما قد لج بالضرب
فيح الوغى عندهم حسن وراحتهم ما نالهم فى اعتلاء الدين من تعب
وحر جاحمها برد العشية فى روض عليل نسيما غب منسكب
ايا امام الهدى ان البلاد لكم شرقا وغربا فنائيها كمقترب
وان يجادلك بالمنصور ذو جدل فنجل نوح ثوى فى قسمة العطب
وان يقل انا عم فالجواب له عم النبى بلا شك أبو لهب

وهل يمت بشيء لا تمت بـــه بل زدت فخرا ملات الدين للعـرب
اذا عصـاك مطيـع ليس منتفـعا يوم القيامة بالطاعـات والقـــرب
ويرتجي العفو للعـاصي بطاعتكـم فانها سبب ناهيـك مـن سبـب
ايمنـح المـرء والقهــار يمنعـــه ويوهب المـرء والوهـاب لـم يهـب
قدمت للديـن تحميـه وتحفظــه من كل باغ وعـاد عابـد الصلـب

ولما انقضت ايام المامون بن المنصور وتولى الخلافة ولده الرشيد ورسخ قدمه في المملكة وصفى له الجـو او كـاد بتـراجـع الموحدين عن يحيى بن الناصر وانتظامهم في ايالته وتسايلهم زراقات ووحدانا الى حضرته ورءا الخلط الكلمة تنتظم والشعث اوشك أن يلم والاحوال تستقيم والدعـوة والاطمئنان قد اغتبط بها الراحل والمقيم آسفهم انتظام سلك الجماعة ورسوخ الطاعة لما يألفوه من الخوض والتضريب الذي بـه يعتزون عـلى الدول وكانوا من الشم وشمـوخ الانـــف والاعجاب بكثرة الرجل والخيل وعظيم الدالة على الرشيد بحالة قد تجاوزت الحدود لـما يرون أن بيعته انما تمت باصفاقهم وقواعد سلطانه انما ثبتت بالتوكي عليهم وكرهوا لذلك تراجع الموحـدين واتـصال اشياخهـم الماسكين لعمـود الدولـة بخليفتـهم الرشيد وحذروا مغبة انتظام الكلمة واتفاق الجماعة فبادر شيخهم المالك لمقادهـم مسـعود بـن حميدان الى استفساد الكلمة وتخويل امـــر الجماعة فجرد من جموعه عساكرا ضخما من خلطه وانفذهم لقطع ما بين الرشيد وبين الموحدين المنحدرين من جبالهم مع موسى ابن الناصر أخـى يحـيى للوصول الى مراكش وأوعز الخلطي الى جموعه بالقبض على جميع الموحدين ورءا حسم العلة بذلك انفـة مـن
ص 168 انتظامهم في سلك الطاعة * فسبق للقوم النذير فرجعوا من هنالك الى جبلهم واستفسد على الرشيد انتظام الجماعة فقام لها وقعـدوعلم أن الاحوال تتعذر عليه بمكان الخلط من دولته فهجر مضاجعه واسهر اجفانـه وجعل أهل شوراه على التدبير عـلى شيخهـم مسعود واسدى في ذلك والحم مع خواصه حتى امكنته الحيلة في الفتك به في بابه من بعد محاولات يطول ذكرها كاد الخلطي ان يفلت من لهوات الرشيد من ضعف اصحابه ووهن رجاله حسبما هو مبسوط في دواوين الدول فاغنى عن ذكره ولما نمى الى الخلــط خبر شيخهم ومن قتل معـه مـن اخوانهم وكشفوا وجههم في الخلاف واعلنوا بالعنـاد وجالوا في انواع الفساد واجهروا بدعوة يحيى ابن الناصر والاستناد الى بيعته والذب عنه والانضواء اليه وبعثوا اليه ارسالهم وكتبهم يجاجئون به واضرموا نار الفتنـة وحـشدوا حشودهـم واجتمعـوا مـن كـل آوب وفـج واستقبلوا الحضـرة زاحفيـن الى الرشيـد معلنين بطلب ثأرهم فاحدقـوا بجنبـــات مراكش وخيموا باحوازها وشرعوا في تدمير البحائر وقطع مياهها واشجارها وقد خلت امامهم المداشر والقرى الا من كان لهم عليه

سلطان من الرعية فانه استقر بمكانه وعظم غيهم وعبثهم فى الحوز وساحة الحضرة فضاقت الارض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفاع الاسعار حتى لقد بلغ الربع من الدقيق من دينار الى ثلاثة دنانير ثم تكالبت الخلط على الرشيد فى الحصار وبلغوا فى التضييق الى الاسوار واحجمت جنوده عن مدافعتهم فلم ير وليجة دون الفرار عن الحضرة الى الجبل وتوقع اجلاب العرب عليه بخيلهم ورجلهم من قبل أن يتعلق بذرى ذرن واعتمل فى الحيلة فأجمع أصحابه على أن يبعث رقاصين بكتب مفتعلة كأنها وصلت من عند جرمون شيخ عرب سفيان أعداء الخلط باقبالهم لنصرة الرشيد وبطاعتهم له وحرصهم على الوصول اليه وأوعز الى الرقاصين بالوصول الى جهة محدودة فينقلبوا بها قاصدين للحضرة مارين على حلة العرب معترضين لهم كي يأخذوهم ويتطلعوا على كتبهم فتمكنت الحيلة وتمت المكيدة وقبضوا على الرقاصين وأقروا لهم بأنهم ارسال جرمون وانه بجموعه وجنوده على وادى أم الربيع مقبل لنصرة الرشيد فأجمعوا على ان قصدوه ليبيدوا جمعه قبل انتظامه بالرشيد ولما تمت الحيلة للرشيد ببعد العرب فى سبيل تبديد جموع جرمون ووجد منهم فسحة الى الفرار من الحضرة والبلوغ الى مأمنه أقلع فى عياله وأثقاله ومن معه من أجناده وحاشيته وجد المسير حتى نزل على مقربة من اغمات ثم طار الخبر لعرب الخلط فثنوا أعنتهم وطاروا اليه بأجنحة
169 و الخيل كالعقبان فأدركه أولهم بمحلته فأخذوا * بمخنقه وضيقوا به وبالغوا فى قتاله متكالبين عليه ثم أجفل ليلا للتحصن بأغمات فلم يخلص اليها الا بعد الاشراف على الهلكة من شدة ما لقى هو وأتباعه من المشاق ونالهم من المضر المفضية الى امتداد بعض الايدى ثم تلاحق العرب فأحدقوا بأغمات وأعوزته الاقوات وكاد الجوع يقضى عليه وعلى أتباعه فاعتملوا فى الحيلة وركبوا الليل وعميت أخبارهم عن العرب وما أحسوا بالخروج حتى تعلق الناس باطراف الجبال وطاروا الى الانقضاض على الرشيد واوغلوا فى أتباعه ومضايقته فلم يخلص منهم الى مأمنه من شواهق الجبال الا من بعد عصب الريق ومشاهدة الموت الاحمر وانقلب العرب وملكوا حصار مراكش وجاجاوا بيحيى فأدخلوه اليها وكان من عيثهم واضرارهم بالناس واقتحام الديار واستباحة الاموال والاستبداد على يحيى وامتهان حرمة السلطان واصطكاك ركب رعاتهم بركب الخليفة فى البساط والمزاحمة فى المجالس ما كره الناس له الحياة وأقامت الدولة على الثبات الاحوال واختلاف الامور الى أن لقيت ما قدر لها ثم صار الامر الى السعيد من بعد الرشيد وكان من نجباء بنى عبد المومن وأولى الشهامة والبسالة والهمة العالية وكان اخوه الرشيد عند زحفه من سجلماسة وهزيمته ليحيى بن الناصر والخلط ورجوعه الى كرسى خلافته بمراكش أقصى عرب الخلط الى السوس تفاديا من فسادهم فجلبهم السعيد لاول مصير الخلافة

اليه واستخلصهم لنفسه وقربهم من سلطانه واستدعاهم من السوس وغيره وضمهم الـى أجناده فكانوا جل عسكره ثم لما كانت حركته واحتفالـه العظيـم فى زحفـه الى تلمسـان وتحريكه على المزيد من بعدها الى افريقيـة ومن محاصرته ليغمرسن (1) فى مكانه الذى تحصن به منه ومن قتله أثناء ذلك بيد المنفضين عليه من بنى عبد الوادى قوم يغمراسن من الشعاب حين صعوده للحصن ما هو مشهور معلوم كان هؤلاء العرب الخلط سبب الوقيعة وانجرار الهزيمة ولهم فيها أخبار شنيعة لانهم كانوا فى أول الحال تأخروا عن السعيد حين عـزم على القتـال واجتمعـوا بجمعهم عنـد استماعهم بقتله فرجعوا لمحلته فأوجفوا عليها واستصفوها وأكلوا وقتلوا ونهبـوا جملتـه وأهل دخلته وبعض أهله وقبضوا على أخت السعيد وهى الحرة نجمة زوج الوزير السيد أبى اسحاق واستولوا على مالها وكان قـد حصل بأيديهم فى تلك الكائنة شيء كثير من السقط . هؤلاء (2) العرب من الخلط ومختار وسفيان وكلهم من جشم على ما ذكر نسابة المؤرخين كانوا شيعا لبنى مرين سائر أيامهم ومتميزين بشعار الجندية فى دولتهم حتى اذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة النبوية وانبعثها لتجديد الدين ونصرة الملة ووراثة الارض واحياء معالم الخلافة الدائـرة وجرى بينهمـا وبين مريـن أمراء فـاس مـن الحروب والوقائع ما أجلت فيه العاقبة عـن اجتثات أصل الدولة المرينيـة واستيصـال شافتها كان هؤلاء العـرب ممن أبلـى البـلاء الحسن فى الدفـاع مع بنى مريـن وشمـر للحمامات دونهم حتى ظهر عليهم أم ر اللـه وتقطعت بهم الاسباب فأصبحوا طعمة لسيوف الدولة الكريمة العلوية وأسـرى مقرنين فـى
ص 59 الاصفاد * من قهرها وغلبها فاصطنعتهم الدولة واستنبعثهم واثبتهم الامام أبو الخلفاء رضى الله عنه فى مراكزهم من الخدمة وأقرهم فى أوطانهم وأمضـى لهم ما كـان بأيديهـم مـن الاقطاعات ولم يغير عليه شيئا مما اترفهم به أمراؤهم بنو مرين حتى اذا كان زحف صالح ريس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعـور بوحسون المرينى مستفزهم على حين ما كان الامام رضى الله عنه منفردا عن جنوده أنصار الدولة بما كان أطلقهم منذ فتح مدينة فـاس لمواطنهم بالسوس ومراكش حسبمـا قدمنـا واكتفى بجنود بنى مريـن الذيـن اصطنعهـم بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الاعراب ممن عليه المدار منهم فزحف بهم من

(1) يغمراسن بن زيان بن ثابت : مؤسس الدولة الزيانية بتلمسان (631 ـ 681 هـ) •

(2) الانتقال الى صفحة 58 •

(3) بعد أن تم للمولى محمد الشيخ القضاء على الوطاسيين ودخول عـاصمتهم فاس عام 1349 م ، فر الى الجزائر ابو حسون على الوطاسى طلبا للساعدة العسكرية ضد السعديين ، وقد وجد القادة الاتراك فى ذلك فرصة للتدخل وضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية ، وجرت لاجل ذلك معـارك حربيـة انهزم على اثرها المولى محمد الشيخ بينما دخل الاتراك فاسا واعلنوا بيعة ابى حسون بها وذلـك عـام 1554 م ، الا أن الشيخ السعدى سرعان ما استعاد المدينة بعد انتصاره على الوطاسين فـى نـفس العـام •

فاس تلقاء العدو معولا عليهم في الدفاع ومعتقدا بغنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشأن الاعور بوحسون مستنفر الاتراك لخمول مكانه في قومه وعدم أهليته التي يوم وانه ليس لها بكفء عند الناس كما قدمنا فلم يبعث لذلك عن أحد من جنوده ولا شهد معه الحرب من أنصار دولته الا ستمائة فارس التي خف بها ولد ابن أبي جمادي انفذه بها أبوه ليحضر بها مع أمير المومنين الامام رضي الله عنه حسبما ذكرنا قبل وعندما التقي الجمعان بكدية المخالي من ساحة فاس ودارت رحى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للامام رضي الله عنه فزحزح الاتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم لم ينشب أن انفضت كتائب بني مرين من حوله قاطبة لانطوائهم على النكث وتواطئهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقلبوا ظهر المجن للامام رضي الله عنه وقد تركوه في حومة الوغي وحده في الفئة القليلة من أنصاره فكان خذلان العصابة المرينية شبب نكوصه رضي الله عنه ولحاقه بمراكش وكان هؤلاء العرب من تلك العصابة الغادرة فاعتدوها عليهم وكان ذلك أول الجرائر التي أسخطوا بها الدولة وأسعفوا بها الخلفاء ثم كانت على تفئة ذلك واقعة بو ابراهيم الكائنة على المولى عبد الله حين نهوضه من مراكش بمن معه من جنودها لمزاحمة بني مرين والاجلاب عليهم بفاس في مغيب والده الامام رضي الله عنه لسجلماسة منازلا لاخيه المولى أبي العباس الثائر كان عليه بها حسبما قدمنا فكان هؤلاء العرب من أشد جموع بني مرين يومئذ عادية وأكثرهم نكاية فيحرب السوس الناهضين مع المولى عبد الله بحللهم وناجعتهم فأساءوا الاحدوثة فيهم بنهب الاموال وسبي الذرية وكشف الحريم وشفعوا بذلك فعلتهم الشنعاء غدرهم يوم كدية المخال وأهاجوا بذلك غضب الامام رضي الله عنه فالتهب صدره حنقا عليهم وتربص بهم حتى اذا أتيحت له الكرة على بوحسون فقتله واستأصل جموع بني مرين واطفا بذلك
ص 60 ذبالتهم المشتعلة اشتعال الخمود وفتح فاسا فتحا ثانيا واستوى على كرسيها ★ لم يقدم شيئا على الانتقام من هؤلاء العرب فسرح اليهم القائد أبا عمران موسى بن أبي حمادي العمري فانتزع خيلهم وأرجلهم كافة وضرب عليهم الخراج ونظمهم فيسلك الرعايا الغارمة جزاء بما اتوه من شنيع احدوثة في الغدر أولا وثانيا وغرب أعيانهم وروساءهم كافة بأولادهم الى مراكش والقاهم بمضيعة منها فلم يجر لهم رزقا ولا أقطعهم وطنا ولا ضرب لهم بسهم واغرى بهم صروف الدهر وجوب القفر فأقاموا على تلك الحالة السوء الى أن ولي المولى عبد الله الغالب (1) بالله الامر فالتفت الى هولاء الاعيان بعض الالتفات واجرى لهم رزقا

(1) عبد الله الغالب بالله بويع بعد اغتيال والده محمد الشيخ من قبل الاتراك عام 1557 ودام حكمه الى عام 1574 .

والحق لهم فرسانا فأقاموا يرتضعون أخلاف تلك الجراية القليلة وقبائلهم في عداد الرعايا الغارمة الى أن ضرب الدهر ضرباته فهلك الخليفة الغالب بالله وولى أمره ولده المتوكل وجاذبه حبل الخلافة عماه الخليفتان أمير المومنين المنصور وأخوه الكبير الخليفة المعتصم وزحفا اليه بجنود الشرق (1) فغلباه على فاس فكان هولاء العرب أول من نزع اليهما عن صاحب المغرب وجنح الى الخلاف عليه فاغتنم ذلك منهم أمير المومنين فاستتبعاهم ونظماهم في عداد اجنادهما واستنفراهم للزحف معهما الى الريحان لتكثير العدد لا للعمل عليهم في الدفاع فشهدوا معهما الفتح وصحبوهما الى مراكش فراعوا لهم ذلك وغفلوا عنهم فترك أمرهم سائر أيام المعتصم فوضى لم يتمحضوا للجندية ولا تناولهم التكليف بما تبذله الرعايا الغارمة الى أن كانت غزوة وادى المخازن المتقدمة الذكر فنهضوا أيضا مع أمير المومنين وزحفوا تحت راياتهم من جملة جنود الله فشهدوا الفتح وراعى لهم أمير المومنين أيده الله ذلك أيضا ولما وصل لفاس من مشهد الفتح ونظر في أعطاف دولته وكان من أول المهمات التي صرف اليها عنايته ارحال القبائل التى كانت الدولة تقصيهم عن مواطنهم بجهات مراكش والسوس الى بلاد ازغار من ممالك فاس بما كانت هذه القبائل تسربت الى بلاد وتراجعت القهقر الى اوطانها عند ظلام الجو واضطرام المغرب نارا وفتنة أيام المتوكل فسرح الى استرجاعهم واجهاضهم على الرحيل الى منازلهم بازغار ثم التفت الى عرب ذلك المواطن من قبائل الخلط هؤلاء المذكورون فاستنكف من اهمال أمرهم من ترك أحوالهم على ما كانت عليه أيام أخيه المعتصم ورعى لهم موات الانحياش اليهم اولا وحضور الفتح مع أمير المومنين ثانيا فرءا أن يجازيهم على ذلك الجزاء الحسن فحرر أيده الله منهم النصف من بذل الخراج وضربه على النصف الاخر واطلقهم من اسار الغرامة واخرجهم من عداد الرعايا الغارمة وألحقهم بديوانه فتميزوا بشعار الجندية ولبسوا شارتها والحق روساءهم بطبقات القواد * وأقطعهم ما شاءوا ص 61
من البلاد فبهت بذلك أحوالهم وكانت لهم به المزية الظاهرة على سائر اقيالهم من الرعايا الغارمة فلما تراجعت القبائل الراحلة من عرب السوس وعرب مراكش بأمر أمير المومنين الى منازلهم المعمورة ومواطنهم التى اقطعتهم الدولة بازغار وجدوا أهل هذا الوطن من عرب الخلط وغيرهم من القبائل المذكورة قدموا جناحهم على تلك المواطن وبسطوا أيديهم على استغلالها عند مغيب هؤلاء العرب عنها ودافعوهم عنها فاستنكفوا من اسلامها وزاحموهم فيها بالمناكب واعتزوا بما لبسوه من جلدة الخدمة وحدثتهم أنفسهم بمقاومة عرب السوس ومراكش الذين لهم فيها القدم الراسخة وأرهفوا لهم الحد وضايقوهم في

(1) يقصد القوات التركية التى استعان بها المعتصم على محاربة بن اخيه المتوكل .

حدود البلاد فاستنكف عرب الدولة عن التجافي لهم عن شيء اقتطعه اياهم الخلفاء فشبت لذلك نار الحرب والفتنة بين الفريقين وجمع عرب الخلط وسائر قبائل ازغار لاولاد مطاع من عرب مراكش فأوقعوا بهم ونكسوا حللهم ولم يفلتوا الا برءوس الخيل فامتعض لهم أمير المومنين وأجمع على الانتقام من الخلط وقبائلهم ففرض عليهم الوضائع الثقيلة وكانت تسعين ألفا عوضا عما نهبوا لاولاد مطاع وسرح لاقتضائها منهم فأعطوها عن يد ردعا وعقوبة وأبعد عنهم أمير المومنين أولاد مطاع فأقطعهم بلاد تالمغت ثم كانت حركة أمير المومنين الاولى لفاس عام تسعة وثمانين (1) فرهب الخلط من سطوته وتجافى عنهم وأقرهم على أحوالهم فازدادوا بذلك استفسادا واغراء بالعيث والنهب والاجلاب على من يليهم من الاعراب بالنهب تارة مجاهرة وبالسرقة أخرى خفية وألحوا بذلك على عرب مراكش والسوس حتى شردوهم عن مواطنهم كارهين ثم تخطوا الى نهب الاسواق واضرام نار الفتنة ومصادمة الاحكام ونبذ الاوامر وراء ظهورهم وحدث شأن الحركة وتجهيز البعوث الى تيكورارين من فاس عند مغيب أمير المومنين اليها المرة الثانية (2) والايقاع لعرب اليمن الذين أجلبوا على قائد البلاد سعيد بن الحسن وقتلوه حسبما قدمنا ففرض أمير المومنين على الخلط حصة قليلة من الخيل ينهضون بها صحبة البعوث المعدة الى تيكورارين فلم يستجيبوا لذلك وتثاقلوا فحق عليهم القول حينئذ وأجمع أمره على استنزالهم وارجالهم عن الخيل وانتزاعهم منها وردهم الى ما كانوا عليه من بذل المغارم والخراج جزاء على كفران النعمة والطغيان ووافق ذلك شأن خروجه لمعسكره من ظهر الزاوية ساحة فاس قافلا الى الحضرة فتلوم به ريثما جرد محلة من عساكر الخيل والنار وعقد عليهم لخالصتيه القائد أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة ومحمد بن
سليمان قائد القواد اليوم عند ولي عهده وسرحهم موريا بعسكرتهم هناك * لحراسة 62
الثغور البحرية مما يخشى عليها من غوائل العدو ومفاجاته اوان الصيف وأخفى على الناس قصده في ذلك وأوعز الى اشياخ الخلط وأعيانهم بارحال خيلهم أهل النصف لمراكش ليامنوا بذلك مكرا بهم مخافة ان يتفللوا من قبل الاستمساك منهم وصلوا العساكر بين ظهرانيهم واستوصى القواد بهم وبمعاضدتهم وكتب لهم بذلك وامرهم بمصاحبتهم فسكنوا واطمأنوا ولما عرست المحلة بوسط حللهم وامكنت الحيلة وتاتت لهم الفرصة جمع القواد حينئذ الاعيان مورين بالمفاوضة معهم فلم يرعهم الا انقضاض الوزعة عليهم فصفدوهم في الاغلال والسلاسل كافة وبثوا العمال في سائر بلاد ازغار

(1) عام 989 هـ يوافق 1581 .

(2) تمت رحلة المنصور لفاس للمرة الثانية خلال عام 1587 .

وأرسلوا منهم عقبانا على الخيل فلم تمض أيام حتى جمعوا منها ءالافا فلم يفلت منها حصان واحد وأرجعوا العرب كافة وتركوهم يدبون على أرجلهم دبيب النمل وسلبوهم من جلدة الخدمة وشعار الجندية وضربوا عليهم الخراج وردوهم الى معهودهم من الغرامة وبثوا العمال لاقتضائها فنجعوا وطلبوا بطن الارض خوفا ورهبانا مما فاجأهم وخمدت نار عيثهم وزالت عن البلاد شواغبهم فكان ذلك من احدى الاءور الدالة على دهاء أمير المومنين أيده الله وصلاح نظره الكريم وتدبيره المبارك السديد .

ص 192 وكان(1) من شأن عفوه عن أهل بلاد الهبط ★ القائمين بدعوة الشقي ابن قرقوش الثائر كان ببلادهم حسبما أسلفنا ما هو معروف أيضا فقد كانوا لما وصل أيده الله لفاس منصرفه اليها عام سبعة وتسعين (2) هذا حدثان القبض على الشقي وقتله وتدويخ العساكر لبلاد الهبط على انتزابه وممشى غوايته وارتجاع أهلها للطاعة والانقياد بسبب القهر وأقبلت وفودهم في عداد من قدم من وفود الجفات المنثالة على باب أمير المومنين ليسألوا التخفيف عنهم باسقاط ما احدثه عمال الخراج وكان أمير المومنين أمتن على سائر الرعايا بترك ذلك فجلس لهم أمير المومنين جلوسه لامثالهم وبسط لهم أيده الله مهاد عدله وكساهم سرابيل حلمه وأفاض عليهم أنوار بشره واذن لهم في عرض ظلاماتهم وذكر حوائجهم وجعلوا يعرضونها واحدة فواحدة وكلما ضرعوا اليه في اثر ما يلهم فيه بما لم يكن في حساب من الرفق والتخفيف حتى أتوا على جميع أغراضهم ولم يبق لهم حق يسئلونه ثم قلب حينئذ أيده الله ظهر المجن وحاجهم بهفوة الخروج عليه مع الشقي ابن قرقوش بأن قال لهم هذه حقوقكم قد استوفيت وحوائجكم قداستقصيت وقضيت وأين حقي الذي قبلكم فقد رأيتكم أعرضتم عنه ولم تعوجوا عليه فقالوا ما معناه يا مولانا أمير المومنين أجل وأعظم وأحق أن يقدم فقال اجيبوني عن ثورتكم مع الشقي ابن قرقوش وقيامكم بنصرته وخروجكم على للتعرض لشق عصى المسلمين والسعي في افتراق كلمتهم فبأي شيء استحللتم ذلك وأي مستند لكم فيه وكان الشقي ابن قرقوش عند ثورته وخروجه قد تلبس للغوغاء بأحد أولاد الخليفة المولى عبد الله وانتمى اليه فقال لهم أمير المومنين لذلك محتجا عليهم أرأيتم لو فرضنا قيام أخي عبد الله بنفسه فضلا عن ولده وبيعتي في أعناقكم ايسوغ لكم اتباعه فتنكثوا وتصرموا حبال عهود الله ومواثيقه الشديدة العرى والنبي صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن يفرق هذا الامر وهو مجتمع فاضربوا عنقه كائنا من كان وقال صلى الله عليه وسلم اذا بويع للخليفتين

(1) الانتقال الى صفحة 191 .

(2) عام 997 ه يوافق 1588 .

كلوا الاخير منهما ثم انبرى أيده الله يقيم عليهم الحجة ويستطرد الادلة فأفحم الملأ وكستهم ذلة الانكسار والخضوع من وجوم الذنب فخرست الالسن ونكست الرؤوس وخشعت الابصار وطلبوا بطن الارض ولم يجدوا مخلصا غير المنزع للعفو وطلب المغفرة فاكبوا على الثرى لاثمين وخاضعين ومتوسلين واعانهم من ضمه المجلس الكريم من مشيخة العلم وكبار الفقهاء فضرعوا الى أمير المومنين في الصفح والتجاوز فانبعثت في قلبه الرحمة أيده الله وعمل على شاكلته في عفوه الذي يعفي عن الصغائر والكبائر
فقال لهم قوموا فقد وهبت * ذنبكم لله الذي أظفرني بكم وأظهرني عليكم فانطلق الملا ص 193
شاكرين وداعين ثم عرض اجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن علي الزموري بالمكانة التي في مجلس كتاب الانشاء في ديوانهم الكريم من قصور الملك بفاس فحدثني بشأن القضية لعدم اتفاق حضوري ساعتئذ اعجابا منه بأحوال أمير المومنين أيده الله وما أعطى من الكمال وفضل المقال فقال شاهدت اليوم أو أمس من كمال الاحوال وشرف الخلال وفصل الخطاب شيئا لايصدر الا من بيت النبوءة وقص على القصص على ما وصفت وسردت وهذا بالنسبة الى ما بقي من مئاثره في هذا الباب أيده الله بعض من كل وقليل من كثير ولنقتصر على ما ذكرنا اختصارا .

فارتحل (1) اليه أيده الله يوم السبت العاشر من رجب عام سبعة وتسعين (2) من بعد سرد صحيح البخاري بين يديه بقراءة العلماء بالقبة العربية من فساطيطه الكريمة على ما هو المعلوم في ذلك من سير الخلفاء رضي الله عنهم عند اسفارهم وسار أيده الله
تلقاء مراكش فبرز * منها ولده ووكيله كان بها في غيبته عنها المولى الامير أبو فارس ص 58
في عساكرها للقائه فخيم بها على نهر تانسيفت وقد ملات محلاته الربى والوهاد وكست الاغوار والانجاد لكثرة ما أحدق به من جنود الله وكتائب الاسلام التي جمعتها دار الخلافة وتلوم بها على النهر الى أن نزل بساحة ركابه مولانا والده أمير المومنين يوم الجمعة الثاني من شعبان وقد احتفل أعزه الله للقاء واستكمل أهبته فجندت الجنود وخفقت الرايات وامتدت صفوف النار في خرق من الارض حبالا وارعدت رعود النار اشعارا بالسلام فاهتزت لها الجبال وزلزلت الارض ووقف أمير المومنين في موكبه على نشز من الارض لعرض الكتائب فجعلت تنثال عليه من موكب المولى الامير ولده أبي فارس أعزه الله أفواجا افواجا مسلمة ومودية فرض التحية فئة تتبعها فئة على احسن نظم وترتيب الى أن استكملت فرض التحية وتراجعت الى مراكزها فزحف اثرها المولى

(1) الانتقال الى صفحة 57 .
(2) رجب 997 يوافق يونيه 1589.

الامير أبو فارس أعزه الله في موكبه الضخم وعسكره المجر وتقدم أمير المومنين أيده الله من موقفه للقائه اكراما وتشوقا لكثرة ما ألقى الله عليه من محبته فترجل المولى أبو فارس حتى حيى فيالارض معفرا وجهه الكريم ودنى للثم القدم الطاهرة الشريفة فحنى عليه أمير المومنين حنوا تنفتت الاكباد لرويته وعظيم مرحمته واستبركه فوقف من خلفه فساروا أيدهم الله سير الدراري تجاه المحلة السعيدة وقد اجتمعت جنود الله كافة تحت رايات أمير المومنين فماجت الارض بمن عليها فكان اليوم ثاني اللقاء بظاهر فاس كما قدمنا مع ولي العهد حسنا وبهجة وفخامة وأكثر عددا وأوفر جموعا وجنودا أقر الله بهم عين الاسلام وأذال بسيوفهم عبدة الاصنام وخلد الامر فيهم الى يوم القيامة بعزته وقدرته .

ذكر (1) ارتجاع مدينة أصيلة من يد المشركين

قدمنا ما كان في خلافة المولى عبد الملك المعتصم بالله رحمه الله من نزوع ابن تودة (2) قائد الفحص وبلاد الهبط الى أرض الشرك ومجاجاته بالنصارى الى أصيله على حين غفلة من أهلها واجهاض المسلمين عنها الى القصر فتملكها المشركون وأدال الله الطيب منها بالخبيث على يد من ذكر ولما توفي المعتصم بالله وأتى الله من مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله بالجبل العاصم من الطوفان والممسك للارض من الرجفان واسد الحفيظة الذي (اذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا) (3) حمى أنفه واستشاط غضبه وعصفت عواصف الانفاس الابية منه لهذه الشنعاء التي رمى بها النازع الى أرض الشرك ثغر الدين فتركه ادرد والفعلة التي احدث بها في سد الاسلام فرجة فجرد أمير المومنين أيده الله صارم عزمه لاستخلاص هذه المدينة التي هي في الاسلام كاسمها أصيله وفي الامصار النبيهة عقيله وأرهف لذلك حد تدبيره الذي اذا لاقى الصخر تركه زيما فلم يزل أمير المومنين يسدي في أمرها ويلحم ويسرح ويلجم ويوعد ويعد وبني ذلك على أساس من المكايد كأنها لحصافتها بكل مغان الفتل شدت ليذبل وضاق ذرع المشركين بها ورضوا من الغنيمة بالاياب ولما أراد الله انجاز وعده الصادق بعثوا بعثة الخداع في مستقرهم ليلا * واستسلمها المسلمون منهم واجهضوهم ص 65
مجفلين من الذعر فركبوا البحر ليلا وطاروا بأجنحة الغربان الى منجاتهم ودخلها حزب الهدى وعاودها الايمان وخرست ألسن النواقيس لارتفاع أصوات الاذان بالمئاذن وأقيمت فيها شعائر الاسلام ومراسمه ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته واصبح ثغر الدين

(1) الانتقال الى صفحة 64 .

(2) هو عبد الكريم بن توده صهر المتوكل الذي كان يحكم منطقة الغرب ، ولما التجا المتوكل الى طنجة طلبا للمساعدة البرتغالية فاوض ابن تودة البرتغال على احتلال اصيلا وتم ذلك فعلا ، وقد اتخذ البرتغال نقطة هجوم على المغرب قبيل معركة وادي المخازن .

(3) بيت شعر .

بارتجاعها باسما بعد أن قطب وتجهم واستاق الله لامير المومنين أيده الله هدى فتحها فيمن نقيبته وصالح رايه وتدبيره واعتد مثوبة ارتجاعها ذخرا لمعاد وكان ذلك في ءوفي عشرين لذى قعده عام سبعة وتسعين ولما اطلعت على الحضرة طلائع البشرى بفتحها اعملت منظوما مهنيا وموريا في البيت الثاني باسمها واسم العزيز ملك مصر على عهد يوسف عليه السلام فقلت :

بكر الفتوح لكم تهلل بشرها وافتر عن شنب المسرة ثغرها
وعقيلة الامصار وهى أصيلة انت العزيز أطاعك مصرها
وافى بها الفتح المبين يزفها لكم وليس سوى قبولك مهرها
شغفت ببدرك واستباك حنينها فتجمعت بكما حنين وبدرها
كانت ليالي الكفر بها فيها دملا وبعصرك الاقوى تبين فجرها
خضعت لكم بخضوعها الدنيا وقد لباك من بطحاء مكة صخرها
أوطىء جيوشك أرض أندلس فقد نذرت تطيعك كي يوفى نذرها
واحصد رءوس المشركين بها فقد ءان الحصاد لها وارطب بسرها
واملك جميع الارض وهى وارثة اليكم بالفتح يسند أمرها

ذكر قفول العساكر من توات وتيكورارين من بعد التمهيد (1)

كنا أشرنا الى ما كان من انتقاض أهل توات وتيكورارين واجلاب عرب اليمن على قائد البلاد سعيد بن الحسن وقتله وما كان من انبعاث أمير المومنين لفعلتهم وتجهيز العساكر من فاس والسوس الى جهتهم لنظره مولاه الذى كان فتحها الاول على يده حسبما قدمنا القائد الصدر حم بن بركة الشيظمي وتزاحفت هذه العساكر الى البلاد متتابعة يقفوا بعضها بعضا وكانت الحصة التي جهزها أمير المومنين من فاس صحبة مملوكه قائد المراكب والطعن وصاحب المسرة سليمان هى السابقة الى البلاد ثم زحف رديفا لهم جيش الخيل والاسل يقتاده علال بن محمد بن عب من فاس أيضا واعترض هذا الجيش ناجعة أولاد عبد الكريم من الاحلاف بالقفر ما بين سجلماسة ووادى الساورة وكانوا مجفلين من سطوة الاجناد بما كانت الدولة اسخطتهم على سوء أفعالهم فاستاق عيرهم وامتلات يده من سبيهم فكان ذلك فاتحة الظفر ولما نذر العرب ومن انغمس
63 معهم في الخلاف واضرام نار الفساد من أهل البلاد بزحف العساكر اليهم وجاءتهم بذلك ★ من مكان بعيد وكانوا مخيمين بجموعهم على تيشميمون محل ولات الامر من تيكورارين

(1) كان ذلك يوم السبت 20 قعدة عام 997 ه الموافق 30 سبتمبر 1589 .
(2) يقتضى الترتيب التاريخي للاحداث الانتقال الى الصفحة 62 .

محاصرين لمن بها من الحامية لقلتها وعلمـوا أنه لا قبل لهم بجنود أمير المومنين أجفلوا الى القفر آمامهم وقذف بهم الرعب الى المفاوز على كل وجه فتركوا أهل البلاد الذين تمالئـوا معهم على الفساد بين الناب والظفر ثم تلاحق ابن بركه فى عساكر السوس وتكاملت جنود الامام بالبلاد وءاد المستمسكين بحبل الطاعة من أهلها وعجـزوا عن القيـام بأمرهم فـى العلوفة والارزاق فافترقوا لذلـك محلتيـن توجه فى احداهمـا سليمـان مملـوك أميـر المومنين بعساكر النار ومعه علال بن محمـد بحصة الخيل التـى لنظـره وانحدروا الـى توات ويمموا تيمي منها بما كان رءيسها أبو القاسم بن عمر هو الـذى تولى كبـر ذلـك الفساد وأضرم نار الشقاق فاقتطعوا نخيلـه وخربوا منازله وعاثوا فى دياره حتى تركوها بلقعا وأقاموا فى جهات توات لتخريب منازل المارقين من أهلها وكانوا قد شردوا امامهـم الى القفر بأولادهم وتركـوا الديار والمنـازل فعاث فيها الاجناد ونسفوها نسفا وسمـى القائد محمد ابن بركه فى المحلة الاخرى الى الشط الظهرانى من تيكورارين مدوخا وممهدا ومستالما ومستاصلا حتى محـى اثار النفـاق وحصل من التمهيد على الغرض فانحدر الى جهة توات وتلاحق بالعساكر التى بهـا ثـم تخطاهم الى قاصية البـلاد مما يلـى القفـر ومجالات عرب اليمن للمبالغـة فـى التمهيـد والاستقصاء فى التدويخ ومشارفـة أحـوال العرب ليحاول فرصة ينتهزها فيهم ويستاصل شافتهم وتعاقد مـع سليمـان وجنوده علـى انتظاره والمقام حتى ينقطع اليهم ثم توغل فى البلاد وطال على الاجناد الامد وأدرك الجهد أهل البلاد بما أرسل الله عليهم من الجدب والجراد والاجناد اثر ما أضرموه من الفسـاد فافتقدت الحبـوب واعـوز القوت واشتـدت المخصمة وحذر سليمان اختلال أمر العساكر فارتحل الى المغرب ويمم مراكش دار الخلافة فاحتل بها لشهرين أو نحوهمـا من وصـول أمير المومنين اليها من فاس وتثاقل وراءهـم ابن بركة بالحصة التـى معـه من عساكـر السوس وضرب أوتاد الاقامة حتـى سكـن روعة الشاردين أمام العساكر من أهل البلاد فتراجعوا خاضعين ومذعنين من كل اوب ثم ضاق ذرع العـرب بالانقطـاع الـى القفـر وسئموا المفاوز وندمـوا على ما اتـوه مـن اسخاط الدولـة وعلموا انهـم لاطاقـة لهـم بمقاومة عداوة مولانا الامـام لما دهمهـم مـن جنوده وراوا من عظيم احتفالـه فمدوا يـد
ص 64 الضراعة لابن بركة فى قبول فئتهم وتمشت اليه * رجالهم من أهل الصلاح وكانوا يثقون منه بالقول لما بلوه من صحة مذهبه وصدق عهوده وسألوا منه الامان فبذله لهم وانثالوا عليه وألقوا بأنفسهم عليه راغبين وراهبين فتقبل فئاتهم ووطأ لهم أكناف البر والقبـول وتراجع سائر الرعايا الذين تفرقوا فى البلاد رعبا ورهبا الى قصورهم فسكنت الاحـوال واطمأنت الامال وكمل التمهيد وأعاد البلاد الى أعظم ممـا كانت عليـه من لـدن الفتـح والتدويخ ورسوخ الطاعة واقتضـى خراجهـا وأزاح علل أجنادها ورتب منهـم فيها مـن

يقوم بحياطتها فى قصبة تينميمون وقفل فى بقية العساكر فاحتـل بالابـواب الشريفـة بمراكش فى شهر صفر عام (1) ومعه وفـود العرب وأهل البلاد من كل جهة فلقاهم أمير المومنين برا وكرامة واعترفوا بالذنب فعفـا عنهم ووصلهم وخلع عليهم وعقد على البـلاد لحم بن فارس أحد صنائع الدولة من بيـوت احلاف الزركان وسرحه الى البلاد فى حصة من العساكر .

ذكر افتتاح بلاد السودان والاستيـلاء على ممالكها لمنتظمة فى سلك الايالة العلية .

قال مؤلف الكتاب بأى عبارة أفاتح هذا الفتح العظيم الذى طنت حصاته بين الخافقين وملأ صيته البعيد مسامع المعمور وتخلل السبع الاقاليم من دائـرة البسيـط وكاثر بفـرده الجموع من فتوح الاوائل والاواخـر (وليس لله بمستكثر أن يجمـع العالـم فى واحـد) وما عسى ان يقال فى خارق سياج العـادة وغريبه لا تثبت الا فى الحلم فما قرع مثـل بنانه صماخ اذن ولا تبدى مثل طرازه على حله فخار خليفة وملك ولا وشيت بمثـل منقبته الجليلة صفحة ديوان فلو رقت اقلام البلغاء من الانامل على اعوادها وقامت خطباء بمحاسنـه فى حلـل مرادهـا وفغرت المحابر افواهها لتلقينها وامدتهـا مـما فى بطونهـا
ص 66 لضلت فى ليالى انفاسها * وكبت لفيهما فى مجال قرطاسها وارت من الخضوع والعجز تقلب وجهها فى الساجدين وناهيك بفتـح بيوت الوهم يقف دونه قلم الحاسب بمـا انتظم من الاقاليم الفسيحة الاقطار الجليلة الاخطار المراصفة القـرى والامـصار والامـم المتعددة الاجيال والافاق المستبحرة العمران والبلاد التى هى محشر العالم ومدرج الـذر من بنى ءادم والممالك المنتظمة مع خط النيل من عدوتيه انتظام السلك الجارية مع تياره فى طلق من لدن تخوم النوبة الى مصبه فى البحر المحيط من قاصية المغرب ما شئت من مدن قاهرة وقرى متراصفة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة كأنما انطلـق أهلها من الحساب لكثرة من ينتابها من جميع زوايـا المعـمـور مـن ركـاب التجـر وارب‍ـاب البضـائـع الثقيلـة الـذيـن يضـربـون اليـها اكبـاد الابـل مـن كل فـج عميـق وتهـوى اليـه افئـدتهـم من كل مكان سحيق وحسبك ببـلاد ءاثرهـا الله واثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة تسقيهم النهل والعلل بحجـة ويجبى اليهـم الثمرات والخيرات ثبجة وارض كرم الله تربتها وابان فضلها بما اختصها بـه من معادن الذهب الذى به قوام العالم واس الملك وبناء المجد وبالتفاوت فيه تتفاوت اقدار قوة وسلطانا وجنوداً وأوطانا فهى مثرات العديم ومجلب التبـر الى المشـارق والمغـارب فى الحديث والقديم فمـن ملكـها ملـك الارض وجمع الطول والعرض لاضطرار أهل الارض

قاطبة الى حمرائــه واقتيادهــم الى الاذغـان لصفرائه الى ما اشتملت عليه هذه الممالك العظيمة من المرافق الجمة التي جاد بها كرم التربة وخصب البقعة فقد طم بها بحر الحبوب والاقوات والادم وسال بها سيل النعم السائلة المنبثة للتناسل في المزج النضر الممتد مـع ضفتي النيل جناحا أخضر موشى البرود بوشيج النبات مغدق السقيا بالفيض المتراكب الموج الى محاسن لا تحصى ولا يأتي عليها قلم الاحصاء فكانت خبيئـة فتحـها في طـي العصور السالفة الى هذه الدولة الكريمة دليلا على عناية الله بشأن هذه الامامة الكريمـة القدسية الاحمدية النبوية الشريفة اليها اظهر الله على يدها خوارق العادة وقلد منها جيدها الكريم أبهى قـلادة وكانت هــذه الممالــك السودانية بما استدار بها من سياج القفر الافيح والمجهل البيداء التي تضل بها القطى الجون وتكل في قطع مداها عواتم الشهب وتتقطع في حفافيها انفاس النسيم غاضت بها نطف الثماد وتلهب وهج سمومها وتموج رقراق سرابها فلا تعمل اليعملات في شقتها النازحة الا وهي انضاء كلال ولا يكاد ينفد طي ملاءتها وخد وارقال لم تسم قط همــم الملوك الصافنين لهــا الى غــزو ديارهــا ولا
ص 67 جعل احد منهم ذلك غرضا لهام عزمه عـلى اتصال الاماد ★ والاحقاب وكم انقضى من اجيال الامم الذين أوتوا الملك والبسطة في العباد واستولوا على الاقطار الدانية والبعاد وقادوا العساكر الجرارة وطمحت هممهم على الشهب السيارة مـن كل مقتبـل الـدولـة مرهوب الصولة مشهور البأس قوي الشكيمة طالما هب له النصر وخدمه السعد وساعده على ما اراد انقضاء القضاء وشق الممالك في سلك سلطانه ومع ذلك زوى عن هذه الامم وجه الاعتزام ولم يعمل في ذلك روية ولا ارتجالا واجال فيه قداح فكـره تفاديـا مـن مرامها الصعب ومراكبها الشموس الابي وما منهم الا من ينظر منها الى حسناء لا تنقاد وعجماء لو استنطقت قالت أرى العنقاء تكبران تصاد حتى ظن لذلك أهلها أنه لايروع لهم سرب ولا يكدر عليهم شراب ولا يوقظ لهم مـن منام الا من جفن الى أن قيـض الله تـعالى لافتضاض عذرتها الاسد الـورد المرهــوب الشبى الدامي المخالب الحية الذكر والفحل الذي لا يقدع انفه ولا تسكن شقاشقه منبعث العزائم التي تقلق الصخر وتقتدح زناد الاراء المقتبسة الانوار من مشكاة الرسالة والشراك الذي قد قد من أديم النبوءة القـرم المـاضي العزيم القوي الشكيم كافل العلا وربى مهدها الناهض باعبائها حامي سرح المجد والمكارم علم العزم والمفاخر الذي رسخ كبكبا وسمى كوكبا امام الامة كافل الارض كهف الاسلام تاج الخلافة مولانا امير المؤمنين سبط خاتم النبيئين الممنون بامامته المقدسة على العالمين مولانا ابي العباس احمد المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله فطمحت نفسه الشريفة التي لا ترضى غير الذراع متوسدا ونهر المجرة موردا الى امتطاء صهوتها وتسنـم ذروتهـا واحتلال الفتح من الويته في عقرتها وكان أيده الله تعالى قبل ذلك حسبما قدمنا قد

وطيء عساكره الامامية تخوم هذه الاقاليم ذات اليمين مع سيف البحر المحيط وشقت طرق هذا القفر البعيد المدى المديد الغاية النازح الشقة الى أن وردت خليج النيل حيث مسقطه من البحر المحيط وشدخت هنالك انوف عوالم وأمم تربى على الاحصاء والاستقصاء من السودان والاحياء الوبرية من العرب وصنهاجة سكان القفر ممن نشأ في ذلك الجو وربى مع الرئال في ذلك الدر في عداد الاوابر الشوارد ينتجعون مساقط القطر بساعتهم في تلك المراشي لا يدينون بانقياد ولأمرت انفوهم على خزائم الملك ولا غضت شكائم الاذعان من جماحهم فلا يفترون بينهم من حرب ضروس وبث غارة شعواء فهم الدهر بين غالب ومغلوب وسالب ومسلوب شأن العرب العرباء في جاهليتها بعدا عن الاذعان وانفة من الانقياد فترامت اليهم العساكر الامامية وجابت اليهم المفاوز
ص 68 بجحافلها * ووطئت سنابكها عقر ديارهم وعب عليهم عند اطلال راياتها المنصورة قاصف الرعب فالقوايد استسلام فما ءابت حتى ساقت في ملاءتها طاعتهم حذارا من صولتها وتفاديا من هبوب عواصفها المتنسفة الاثار والاعيان فجابت العساكر من أرض في هذه الامم ما بين وادى نول ءاخر اعمال السوس الاقصى الى شط النيل حيث ذكرنا ما يناهز تسعين مرحلة ثم تسامت همم مولانا امير المؤمنين ايده الله بعد ذلك الى الغلب على هذه الممالك الاخرى التى لا توازى لاجل معادنها الذهبية فخامة قدر واصالة ملك واتساع خطة وكثرة امم واتساع عمران ورسوخ امان واستبحار خراج حسبما شرحنا فشحذ ايده الله عزائمه وأرهف حدها وأجمع أمره على اصطلام انفها الذى طالما شمخت به عزة وانفة وجمع جراميزه للوثبة عليها وثوب الليث الرابض فكان أول ما ابتدأ به أيده الله عمله الناجح المسعى في هذا الغرض واصاب فيه شاكلة الحزم الذى هو درعه السابغ ولامته الفضفاضة تسريح عين له الى هذه البلاد في صورة رسول اعتامه من نخبة الخدام أهل النبل والذكاء ليرتاد له البلاد ويسبر له عمق أمورها ويمتلأ من الاطلاع على سائر احوالها فسقطت منه فراسة مولانا امير المؤمنين ايده الله وحدسه الصادق على الخبير فصيره لوجهته واحتل بعقوتهم وكان الرجل ساحر اللسان واسع المكر فتوصل بذلك الى مداخلة آل سكية ملوكها والاختلاف الى أواوينهم وحضور مجالسهم وهو خلال ذلك قد طوى كشحا على ما اعمل اليه الطية وارجى المطية يستقرىء الاحوال ويختبر المناحى فوجد في البلاد فرصة الانتهاز وعاطل جيد قد تهيأ لاطواق الخلافة العلية فقفل ولم يدع من نفير ولا قطمير الا وأحاط به فهما وقتله علما فقص ذلك على امير المؤمنين ايده الله وشحذ به غرار عزمه فكان من احتفاله أيده الله وتجهيز العساكر اليها واجلابهم عليها على ماناذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر تجهيز العساكر الى السودان والايقاع بجنودها وما يتخلل ذلك من الاخبار.

ولما ارتجع رسول مولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى وعينه الـذى بعثـه لاستقراء أحوال البلاد فكشف له عن عوراتها واشفاه فى الجليل والحقير من اخبارها كما قدمنـا وكان ذلك فى سنة احدى وتسعين(1) تلوم من حينئذ يجيل فى امـورها قـداح الـرأى وايمتاح قليب التـروى استبـراء للحقائـق وانعاما للنظر .

وكان (2) أول شيء اغتنمه أمير المـؤمنين ونتج له عن نظره في جلب هذا العيص من ولد سكية(3) شأن الخراج الذى وظفه كان على معدن الملح بتغازى وكان من خبر فى ذلك ان تغازى وهى بلد تتوسط القفر بين المغرب وبلاد السودان كانت فى القديم من ممالك سكية وتخم أعماله وبها معدن الملـح الذى تمتار منه سائر بلاد السودان ثم لما اشرق نور هذا الامر العزيز على الدنيا ومكن له فى الارض اجلب الامام رضى الله عنه على تغازى فانتزعها من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد عليها لرجاله ثم رءا أن يتجافى عن بعض خراجها لسكية مقابلة تسريح بيع الملح الذى تستأمه العير الى بلاده من هـذا المعدن فكان سكية يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له قبض ولا بسط فى احكام البلد والمعدن وجرى الخلفاء من ولد الامام على سننه فى ذلك الى أن صارت الخلافة الى مولانا المنصور امير المؤمنين أيده الله واستفحلت الدولة اليوم لعهده الكريـم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن فرءا نصره الله أن المعدن لبيت المال وان اباحـة ملحه بغير قيمة فيه تضيع لمـال المسلمين وحقوقهم فيه (4) فوظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميـع الابـل التى ترده وتؤمه من سائر الآفاق وتقصده وكانت بحرا لا ساحل له وبنى على ذلك المعدن حصنا انزل به من جيش النار مـن يحميـه مـن الاعراب ومن الامتيار الا ان يؤدى الضريبة من جاء يسعى اليه وشحنه بالاقوات فـرءا صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة فى ذلك لامير المؤمنين وحذر مغبته

(1) عام 991 هـ يوافق 1583 .

(2) يقتضى الترتيب الزمنى للاحداث الانتقال الى الصفحة 114 .

(3) يقصد داود بن على الـذى سيتحدث عنه فيما بعد .

(4) يمكن تلخيص مراحل تدخل المنصور للسيطرة على معدن الملح بتغازى فيما يلى :

1 ـ لما تـولى المنصور كاتب اسكيا داود فى شان التنازل له عن خراج معدن تغازى فاجابه اسكياداود بان (بعث له عشـرة الاف ذهبا هدية ... فكان سبب المحبـة والوصلة بينه وبينه) (تاريخ السودان للسعيدى ص 111) .

2 ـ بعد وفاة اسكياداود وتولية ابنه اسكيا الحاج محمد عام 990/1592 ارسل المنصور الى السودان وفدا للتعزية وللاطلاع على موقف الحاكم الجديد م نالتنازل عن معدن تغازى ، وقد حمل الوفد المغربى معه (هدايا عجيبات) (تاريخ السودان . (ن 120) فارجع اسكيا الوفد ومعه (اضعاف ما ارسل هو من الهدايا من خدام وسنانير الغالية وغير ذلك ومن جملة ما ارسل ثمانون خصيا) (تاريخ السـودان. ص 120) .

3 ـ لمـا تاكد المنصور من رفض الحاكم السودانى التنازل له عن المعدن المذكور تدخل عسكريا بـان ارسل قوة مسلحة قوامها مائتا جندى لاحتلال تغازى ، وتم ذلك عام 994 هـ/1586 وقام بفرض مثقال على كل حمل .

ان تم له فيه تدبيره فسعى فى تعطيل ذلك وإفساده ونادى فى سائر بلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن ومنع العير التى تمتار منه من الورود به الى بلاده(1) ثم ضرب الدهر ضرباته فقذفت الاقدار بهذا السبط من ولد سكية الى ايالة امير المؤمنين بتدبيره واعمال الحيلة كما وصفنا من حله(2) .

واما(3) ولد سكية صاحب كاغو من ملوك السودان فقد كان من خبر وصوله ان امير المؤمنين لما عزم كما قدمنا على تجهيز العساكر الى جهة سكية مرجعها من الحركة لسواحل السودان المتقدمة الذكر رءا أن يبعث من قبله أولا عينا الى البلاد ليحتال على جلب بعض الاعياص من ولد سكية لينصبه لاستيلاف قومه ويرمى به البلاد مع العساكر واختار لاحكام هذا التدبير واتمام الحيلة فيه منصور بن الفلالى شيخ اولاد سالم من عرب القفر لنباهته ومعرفته بالبلاد لجلب الغاره اليها ولما كان له من المداخلة بملوكها لكثرة اختلافه الى ابوابهم وجلب التجارة الى بلادهم فسرحه الى ذلك ملبسا بالتجارة فوصل الى كاغو قاعدة ملك سكية فاستـرابوا به اولا وافضى به الامر الى أن سجنوه ليبتلوه بذلك ويمتحنوه فعالج الصبر على المحنة نفيا للريبة وتوصلا الى اتمام الحيلة وتنفيق المكيدة فاسرها فى نفسه ولم يبدها لهم الى أن لاح لهم عليه من الشواهد ما يقتضى فى الظاهر من احواله براءاته فسرحوه من الاعتقال واستخدم واظهر لهم من نفسه المخالصة واقام لديهم ثلاثة اعوام يتقرب اليهم فيها بما يظهر من المناصحة مكرا وخديعة واعتمالا فى اتمام الحيلة الى أن اتفق ما كان من موت الحاج محمد السلطان(4) كان حينئذ من ولد سكية وتحويل الدعوة الى بعض اخوته فافترقت عليه الكلمة بخروج احد اخوته عليه فدارت بينهما حروب أجلت عن القبض على الثائر فاغتنمها منصور رسول امير المؤمنين فتقرب فيه للسلطان بالمناصحة وحضه على تغريبه الى المغرب حسما لداء الفتنة ودفعا لما يحذر من مغبته وهو يسر حسوا فى ارتغاء مكرا به فى ذلك فاصغى اليه وقلده ووكل به من اوصله الى والى الامر من قبل امير المؤمنين بتغازة مقيدا فاغد به من

---

(1) أورد المؤرخ السودانى السعيدى فى (تاريخ السودان) ص 121 (وفى سنة اربعة وتسعين وتسعمائة فى شوال جاء الخبر بان لايذهب احد الى تغاز فمن مشى اليه فماله هدر) .

(2) يقصد المؤرخ الفشتالى وصول الامير السودانى على بن داود الذى وصل الى مراكش فى شهر جمادى الاولى عام 997 الموافق لشهر افريل 1589 ، وسيفصل الفشتالى فيما بعد القول فى الطريقة التى وصل بها الامير السودانى الى المغرب .

(3) يقتضى الترتيب الزمنى لسرد الاحداث الانتقال الى الصفحة 113 .

(4) اكد صاحب تاريخ السودان بان ثورة قامت ضد اسكيا الحاج محمد فى شهر ذى الحجة عام 994 الموافق لنوفمبر 1596 . وقد يكون ذلك للموقف السلبى الذى وقفه الحاج محمد من احتلال المنصور العسكرى لمعدن تغازى ، وتولى فى محرم 995/يناير 1587 أخوه اسكيا محمد الا أنه توفى فى نفس السنة وخلفه اخوه اسكيا اسحاق الذى تمت بيعته يوم الاحد 3 جمادى الاولى عام 996 الموافق 10 ابريل 1588 . وقد قامت ضد اسحاق عدة ثورات من أهمها ثورة أخيه على الذى انهزم والقى عليه القبض .

حينه الى مراكش دار الخلافة فوصل في جمادي الاولى(1) واتصل خبر وصوله بأمير المؤمنين بفاس فاهتز له من اعواده سرورا باتمام حيلته واستبشارا بفتح البلاد على يد العيص من اسباط سكيه الذى اعتمل في جلبه واعتدها الناس من مآثر ★ امير المؤمنين ص 114
فى الدهاء وبعد الغور فى الصبر على العاقبة لمدة من ثلاثة اعوام وحسن النظر فى اختيار الرسول الذى هو عنوان الملوك على النجح واستقامة الرأى وصحة التدبير .

وراءا(2) أن له بذلك التحكم فيما يشاء عند صاحب السودان فابتدر من انتهاز الفرصة فى تثمير الخراج الموظف على معدن تغازى واعتمل فى اتمام ذلك بأن دس مع ولده المولى ابى فارس عنانها .

وقبض(3) ولد سكية الوافد على الحضرة في مغيبه بأن يكتب الى امير المؤمنين يرغبه على امداده بالعساكر ليجلب بها على السلطان اليوم بكاغو وطير به امير المؤمنين لناحيته مع رسوله الى سكية صحبة رسالة خاطبه هو ايده الله بها من عنده يأمره بتسريح العير التى تمتار الملح من هذا المعدن الى بلاده وتهدده بما انفذ اليه من كتاب اخيه المعتمد فى شأن الاجلاب عليه بعساكر المغرب وأراه أنه قد أملا له فى الجواب حتى يرى ما يبدو منه ويصل عنه يحاول ايده الله بما دبر من هذه المكايد الحصول على غرضه فى تثمير ذلك الخراج الوافر من غير كبير كافة ولا اعمال حركة ثم بدا له ايده الله أن يبنى أمر هذه الملاحة المعدنية على أساس من الشرع واقامة للحجة البالغة بذلك على صاحب السودان فاستفتى علماء حضرته وكبار مشيخة العلم وارباب الفتيى بها فافتوا بما هو معلوم فى ذلك لائمة المذهب وعلماء السنة من ان للامام فيها النظر والاجتهاد وصرفها فيما يراه من وجوه السداد وسطروا بذلك فتاويهم فانفذها مع رسوله اليه صحبة رسالة اعذر له بها من انشاء شيخنا الصدر العلامة مالك زمام البراعة والامام الذى صلت وراءه ارباب الصناعة ابى مالك عبد الواحد بن احمد الشريف لمرض كان الم بى حينئذ عاقنى عن الانشاء والصعود للباب العالى فتوجهت الاشارة الكريمة لذلك الى شيخنا ابقاه الله بكتب الرسالة فاشكل عليه المصطلح فى استهلالها بما يليق فى حق خطاب امير المؤمنين ايده الله بالنسبة الى المخاطب فتفادى من ذلك ابقاه الله بالاحالة على لتكرر الكتب اليه من انشاءى واقتصر على ما دون الصدر وكتب فى عرض المسودة الى امير المؤمنين يعتذر له عن ذلك بما نصه ايدكم الله ونصر اعلامكم ان مخاطبة هذا الرجل

---

(1) وصل الامير السودانى على بن داود الى مراكش فى جمادى الاولى 997 لموافق لافريل 1589 .

(2) يقتضى ترتيب الاحداث الانتقال من السطور الاولى للصفحة 114 الى السطور الاخيرة منها .

(3) يستلزم تنظيم المعلومات الانتقال الى الصفحة 54 .

الذى هو فى رتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تلعثم فيه لسانى ووقف عن خوض لجته بنانى وخفت ان يكبوا فيه طرف بنانى لان النأى عن هذه المحجة قد مد بينى وبينها حجابا واغلق فى وجهى بابا فلا آمن أن اقتحمته من الوقوع فى تفريط او افراط وخير الامور لو علمته الاوساط لاكن لا سبيل لمعرفتها الا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ايدكم الله الصدر لمن هو به منى اقعد وتحاميت عقده لمن هو له اعقد ابى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه انواركم واضاءت له سبل هذا المنحى اقماركم والا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقوله :

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه   لا تظلم القوس اعط القوس باريها

انتهى وحينئذ توجهت الاشارة العلية الامامية الكريمة الى العبد بانشاء صدر

ص 55 الرسالة * وفصول أخرى فى مواضع منها ونصها الى رئيس كاغوا وكبيرها والقائم بأمرها وتدبيرها اسحاق سكية بن داوود وصل الله لكم أسباب هدايته وتوفيقه وجعلكم ممن انتمى الى حزب هذا الجناب النبوى الكريم وفريقه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمدا لله الذى صرف لهذه الامامة النبوية الكريمة وارثة الارض ومن عليها وجعل زمام الامة بيدها والنظر فيما لهم وعليهم موكولا اليها والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المبعوث من أطيب المعادن وأشرف من تنصرف اليه الوجوه من كل ظاعن وقاطن والرضى عن آله الائمة الاعلام خلفاء الاسلام وأصحابه الذين عزروه ونصروه بالسنان والحسام وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى المنصورى الاحمدى الحسنى الفاطمى بنصر تدور به الافلاك وتستنزل به الملائك وتخضع له الاملاك فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية وكرسى ايالتنا العلوية ومقر امامتنا الهاشمية الحسنية مراكش حاطها الله ونعم الله على هذا المقام المنصور ضافية السربال وافية السيال والاعتناء بحفظ نظام الدين وتشييد قواعده من كاسه العنوق والاصطباح والاهتمام بمصالح الامة المحمدية مستغرق فيه المساء والاصباح وارسال سوابق الفكر فى تتبع المصالح التى تتعلق بها أعلام التوحيد على أهل التثليث هو الديدن فى الغد والرواح كل ذلك علم الله لنقدم فى هذا الدين المحمدى المقام الشريف ونبرأ على أكمل الوجوه من عهدة التكليف فقد نيطت بنا التكاليف الشرعية التى لم تنط بغيرنا اى مناط وارتبطت بنا أى ارتباط ولا مطمع فى التفصى من ربقتها والانفلات من عهدتها الا بمواصلة الجد فى السالمات والانا وأعمال الحزم والعزم وترك الهوينا ومتى يقع الخلاص من أعباء عرض حملها على السموات والارض فابت ووعدها بالثواب عليها خالق العالم فتابت فاليه سبحانه نمد أكف الضراعة فى تيسير الخلاص من هذه الاثقال ومنه نستمد الاعانة التى بها تنال الامال وغير خفى على من ذاق حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه والقى

الى هواتف الشريعة كتابا وسنة سمعه ولبه اننا بهذه الاثقال دون غيرنا مطالبون وبأعبائها مضطلعون اذ الناس فى هذا الامر تبع ونحن المتبعون وان طاعة هذا الامر الذى تقلدنا قلادته مفروضة على أهل الارض وواجبة على كل من أحاط من اسياج المعمور على الطول والعرض لما اختصنا الله به من امامة الجماعة التى أوتيتها حكم الولاء والكفالة ووراثة الارض ومن عليها لا عن كلالة وقلدنا من حماية بيضة الاسلام والذب عن أمة نبيه عليه السلام واني لمن بهذه المنزلة ان تطرق أجفانه سمة اغتماض أو يتأتى له
ص 56 عن رعى المصالح الخاصة والعامة * صدود أو اعراض وعدو الدين الى شق عصى الاسلام وافساد بيضته على طول المدى فاغرفاه معمور الفكر والبال فارغ مما سواه ولهذا ومن أجله لم تزل بحمد الله سهام أنظارنا السديدة الى أهداف مصالح الامة المحمدية مفوقة وءارونا ولا كفران لله بحوله وقوته الى صوب الصواب موفقة نعثر منها على ما جر عليه قبل الايام ذيل الاغفال فأسدل دونها رواق الاهمال وكلما أثرنا من مهامه الفيح قنصا وقعنا به على مهارق الاعلام والتعريف لكم ولغيركم ممن أوجب الله عليه الانصات لامرانا قصصا لتلبى فى الاقطار والافاق دعوتنا اليه الطاعة وتعطى اشارتنا به على الانام ما يجب لها من الشهرة المقرونة بامتثال والاذاعة ويشتد به ازر هذه العصابة الاسلامية وهذه الجماعة ويحصل لها به بعد سبر غوره الفرح والاغتباط ولنا ان شاء الله أجر الاشارة به عليها والاستنباط هذا وان مما وقف بنا عليه بعد استخارة الله زائد الاختيار وسبرنا غوره من سديد النظر بمسبار وما تعاضدت شواهد الشرع على اعتباره واباحة اجتناء ثماره وانه من القلادة التى طوقتنا دلائل الكتاب والسنة طوقها وأسالت أرواح الاذن الالاهى من سماء التمكين على أكناف ودقها وأوجبت عليكم خصوصا وعلى الناس عموما تلبية منادينا وانهاء التعريف بالقبول لها الى شريف نادينا وذلك هذه الملاحة المعدنية التى تضرب اليها أكباد الابل وتشد بسببها لبلاد تغازى على الدوام الاقتاب والرحال وتعمل المطى اليها الوخد والارقال وتشق البيد نحوها باحمال الثقال قد انطوى على مصلحة لهذا الجيش الاسلامى والاسطول الجهادى الذى جعل المولى سبحانه بأيدينا زمامه وصرف بفضله الى احياء دينه ظعنه ومقامه وشرق من أجله طاغية التثليث بريقه وضاق متسع الفضاء فرقا به وبحزبه وفريقه لايصلح فى قانون الشرع أن تقابل بالاهمال ولا يبرى من عهدته الا البدار اليها والاعمال لما فيها من الاعانة لهذه الجيوش الاسلامية والعساكر المظفرة بالله الهاشمية الامامية وتقوية هذه العصابة النبوية التى بها يقع الدفاع عن الملة ويحمى حماها بسيوفها المستلة وصرفها فى اقامة أسطول الجهاد وفيما اعتدناه للرباط فى ذات الله من الصافنات الجياد مع ما فيها للأمة المحمدية من المنفعة التى ان ضيعناها توقعنا فيما ولانا الله من أمرها تقصيرا

وزجرا بارتكابها وانتهاز الفرصة فيها من عظيم فضله أجرا كبيرا وذلك بأن وظفنا زنة مثقال تبرا على كل حمل من الجمال التي تغشى هذه الملاحة للحمل على طول المدى وألزمناهم ذلك ما أعقب غدا بحيث لا يوسق رحل الا بعد اعطائه
57 ونقده ومن تابى * فليتيقين بصده عن حملها وورده وها نحن قد انفذنا اليكم بما لأئمة المذهب في هذه المسئلة على الخصوص وما لعلماء السنة فيها من الحجج والنصوص والبراهين المحكمة كالبنيان المرصوص لتعلموا أن للامام فيها النظر والاجتهاد وصرفها فيما يراه من وجوه السداد وبخاصة في اقامة فريضة الجهاد وتستشعروا مالكم في امتثال ذلك من السعادة التي تجدونها ذخرا والفلاح الذي تفوزون بليله ان شاء الله دنيا وأخرى وعرفناكم بهذا لتكونوا أول من ثنى اليه أعناق الرجال وأول من أحرى الاستماع اليه والامتثال ومن شممتم منه رائحة الانحراف عن هذا الامر العلي والازورار فقوموا اعوجاجه بثقاف الالجاء اليه والاضطرار فانتم أحق الناس والحمد لله بحشر الناس لهذا الباب وما يذكر الا أولو الالباب انتهى وأسر مولانا أمير المومنين المنصور أيده الله الى حامل الرسالة من أبوابه الشريفة أن يكون أول ما يدفع من الرسالتين الى سكية عامل السودان هذه الرسالة الاخيرة التي الان له فيها القول لعله يتذكر أو يخشى وبنى له الامر فيها على أساس الشرع فان استجاب وفوض الامر الى أمير المومنين في أمر هذه الملاحة فهو القصد والا دفع اليه حينئذ الرسالة الاولى لما توذن به من التهديد بالعساكر التي طلب أخوه على بن داوود الخالص للابواب الشريفة برسم الاجلاب بها عليه فان لم ينجح بذلك أطلعه بعد ذلك على كتاب أخيه بنفسه الذي كتبه بتدبير أمير المومنين يطلب فيه الامداد بالعساكر حسبما قدمنا فان لج بعد هذه الاعذارات كلها واستنكف فقد صدقت عليه الحجة حينئذ وحق عليه القول وشرع أمير المومنين الان بعد ارسال الرسول في تجهيز العساكر الى تلك الجهة والاستعداد لحركتها بما تستدعيه الشقة الطويلة وطي المفاوز البعيدة من عظيم الاحتفال فاذا استوعب الاهبة جلست للوثبة على برائنها تنتظر ارتجاع الرسول (1) الى عام ثمانية وتسعين
69 حتى مضى على بصيرة * من أمره ويقين من شأنه وكان قد انفذ أيده الله خلال هذه المدة في رسالة الى سكية صاحب هذه الممالك كان وطيرها مع رجل سبق له الغدو الى تلك البلاد في سبيل التجارة ممن يليق بديل الدولة في خدمتها وبمت نصائحها يخاطبه في شأن الملاحة الكائن بتغازى وهو الذي تمتار منه الملح سائر بلاد السودان وينتال عليه من أهل الوبر بالقبلة والجنوب والقاصي والدان وقدر له فيها ما اقتضاه

(1) الانتقال الى الصفحة 68 .

سديد النظر الكريم من فرض مثقال للحمل على كل من ينتابه من القوافل وينتال عليه من القبائل لما أنهى اليه رسوله وعينه أن ذلك بحر لا ساحل له ليكون ذلك عونا لجيوش الاسلام وامدادا لجنود الله على مجاهدة عبدة الاوثان والاصنام واطلعه على فتاوى العلماء ومشايخ الاسلام بما للامام من الاجتهاد في المعادن فلما نادت الى سكية الرسالة الكريمة شق عليه امضاء ما اقترح فيها أمير المومنين من الخراج المفروض على الملاحة حسدا له وخشى مغبة الاستعصاء لامره فسوف بالرسول وبنى أمره على المطاولة به فتفطن أمير المومنين لما طوى عليه كشحه فاحفظه ذلك واستشاط غضبا على سكية (1) ونقم عليه اهمال جوابه والتسويف برسوله وعدم نفوذ ارادته فانبعث لذلك أيده الله وأجمع أمره على ما نواه وقدح زناد العزم فاوراه وشد اواخى اهتباله واعتنائه فاشتدت وسدد سهام العزم الى غرضه فاشتدت وقدم أيده الله تعالى بين يدى مساعيه الناجحة استخارة الله تعالى التى يستضاء بقبسها فى غياهب الامور ويهتدى بمعالمها فى مجاهل البيد اقتداء بما ندب اليه الشرع العزيز وحث على استعماله والحيزة اليه تبسم اليه من وراء الغيب والنجم تحقق له على كل ثنية راياته سنة أجراها الله تعالى فى مقاصده وعناية ربانية تصحب خواتمه ومبادئه ثم عقد أيده الله تعالى مجلسا للشورى والموامرة امتثالا لما أمر الله به رسوله عليه السلام ثم كتابه الكريم فجمع الملا من طبقات الاجناد وذوى الحل والربط وأولى البصيرة والحنكة وخبرة الامور لم يستثن مشار اليه ولا مشاور فصدع لهم أيده الله بذات صدره وفاتحهم بعزيمته وما أجمع عليه من تجهيز العساكر الى هذه الاقاليم السودانية والاصقاع الجنوبية معلنا لذلك الملا أن لايدخر أحد رأيا ولايمزج بالاذهان نصحا وانه ايده الله غير مستنكف من حق يوضحونه بحجة ولا متوقف عن الرجوع الى صواب يتبثونه ببرهان يستنم الله فتنازل أيده لالله لمجال الاحتجاج ثبريا من الاستبداد بالرأى فاصفقوا اجماعا لم يختلف فيه منهم اثنان ان هذا غير داخل فى حيز الامكان ولا يتصور خياله الا فى الاذهان محتجين باعتراض المفاوز البيد والمجاهل

ص 70 القفار دونها التى لاتشقها الرفاق القلائل الا بعد عصب الريق والافلات * من مخالب الهلكة فكيف بالعساكر الجرارة والمناقب الضخمة واحتجوا أيضا أن من اجتاز بالمغرب من أهل الدول العظام أهل الشوكة ووفور الاجناد وامتداد ظل السلطان كدولة الملثمين ومناهضيهم الموحدين ودولة بنى عبد الحق من بنى مرين ما أعملوا فى ذلك خطوا ولا طاف بهم الامل حوله شوطا ولا حاك لاحد فى هاجس ولا القى اليه طاغية وخصوصا منهم الملثمين الذين

(1) أورد المؤرخ السودانى السعيدى بان اسكيا اسحاق قد رفض الاستجابة لمطالب المنصور (والتسليم فى ذلك المعدن بل قبح له الكلام فى الجواب وبعث له صحبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد) (ص 138) اشارة الى أنه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما فى رجليه .

منشاهم من لصق ديارهم وانتشار رياح دولتهم من قرارة جوارهم ولو كان ذلك في طوق امكانهم لكان همهم الذى يسرع اليه هو ابتدارهم فما أخذ بحجزتهم عن ذلك الا دخوله في حيز التعذر فاما الاحتجاج الاول بالمفاوز المعترض دونها اعتراض البحار فأجابهم عنها مولانا أمير المومنين أيده الله بأن هذه المفاوز والقفار لم يتعذر بها السلوك من كل وجه بل هي سابلة للتجار ومدرج غلهم مدى الاحقاب والدهور وهم في كل صدر يصدرونه يحتلبون من الرقيق صنوفا وضروبا من صغير يناهز سن المراهقة وضعيف التركيب منحل البنية ممن لايقوى القوة على المشى ومع ذلك فهم يقطعون عرض هذه السباسب سعيا على الاقدام وخطوا على الارجل بين احقاب رمالها حتى يخلصوا لبلاد المغرب ثم هولاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة وأحمال المتاع الجمة بين صدر وورد وأما مولانا أمير المومنين أيده الله أقوى استعدادا من استعدادهم وأقدر على الاهبة التامة والاحتفال لذلك منهم وما يجهدهم ويعوزهم فهو عليه أسهل وأيسر بتضعيف العدد السفرية من مزاد الماء ووفور الاقوات والازودة والاستظهار بالمطى المضطلعة بشق المهامه والرواحل المعتامة الشديدة الاسر والقوى التى لاتنضر غصنها المراحل ولا يخدد أوصالها أو عث المجاهل فتبينت للملأ حجة مولانا أمير المومنين أيده الله وسلمت مقدماتها اليقينية واما الاحتجاج الثانى بعدم انبعاث همم أولى الملك الى هذه الاقاليم واطراحهم بواعث العزم عليها فأجابهم أيده الله عنه بأن الدول الثلاث طول استقامتها ورسوخ عمود اعتدالها لاينفكون عن عيهة وحرب وارتباك في اشراك المناضلة مع من يليهم من ملوك الافرنج بالاندلس واختصت دولة الموحدين زيادة على ذلك بمدافعة الميورقى ابن غانية الذى لم يزالوا يكفكفونه عن أقطار افريقية التى أضرمها نار فتنة واما بنو مرين فاستغرقت أيامهم حروب بنى عبد الوادى بتلمسان ولم يخل قط جوهم من نزاعهم هذا على حين استفحال كل دولة وفي ريق
ص 71 شبابها فاما بعد أن رميت بدائها وتقلص ظل اعتزازها فهي تجود بدمائها لا دفاع لها * ولا حراك وقد انقضت كل واحدة منها وما فرغت من شواغبها ولا صفى لها مورد من مدر على ما تشهد به سيرتهم وايامهم ثم لو خلا وجههم لذلك وصفى جوهم من الشواغب الاخرى فحجزتهم قلم عنه عائق اخر أكبر مما ذكر يقطع بهم عن هذه الغاية لا محالة وهو أن عساكرهم التى يستتبعونها القائمة بشوكتهم وحروبهم مع الامم انما كانت عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرمات الناشبة ولم تستتبع اذ ذاك عساكر النار المرهوبة الصواعق القاصفة الرعود وغير خفى أن أجنادهم تلك لاتدوخ هذه الاقطار النازحة منها عصابة قليلة ولا طائفة نزرة ولو انتهت شوكة ونجدة لان سلاح الفريقين واحد وحربهم ضرب متفق فالقليل بكل تقدير منهم لايقاوم الكثير من أمم السودان

ولا يتأتى لهم الغلب عليهم الا بالاستظهار بالعساكر المتناهية فخامة ووفور عدد ومثل هذه الجيوش لايمكنها اقتحام هذه المفاوز البته لما تستدعيه مؤنها ورحالها وأثقالها وأزودتها من الظهر الذى يفوت التقدير والحسبان ويكاد وجوده يخرج عن حيز الإمكان بخلاف هذه العساكر الامامية المنصورية كلاها الله تعالى وحماها فانها عساكر قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة فالحصة منها تدوخ أقصى تلك الاقطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها وكان مما استطرد مولانا أمير المومنين أيده الله تعالى فى ميدان ذلك الاحتجاج التنبيه على ما تقتضيه الماسية أيضا فى العساكر والاجناد من اصلائها نار الحرب ورميها المئازق الجلاد دءوبا على الدربة بها وارتياضا على صدق المصاع فى ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيدا عن التراب والاخلاد الى الراحة والركون والسكون الى الدعة لما يودى اليه فى ذلك من وهن عزائمهم ولين عرائكهم وفل شبى شوكتهم عند الحاجة اليهم هذا والاقاليم الافريقية والاندلسية قد شغلت لهذا العهد بمن استولى عليها من العجم وعلى فرض خلوها حسب أحوالها مع الدول المتقدمة فصرف الوجهة لاصقاع الجنوب وممالك السودان أحق وأولى بالتفات العزائم فهى وان كانت أصعب مراما وأشمس مركبا فانها أغزر نفعا وأجدى مغبة وأرحب مجالا وأوسع عمرانا وأوفر نشبا وأقوى بمعادنها وكثرة المشتاق من رقيقها يدا على الاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله وعزته فى عقر داره حسبما هو مبنى النية الصالحة الكريمة على أساس هذا القصد الجميل بلغ مرامها وأنجح بمنه فى كل ورد وصدر قصدها ومامنها * ولما استضاء للملا نور الحق المبين فيما ذهب اليه أمير ص 72
المومنين وتبينوا عراقة رايه الحصيف فى انساب الصواب وتوفيق الله تعالى لانظاره فى اصابته المحز ووفاء جبلته الطاهرة وقطرته المقدسة بما لا تفى به أفهم الناس وتكل فى بيدائه سباق العقول الراجحة حتى ليكاد يسبر أعقاب الامور الغائبة الى الاعيان ويحدس الاشياء التى يسفر عنها الغيب ووفق فراسته الزكية كان قد رءا وقد سمعا

نفت التوهم عن حدة ذهنه فقضى على غيب الامور تيقنا

اصفقوا كلهم حينئذ رجوعا عن رأيهم الى سديد رأيه المصيب ونظره المكين الحصيف اذ لا أثر لنبراس مع طلوع ذكاء فعندما تمخضت زبدةهذا التدبير المبارك وافاض فحيح هذا المجلس المعقود الحى للمؤامرة والمشورة مشحوذ العزائممتيقظ الهمم انتضى مولانا امير المومنينأيده الله صارم العزيمة للاحتفال وشمر للجلوس له بنفسه فأطرح الهوادة فى الاستعداد والاهبة الفخمة وذهب فى مذهب الاحتفال أبعد شاو فكان أول ما صرف اليه عنايته استعداد الرواحل والابل اذ هى ملاك السفر البعيد ومركز مداره فوجه أمير المومنين الى الاحياء

الطاعنة فى النواحي كفاة من أنجـاد خدامـه وعهد اليهم أيده اللهِ فى اعتيام كل فدنيـة ارحبية من البزول الشديدة الاسر والقوى التى افعم النخض اهابها واتمـك سنانهـا مضطلعة بشق المفاوز البيد وقطع عرض الفلاة المديد مستقلة بنقل الاحمال ولم يسمح أيده الله لاحد قد تولى شيئا من هذا العمـل ان يأخذ ما خرج عن هذا الشرط ولا أن يقبـل ما تبدى فيه وصم عيـب أو رسمـه عجـف وانحلال بنية بل تقدم اليهم بالمنع والحظـر عما دون ذلك وان عائد العهدة والدرك على متوليه ان جلب ما لايرتضيه وبلغ فى ذلـك أقصى مبالغ التشديد شأنـه أيده الله فـى معاقد أموره المنوطة بنهاية الاحكام والاتمام ثم عهد بعد ذلك باتخاذ ما تستتبعه من الالات بين رحال محكمة العمل وأوعية وعياب حصيفة وجدل مغارة الفتل وانتقى كل ذلك من علية جنسه ونحتت الاقتاب وجمع لها أيدى العملة من صناع النجارة وتتبع فى اغفال المنابـت شجر الخلاف فاستوعـب ذلك كله هضـاب فارغة وتلول هائلة قضى الناس العجب مـن مرءاها واستغرب فى الامكان حملها برمتهـا خاصة فكيف بسواها مما هو المقصود بالذات وطوى بحر الاحتفال وزخـر عبابه وجمعـت الاسقيه والشنان الحصيفـة الاديم وتخطـت أعداد المئين الى الالاف حتـى أن العسـاكـر الامامية لما توغلت فى المفـاوز التى نضبـت بها المياه واعوزت قطف الثماد وبلالة الاوشال كانت تسيل على أكواز المطى انهار تطرد من العذب الزلال ★ وتجاوز الرأى الناس الـى ما جنبوا من القربات من غير مصابرة ظمـا ولا طـى احشـاء على غلـل بحيث لم تفقـد العساكر المنصورية خلال ذلك الدو وأثناء ذلك القفر شيئا من أحوال الترب ولا غربت عنهم غضارة العيش الغضة الافنـان ولا أحسـوا للبوس بهمس صنع الله المطرد فى كل مرام يروم مولانا أمير المومنين المقترن بالتيسيـر لزاما كما ألزمت الاطواق الحمـام وما مـا استوعب من العدد المضاعفة والسلاح الشاك المظاهر وجهز من خزائن البـارود المتراكمـة قناطره المقنطره التى أوفت على أعداد المئيـن وأرهقت الالاف ومن خزائن الرصاص المعدة لحصى القذف وبندق الرمى ومن الانقـاض الثقيلة الاجـرام المعـدة لارســال الصواعـق القاصفة الدوى التى تستلب أفئدة الابطال من الجوانح وتقتنص أرواح الكمات وتندعر لها المقانب امصاف الوقائـع وغمـار الحـروب فحدث عن كثب بيرين كثرة وقدرة تقصر عنها قدر الامـلاك وهمـة شامخـة أنافـت علـى الافـلاك :

أوفى بها صعدا حتـى غـدا زحـل   من تحتها بمكـان الترب من زحل

الى غير ذلك من الاسباب السفرية المتكاملة الانواع والاجناس وأعمل فى نقلهـا العجـل وءالة الهندام لثقل أوقارهـا حتـى ان ممـا استعد وتوفرت بـه العنايـة الامامية والـة

(1) بيت شعر

السفن والاساطيل برسم اتخاذ الفلك والجوارى المنشات لعبور النيل وامضاء غارب
بنجه استبلاغا في الاهبة والاحتفال واما الازودة والاقوات فأمر أخرس قلم الحاسب
وبعث المسهب الاقصار ولما تكامل الاستعداد وتم الاحتفال وتوافت العمال بالبحر التيار من
كرائم الابل على وفق شريطة مولانا الامام أمير المومنين أيده الله وعلى حسب اقتراحه
وسالت الى الحضرة باعناقها الاباطح من كل أوب فاجتمع منها سواد طم على الحسبان
اضطربت المحلات ضاحية بظاهر الحضرة وخفقت سياجات السرادقات ولاح فى الجو
سنى القباب وعقد مولانا أمير المومنين أيده الله على هذه العساكر لمملوكه الشهم البهمة
الناهض لأعباء الاستقلال الموفى على كل ما قدم الله على مرتبة الكمال وشريف الخلال
الناشىء بتهذيب الامامة الكريمة والمتخرج بآدابها التى سبكت ابريزه وقوم ثقافها اوده
وقدح زناده السابق فى مضمار النجدة المبرز فى حلبة النجابة المنقطع القرين الذى شئسا
الاتراب وبدا المساجل الداهية النئاد وثالثة الاثافى وثانى اثنين سبقا واستكفاء وتقديما
على من سواهما من المماليك والموالى العلوجى بدار الخلافة المعظم جوذر باشى فأعطى أيده
الله منه القوس باريها وصدق فيه الخبر الخبر فبرزت العساكر الامامية من الحضرة
العلية لمخيم محلاتها يوم الاثنين السادس عشر من ذى حجة عام ثمانية وتسعين
فى حفل بروز وافخموا وانتظموا * فى أوعب ترتيب وابدعه ممتدين سماطين من سدة ص 74
الخلافة الكريمة وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم وغصت بهم فوهاء الشوارع واسترسلوا فى
مذاهب الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة أمور هذه الحركة من أولها وانها عندهم
من الغريب الذى لايذكر والممكن الذى يكاد أن يصير من قبيل المحال لاستعظامهم لامور
تلك المفاوز واقتحامها على بعد شقتها فلم يشاهد من نشاط الاجناد ولا من شره العساكر مثل
ماريء فى هذه العساكر المظفرة فما ملأ لهم الهول صدرا ولا خافوا ولا نكلوا ما يتلقاهم
من اعتراض المهاق الفيح وانتزاح الدار وشحط المزار وشد مولانا الامام المنصور بالله امير
المومنين ازر مملوكهم المذكور بثقات من كفاته وطماته من قواد الاسل (1) اولى الدهاء
والرأى المطبق لمفاصل الخطوب وذوى النجدة فى مضايق الحروب من كل وخطت فوديه
بقناع الشيب وقائع الامور وتمخضت البابهم امحاك التجاريب عتادا ودرءا يرجع اليهم فى
مخض زبدة الاراء ومجال المفاوضة شدا لاواخى الحزم واحكاما لمرائره وجمعا لكل
شادة وفادة من اوابده وشوارده ولم يقرع صماخ احد ولا دون فى بطون القراطيس
حديث عسكر بلغ فى الاحتفال والانتقاء والانضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما
بلغت هذه العساكر المنصورة وقوضوا الابنية عن فناء الحضرة العلية برصد سعيد وقران

(1) ذكر المؤرخ السودانى اسماء القواد الذين رافقوا جودر باشا فى الحملة ضد السودان وهم : مصطفى التركى ، مصطفى بن عسكر أحمد الحروسى الاندلسى ، احمد بن الحداد العمرى احمد بن عطية ، عمار العلمى ، أحمد بن يوسف العلمى ، على بن مصطفى العلمى ، بوشبير العمرى ، ابو غيث العمرى باحسن العلمى ، قاسم الاندلسى . (تاريخ السودان . ص 138).

مبارك في صدر المحرم عام تسعة وتسعين(2) وصدر خطاب مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله الى القاضي عمر بن محمود بن عمر قاضي تنبكتو المسموع الكلمة في اجيال السودان في منحى اقامة الحجة وايضاح معالم الشرع والاحتجاج بالسنة والكتاب على وجوب تقليد بيعة مولانا المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وافتراض طاعته على الاحمر والاسود والانخراط في سلك الجماعة بالانقياد لدعوته النبوية والائتمام بامانته الكريمة ونص الكتاب الكريم النبوي الامامي المنصوري بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وءاله ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة التي خطت فيها يمين الامام وبنان سبط النبي عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبيج يبهر العيون حسنا ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم وهو من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الامام المنصور بالله امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسني ايد الله اوامره وظفر عساكره الى القاضي عمر ابن محمود بن عمر كم اسعدكم الله بتقواه
ص 75 وطاعته وعرفكم بركة الانطواء الى حزب الهدى وجماعته ⋆ سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته اما بعد حمدا لله الذي جعل حركة احمد كلما انتصب حركة فتح وامره اذا جزم امر اقبال وعلمه بالغلبة على سائر الاعلام معرفا عند العرب والعجم فلذلك تتلى عند رفعه سورة الفتح قبل القتال والصلاة والسلام على نبيه الذي ارسله بالحق بشيرا ونذيرا الى الابيض والاسود وابتعثه أحمد الفاتح الخاتم فكان بالرعب منصورا على الاقرب والابعد والرضى عن ءاله فروع النبوءة والرسالة وينابيع السماحة والبسالة أهل البيت والمشعر وكفلاء الابيض والاسود والاحمر والايمة الذين ان مكنوا في الارض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وعن اصحابه الفائزين بسعادة المورد والصدر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يقول الانسان يومئذ اين المفر كلا لا وزر ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الامامي الاحمدي المنصوري الحسني الفاطمي بنصر لاتزال عزائمه مرهوبة وغنائمه مجلوبة ومجنوبة فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية دار الاسلام ومقر كرسي الامام مراكش حاطها الله وبركة هذه الدعوة النبوية الشريفة التي عمت الربى والوهاد وطبقت انوارها الساطعة الاغوار والانجاد تنسكب كالمطر وتنسحب على البشر وتقضي بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر بحول الله وقوته والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم والعمل بطاعته وان توقنوا ان هذا الامر العزيز منصور اللواء مديد بجنود الارض والسماء موعود ان شاء الله بالظهور والاستيلاء

(1) اوائل محرم 999 توافق اوائل نوفمبر 1590 .

وانه المصيب المنصور المفتوح له لا يناوئه مناو أو يعانده معاند الا قصمه الله وخذله فهذا امر الله الذى وعد بالظهور ظهيره ولم يخف الخذلان نصيره فلا يغلب حزبه ولا يستطاع حربه ومن يتوكل على الله فهو حسبه والدعوة التى قضى لمن اعتصم بحبلها ولجأ الى ظل ظليلها بالاثرة الدائمة والسعادة الابدية ولمن تنكب عن حزبه وانتصب لحربها بالاسنة السمهرية والقواضب المشرقية بحول الله وقوته وعزته وقدرته هذا وانه وفقكم الله وسدد واعانكم على اتباع كلمة الحق وانجدكم فمما لا يخفى على كل مومن ومسلم موقن ان هذا الامر الذى نيطت بجيدنا الكريم قلادته وكان لاولنا ابداؤه ولاخرنا اعادته وهو امر بغير عروتنا الوثقى لايناط وعقد بغير سلكنا المنتظم لا يتم له اتساق وارتباط اذ نحن باعبائه دون غيرنا مضطلعون والناس لنا فيه تبع المتبعون وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الائمة من قريش وقال عليه السلام لايزال هذا الامر فى قريش

ص 76 ما بقى منهم اثنان وقال * عليه السلام ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه وقال عليه السلام الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم وبهذه الآثار الشريفة وضروبها ظهر على الحق حتى درج سلفنا وعليه حتى تقوم الساعة بحول الله يمضى خلفنا ونحن مذ ولانا الله هذه الامانة العظمى التى قلدنا بها امامة الجماعة واوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة وصرف لايالتنا الشريفة بها وراثة الارض ومن عليها حتى تقوم الساعة لم نغمد سيف الحق ولا ارحنا يوما فى مرابطها جيادنا المبارية للبرق وعساكرنا الهاشمية التى اذا ارعدت نيرانها ذكرت برجة الصعق نفتح البلاد المقفلة ارضا ارضا ونقيم من اعمال الجهاد ومصالح البلاد نفلا وفرضا حتى انفتح فى الجنوب الى من يليكم واقيمت دعوتنا الكريمة فى الاقطار التى تصافيكم وتدانيكم وعلمنا ان التكول لا يسع مع القدرة وان الله لا يقبل منا فى اهمال ما استرعانا من امور العباد والبلاد سوى معذرة فتعين حينئذ استصحاب العمل وتخطى المرعى من البلاد الى العمل حتى ينجز الله وعده الكريم فى استيلاء على الاقرب والابعد وملاك الاحمر والاسود وناتى بفتح الارضين ان شاء الله على الوجه الاكمل ولما كنتم بتلك المملكة معيد بابها ومدبر احكامها الشرعية ومدير اسبابها وانكم بالاثار الشريفة التى سردنا والاحاديث النبوية التى أوردنا وبحقوق هذه الامامة النبوية التى تجب طاعتها قطعا وتحرم مخالفتها شرعا اعرف من سواكم واعلم بالتى هى احسن لكم فى دينكم ودنياكم خاطبناكم بهذه الرسالة الشريفة لتكونوا أول من لبى داعيها وأجاب مناديها ولترفعوا بها عقيرتكم فى تلكم الاقطار وتوضحوا للناس هذه الحجج الساطعة الانوار حتى يعلموا منها ما اوجب الله عليهم من طاعة هذه الامامة النبوية الشريفة التى لا يقبل الله الا بطاعتها الاعمال ولا يتم لمسلم نفل ولا فرض الا باداء ما افترض الله على

الخلق من الانقياد الذى تكمل به الفرائض وتتم الانفال وتشعروهم ان من كان بهذه
المراشد مقتديا ولنداء هذه الدعوة الشريفة ملبيا ولاوامرها العلية المطاعة مقتفيا وتمسك
بعصم طاعة من اوجب الله على الخلق الاستمساك بشريف طاعته والائتمام بواجب
امامته فازاحت قداحه وتضاعفت من اقسام السعادة متاجره وارباحه فان ذلك عند ذوى
الايمان أوثق العرى والذخر النافع الذى يجده كل موفق سعيد يوم تجد كل نفس ما عملت
من خير محضرا ولتقف ان شاء الله لندب الناس الى اداء ما افترض الله عليهم من
ص 77 طاعتنا على قدم وتعقد مالكم فى ذلك عند الله وعند خليفته الامام من عظيم الاجر وجزيل *
المغنم وتستشعروا ما قال عليه السلام لان يهدى الله بك رجلا خير من ان يكون لك
بها حمر النعم واعتقدوا مع ذلك ان كل من امتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض
على تلكم الاقطار السودانية ان شاء الله طلوع الفجر وكتائبنا المتلاطمة تلاطم امواج البحر
فقد امناه ومن اجرتموه فقد أجرناه اظهارا لمزيتكم واشعارا بمكانتكم لدينا ورفعة
وايذانا بجليل منصبكم عندنا وسمو رتبتكم والله تعالى يصل توفيقكم ويجعل الخير
رفيقكم وحزب الهدى قرينكم والسلام وكتب فى شوال عام ثمانية وتسعين وتسعمائة(1)
وألمت العساكر لوجهتهم السعيدة يطوون المراحل ويشارفون كل قون ويفاع على السنن
اللاحب والجادة الكبرى المفضية لوادى درعة ولم يزالوا يتعرفون فى كل خطو وباع
يعملونه عتيد التيسير والصنع الجم والاثار المباركة الشاهدة بالمغبة الصالحة والعناية
الربانية باتمام ما ضمر مولانا المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله فى ذلك من القصد
الكريم وزرت عليه طويته الزكية من لم شعث المسلمين ودعم دعائم الدين وتشييد
معالم الجهاد واخماد شرر الكفر المحتوم الضرام بعز الله وقدرته واغذوا فى السير
وتجشموا العقبة الكؤد من جبل درن المعترضة مسيرهم وتسوروا بين شواهقها
مضائق طرق وتسنموا حزونا وعزازا لا يسهلون فيه لدمث ولا تنفسح فيه خطى
النمل الدارج حتى صوبوا من ثناياه وعقابه للجهات القبلية وتسلمهم السهل من ايدى
عنته ومع ذلك لم يرزاهم خفا ولا شبكا ولا عبث باوقار ركابهم دوحه المتناوح وملتف
غابه الاشبه مع اعواز السلامة للرفاق القلائل فى سلوكه فضلا عن المقانب الضخمة
وزهاء الآلاف من ابل موبلة فما اشتكت وجى ولا طلعا ولا اخل بقواها نصب ومجرى
العادة لا يسلم ذلك القدر فى صحصح مرت فضلا عن حزن وعث وسار ذلك الجيش على
وثيرة الانضباط يمرون فى كل آوب وصوب برعايا مولانا الامام المنصور بالله امير
المؤمنين ايده الله متفيئة لظلال الدعة ممتدة الامال فى كنف الهدوء مكلوة بعين حياطته

(1) شوال عام 998 يوافق غشت 1590 .

الساهرة لمنامهم فما رزءوهم قدر بسيط حصير ولا نعنوا من اموالهم بفتيل لما عهد
به مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله الى رؤساء الاجناد من كف عاديتهم
عن الرعايا وان لا تنبسط ايديهم في نقير او قطمير واوعاه أيضا من العساكر ادنا واعية
ولما مدنوا عليه من الانضباط وهذبهم من ثقاف السياسة حتى لو سيموا سم الخياط
لوسعهم مجالا مع تناهي الشوكة والبأس والشهامة سيرة دربوا عليها حتى صارت لهم
سجية وغريزة طباع لم يتأت النسج على منوالها والحذر على مثالها لملك اسلامي أو
جاهلي اذ لم تزل الرعايا تلحقها معرات الجيوش ويجتاحها عيثها وخصوصا من
ص 78 اتضمت معالم غنائه كهولا واستمر * مريرهم على ذلك مع اتساق العمارات في سابلتهم
وخصوصا لما خيموا باصقاع درعة فانه تراكم من العمران على واديه ما اربى على قرى
النمل وانتظمت حفافيه انتظام الجواهر على السالك مع امده البعيد وامتداده واغراق أهله
في مذاهب الاستكانة والدمامة فما امتدت ايديهم في فتيل ولا قدر قلامة حتى انفصلوا
عنهم وقد اجهشوا بالدعاء لمولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله بالنصر
ولجيوشه بالظفر والثناء على علي مقامه وشكر عنايته الكريمة التي ضربت عليهم سياج
الحياطة وانامتهم في وتر الهدوء وضربت دون ما يجتلب منساءتهم بالاسداد وخيم
العسكر بمنقطع العمارة من ءاخر وادي درعة حيث مبدأ الاحقاف الرماليه ومثول تلوله
الهائلة وتلوموا هنالك ريثما استوعبوا الاهبة واكملوا الاستعداد وثاب اليهم الشاد وانتهى
معهم لهذا الموضع تشييعا حاجب الامامة الكريمة كبير الدولة الصدر القائد ابو محمد
عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي استكفاه من مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين
ايده الله في تثقيف احوال العساكر ومراقبة امورهم عند منتهى العمران وتجديد ما وهي
وانبث من اسبابهم وغير ذلك من شؤونهم لم يستتم فيها الا لمثله من علية الخدام الاكابر
الثقات فتم التجهيز على أوعب ما يكون وأكمله فحثوا الركاب وقوضوا الابنية في
الرابع وعشرين من صفر العام(1) واستقبلوا الصحراء الافيح ولججوا من شطه فثار اذ ذاك
جلدهم من مكامنه فما خافوا ولا نكلوا ولا انتكثت لهم مزيدة صبر ولا فل لهم شبى
عزم بل كانوا امضى شكائم وانفذ بصائر وأوثق يقينا بالعلق والظهور وطووا من هنالك
المراحل على الطير الميامين وجناح النصر محلق فوقهم موفور القوادم والخوافي تسوق
معاطسهم أرج الاقبال في مهب الصبى وءايات الفتح الكبرى تتلى سورها وتجلى صورها
واعتسف الركاب عرض هذا المجهل الطامس المعالم والآثار لا تشق الفتخ الكواسر جوه
ولا تستقل بها القوادم والخوافي في دوه اضاءت بها الشهب المسالك وثنت الحيرة

(1) 24 صفر 999 يوافق 22 ديسمبر 1590 .

عنان سراها يناغي صداهـا هـوج الريـاح فانحت على كثبانها المهيلة تنفسها ووسمت حر الوجوه بلفح حرها ومسموها وتخدى اخفاف المطى العقيـق الاحمـر مـن نجيعهـا وتغمرها بضحضـاح ءالهـا وتثكلـها افالها فتستثل بدلها رئالها الى مواردها الثماد التى تنزع ركياتها البكية وتمتاح بلالة اوشالها فلا تنفع اواما ولا تقوم برى سفر نزر فضلا عن الجيش اللهام والعسكر المجرطا لما اقتسمت بها المياه بالحسنى وتصافنها الركب بقدرما يغمر الحصاة ويبل اللهاة وينعش رحق الجياة على بون ما بين طرفى هذه المفـازة وامـتداد
79 وعثها ودهاسها * فقد ذكر بعض من تكلم على حدود الاقاليم ومواقع خطوطها ما اقتضى ان عرض هذه المفازة اخذ عرض الاقليم الثانى كله ووصف بعض امرها المهـول وخضبهـا المعضل وان السفر غير متأت فيها الا بعـد انكسار سورة القيظ واطلاع طلائع البـرد وذلك فصل الخريف وان سير البحار فيها اثناء هذا الاوان انما هو طى فى النهار ووهنا فى الليل ويقيلون فى الهاجرة قال وهذا دأبهم الذى لا يعدونه أقول قد عارض هذه العادة خارق صنع الله لامير المؤمنين ايده الله تعالى المسهل اقتحامها على مملوكه الفـتى الشهـم الليث العادى محمود باشى بمقنـب منتقـى اوان احتدام الهواجر وتوقد للرمضاء واصلا سرى الليل بتاويب النهار حسبما تقــرر ذلك ان شاء الله فى موضعه ودأبت العساكر الامامية على الاغداد فى السير اثناء هذا القفر المنتكر الارجاء ولم يغب عنهم من الله تعالى فى كل شمس القياد اسعاد فى كل متجهم انبلاج وفى كل مبهـم انفـراج يستضئـون بمشكاة الميامين والتسهيل ويتعرفون لمهـاد الصنع المنسكبة الديم فى كل لحظة واثنـاء كل سكون وحركة فما شاموا له برقا الا انهل عارض ولا ارتادوا منه روضا انفا الا رتعوه جميما وبارضايتهـم باتهامهـم وينجـد بانجادهم حدث بعـض الثـقات مـن اعيـان التجارة الذين اخلقوا بردة العـمر وانفقـوا عينها فى التردد فى هذه الطريق جيئة وذهابا وكان فيمن شيع عساكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وأوغل معهم فى هذه المفاوز انهم وردوا منها منهلا عرفه قبل ذلك ينضح برشح نزر ينزحه أول وارد وينزف مجاجته فى أربعة اسقية لا يبقى فيه ولايذر حتى خيمت عليه العساكر المنصورية فالفوه معينا عدا فوسعهم نهـلا وعللا وافعموا من مزادهم واستقيتهم ما يناهز الفا وهذا نبأ مغرق فى الغرابة لولا ما حف به من شواهد صنع الله المطرد لمولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى ونصره وهذا فى الحقيقة اذا قيس بسواه من نظمه قطرة من ركام ونغبة مـــن تيار وما عسى أن يستوعب منه مشق قلم ولا تطريز صفحة مهدق فحدث عن بحر جاش عبابه ولا حرج ولم يزل شان عساكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله شأنهم من اعمال الوخد والارقال وطى ملاءة القفار تتسلمهم تنوفه لسبسب كانما انحت عليهم ارهافا لشبابهـم وشحـذا لغرارهـم وسبكا لنضارهم وامحاضا للبابهم فالشوكـة

شوكتهم والصرامة صرامتهم يتضاعف اقدامهم فى تضاعيف هذه الشقة النازحة والنوى القذف التى غادر الوخادة الوسم وهى رازحة وتستحكم مرائد جلدهم فما فتت لهم مشقة فى

ص 80 عضدهم ولاانتقص لهم مدد ولاعدد على وثيرة ما تعودوا من صنع الله تعالى الذى لم يزل ★ يظللهم غمامه ويجودهم ركامه لا تنخرم قواعده ولاتزال تتعرف عوائده متناسب الهوادى والاعجاز متى تلى نصا لم تلتبس له حقيقة بمجاز يحكى عن بعض الادلاء المهرة ممن صحب عسكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله انهم نزلوا منهلا يدعى اتشاى على تفئة خلد صهر من اصعب مسافات هذه المفازة المتنكرة الموحشة وابعدها امتدادا المدعوة اصوادا ولم يكونوا عهدوا بالمنهل المذكور عدى ركيتين بكيتين هم ولاء مما ادركوا من سلفهم على امتداد الاحقاب والاعصار ممن استفزع فى هذه المسالك صبابات الاعمار ودأب عليها بين اقبال وادبار فما انسوا قط ان بهذه البقعة نيفا على ذلك بقياس ولا نقل اليهم فى غابر الدهور ولا ماضى العصور نقل تواتر ولا اخبار آحاد حتى نزلت عليهم العساكر الامامية فقادهم رائد التوفيق وصادق الحدس والنطس الى أن صاروا يسبرون حوالى تلك الساحة فعثر بهم النحث على أربع وعشرين ركية انحى عليها القدم وعفى معالمها ودرس رسومها وسوت كثبان الرمل بين جهاتها فاستخرجوا معينها العد ووردوا أعذب زلال فنهضت به حياضهم وافعمت به اسقيتهم وعم الرى افذاذهم وجملتهم فكان لهذا العهد اغزر مياه هذه البهيمة بعد أن كان انكرها وانزرها وافضوا منه الى ممالك الامم الملثمة المتصلة باقطار السودان فوطؤها وقطعوا هذه المفاوز من لدن الثغور القبلية الى أن وردوا النيل فى قريب من ستين مرحلة(1) فكان من التقائهم مع سكية فى جيوش السودان وأممها واستمرار الهزيمة عليه وعلى جنوده ما نصف ان شاء الله تعالى .

ذكر الايقاع بسكية جنوده

لما انتهى لسكية صاحب الممالك السودانية كان طريد سيوف مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وقتيل سطواته خبر اقبال العساكر الامامية تلقاءهم وطن بآفاقهم ذوى زحفها ومرجت لها ارضهم واهتزت هولا ورجفانا أخذ الشقى فى الاحتشاد والاستنفار من كل قاصية وشاسعة وبعث فى المدائن حاشرين ونادى صريخا فيمن تحت ايالته من أمم السودان والملثمين واستجاش اجيال اقاليم الجنوب فانثالوا عليه حشودا من كل ثنية وطاروا اليه من كل أوب امتعاضا لهضيمته وذبا عن حوزة

(1) سلكت الحملة العسكرية طريقا عرف فيما بعد بطريق جودر • وهذه الطريق تتجه من مراكش نحو لاكتاوا فى اعالى وادى درعة ومنها الى تندوف فتغازى وتاودينى فقرية كابار التى تقع على نهر النيجر غربى العاصمة تمبوكتو (ص Hespèris 1923 P. 434

ملكه وحماية لسرحه مهطعين اليه على الصعب والذلول واتوه بالضج والريح فحدث عن رمل عالج وقطر الغمام وعالم الذر كثرة لا تضبط بحساب ولا يستقصى الاحاطة بها
ص 81 التعداد * تألفت منهم دهماء احالت صبغة النهار وأوهمت الليل الديجوجي متراكم الغيهب مثلث على السهول جبالا والتهمت الهضاب واليفاع يجرون الشوك والمدر متظاهرين بالبأس والجلد موطىء الانفس على خوض غمرات الحمام وورود الموت الزؤام بين فرسان مداعسة بالسمهرية المطردة الكعوب مثقفين فروسية على المطهمة العراب مجيلي اقلام الحظ في مهارق المعارك وما شقي اسطر الطعن الدراك خطا على الجنوب والصدور وبين رماة ناشبة منكبي قسي عربية غير عاصم من رداها زعف لام ولا تنتفع الا من الشغر غلل الاوام وبين رجل بايديها قصد قنى تساجل بها وقع السهام متترسين بالباب المحكم كأنما اجتمعوا للعرض بالمحشر يحكي عن بعض الادلاء الخريت الماهر علي بن عيسى وكان لذلك العهد من اشياع العبد سكية المصطنعين لديه أن عدة ما حشد زهاء مائة الف على اربعة آلاف مقاتل وحدث ايضا بغريبة من نوك هذا المغرور انه أرهف من سطوة الاجناد المنصورية وانه لا يد لـه بمقاومة قتالهم بالنار فأخبر أنه اعد لذلك همسا بسحر ونفثا في عقد يبطل عملها ويبعث خللها وهيهات السيف اصدق انباء من الكتب وهذا من الترهات التي لا تسولها سوى نفس ذاهبة في الغباوة اقصى مذاهبها ولما تقاربت الفئتان اعترضت العساكر المنصورية غابة اشبه ملتفة الشجر صعبة المسلك من اشتباك دوحها فلم يتأت لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلكوها زرافات ووحدانا وما مرقوا منها الا وقد الفوا العدو اخذ مراكزه بحومة الوغى التي بين يديها ونظم تعبيته فعاجل العساكر الامامية بالقتال من قبل انتظام التعبية وترتيب المصاف ليفت بذلك في عضدهم فما أرهبهم منجز العدو ولا راعهم وثبتوا ثبوت الليوث الضراغم وبادر كل من العساكر مركزه والوقوف تحت رايته بما كانوا الفوا نظم التعبية وترتب المصاف والتحم للقتال وزحفت اليهم من العساكر الامامية ليوث خوادر وابطال بهم مساعير كل صنك المجال كم هتكوا اكلة القيام بمرهفات الصوارم وقدوا أديمها بالاسنة اللهاذم وتضمخوا بخلوق النجيع وادراوا أكؤس الحتف ادارة اكؤس الجريال واجتابوا السرد الجيك وسابغ اللام لايناط باحسابهم ذم ولا يشربون الماء الا من قليب دم ولاعو دوا سوى النصر مردا والتأييد عددا من كل حلب اشطر الوقائع :

ص 82 يلقى السيوف بوجهه وبنحره ويقيم هامته مقام المغفر *

فمن راضته سياسة مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله ومزنته على مئازق الجلاد وصدق المصاع كم بر بهم من ملك متوج واستخرج بهم خنزواته راسه وداس بسنابكها معطسها الاثم وغادره معفرا تحت النجوم وقنعه بالصغار والوجوم فثارت

حميتهم وجاش بأسهم وبرزوا لمصافهم على التعبية المحكمة النظام وتزاحف الجمعان فالتحم القتال وسطع النقع وضرب سرادقه على الجو وتراكم غبار البارود فسدى والحم على الافاق ليلاً أحم الجوانب وارزمت رعود النار وانقدح مارجها وانهلت على السودان حواصبها بالموت الوحي وانسجم عارضها الركام وابتدر ثنيات الوغى ونازل حومة النزال كل كمي معلم من أبطال العساكر المنصورية صادق الحملات دعسا بالقنى الخطار وضربا بكل درب الشباة فحمى الوطيس واحمر الباس واستدارت رحى الحرب الزبون حدث بعض أكابر رؤساء الاجناد المنصورية وكان ممن حضر هذه الملحمه وصلى بنارها أنه قضى العجب مما شاهد من شهامة العساكر المنصورية وصرامتهم وذلك انهم لاول ما تراءى الجمعان شدوا على عدوهم سراعا خببا وايضاعا شد الليوث على النقد والقوا كل سلاح عدى السيوف المرهفة شرى لقتال الاشقياء وانفة أن يقفوا أمامهم نواق بكية قال فصار رؤساء الاجناد يكفكفونهم كما يكفكف السيف عن الانحدار حذرا من اختلال مصافهم وانحلال نظام مراكزهم فبعد لاى وجهد جهيد مارست قواعدهم فكان الغوى سكية والاشقياء اتباعه ثبات كالجبال لرجة ذلك الزلزال وضنك ذلك المجال وتهافت حماته وأبطاله على الحتف تهافت الفراش على الذبال واستمات زعماوهم وعقلوا ركبهم كما تعقل البدن توطينا لانفسهم على الاقدام حتى لايتاتى لهم الفرار فصابر جنود مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله وعالجوا الصبر على شواظ نارهم حتى خرستهم الحرب وعضتهم أنيابها العصل فلم يكن الا كلا ولا حتى هبت صبى النصر وخفقت رايات الاقبال والظهور وصدقتهم العساكر الامامية الحرب وتدامر أبطالها وهجموا على سكية وجموعه هجوم الليوث على النعم وشدوا عليه كالصخرة الملومة فاستحر القتل فى الاشقياء وأذاقتهم جنود الله نكال الحرب وحكم الله لرايات مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله بالظهور فانكشفت جموع السودان وولوا الادبار وأجفلوا اجفال الاوابد الشوارد وتقوض منهم ليل غطى الاباطح
ص 83 واليفاع وامتدت مسوح سوادهم * على تلك البقاع بعد أن أحاطوا بالعساكر المنصورية احاطة الدار منجميع الجهات وفغروا افواههم لالتهامهم فادال الله عليهم الدائرة وانجرت عليهم هزيمة شنعاء لايلوى منهم أحد على شقيق ولا صديق حميم ونجى عميدهم الشقى براس طمرة ولجام يبادر الفوت سليب الحشاشة من الفزع قد خار الذعر حشاه اذ رءا غير شيء ظنه رجلا واستلحمت السيوف الفئة المعقودة الركب واجلت المعركة عن حصيد من القتلى مجدلين قد ضرجوا بدمائهم وضمخوا صاصح تلك البقاع بعلق نجيعهم تعفرهم الخوامع والقشاعم قد مثلوا على الارض هضابا وامتد على اديمها منهم أديم أسحم فلا تعثر قدم الا فى شلو قتيل ولا يدوس خف وسنبك الا هامة صريع كاثروا

الحصى واربوا على العد والاحصى واضحوا مثلا فى الغابرين وعظه للمستبصرين وكان قدر مصابرة الاشقياء لصلى الحرب من لدن الضحى الى قرب العصر فى كل ذلك أثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم وظاهروا أثناء هذه الغمرات بين لامة باسهم واقدامهم حتى لم يجدوا أفسح من خلفهم ولا عتادا سواه ادفع لحتفهم فانفضوا وقد أبلوا عذرا :

وما قصروا فى الذب بل كان باسهم يسد به ما بالمجانيق يثلم
لقد صبروا لو ان غيرك سامهم وقد دفعوا لو أن غيرك يقحم

وما كان ليتاح الغلب على مثلهم كثرة عدد وشدة باس ولاكن جند الله لا يد لاحد بمقاومته ومغالب أمر الله مغلوب وكان تاريخ هذا الفتح العظيم سادس عشر جمادى الاولى عام تسعة وتسعين وتسعمائة (1) فاتم الله أمره وأنجز وعده وخر عرش البغى حتى صار طللا دارسا ومحيا عابسا وجاست العساكر الامامية خلال تلك الديار واجفلوهم عن قاعدة ملكهم وحضرة سلطانهم مدينة كاغوا واحتل بها الاجناد المنصورية (2) على الطائر الميمون وأقلع عنها العبد وحاشيته يعض سبابتيه تلهفا سليبها شديدا محتملا لما أمكنه من متاعه وذخائره وانتبذ ضاحيا لمنجاته ولحين صكت هذه الوقعة مسامع أقطار السودان ذل لها شواهقها وصياصها وقذفت الرعب فى اذان ادانيها وأقاصيها وطير روساء الاجناد بخبر الفتح على النجيب الى سدة مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله فعمت البشرى والمسرة الكبرى وسرت الطلاقة والابتاج فى الخاصة والدهماء وتناغت حلبة الكتاب والادباء فى رفع قصائد التهنئة الى مولانا الامام المنصور
84 بالله أمير المومنين أيده الله وتجاذبوا أهداب الاجادة * وهصروا أفانين الاحسان ورفعوا العقيرة بها بين يديه أيده الله بين روية وارتجال فمن ذلك قصيدة لمولف الكتاب :

جيش الصباح على الدجى متدفق فياض ذا لسواد ذاك ممحق
وكانه رايات عسكرك التى طلعت على السودان بيضا تحقق
لاحت وافتهم ليال كله كعمود صبح فى الدجى يتألق
نشرت لتطوى منه ليلا دامسا اضحى بسيفك ذى الفقار يمزق
ارسلتهن جوانصا وجوارحا فى كل مخلبها غراب ينعق
وسرت وكان دليلهن اليهم مشحوذ عزمك والسنان الازرق
ولهى الليالى قد جلا احلاكها نور النبوءة من جبينك يشرق
ضعفت بهن وعود نارك صفقة رجت لصيحتها العراق وجلق

---

(1) كان ذلك يوم الثلاثاء 16 جمادى الاولى 999 الموافق 12 مارس 1591 .
(2) اعتمادا على ما جاء فى تاريخ السودان للسعيدى فان دخول جودر لكاغو كان يوم 20 رجب 999 الموافق 13 ماى 1591 .

سحقا لا سحق الغبى وحزبه فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق
جيش أواخره ببابك سيله عرم وأوله بكاغو محدق
لم يشعروا الا واسداد الردى ضربت عليهم من قناك وخندق
كتب الاله على عداتك انهم قنص لسيفك غربوا أو شرقوا
ضلت ملوك ساجلوك على العلا سفها وشاوك فى العلا لا يلحق
ان يشبهوك ولا شبيه نرى لكم فى الخلق أين من اللجين الزئبق
بشر ملوك الارض انك فاتح بالمشرفى على الولا ما أغلقوا
وبفاصل لك ذى الفقار مفرق ما جمعوه وجامع ما فرقوا
دامت طيور السعد وهى غوادر بالمشتهى لك والمسرة تنطق
ما دام ذكر علاك فى صحف الثنا أصل الفخار وكل ذكر ملحق

وقال الكاتب البارع الاصيل أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى وحاز فضل الاحسان :

بشرى تزف من الزمن المقبل لمنصة الجذل الذى لم يرحل
خطت يد السعد بمهرق يمنها مهرابه منن الامام الاعدل
المالك المنصور من فى سعده لو شاء طاعن رامح بالاعزل
ذى همة منها مضاء السيف أو منها استعير صلابة للجندل ص 85
ومن الى استبكار كل عظيمة وهولها العذل ابن معذل
النجل فاطمة وكل مفاخر فهو يفاخر ذركم بالخردل
وابن الغطارفة الالى يتازرون من الثناء بالرداء المسبل
قوم اذا لبسوا الحديد الى العدا لا يسالون عن السواد المقبل
يصبون للحرب الزبون كما صبا الضليل فى يوم بدارة جلجل
قرعت طنابيب السواد بجحفل جهزتموه فى سحاب القسطل
فرماهم بصواهل ونواهل وصواعق عن فعلها لا تسال
لولا ضياء المشرفية والقنا المجد ضل به بليل اليل
خطبت سيوفك فى منابرها مهم خطبا تذيقهم نقيع الحنظل
بزت بنى حام ثياب الابنوس اذ كستهم من ثياب الصندل
فولت الادبار مثل خنادس يزيحها نور الصباح المتجلى
من عثيم رمدت بعثير بعضه عين الغزالة فى الرعيل الاول
لولا المواقيت التى قد قدرت ما طنت على الاقطار دورة مغزل
قولوا لملك السود اذ جمحت به جهلا سوابق غيه فى مجهل

تلك العساكر عدهـا من ربهـا والرأى عند عميدهـا لم يمهـل
ان البغاث وان تكاثـر عدهـا ما شانها فى البطش شان الاجدل
لا تعجبوا من نصر كل جيوشه فالرعب بعض جيوشه فى جحفل
لولا عمايتهم فكيف الملتقى بجيوش مـن ورث الشهـامـة مـن علـي
يابـن سنـى الملـك ولاكـن ليتـه دل بمدحـك شعـره فى محفـل
كل الملـوك تصيب أو تخطـى في ءرائهـم مـن مجمـل ومفصـل
وانت سـددك اللـه متـى تـرى رايا يكـن لـك والنجـاح بمنـزل
خاضت سيوفـك من دم الابطـال اذ كلفتهـا طهـرا بمـاء المقتـل
لطفـا بهـا فكأنمـا ألزمتهـا فـي قتلهـا الاعـداء شبـه تسلسـل
عودتهـا الاغمـاد فى هـام العـدا والحكـم خـرق عوائـد لـم يحمـل
وكـل أرض قد قصـدت ملوكهـا ضاقت بهم ذرعـا بفرط تزرزل * ص 86
جلبت بنـو الامـلاك منـك بهمـة جبلت على دفع الفسـاد المعضـل
فهم بمربضكـم وكـل واحد منهـم يسمـى بمـالـك بـن مـرحـل
فاحكم علـى الملـوك بمـا تـرى مـن عطفـة أو قطعـة بالمنصـل
ودع المطيـع أميـر بعض جهاتـه يروى بماء العفو بعـذب سلسـل
ولغيـره يـروى الحديـث معنعنا ذكرى فيصبح فى سياق مسلسـل
منحتـك ابكـار الليالـي وصلهـا حتـى تنـال بهـا كبيـر مؤمـل
وتضيف ملـك مشـارق لمغـارب عفـوا كنظـم جنوبهـا والشمـال
هـاك أميـر المومنيـن قصائـد فاحـت محابـر طيبهـا بالمنـدل
بمديح أهل البيت هـزت معطفـا هزؤا بمـدح جريرهـم والاخطـل
لا زلت منصورا وسعدك راكبـا لمنـال سؤلك كل اجـرد هيكـل
وبنوك فى الملك الكبير مساعديـن مـن الالـه بالـزمـان المقبـل

وقال الفقيه النبيل اوحد الادباء ومقرض الدولة المنصورية بدر القريض أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي :

ألمت وقد ألوى على وصلها الهجر كما افتر اثر الليل عن ثغره الفجـر
وقد حل اذ لاحت دجي الليل وجهها كما نض سجف الليل عن وجهه البدر
تساقط لى در القيطـا فريـده فانجل سمع فيه عن غيره وتـر
تحدث عن مسرى سوار رمت بها مرام تضل النهج في فيحها الزهر
تحامى هواها الطير من خشية الردى قديما واعيا الريح مسلكهـا الوعـر
وجشمها المنصـور خـرس كتائـب تحمل ما يـردى فيحملـه الصبـر

تقاذفوا صبهـا بكل متـوج نمتـه الـى عـدنـان آبـاؤه الـغـر
على كل محبوك السراة اذا جرى مع الريح فات الريح من عـدوه حصـر
صوافـن ينموهـا وجيـه ولاحـق مطهمـة دهـم ومنقـورة شقـر
بمـرهفـة مـاثـورة مشـرفيـة تـؤم غراريهـا ردينيـة سمـر
غدت تحمل الموت الزؤام يحوطهـا ويكنفهـا يمـن يشيعـه نصـر
فحلت بارض السود لم يثن عزمهـا مهالك صد عـن مسالكهـا الذعـر
ص 87 ورامت بنو حام لجهـل بقدرهـا دفاعا فباتت فوق آنافها العفـر *
همى فوقها وطف المنايـا بحاصـب طوامى عبال النبل من فيضه حمـر
لقد ذكر الحبشان من وقعها بهـم وقيعة يوم الفيل لو ينفع الذكـر
كان قريشا جمعتهـا لتنتهـي الـى فخرها المنصـور فهـى لـه ذخـر
الى ملك ما شـام فارقـة الظبـى علـى ملـك الاوحـاق بـه القـر
الى ملـك لم يهـد حـد سنانـه الى مـارق الا ومـورده النحـر
الـى ملـك لـولا لـوامـح رايـه لما لقحـت حـرب عـوان ولا بكـر
من النفـر البيض الذيـن اكفهـم هواطـل والافـاق مظلمـة غبـر
اذا ما احتداها المعتفون تبجسـت فتفعل في الافاق ما يفعـل القطـر
ترى الارض تهتز ارتياحا بما همـى على كل واد فيض نائلهـا الغمـر
هم الصفوة المحض التى لم يشب لها الى الجدم اسماعيل فرع ولا نجر
لها قصبات السبق في كل محفـل اذا استبقت يوما كنانـة أو مهـر
فللـه بيت شـد أطنابـه اعلـى الى فلك الجوزاء شيبـة أو عمـر
وبـواه وفـد الرسالـة واهتـدى بالجمـة في كـل داجيـة سفـر
ايا خيـر من ام القريـض فنـاءه واعمل في اطـراء أوصافـه الفكـر
هنيئا أمير المومنين فقد مضى على كل من ناواك أسيافـك الدهـر
لئن اسلمت ارض الجنوب مقادهـا فعن كثب تلقـى مقاليدهـا مصـر
وتزور زوراء العراق فتهتدى اليكم واعنـاق العـدا خضـع صعـر
وتخفـق بالـوادى المقـدس رايـة عليـك وتهوى فيـه الويـة حمـر
فدم لفتـوح يستحث لنيلهـا الـى كل قطر منـك ذو لجـب مجـر

وكتب (1) ايـده اللـه الى الجهـات والاقطار من ممالكه بالفتح وانهاء البشرى بما

(1) يقتضي الترتيب الزمني لتطور الاحداث الانتقال الى الصفحة 48 من المخطوط ، وقد تنبه المؤرخ الزياني الى نفس الملاحظة وسجل على هامش صفحة 48 الملاحظة التى اثبتناها من قبل .

أفاء الله عليه من هذا الصنع الجميل والمن الجليل من انشاء مؤلف الكتاب والرسم فى العلامة الكريمة على ما وصفناه ءانفا ونصه بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين بن أمير المومنين ابن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيز
ص 49 نصره أوامره وظفر عساكره ★ الى الشرفاء والفقهاء وكافة الاعيان من أهل كذا اسمعكم الله من البشائر ما يملا صدوركم ارتياحا ويغمر قلوبكم انشراحا ويوسع أرجاءكم واكنافكم فى ظل الامنة انبساطا وانفساحا سلام عليكم ورحمت الله وبركاته اما بعد حمدا لله الذى شرف ملة الاسلام على الملل والدول القرشية على سائر الدول وخصوصا الدولة الحسنية التي جعل الله بيض سيوفها الفاطمية قاهرة لاعدائها الصفرية وعبيدها السودانية وصدع بأنوار خلافتها النبوية دجنه سوداء طالما نعق غرابها منذ حام ووصل بدعوتها الشريفة بين سام وحام والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى خفقت أعلام هدايته على الربى والاكام وكاثر بئاياته الباهرة كنهور السحاب ومثعنجر الغمام والرضى عن ءاله خير ءال سادات الاقيال وءاساد الاغيال خلفاء الاسلام وورث بالعدل وشرف الخلال وايمة الخلق الذين ذيلوا معالم النصر بالاكمال وفتحوا الاقطار على التوال وعن أصحابه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده بالسيوف والنصال وواصلوا فى اعزاز ملته ونصرة دينه البكر والاصال ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلى الاماد النبوى المنصور الاحمدى بنصر يكفل الاسلام وعز يخلع جماله على الايام واتصال البشائر تستخدم في نشرها المحابر والاقلام فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم من البشائر أسرارها الى النفوس امتزاجا وهداها الى الارواح مسرة وابتهاجا واقطعها فى الافاق سبلا فجاجا وارقاها الى السبع الطباق سموا ومعراجا من حضرتنا العلية مراكش حاطها الله وبركة هذه الامامة الكريمة تستمد الاقطار من مقاسها وتروى رواية الافادة والابادة من ضحاكها وعباسها والفتوحات الربانية تحتفل الملائكة لولائها واعراسها فله الحمد على نعمه التى لا يحيط الوصف بأنواعها وآجناسها وعنايتها التى تضرب بعصاها الصخرة الصماء ممن عصاها فتبادر بانفلاقها وانبجاسها لله المنة هذا وقد علمتم فسح الله أملكم وواصل أسباب الخيرات قبلكم ما كان من تجهيز عساكرنا المظفرة بالله الى بلاد السودان لافتتاح القاصى من ممالكها بحول الله والدان وما كان من عظيم احتفالنا لذلك بما لم يعهد مثله ولا سلف لاولى الحزم من الملوك بعضه فكيف كله من انتقاء العساكر والاجناد وأسود الحرب الذين دربوا على الطعن والجلاد ومعانقة السيوف والصعاد من كل أبناء حرب شرف فى انساب الوقائع جدهم ويرد الجموع الصحيحة الى
ص 50 التكسير مزدهم وامدادهم بما لايحصى عددا وكثرة ★ وبما لا مزيد فوقه بسطا وقدرة من

قوة الظهر وصواعق الحرب التي تفرق لها صروف الدهر وغير ذلك من كل ما يقتضيه الحزم ويبعث عليه العزم ولما تكامل بحمد الله هذا الاحتفال والاستعداد واخذت اهبتها العساكر والاجناد وأقلعوا في الالوية وساروا على التعبية ونصر الله تعالى يظللهم غمامة وتتراءى لهم ثنية الاقبال أعلامه وتخفق عن يمينهم وشمالهم راياته وتبدوا لهم في كل حركة وسكون اياته هذا وما كان يخفاكم ما سلف هنا بالمغرب من الدول العظام وممالك الاسلام ومع هذا فما كان أحد منهم ليروم فتح هذا البلاد بسيف أو تتطاول هممهم الى اغزائها ببعث ولا زحف أو يسموا أنفسهم بالمقدرة عليها وعلى الصمود بجنودهم اليها والحالة انهم أضخم ملكا واعمالا وافسح خطة ومجالا واوفر نفعا وأوسع أحوالا مما كان يشقهم وينفقون فيه أنفسهم وأموالهم ويستغرقون معاناته طول أيامهم بكرهم واصالهم وما ذاك الا بعجزهم عن مقاومتها وعلمهم من أنفسهم عدم القدرة على مصادمتها وانها عند جميعهم غيل لايزحم وعريسة لاتقحم وحسناء آبية لانتقاد العنقاء تكبران تصادلان البلاد كما علمتم قد توغلت في الجنوب الى أبعد الاقاليم من المعمور واعترضت دونها من القفر وسرابه المتموج بحور وصحارى تضل القطافى مهامهها الفسيح وتكل في جوب عرضها بل بعضها سوافي الريح كم اغتالت من أمم غولا وترد من حر الاوام وعولها وكم افنت من خلق جيلا فجيلا والقت على الرحال وأهلها كثيبا مهيلا تغلى من رمضائها الرءوس وتذوب من حميمها النفوس وتنزل شمسها على الهام حتى تكاد تلمس باليد ويشتبه على الخريت فيها اليوم بالغد لا ماء ولا شجر ولا ورد ولا صدر الا شرابا يعشي العيون ويقرب المنون واجاج يغلي في البطون كغلي الحميم وهو اجر يصلى الناس من حرها الجحيم حتى ظن بذلك أهل السودان ان سربهم من أجل البعد والمفاوز المعترضة دونهم لا يراع وليلهم الديجوجي لا يرجى لفجره انصداع وحماهم من هذه المشاق لا يطرق ولا يحام وبلادهم حتى بالوهم لا ترام فاستخرنا الله الذي لا يخيب من توكل عليه ولجأ في عظائم الامور اليه واحتفلنا لذلك بما يليق من الاهبة والاستعداد وبنينا الامر من الثقة بالله على أوثق عماد فجهزنا جنود الله تلقاءهم في عساكر تحمل الاسل والنار واسودا تانف الدنية والعار فخاضوا اليهم بحار الال وصابروا في قطع الشقة البعيدة عظائم الاهوال ولما شارفوا البلاد وهم على ما كانوا عليه بحمد الله من شدة الحزام وسل الحسام لم تضعف لهم والحمد لله شدة ولا نقص منهم ما كابدوه من المشاق عددا ولا عدة زحف الشقى بكافة جموع السودان وحشودها وطلعوا في الجو حنادس واقبلوا اقبال اليل
ص 51 الدامس فالتقى * الجمعان على ثلاث مراحل من كاغوا فأحدق منهم بعساكرنا المؤيدة بالله سواد لا يحصيه الا محصى الخطرات والانفاس ومن احاط علمه بالانواع والاجناس فدارت رحى الحرب ووقفت على ساق وارعدت رعود نارنا فرجت من صعقتها الافاق فثبت الاشقياء

لزلزالها ثبات الجبال الراسية واقدموا من الشدة والصبر على الموت اقدام الاسود الضارية لا تثنيهم صوارم ولا اسل ولا يعرفون ما الخوف والوجل يتهافتون على النار من كل جانب تهافت الفراش على الذبال ويتسابقون للسيوف والصياد تسابق الجياد في المجال مع كثرتهم التي ذكرت بالحشر الثاني حشرها الاول ومغالبتهم كانت لذلك من قبيل المحال لولا الثقة بالله سبحانه وتعالى وعونه الذي كان عليه المعول فلم يكن الا ان هبت ريح النصر والظفر وجاء نصر الله الذي هو لراياتنا حليف في الورد والصدر فانكشف الشقي وجموعه وولوا الادبار وركبتهم الاسنة والشفار وفضتهم جنود الله فضا يهز الجبال زلزاله وتصيب النواصي اهواله واستمر القتل في الاشقياء وتركتهم سيوفنا الهاشمية حصيدا بالعراء ونفل الله عساكرنا ذلك السواد وكمل الفتح بحمد الله بالاستيلاء على البلاد وانتظام ممالكها في سلك الطاعة والانقياد والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين ولما استوى القدم بعساكرنا وفرها الله في البلاد واصبحوا في دنيا لا تفي العبارة لها بكنه ولا تعارض بشبه ولا نظير لها في الارضين بوجه ماشئت من ممالك متعددة الاقطار متنوعة الاوطان والاوطار جمة المرافق والفوائد ومألف الوافد والرائد لا تحد بغاية ولاتدرك لها نهاية محشر الامم وبستان العالم ومدرج الذر من بني ءادم وملك ضخم لا تصل اليه الهمم لولا عنايته التي لا تقاوم وناهيك بممالك يخترقها بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه الرحمة تسقيهم النهل والعلل بحجة ويجبى اليهم الثمرات والخيرات بثجة الى اسواق تزخر بالنعم واتصال عمران كالعقد المنظم وبالجملة فهي غريبة لا تثبت الا في الحلم وموهبة لا يفي بشكرها لسان ولا يحيط بوصفها قلم وما عسى أن تبلغ العبارة فالامر اضخم والحال أجل وأعظم ولقد اجتمعت اليوم بحمد الله بانتظام هذه الممالك كلمة الاسلام وارتقى الامر بحول الله الى الكمال الذي دل منه حسن الابتداء على حسن الاختتام ولم يبق بحول الله الا صرف العزائم الى جهاد العدو الكافر وان تدور عليه من سطى الاسلام بحول الله الدوائر حتى نغزوه بجنود الله في عقر دياره ومحل قراره ويعلوا حزب الله على حزب الشيطان وانصاره بعز الله وتأييده ولما طلعت علينا بهذا الفتح العظيم طلائع البشرى والمسرة الكبرى بادرنا تعريفكم بصنع الله ★ فيه الهني الغريب واعلامكم بحديثه الحسن الغريب لتقدروا ص 52
صنع الله فيه حق قدره وتقبلوا بحمده سبحانه على هذا المن الجسيم وشكره فانه فتح لم تلد مثله الايام ولا عوهد فيما سلف من دول الاسلام ولا علم نظيره فيما تقادم من الاعصار ومضى من الاعمار بما جمع من هذه الممالك العظيمة التي لم يشتمل عليها ملك ولانظمها سلك وان خبيئته في طي العصور السالفة الى هذه المدة الكريمة والدولة الجليلة العظيمة لدليل على عناية الله بشانها بما اظهر على يدها من خوارق العادة وجمع على

عهدها الكريم من هذه الممالك المنتظمة في سلك الانقياد انتظام القلادة فاشكروا الله تعالى على هذه المفاخر التى اذخرها لعصركم وأظهر بها ءاية انجادكم على الاعادى ونصركم واغتبطوا بما خولكم الله من هذه البشرى والمسرة الكبرى اتم اغتباط وتأخذوا بحظكم فيها من السرور والانبساط واتخذوا يومها الاغر المحجل عيدا ومهرجانا واقيموا لها سوقا من البسط نافقة سرا واعلانا واستشعروا عاقبة هذا الفتح العظيم فهو بكل خير شامل ان شاء الله كفيل وعلى ما وراءه بحول الله من الفتوح المتوالية عنوان ودليل وقيدوا نعم الله لديكم بالشكر للنعم قيد وعقال وعصمة بحول الله تومن من الزوال والله يكلؤا جميعكم فلا رب غيره ولا خير الا خيره والسلام وفى ليلة الجمعة سابعة شعبان المكرم عام تسعة وتسعين وتسعمائة(1) .

ذكر ارتجاع العساكر من كاغو الى تنبكتو وما تخلل ذلك من الاخبار

لما استولت العساكر الامامية على مدينة كاغو دار مملكة الملك السوداني وقاعدة ممالك سنغاى ومركز الدائرة من تلك الاقطار ورسخ بها قدمهم ورست فى ارضها قواعدهم اشرفت بافقها انوار الخلافة العلية وسطعت بجوها انوار الامامة النبوية فمزقت باشعتها سدف البغى الذى طالما قد لبست منها اطمارا خلقه واختالت فى ملاءة العزة القعساء وطويت عنها بزة المهنة طى الرداء ونزعت من قليب السعد بمفعم غرب واحصف رشاء فجليت عقلية غيداء واستقل جدها العاثر فبينا هى فى التراب فى درك اذ انافت على الاوج فى فلك واضحت خيسا لكل ليث مشبل من ابطال العساكر المنصورية وفجر عواليهم ومجرى سوابقهم فابتهجت ارجاؤها وزهيت اعطافها وشنفت الدعوة النبوية مسامعها فدار بها نطاق الرحمة وانهلت عليها مياهها وخيمت بها العساكر الامامية والقوا بها عصا التسيار واعتاموها دار قرار ثم الفوها مستوبئة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة الا بشرك علاج ولا يستشعر بها برد الصحة الا من الف جوها
ص 53 ودب من وكرها * وربى فى افقها واما الوارد عليها فقلما سلم من عادية وخامتها الا بعد استحكام صبغتها ولبس جلدتها فطرقتهم بسبب ذلك الوعك وسرت فيهم الاسقام ودبت فى جميعهم أو كادت الاوجاع والالام وحذروا مغبة استيلاء الالام على جميع العساكر فلم يكن لهم حينئذ مندوحة عن ارتياد بقعة سواها وادالتها ووافق ذلك ارسال العبد سكية اليهم والقاء نفسه عليهم نزوعا منه الى السلم وتأميلا للخلاص من الهلكة التى ارتبك فى اشراكها واشرف على مهاويها واستبقاء لرمقه ودمائه التى بلغ التراخى ورما زعم لبعض بنابة التى تقوضت اركانه فتطارح على العساكر الامامية وبسط كف الخشوع

(1) الجمعة 7 شعبان 999 يوافق 31 ماى 1591 .

والرغب الى قائد العساكر مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله جوذر باشي ورؤساء الاجناد في تقبل فئة على خروج ثقيل يضرب عليه التزمه مسانهة وتحمل عبئه ونظم نفسه في خول مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وعبيد جلاله الباذخ وقدم بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين تشتمل على عشرة ءالاف مثقال ذهبا ومائتى من الرقيق وانبرم هذا العقد على شرط القبول من مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وامضائه لعقدته وان المصير لرأيه الكريم فى رد وقبول فانكفأت حينئذ العساكر المنصورية اثر هذا العقد صارفة الوجهة الى تنبكتو(1) وخيموا عليها وطيروا شرح هذه الاحوال(2) الى سدة مولانا الامام المنصور بالله امير المومنين ايده الله وتلوموا ينتظرون جوابه الكريم ليستضيئوا بقبس رأيه السديد فى مدلهمات الامور فثابت اليهم صحة أبدانهم وتراجعت قوتهم وذهب عنهم وعث السفر واخذوا فى التمهيد وتسكين الشارد وتأمين الطريد وبسط الهدر وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستنشة فى مجال القلق واستقرت الافئدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذى ملأ احشاءهم وازاغ ابصارهم واشكت لرجبه مسامعهم من اجل جدة الدولة وثقل الوطأة وجلال السلطان فى خلال ذلك ثاب لقائد العساكر الامامية المنصورية الفى الشهم جؤذر باشي مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله رأى العمل على شاكلة أولى الحزم والحياطة للامور فاعتمل فى انشاء الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى خلال مدة انتظارهم لرجعة جواب مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله مخافة ان يفجئهم الرأى الكريم بنقض ما ابرموه مع العبد سكية فيجدهم ذلك على اوفى أهبة واتم استعداد لغزوه والانقضاض عليه بجوارح الاساطيل الامامية السريعة الطيران وقد كان العبد
ص 54 الشقى لاذ بغير منجاة من الرأى * الفائل ودفع بكيد ضعيف وتدبير نكسى رعديده فجمع أقاصيه وأخذ بزمام سفنه على العبور والاختلاف بين جهتي النيل فى اجتلاف المرافق ٠

يريد(3) ان يفث بذلك فى عضد الاجناد المنصورية فشمر مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله قائد العساكر جوذر باشى المذكور لابطال كيد العدو وجمع

(1) ذكر صاحب تاريخ السودان أن دخول جودر تنبكتو كان يوم الخميس 6 شعبان 999 الموافق 30 مـاي 1591 ٠

(2) حمل اخبار المفاوضات التى جرت بين جودر واسحق الى المنصور بشوط على العجمى كما اكد ذلك صاحب تاريخ السودان فى صفحة 146 ٠

(3) يقتضى الترتيب الطبيعى لسرد الاحداث الانتقال الى صفحة 114 ٠

العملة ارباب صناعة السفن لما قدمنا أن مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده
ص 115 الله قد امدهم بثالتها وارباب صناعتها فما مضى غير برهة حتى * شأوا رجلوا فى شأو صنعها واخترعت فى نهاية الاحكام ونباهة الشكل فكانت سفن العبدى اخذت بطرف نقيضها قماءة وصغر قدر وتفاوت شكل فتسنم كتد اللج منها واستقل على غوارب اليم هياكل ماثلة قد البست مدارع القار واذلعت الى الماء السن المجاذف وارسلت فى النيل ارسال الاجادل المنقضة تقطع انفاس الرياح شدا وتستقل بالفيلق الجم والاوقار الثقيلة من البضائع فاغرقت تلك الامم الهمل فى مذاهب الاعجاب اذ كانوا لانتباذ الدار وشط المزار لم ينتشقوا لرسوم الملك نسيما ولا وقف بهم على معالمها وخدولا رسيم وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها وارتاع لها اقاصيهم وادانيهم وايقظت اجفانهم من سنة الهدوء وطرقت البائقة مضاجع امانهم وايقنوا أن لا محيص ولا فوات:

أين المفر والالاه الطالب والاشرم المغلوب ليس الغالب

ولما انتهى الخبر لمولانا المنصور بالله أمير المومنين أيده الله ووعى جلية أمر عساكره المظفرة بادر لاملاء أجوبة خطابهم وتجهيز الامداد اليهم ونقم عليهم التنفيس من مختنق العبد سكية والافراج عنه من بعد استلابه من بزة عزه والاستقراء على دسته والحصول على كرسى ملكه وعرفهم بما فى ذلك من اعادة أمره جدعا وان ذلك يثيب اليه قواه ويلم من شعثه المبدد وعراه المنفصمة وبقدر ذلك يفت فى أعضادهم ويوهن عزائمهم ويركد ريح صيتهم وغاية الامر انهم ان استوخموا البقعة وانكرهم هواؤها يصحروا قريبا منها فى مخيم يرتادون فيه صحة الهواء فيسلموا من عواد الاسقام ولا يخلون بمصلحة وقرعهم بالتوبيخ على ما اتوه وصب على أمراء الاجناد سوط عتاب ونقض عرى صلح العبد ونبذه وراء ظهره فرجع بملء العيبة من الحسمة وهيهات الصيف ضيعت اللبن ولشد ما أغفل الامر السديد والرأى الحسن فندم حيث لاينفع ووقع أيده الله للعبد ببنانه الكريم على ما بعثه من الهدية ورام من الصلح بقوله تعالى اتمدونني بمال فما ءاتاني الله خير مما ءاتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون يالله من توقيع يقلقل رضوى وثبير ويرتد له طرف كل مصقع بليغ خاسئا وهو حسير فانظر الى هذا المنزع الكريم وتطبيقه لمحز الاجادة واصابة شاكلة الصواب فأى هاجس يحوم على هذا المرمى البعيد وأى ثاقب فكر يغوص على هذا الدر الثمين وأى سقط دكاء يستضيء بأنوار هذا المقتبس الاخاطر مولانا الامام
ص 116 المنصور بالله أمير المومنين أيده الله المقتبس من أنوار النبوءة ومشكاة * الرسالة المحمودة بصيب التقديس المغدق السقيا بمياه البلاغة المشتعل الذكاء المتوقد جمرة الفطنة والدهاء فهو أيده الله فى هذا المضمار وسيوفه عن الاسلام ذائدة ودامغة وحرس ذاته الكريمة

من كل عين لافغة ثم كان من استئناف الامر من أوله وفتح البلاد فتحا ثانيا ما نذكر ان شاء الله تعالى .

ذكر انتهاض محمود باشا بالعساكر لمعاودة فتح البلاد وتدويخها والايقاع بسكية وجموعة الوقيعة المقوضة لركن الدولة .

قدمنا ما نقم مولانا المنصور بالله أمير المومنين أيده الله على عساكره من الاجابة الى صلح العبد والافراج عن كاغودار ملكه وانه لما بلغه أيده الله ذلك قام له فى ركائبه وقعد واعتنق الامر من أوله وجرد مقينا خفيف النهضة من ابطاله وكماة انجاده وعقد عليه لمملوكه الفتى الشهر مدره الحروب وصفات الوقائع والحية الرقطاء والاسد الرئبال المتخمط نجدة وشهامة واقداما وحزما واعتزاما الغضنفر البهمة ومجلى الخطوب المدلهمة فحل الكفية وسابق حلبة الممالك والموالى بدار الخلافة العلية المهذب باداب السياسة الامامية المفرغ فى مصفات ترتيبها وتدريبها القرم الباسل محمود باشى مملوك مولانا الامام المنصور أمير المومنين أيده الله فأفرغ ايده الله منه الادات على الكمى وشحد منه عزائم نفذ من الحتف على الاعداء وعزل به مملوكه جوذر باشى عن ولاية العساكر ببلاد السودان وكتب له بملاك زمامها وأوعب تجهيزه بالمال واحتمل أكثر خراج اقليم درعة وخرج بلاد تغازى كله وشدازره بمولاه الصدر الكبير النجد المضطلع الشهم الحزامة والنجدة واصالة الرأى فى الامور ترب الكفاية المشحود الغرار بمبادر التجريب والحنكة والمصطلى بنار الوقائع صاحب فتح اقليمى توات وتيكوراريں والممض لعذرتهما القائد الاصيل أبى عبد الله محمد بن بركة عتادا للشورى وعضدا على الاستقلال باعباء الامور فقوض من الحضرة واستقبل خوض المفازة اللواء والمجهل البيداء أثناء فصل الصيف عند اشتعال نار القيظ واحتدام الرمضاء واشتداد وهج السموم فأغد السير ووصل الاسئياد بالتاويب لايلوى على من تعذر حتى خلص منها خلوص البدر من السرار وانصلت من
ص 117 غمارها انصلات السيف من القرابة فى برهة خفيفة لم تزرأه عقالا فيمن نقيبه مولانا ★ الامام المنصور بالله امير المومنين ايده الله وسعادة جده وهذا أغرب ماثور وأعجب حديث مذكور وباقل من ذلك بذكر سليك بن السلكية دعار العرب ومصاليت صعاليكها الذين دربوا على خوض المهامه وجوب القفار اذ هى مساقط رءوسهم ومنبعث نبعتهم فضلا عن هذا الفتى الذى نشأ فى كنف الخلافة واكنته ظلالها ولم يتمارس بشق المهامه ققفات فيها القطى اهتداء وراكب فيها النكب الهوج وجرى فيها طليقا لم يلز فيه بغبر النعام الربد واوبد الوحش وهى الهمم الاحمدية لو رام بها الشعرى لحق والعزائم التى لو صرفها للبحر لانفلق فلم يك الا برهة حتى الم بالاجناد المنصورية المام

الطيف (1) فشب لهم الامل وشـد ازرهـم وشحذ بصائرهم وازاح علنهم فمضوا عـلى غلوائهم ولبى منهم نداءه سميع مجيب سابقوه الى مطامح همه البعيدة فأرعب بهم التجهيز وشحن الاساطيل بحرا وجر الكتائـب بـرا وسار تلقاء عدوه على أيمـن طائر واسعـد قارن والنصر باسم الثنايا والفتـح قد اثلـع جيده وتطلع محياه بين براقع البنود ولحظ بأعين الاسنة الدرق ونطق بألسنة السيوف الحداد فطووا المراد تلقاء وجهتهم المباركـة يؤمون مدينة كاغو وتوجه اليهم العبد سكية أوعب ما كان وفـور حشـوده وآتى بقـض وقضيض واغتر بما جمع من سواده الطغـام الذين أسلموه لوباله ولـم يغنوا عنه مـن الاشياء وكان الغوى لم تندمل كلومه وعلـى خبرة بكلال ساعده عن مساورة باس العساكر الامامية ولاكن أصغى لترهات أوحى بها اليه بعض شياطينه وزخرفها الاغمار من أوليائه الاخذين بحطامه الى عزائمهم قد نكث الوهن قواها وفل من شكائمهم فرام أن ينتهز فرصة فكأنها وطلب ثارا فما عدى أن ازداد ضغثـا على ابالة واني أن ينتاش فريسـة نشبـت بين الناب والظفر من أسد وزاد فسار يريد لقاء الاجناد المنصورية كلما تقدم فترا تأخـر ذراعا وكلما أقدم قيد شبر نكص باعا يتحامل على الاقدام تحامل الهيط ونظره الى منجاته ويستحثه السرى من أمام وهواء الى خلـف طلب لافلاته والدعر يمسكه ويرسله والروع لم يقمه ويقعـده فما هو الا أن أطـل علـى العساكر المنصورية فلاول جولـة حن الـى الفراريس النيب ونكص على عقبيه مدبـرا ولم يثبت له فى موقف الجلاد قدم ولا حمل قلبه الضلوع ضررا فولى بسعى مخفق يقرع سن الندامة واستمرت عليه هزيمة شنعـاء تجلل صغارها وشفـع بها الاولـى وأجلت الملحمة عن عديد من كماته وابطالـه قتلـى مجندلين تنتاب العوافى أشلاءهم أحاطت بهم دائرة السوء وجنبـوا لمصارعهـم وقادهـم
ص 118 تدبيرهم لتدميرهم فاعتاد الشقى ★ مـدد النكد ومرى اخلاف رووس وكلما هم أن يقدح للاقبال زندا شح سقطه فلوى العنان تلقـاء كاغو والعساكر المنصورية مبتوته السرايا خلفه تمزق أديمه وتنوش اشلاءه ثم التحقوا به ثالثة انهزامه وهو يعثر فى ذيول الفشل ويتميح بلاله صبر ناضب الوشل وانكفا عليه تيار العساكر المنصوريـة فانكشـف لاول طليعة هو وفله ومر بصفقته الباتره وكرتـه الخاسرة يبادر الفوت لمنجاته (2) وقـد كان لما صرف الوجهة تلقاء الاجنـاد المنصوريـة سولت له نفسه من عمل العزم أن أمر باخلاء كاغوا ونسف أقواتها ولم يدع بها عدى نزر من عجزة الرعايا فتركها أقفر من جوف عيـر

---

(1) حسب المؤرخ السودانى فان محمود باشا قد وصل الى تنبوكتو يوم الجمعة 26 شوال 999 الموافـق 17 غشت 1591 .

(2) اعتماداً على ما أورده السعيدى فى (تاريخ السودان) فقد التقى محمود واسحق فى سهل بنب شمال النيجر بين كاغو وتنبوكتو يوم الاثنين 25 ذى الحجة 999 الموافق 14 اكتوبر 1591 .

خاوية على عروشها نظرا شدبه فيما زعم أواخي العزم قطعا لارفاق الاجناد المنصورية وأخذ بحجزهم عن ترف صبابته البقية وهيهات لن يغنى كيد فيمن أمد من الله بأيد وظاهرته الاقدار العلوية في حل وعقد وكانت الاساطيل التى اتخذت سبيلها فى البحر ألقاها اليم بالساحل من كاغو كما تبرز للرفش الصلال من احجارها فأرسلت على نفق الشقى المخذول فانكفا اليها فألفاها تتلمظ فاغرة أفواه الحتف اليه جالبة أسباب الحين عليه فرجع بخفى حنين واسلمه الحمام الى الحمام وولاها وراء ظهره ملء الجوانح أوصابا واللهوات علقما وصابا فامتطت الاجناد المنصورية صهوة كاغو عقوتها ووجهت منهم ضالة سعدها التى طالما كانت لديها منشودة وسكن حنينها المتصل لدن اقلعوا عنها فهشت لتطلع طلائعهم وسرى البشر والطلاقة في محياها واعتاضت من العي رشدا ونظرا في سد فرجها وتثقيف أودها فعصبوا مفرقها بولاية المتقض لعذرتها الفتى الشهم ،رغم معاطس السود عند الصدمة الاولى جوذر باشى مملوك مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله مشدود الازر ،راش الجناح بمولى أمير المومنين الصدر الكبير الشهير الصيت فى النجدة والغناء القائد أبى عبد الله محمد بن بركة مع حصة وافرة من عساكر الرجل والرمات حماية ورده للعدوان يخالفهم اليها وتصاعد محمود باشي مع النيل فى بقية العساكر اثر العبد سكية امعانا فى استيصاله وقطعا لندابره وكان المخذول امن من الاتباع توهما أن الاجناد المنصورية تشغلهم كاغوا عن النهوض في أثره ولم يدر :

ان الاسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فمشى الهوينى وما راعه الا هجوم العساكر عليه وراء كاغو فأوقعوا به هنالك وقيعة قضوا بها سواده وركب ديدنه فى الاجفال وهيهات أن يقيه فرار الا آن يحل ص 119 بيلدة لا يهتدى * اليه فيها نهار فكانت هذه الهزيمة احدى الكبر القاصفة لتمامته وفر بنفسه اللئيمة الفرع والارومة وافلت بها من شرك الحتف الناشبة بعد أن كادت ترءاسلا مرارا ولكل أجل كتاب وانتهت العساكر المنصورية الى القاعدة الشهيرة الصيت المدعوة كوكية وقطع الشقى هو فرصة المجاز من النيل لعدوته القصوى فكان من اجلاب العساكر عليه هنالك ما نذكر ان شاء الله تعلى .

ذكر اجلاب العساكر على سكيه بمنتبذه من وراء البحر

كان سكيه لما أوقعت به العساكر جهضوه عن كاغوا ثم اجلبوا عليه ثانيا فاوقعوا به وراء كاغوا أجفل اجفال العير امام الاسد وتخطى النيل الى ما وراءه واتخذ خندقا لاذ بسياجه وأمل الاعتصام به من مساورة القساورة الغلب من الاجناد الامامية ولم يعلم

أنه لوصل عقوة لاتنحطه فيها مقل الشهب لانقضوا عليه من جوها انقضاض الجوارح المقتنصة للمهج من بين الجوانح وكانت فرصة المجاز من هنالك صعبة المسلك تهوى بها جرية النيل من أعلى الى أسفل ويصب منها تياره صب الميازب مع ما أضمره ضخضاخا من الحزونة والوعث العادية التي ترد جميع الاساطيل الصحيح الى التكسير مع ما عليه سفن مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله أيضا من ضخامة الشكل فجريها المستحكم في غمار المياه ورسوبها على ضد ما عليه سفن العبيد فانها تطفوا على سطح الماء كالقذات لضعف تاليفها حسبما ذكرنا وارتسم للعبد هذا الخيال الفاسد فرقع سرحه في مرعى الامان وغفى جفنه الشاهد تحت افياء الاغترار فقيض الله لاساطيل مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله أحد الملأحين المهرة من العبيد فدلهم على المعبر ونفذ بهم من ذلك المضيق فبغتوا العبد بغتة الحمام وأيقظوه من خمار سكرته وسقط في يده وشام بارقة البوادر ودهمته داهية صيلم فانفضت خدمة عشرته العاثرة ونبذه أوباشه وغوغاؤه وأسلمه أشياعه وسيموا من النكبات التي تشاوشهم والوقائع التي توالت عليهم واستحصدتهم وكان ممن انخزل عنه في هذه الوقيعة أخوه في نحو من ثلاثمائة من اخوته ووجوه عساكره ورؤساء دولته فكان من خبره وخبر الايقاع بسكية واستئصال شافته وتشريده لارض الكفر ما نذكر ان شاء الله تعالى .

ذكر استئصال شافة سكية والاستيلاء على البقية من ذخائره وأمواله وافلاته الى أرض الكفر محل اغتياله ★ . ص 120

لما انخزل أخو سكية عنه كما قدمنا في حصة من اخوته وأهل دولته راسل رؤساء أجناد المنصور ليصل يده بأيديهم موريا بالمظاهرة على أخيه وهو انما يسر بذلك حسوا في ارتغاء ويبدى غير ما ابتغى ويروم التقاف الكرة من يد أخيه ودحرجتها اليه لصولجان المماكرة والمخادعة يحاول بذلك اجتناب شارة الملك وافراغه على عطفه لما قدر من خلو الجو بتنحية أخيه وانها فرصة ينتهزها وفارك ناشز ابدت اليه حنينها ولم يدر لاية علة تركها أخوه لها خلفها سخين عين فائضة يجود برمق نفس فائضة وما فارقها الا بحب الغارب والذروق وقد كان أقوى أيدا وأبسط يدا ولما بنى هذا الغبي أمره على هذه المكايد المنحلة العزائم المختلة المبادى والخواتم جأجأ بالعساكر المنصورية وقلب ظهر المجن لاخيه وأظهر لهم الادهان وامحاض نصح شف من ورائه ما طوى من دخل ورام الاصطياد تحت أجنحة العقبان الكاسرة ونازع في فرائس الاسد من بين أنيابها الكاشرة فصار مافون الرأى مخفق السعي ولما أمكنت العساكر هذه الفرصة

بادروا اغتنامها ووطئوا هذا الغبي على ظواهر حاله وكالوا بالصاع الاوفى من مماكرته ولكل امرىء ما نوى فجرد واسرية اعتماموا فيها الكمات اليهم من كل دمر أغلب ذى لبد هربت الشدق اسئار الحروب واظئار مئازق الجلاد بين معتقلى الرماح ومقلبي اقلام الخطية في أسطر الكفاح على الجرد السلاهب المطهمة العراب تنقض أسنتهم على ثغر الاقران انقضاض النجم المتكدر اثر المردة وبين فئة للرجل للرمات المساجلة بحواصب المنية الواء الغيوم الذين لم تزل آثارهم في جباه الوقائع مسطورة وملاحم الكفاح بصيب بأسهم ممطورة يقدمهم كمن من انجاد الحمات طالما حلب أشطر الدهم وبني ناب الوقائع عرفناته غمزا وتحجما مدفوع للعظائم وصدع صفاها وفل غربها وشباها يدعى قاسم روادى الاندلسي فكان هذا الجيش المنتقى بما جمع من الحمات والابطال لو تالبت عليه أجيال الامم الحامية وانكفأت عليهم أقطار السودان بكل أسحم الجلدة لاستلقوا بحول الله باعباء حربهم أجمعين ولجرعوهم صابا بعلقم حتى يحيطوا بهم دائرة البوار ويهب لهم عليهم عاصف القلب وسارت السرية على الطير السانح وعزم يبسم عن ثنايا الامل الناجح متوجهين تلقاء معاطبهم كاس المظاهرة اخي العبد سكية لناع واجتمعوا به وكادوه بالذى كادهم به من المصانعة والمجاملة والوازرة على عدوهم ووطئوا على الايقاع به والاجلاب عليه
ص 121 وضربوا لذلك موعدا عند طلائع الفجر ثم أجالوا في أثناء ذلك قداح المفاوضة * وأداروا أقداح الشورى فتمخضت زبدة ءارائهم ان امتزاجهم بعساكر السودان في قتال عدوهم اخلال بالحزم وتضييع لواجب الاحتياط اذ يكون العبيد طووا مكيدة وغدرا فاذا امتزج بياضهم بسوادهم يميلون عليهم ميلة واحدة فرأوا الانفراد بصدمة العبد أولى وأحزم فركبوا اليه اليل جملا وفاجأوا بالبيات فلم يشعر الا بجلبة الخيل ورجة الوقعة فأفلت من بين ظفر وناب ونجى بعد لاى ولات حين منجاة برأس طمرة ولجام من بعد عصب الريق وانتشاب أنياب الخطوب الحمر منتبذا من خوله وصبابة أجناده سليبا شريدا لم يعلق بأذياله عدى لة من اغيلمة داره تناهز خمسة عشر مع أربع من حظاياه نازع فيها أيدى السبي وخلص بها من سور النهب فكانت هذه الدائرة خاتمة زواياه التى أودت غضارته واستشفت بلالته ونسفت عينه واثره وانبسطت أيدى العساكر المنصورية فى نعمته الضخمة واحتوت على ما يملك من نشب وأثاث وءالات ومتاع وحرم ورقيق ولم ينج بزف نعام ولا فلت بقطمير عدى نزر يسير كنغبة من ثماد اعتبره بمسبار وقسه بمعيار فان عدة حظايا هذا العبد المختال بهذا النعيم أوان رسوخ قدمه في سلطانه تنيف على الفى حظية فأين ما تستتبع من حلى وحلل وسواها من أسباب الترف والالة والخدم ويسعها من المنازل أجمعين واشتملت أيدى الاجناد المنصورية من الذخائر على ما يقصر عنه اسهاب المكثر ويخرس له لسان المصقع وطارت بالعبد سكيه جنون الاجفال فما اراق

النفس حتى احتل بدار الكفر (1) والشقاء مستدما بذمام الشرك ومحتميا بحمى من حاد الله ورسوله وطوق عنقه ربقة هذه الموبقة واحتقب اثمها وطرز بها صحائف عمله من البغي ولا غرو فيمن شقي بمولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله وعترة خاتم النبيئين ان يسلبه الله دينه ودنياه ويحيط به دائرة السوء في عاجله وعقباه وتلك سنة الله في عصاته وتوهم العبد انه قد علق من أهل الكفر بذمام لايخفر وانما سعى بقدمه الى اراقة دمه وسقط به الغشاء على سرحان واستجار من الرمضاء بالنار وكان ضعيفا لاذ بقرمله فلم يزد على أن ألقى قياده لمن فدى به نفسه وتفادى من تيار الهلكة باتلاف مهجته والسعيد من اتعظ بغيره فان روساء عساكر مولانا المنصور بالله أمير المومنين أيده الله تقدموا لطواغيث الشرك الذين اووه بالوعيد والانذار من حلول الفاقرة بهم ان لم يسلموه فاستبصروا في رأيهم ونظروا في مخلصهم ولم يجدوا لانفسهم وليجة من دون سطوات مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله وبوادره الا أن سقوه كاس الحمام وجرعوه غصص الموت الزعاف تفاديا من جلبة العساكر فهلك ★ ص 122
الشقي وقضى نحبه في دار غربة تحت اسمار الحقارة الذميمة والحدث بتربة الكفر والشقاء رمته الرميمة فلم تبكه أرض ولا سماء عظه لمن استبصر وعبرة لمن اعتبر فتم الفتح وجلت النعمة وثل عرش السودان وخلص ملكها لمولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله ورسخت في أقطارها دعوته الشريفة والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين واما خبر اخي سكية النازع فقد كان من أمره ما نذكر ان شاء الله تعالى .

ذكر اصطلاء أخي سكية الناكث بنار مكره ووقوعه في انشوطة غدره واستلحام بقية اخوته ومن دخل من الناكثين في صفقته .

كان هذا الشقي الناكث لم يزل جمر غدره ومكره منذ نزوعه عن أخيه يشف من تحت رماده وتسول له نفسه لمس النجم في كبد السماء وجعل يسدي ويلحم ويسبرح ويلجم ويستن في مجال المكايدة التي اقتنص بشراكها ووقع في بيرها ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وقائد العساكر الامامية محمود باشى مملوك مولانا المنصور بالله أمير المومنين أيده الله يقارضه في ذلك كله بصفقته ويرقص له على ايقاعه مكائدا له ومعتملا في اقتناص بغاثه كلما لاح له من تلقائه بارق خلب غالطه عنه بسحائب صيف وكانت العساكر المنصورية لما أوقعوا بسكية اخيه الوقعة التي انتسفوا بها عينه واثره

(1) حسب المؤرخ السوداني فان اسكيا اسحق قد التجا الى (تنفني عند كفار كرم ... وما تبعه احد من اهل سغي) (ص 147) .

واحتوت أيديهم على ما ملك كان من جملة ما وقع الاستيلاء عليه أساطيله البحرية فكان أول ما أبدى هذا الناكث من كنين صدره وكمين مكره ان احتال على استرجاعها من العساكر واستخلاصها من ايديهم وأدلى بأنها ملك الرعية الذين شملهم كنف الامان وانه لايحسن ان يهتضم لهم جناب ولاينقض عليهم الامان المبذول لهم وكل هذا انما يحطب في حبله ويجر لنفسه فساعده روساء الاجناد ولبسوه على سوء دخلته وعلى طويته خوف استيحاشه واجفاله ثم شفع هذه المخادعة بالافتيات على أولى الامر بأن أخذ في تقليد الاعمال وتفريقها على رجاله وقسمتها بين خدامه وخيلت له نفسه انه قد فرع هضبة الاستقلال على سرير الملك وتاتى له انتظام السلك فنقم عليه أولوا الامر في ذلك واعتدوها عليه أيضا وقد كان مولى الامام أمير المومنين محمود باشى بعث اليه أولا أحد مماليك الخلافة العلية يدعى محمد بن عبد الملك وأوعز اليه بالقدوم عليه فتلكى وتثاقل واعتل عليه بواهي العلل وتعلق بأذناب المعاذير وتلوم للوم شعثه واستجماع
ص 123 عساكره ووقف الرسول على ما أخذ فيه من الاستعداد والاحتشاد والمظاهرة * بالعدد والسلاح وتبينت حينئذ خبيئته وحيلة كيده وانطوائه على ما يروم من الفتك والغدر بالعساكر المنصورية فكتب بذلك الى قائد العساكر مرسله محمود باشى وانذره بمغبة أمره ليتدرع بلامة الحذر وياخذ اهبة الاستعداد لوروده خوف أن يظنه سلما وهو حرب فايقظ منه جفنا غير نائم وقعد له بالمرصاد وجمع للوثبة عليه جراميزه فقدم عليهم يجر الشوك المدر يقدم مقانبه الهائلة وعساكره المتسايلة تناهز عساكر أخيه التى ناهضهم بها في حروبه متظاهرين في السلاح قد أخذوا أهبة الحرب مصرا على غيه طاويا في أم رأسه الغدر عاقدا عليه ضميره وعزم على ذلك اذا شابهم باوشابه وخالطهم بسواه فوجد الاجناد المنصورية على أهبة قد استداروا بمعسكرهم واصطفوا له سماطين من باب معسكرهم وقاصية مضطرب قبابهم الى مضطرب السرادق الاعظم المعد لنزوله فما لبث أن اقتنصته الشرك وانشبت به المنية أظفارها واستولى القبض عليه في أربعة وتسعين رجلا من اخوته ووجوه أهل دولته وأودعوا السلاسل والاغلال وعضت عليهم ساودها السود ورقاه صليلها من وساوس جنونه وشفاه من داء كلبه وحكم الجند في فلة اسيافهم فاستلحمتهم وجلل الارض فجيعهم ولحق هذا الشقى بأخيه مقاسمه غصص البوس فأصبح مثلا في الاخرين وقد كان نفر سته من ابناء سكية تخطاهم أجلهم الى حين وقته لم ينتشبوا في كفة هذه الحبالة فلم يرضوا من الغنيمة بالاياب

فانتبذوا لبعض الاطراف الشاسعة من هذه الممالك فكان منهم بعض عيث شبوا ناره (1) ودل عليهم عواهم الاسد الطاوية ضفادع في ظلماء يم تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر فجرد اليهم مولى الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله محمود باشى ثقيلة الوطأة من مساعير الحرب وخائضي غمراتها فاجبلوا عليهم واستلحمت الملحمة اربعة منهم وجنبوا لمصارعهم لاول تيارها قتلى ونجى اثنان برمق بلغ التراقى مثخنين بالجراح فاضت نفس واحد منهم على تفئة ذلك وكانت هذه الوقيعة التى استأصلت شاقتهم وقطعت دابر ءال سكية فأصبحوا ما بين قتيل وحبيس ختام هذا الفتح العظيم الذى أدال الله به الطيب من الخبيث وشرف تلك البقاع بهذه الدعوة النبوية المطهرة القدسية العلوية وشنف بذكرها مسامع أقطارها وجاد ربوعها الصادية صوب قطارها فنافسها في تقلد أطواقها العراق والشام وسياذن الله تعالى ان ينهل على تلك الاقاليم عارض رحمتها الركام ويصدق لافقها ما لمح من برق سعده وشام بعز الله وقدرته فله سبحانه عاقبة الامور وبيده تصاريف الاقدار لا اله الا هو جلت عظمته ورفعت
ص 124 لمولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله قصائد * التهنئة لتمام هذا الفتح الكريم والمن الجسيم .

وجلس (2) للتهنية وانشد الشعراء بين يديه وكنت أول من رفع اليه كلمته وهي من قبيل البديهيات لضيق المجال قمت بها عندما غص المجلس الكريم بالجمهور ومطلعها :

هكذا تحرز العلى والمعالى	وتدق الطلا بسمر طوال
وتقود السوابق الجرد أسد	هيج غابها وشيج العوالى
من كماة الهيجاء تحملها فو	ق متون الجياد صم الجبال
ورماة تشب نار تلظى	جعلوا وقدها جسوم الرجال
سير العزم منهم جيش نصر	غمر السهل والهضاب الاعالى

(1) فصل المؤرخ السودانى عبد الرحمن السعيدى في (تاريخ السودان) اعمال المقاومة التى قام بها السودانيون ضد القوات المغربية الفاتحة ، واعتمادا على ما ذكره فان السودانيين قد بايعوا بعد مقتل اسكيا اسحق ، اسكيا محمد كاغ الذى القى عليه محمود باشا القبض وقتله ، وتزعم المقاومة بعد ذلك اسكيا نوح الذى حمل لواء الثورة طوال سنوات حكم المنصور للسودان اى نحو ثلاث عشرة سنة والذى كبد القوات المغربية الكثير من الخسائر فى الارواح والعتاد واجبر المنصور عدة مرات على تغيير قيادته العسكرية بالسودان للانتصارات التى كان يحققها احيانا ولاعمال الفداء والانتقام التى قام بها ، وقد توجهت أعمال المقاومة أولا الى السودانيين المتعاونين مع المغاربة ثم الى قوات المنصور ثانيا ، ومن الذين ذهبوا ضحية المقاومة السودانية القائد المغربى محمود باشا نفسه اذ نصب له كمين فى منطقة المن وال (فلما رموه بالنشاب وطاح على الارض ... قطعوا رأسه وبعثوه لاسكيا نوح وبعث اسكيا لكنت سلطان كب فاقامه فى عود فى سوق ليك زمنا طويلا) (تاريخ السودان ، ص 146).

(2) الانتقال الى صفحة 44 وقد اشتبه الامر على الناسخ واثبت القصائد التى مدح بها الشعراء المولى أحمد المنصور عقب فتح السودان بعد تعرضه لفتح توات وتيكورارين .

وغـدا يعبـر الفـلاة سبوحـــا   فـى بحـار مـن السـراب وآل
رعدت فى الجنوب منهـا رعـود   فصببـن النيران صب العزالـى
صحبتهـا منها صواعق ضجـت   لصداهـا أفـلاك سبـع ثقـــال
منها : فادرك مصـر والعـراق ويمـم   حـرم الحـى آلكـم خيـــر آل
ان شرق البلاد يرجـوك شوقـا   مثل ما يرتجـى طلـوع الهـلال
للامام المنصـور أحمـد أضحـت   كل أمـلاك الارض طـرا مـوال
ملـك زيـن الخـلافـــة عـــدلا   مثل ما زان الجيد سلك اللآلـى

منها فى المقطع :

فهنيئـا لكـم بفتـــح جليـــل   طبـق الارض صيتـه المتعالـى
اطلـع البشـر والتهامى نجومـا   لحـن فى أفق العلـى والمعالـى

ثم تلانى شاعر الدولة وسابق الحلبة الفضية أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى فقال :

ص 45 جرى بمناك الدهـر ملء عنانهـا   وساعدت الايـام فى عنفوانها ★
ولاحت لنا فى أفق يمنـك غـرة   بلوغ مدى آمالنـا فـى ضمانهـا
بشائـر تـاتينـا ولاء كـأنمـا   لطائـم دارين بدت من صوانهـا
فتوح جنى المنصور فى عرصاتها   ازاهر نصر يافـع من غصانهـا
ولا غصـن الا من قنـاة قويمـة   ولا زهر الا مـن شبـاة سنانهـا
ولا روض الا من حمـاة كماتهـا   ولا سقى الا ما جرى من طعانهـا
كتائـب منصوريـة قذفـت بهـا   مـوام نات عن أرضهـا ومكانهـا
تهيـم بهـا الارواح حتى كأنهـا   تناعـن عزيف الجن فى دورانهـا
طويت بسـاط ارضهـا بقنابـل   سنابكهـا اطـوى لها من بنانهـا
سحائب من مراكش قد أثارهـا   صبا النصر يحدوها حدا عكنانها
يوم بنا الصحـراء يرتـاد أمـة   سدى انفت آنفهـا مـن عرانهـا
فكم ملك قـد رامـها فتعصبـت   عليـه ولجت فى مجـون حزانها
فلما همت تلك السحائب فوقهـا   افاقت وهبت من كرى هيمانهـا
فالقت مقاليد الامـور الى الـذى   نضا العز عنها فارتدت بهوانهـا
الى ابن ابن الباتول المجتبى من نجارها   وفرع العلى المعتام من خيراتهـا
الى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا   وفخر بنى ابن المصطفى وهجانها
ابن الحسن السبط الزكى الذى خبت   به فتـن الاسلام فى هيجانهـــا
فجاءت الى الالف القلوب التى غدت   بمستعـر الاضغـان فى غليانهـا

هديت أبا العباس فينا كهدية فكم ليلة كشفت ليـل عنانهـا
واطفيتها بالسيف لا السلم بعدما تصدع شمل الدين من شنآنهـا
وكم وكفت من كف يمناك ديمـة ففاضت بحور العرف من هطلانها
فلا زالت الاقطار تعطى مقادهـا لسيفك من سوس الى خرسانها
اليـك أميـر المومنيـن قـلادة يروق بافق الملك زهـر جمانهـا
مفصلـة أقطـارهـا بيـواقيـت غور المعالى تزدهـى بازديانهـا
فرائد من اوصافك الغر صغتهـا لتنشر فى الافاق فضل زمانهـا

وتلاه صاحبنا الكاتب البارع أبو على الحسن بن أحمد المسفيوى فقال :

ص 46
تجلى بسعد الجد مقتبل النصر كذا غاية العليا كذا غاية الفخر *
فمن همم أضحى الثريا لها الثرى ومن عسكر يقتاده رائد النصـر
فقام ملوك الارض مـن سطواتـه مقام بغات الطير من مخلب الصقر
فهم شاخصوا الابصار نحو جلاله يخرون للأذقان تحت يـد القهـر
فمن لم ينله بيلـق مـن كماتـه أحـل لـه مـن فيلـق الدعـر
فما دون أن يعطوا الانابة منـزل لهم غير بطن الوحش أو قشع الطير
وتركهم صرعى بكل تنوفه سكارى بكاسـات المنيـة لا الخمـر
فكم سربل الابطال فىحومةالوغى مجاسد من نسخ المثقفة السمـر
فناحت عليهم كل غبـراء طفلـه تفيض عليهم واكف الادمع الحمر
كما فل غرب الروم سيف انتقامه وطاف عليهم طائف القتل والاسر
فهل خاب سعى السودا وفال رأيها وها قاومت فىزعمها عاصف القسر
رعوا حقبة مرعى المدون واغفلوا عواقب ما يأتى به طـارق الدهـر
فما راعهم الا طلائع عسكـر تـزجى بأسد الغـاب دامـية الظفـر
عليهم قتام يشهد اليـل انه هـو اليل والحرصان فيه سنى الدهـر
وجرد كاسراب القطا ضمر الحشا ينلن ((1)) لو انه قنه النسر
تشر بزعـ ((1)) كانها مسردة الارجـاء مـن نقـط القطـر
يسددها المنصور فهى سحائب تجود العدى بالحتف مـن ويلها الغمر
فلا وزر من بأسه غير حلمه فنـاهيك منه قابل ((1)) والعـذر
وناهيك من طلـق الجبين كانمـا اسرته منها استعير سنا البـدر
الى خلق لو كان للطيب نشرها لما انتسب الطيب الذكى الى الشمر

(1) الانتقال الى الصفحة 124 .

كذا خلق مهدية علوية توارثها الغر الكرام عن الغر
تقربك المهدى عينا وقبله الوصي بما اعقبت من طيب الذكر
بمن لو رمى صفين يوم جلاده لحلت بجيش الشام فاقرة الظهر
ليهنه ملك الارض موطوءة له سينتظم السوس القصى الى النهر
فما دون درب الشام الا التفاتة وما دون بغداد العراق سوى فتر
فان حاول الاعداء منه اعتصامها ببعد فقد راموا المحال من الامر
ص 47 فلو انهم حلوا السماكين منزلا لبات الردى من خلفهم دائبا يسرى*
ولو نازل البحر المحيط بعزمه لعادت يبابا حينها لجج البحر
عرك خير المسلمين ورثته فناهيك من ارث وناهيك من نجر
فلا زلت منصور اللواء مظفرا ودامت بك الايام واضحة البشر
فلا نعمة الا ومنك منالها ولا عرف الامن ندى كفكم يجرى

وقال الكاتب الحسن بن احمد المسفيوى :

فتح كمنبلج الصباح المسفر تجنبه من وقع القنى المتأطر
هذا مجيى السعد باه باهر يدنوا اليك بطلعة المستبشر
ايقاوم الاعداء صولة بأسه هل للتمام يد بعاصف صرصر
لهديتهن كتائبا نظمت على ظهر البسيطة كانتظام الاسطر
من كل در طالما خاض الوغى صال بنيران الحروب مسعر
ريعت بها أمم الجنوب كأنها نفر سوائم جفلت من قسور
شردت سور ظباك منهم بعدما نهلت وعلت من فجيج احمر
تعسوا ونالهم الشقاء كذاك من ناوى جلالك فهو أتعس معشر
لم يبق حام من بنى حام ولم تورد من حرى صوارم بتر
قد اقفرت منها الغمود فطالما طرحت لفى عنها ولما تعمر
بيض مضاربهن ان يعشو بها فى ضنك حرب خطو عمر يقصر
وصواهل وصواعق وحواصب وكفت كمنهل السحاب المطر
فملكت اقطار الجنوب وما سمت لمنال ذلك همة الاسكندر
وتنال اندلسا يجود ربوعها برد المنية من غمام العثير
فقد الجياد الى الضلال تسومها حكم الردى وتدوس معطس قيصر
ادرك بها الثار المنيم فطالما الوى به للدين رهط الاصفر
فكان عصر اعتاض من بعد المدى من جوهر بحسام باسك جوذر
فلسوف يطوى مغربا ومشارقا ويزور دجلة والفرات بعسكر

وتحل بالحرمين ربعا زاكيا ساوى لجدك ذى السجايا الطهر
لابد من انجاز ما في الغيب من ابراز موعود به ومدخر
فهناك اقرب مطلب لو انه لمس الكواكب ليس بالمتعذر * ص 48
فمتى طلبت منال ابعد غاية القى مقاد مطاوع متيسر
فلأنت للعلياء كفء ماجد متيسر من عنصر متخير
تجنى ثمار العز من غصن القنى وترى قدود القيد قامة اسمر
اترى العلى ما شدته من صارم او نلته تحت العلاج الاعبر
زاكى العروق مقدس الاحساب هامى الجود سامى العز ناجى المفخر
ابقى المئاثر فهى ما امتد المدى غرر تخلد فى محيا الاعصر
لا تقتنى الا جميل محامد وكذا اقتناء المجد رابح متجر
تهدى الرفاق حديث مجدك عنبرا وتشرفت بثناك ذروة منبر
لا زال ينتاب العدى لك عسكر يسرى وتتبعه عوافى الانسر
وتنال ما املت تملكه كلما دارت به فى الارض سبعة ابحر
وقال الفقيه النبيه ابو العباس احمد بن القاضى المكناسى من قصيدة مطلعها :
بشراك بالنصر المتين المتاح قطفته بين القنا والصفاح
قد دوخ الارض واقطارها وعم بالصيت بسط البطاح
ومنها :
فليهنك النصر الذى حزته دون الملوك فى مغانى الكفاح
واسعد فقد دانت ملوك الورى لما رأت فى الانقياد النجاح
للملك المنصور طود العلى واسطة العقد وبحر السماح
رجب بلاد السود من جنده فافتتحت بالسيف اى افتتاح
ومنها فى تاريخ الفتح المبارك :
فتح مبين هو تاريخه ينمو على الارض مديد النجاح * ص 124
فمن(1) ذلك قصيدة الفقيه الوجيه الاصيل الجليل المشارك القائد ابى الحسن على بن منصور الشيظمى وهى :
وافى كما طلع الا صباح تأييد لكن سرى ليله مع ذاك محمود
وكيف لا وهو فى مسراه سار على هدى لأحمد لا يعدو تسديد
ملك شفا الدين من ادوائه وكفى داء من الجوف فيه الكفر معبود

(1) يوجد بياض فى الاصل .

كذا شفى الصدر من داء الجنوب ولم يدع به اسودا تعنو له السود
قدم طغام على الجهل المركب قد نشؤا ودام لهم فى البغى تمريد
واستبدلوا الغى بالرشد ففاتهم ربح ونجح وتوفيق وترشيد
ما زل منهم على وجه العلى كلف حتى اعتدى وهو بالمنصور محمود
وطالما عبدوا الاهواء وزاغ بهم عن اتباع الهدى جهل وتقليد

ومنها :

فقام بالجد لا يلوى على احد وكان منه لشمل البغى تبديد
وجد منه لتمهيد الهدى ملك اغر ابلج بالتأييد ممدود
مسدود الرأى منصور اللدى اسدشاكى السلاح حليف اليمن مجدود
فرع الرسالة محيى الدين ناصره المنصور من لم يجز علاه موجود
ممهد بالقنا والبيض ما عجزت عنه الايام والشم الصناديد
مفتح من بلاد السود ما بعدت دياره وتبدت دونه بيد

ومنها :

ولا يحوم العدا فى الما هناك وقد تلقى ابن داية فيها وهو مجهود
يا بعدها من قفار ليس يسكنها الا سعالى لها فيهن ترديد
ولا يجوب فلاها الصعب مرتحل ما لم تكن تحته وجنان قيدود

ومنها :

تلك القفار التى شق المرور بها ولم يفد معها الركبان تزويد

ومنها :

رام الخليفة غزوا والمجاز بها للجيش فاجتاز عنها وهو معمود
رمى به عن قسى الرأى موترة بالعزم سودا بسهم الحق قد صيدوا* ص 125
فصادف الغرض المقصود من بعد منهم فلا عبد الا وهو معبود
سهم من الغرب قد اصمى الاساود اذصمموا وهم حيث بحر النيل مورود
وقد دعاهم الى الرشد الامام فلم يصغوا وهل تقبل الرشد الجلاميد
وحين صموا عن الانذار سمعهم صواعقا بنداها الموت معقود
تراه ينفث من افواهها بردا ينقض حيث فؤاد القرن مرصود
مدافع بطلت للسود حكمتها فلم يفد معها نفث وتعقيد
وما استقاموا الى آن جردت لهم بيض واشرعت السمر الاماليد
وجاست ايضا على رغم انوفهم خلال ما سكبوه خمر قود

قد ركبتها كماة ان لقيتهم في الحرب تلقاك ابطال مناجيـــد

فمن يرى الموت في الهيجاء مكرمة وان قاني نجيع الحرب قنديـد

ويبذل في رضى المنصور مهجته وان تناهى اليها الفضل والجـود

كجؤذر نشاة المنصور مبتكرا لفـتح الذى كان فيه قبل تبعيـــد

وصار الملك محمود الذى شرح الفتح وزيد به من بعـد توطيـد

من مهد القطر وارتاعت لسطوته السود وغادر سكيا وهو مضهود

وأنف عزته بالبيض مجتـــدع وسوده بعد في الدنيـا عباديـــد

رام النجاة هيهات وقد اخـذت عليه في البر والبحر المراصيـــد

والامر لله لا ينجو محاربه ولو يكون لـه للشهـب تصعيـــد

ومنهـــا :

من كل حلف الامر العلي هوى ولم يفد فيه ابـعاد وتهديـد

مكتب منهم للحرب لوفقعوا ما لا يحيط به وصف وتعديـــد

اما دروا أن هذا الامر ليس له الا قريش وفيها السر مقصود

وانّ سر الجميع اليوم جمعه ملك له في مراقـي المجـد تفريـد

خير ملوك الورى المنصور من صدقت عن جده المصطفى فيه اسانيد

فهو الذى جدد الدين وشيده فجاء طبق الحديث منه تجديد

يابن النبي هنيئا ان سعدك قد اغنى وصار له في الارض تمهيد* 126

لغيره مـــن فتـوح الارض فـانتهضن لها فانك بالتأييد موعود

ومنهـــا :

وذا أوان التهاني بالفتوح وقد جئت بها غردا اذراق تغـريـــد

ومن يحد او يرم للامر غيركـم فذاك قد فاته رشد وترشيـــد

فاضرب بسيفك من ناواك ان لكم على العداة بحول الله تأييد

لازال امرك بالتأييد مقترنـا مـا تاهت او جررت اذيالها العيـد

ودمت تجنى ثمار الفتح يانعة من ارض كل عدو وهو مصفـــود

وقال الكاتب البارع المجيد ابو الحسن علي بن احمد المسفيوى :

كذا فليكن مـدرك للفخـــار كذا فليكن مجد حامي الذمـار

فهل غاية فوق عـز عتيـــد مشيد القواعـد فوق الـدرار

بعـث بها نشربا ضامـــرات ترامى لها بها الوخد بين القفار

على ثقة من بلوغ النجاح ولـــم تضرب التيه ضـرب القمـــار

فما عاصم للعـــدى مهمــــه ولا مانـع ثبج مـن بحـــار

فقل للاحابيش هذا الصباح فما للظلام بد بالنهار
فقد نزلتهم جنود الاله وسل على بغيهم ذو الفقار
وقد ورد النيل سانى المزاج محيلا بماء الدماء الجوار
فكم عارض صب وبل الحتوف وللنقع ليل احم الازار
اذا ما تسامى سماء القتام فكوكبه كل ماضى الغرار
وان مارد رام منه استمراقا يبادره منه رجم بنار
فان وردوا الحرب ورد اختيار فقد وردوا الحتف ورد اضطرار
واضحوا سكارى بكأس الحتوف وليسوا سكارى بكأس العقار
وراموا الفرار وانى النجاة من قدر معجز للفرار
فدان الجنوب وهذا الشمال ستنظمه بعد فى قطار
وقد كنت اعثرت جد الصليب ستعثره ضعف ذاك العثار
وهاذى الشام وهذى العراق ستسمى لكم وهى دار القرار
فما مانع منك بعد الديار ولا عاصم منك شحط المزار
127 فأنت حميد القديم الكريم حميد الحديث حميد النجار ★
ومن رام كيدك فهو الغوى خلايا ما فيه طوع اغترار
فقد ءان للحق ان يستبين ويخلص بدر الهدى من سوار
وينجز وعد النبى الكريم فذا العصر زند لهذا السوار
قدم ولك المجد فى الاوج باد وفى فلك العز سامى المدار

ذكر استدعاء محمود باشى(1) وادالة العساكر الاولى بالاخرى وتثقيف البلاد بأهل الشوكة من عرب المعقل وجشم وقبائل المصامدة :

لما خمدت ذبالة ءال سكيه واستحصدت شوكتهم وجدعت السيوف العلوية المنصورية انف كل جبار عنيد وداست عرانين الخوارج المارقين وجالت العساكر خلال الاقطار السودانية وانبتت راياتها فى افاقها الشاسعة والدانية وسارت تطوى ممالكها بسيف التدويخ والتمهيد ارضا ارضا وغورا ونجدا وسهلا وحزنا حتى استوعبت التمهيد واقتضت الطريد وامتنت الشريد وانامت تحت جناح العدل القريب والبعيد واقتضت الخراج وانتظمت ممالك السودان فى سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من اقصى المغرب الى بلاد أكنو المتاخمة لمملكة برنوا فتفادى صاحبها من بوادرها وتدفق كتائبها

(1) سبقت الاشارة الى ان محمود باشا قد دبرت له المقاومة السودانية كمينا وقتلته كما اكد ذلك المؤرخ السعيدى *

من النار متلمظة ما تذر من شيء اتت عليه الا جعلته كالرميم فافاض عطاءه فيهم وازاح عللهم وفرق عليهم العدد والسلاح المستكثر منه بخزائنه وامدهم باسراب من خيل المغرب استاقوها مجنوبة تلوك الالجم بسروجهـا عتادا يرجعون اليه لقلة الخيل واعوازها فى البلاد وجرى فى الاهبة والاحتفال بالظهـر وانواع الاستعداد الى أبعد شأو فجهـز هذه العساكر والامداد متتالية يقفوا بعضها بعضا وسرح امامهم للكتاوة منتهى العمران من بلاد درعة لمولاه وكبير الممالك ببابه الصدر الكبير الشهير الجـزم والاعتـزام والنـجدة النافذة السهام القائد ابى على منصور بن عبد الرحمن بيـلار بـاى صاحب جيـش الاصباحية وعساكر النار تشييعا لهم واخذا بسنة الحزم فى تثقيف احوالهم وشد اواخى اعتزامهم وتنبيه هممهم كلـما شيـع محلـة واقحمها فى الصحراء تلقى اخرى فاردفـها بالاولى وتسايلت لهذا العهد كتائبها على هذا النمط متتالية ونصر الله يقدمـها والتأييـد يصحبها وعناية الله تحف بها من عن يمينها وشمالها واوعز مولانا الامام المنصور بالله

ص 129 امير المؤمنين ايده الله الى مولاه وعامله على البلاد جودر باشى بملاك امر * معادن الذهب الثلاثة التى اكتنفتها هذه الممالك وأمره بالبناء عليها واختطاط الحصون الجاثمـة عليـها وترتيب الجيش فيـها لحياطتـها وانتهت الاحوال اليوم الى هذه المراقى السامية من فخامة الدولة وجلال السلطان واتساع نطاق الملك بالاستيلاء عـلى القاصى من الممالـك والدان ولله العظمة والشأن والانفراد بالحول والطول .

ذكر ما اشتملت عليه هذه الممالك المنتظمة فى سلك الايالة العلوية المنصورية من الخصائص والمزايا والمفاخر التى لاتـوازى

أقول والله ولى التوفيق ان لهذه الممالك من جلالة القدر واصالة الذكـر واتـساع خطة القدر والاستئثار بمعادن التبر واصناف الرقيق المنيف على الذر والاشتمال على مرافق البر والبحر ما تقصر الاقاليم فيه عن فترها ويتضاءل المشارق والمغارب بسببه لعظـم قدرها حتى لو شاءت لشدت وانشدت :

فـدع كل صـوت بـعد صوتى فاننى انا الطائر المحكى والاخر الصدى

فهى الكريمة التى تعشوا البلاد الى نارها وتستعبد الاحرار بدينارها والعقيلة التى تانف لصلفها ان تنقاد والخريدة التى لم يخلق مثلها فى البلاد طالما خطبت الكـفء الكريم وخبطت سمراء الدهر ليحيى أملهـا الرميم ويذيل لها سعد الجد المنتج اختيال الروضة الغناء تحت رداء العشى الى أن تقبل الله دعاءها واجاب نداءها فاضحت مشـرق انوار وروضة ازهار وتنقلت من اطوار الى أطوار واقتضت دينها المطول فـى سالـف الاعصار فتقلدت سمطى هذه الدعوة النبوية الساطعة الانوار وتشربت بالكفء الكريـم العالى النجار والملك العـزيـز الـذى دانـت لدولتهم القاهرة امهات الامصار والامام الذى

وحبوب وفواكه جنية قطوفها دانيـة واذا انتهت راية الخصب وغزر الحب والاب الى نيل مصر الذى هو بين مد وزجر فما بالـك بهذا النيل السودانى الذى ساواه فى هذه الخصبة وأناف عليه برتبة شماء ومنصـب شامخ وذلك أن نيـل مصـر ليس الانتفـاع بسيحه الا أوان مده فاذا أخذ في الانحطاط وغـاص اتيـه الفائـض تلا ما نضب عنـه
ص 131 بالازدراع والفلح وامـا أوان جـزره وغـور مياهه فى الشتاء * فصل البـرد مما يليـه فالانتفاع به متعذر فلا يسمح بتمـاد نزر الا بعلاج من نصب الدواليب على شطئه ينوأ بها المضطلع من الجوامس الايده يرمقـون العيش فى ذلك على برض ويحصلون علـى علاله بعد عرق الجبين فتبين ان شطر الغلل والانتفاع ناضب المعين مكدر الشرب بهـذا العلاج الذى هو قرين النصب لزيم الجهـد بخلاف نيل السودان فان مملوك مولانا الامام أيده الله محمود باشى أخذ فى انشاء نهـر اجتلبه من غمره واقتطفه من تياره ويمكـن ذلك من غير ما موضع منه وعن قريـب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتهـا فى الخصـب فتمير القاصى والدانى من أقاليم السودان ببركة مولانا الامـام المنصور باللـه أميـر المومنين أيده الله وسعادة الاسـلام باياالتـه الميمونة النقية واما جلالة القدر واصالة الذكر وفخامة الملك فأوضح برهان على ذلـك ان السلطان أبا الحسن عظيم ملوك بنـى عبد الحق من بني مرين ويعسوب دولتهم وبيـت قصيدتهم أوان استفحال دولته وشموخ انف سلطانه غاية ما سمت اليه همته مخاطبة ملك مللي من بلاد السودان ومهاداتـه واتحافـه وجعله فى ذلك اسوة الملوك الاعاظم الثلاثـة لعهده الذين هاداهم وتاحفهم وأوفد ارسالـه عليهم وهم الناصر الملـك محمد بن قـلاون سلطان مصر والشام والطاغية ملك قشتالة ومنسا سليمن بن منسا موسى مالي من بلاد السودان هذه فجهـز اليه ارسالـه وأسنـى هديته اليه قال ابن خلدون : فانتخب طرفا من متاع المغرب وما عونه من ذخيـرة داره وأسناها وعكن رجالا من دولتـه كان فيهـم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن ابـى مدين ومولاه عنبر الخصى وأوعز الى أعراب الفلات من المعقـل بالسيـر معهم ذاهبيـن وجاءين قشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد جار الله من المعقـل وصحبهـم فى طريقهـم امتثالا لأمر السلطان وتوغل ذلك الركاب فى القفر الى بلد مالى بعد الجهد وطول المشقة على ما به مرحلة فى القفر من ثغور ممالكـه القبلية وليت شعرى اذا استغـرب الارسـال والاتحاف وتجشم هذا القفر الطويل المديد بالهدية فكيف بالعساكر الجرارة واقتحـام البلاد وافتتاحها بالسيف عنوة واقتضـاض عذرتها بالرماح السمهرية والصفاح المشرقية على بعد هذه المشقة التى لاتتجاوزها الشهب الا بحلية عاطل ولاكن الهمم الاماميةالاحمدية المنصورية لاغرو ان ابتدعت فى المفاخر هذه البدائع وفرعت هذه الهضاب الشم :

فلا كتب الا المشرفية عندها　　ولا رسل الا الخميس العرمرم

ص 132 وهذا معيار ما بين الدول السالفة في المغرب ودولة مولانا الإمام المنصور بالله ★ أمير المومنين أيده الله وبهذه النسبة تفاوتت هممها اذ تنتهى اليها ارسال ملوك بنى مرين واعتدوها منقبة ومفخرة ونزلوا أنفسهم لمنزلة الاكفاء لملوك السودان وأهلا للاتحاف بهداياهم ثم ما راجعهم ملوك مالي بالمكافأة عن هديتهم الا فى دولة أبى سالم بعد انقراض أجيال من عهد أبى الحسن قال ابن خلدون وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلى العرض ونودى فى الناس بالبروز الى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا فى الازدحام على الزرافة اذ كان وفد السودان استصحبوها اعجابا بخلقها وأنشد الشعراء فى غرض المدح والتهنئة ووصف الحال انتهى قلت فيما بعد ما بين الممدوح على هدية ملك من ملوك السودان وبين الممدوح على استيفاق الملك كله هدية اليه بسيفه فان مملكة مالي هذا لهذا العهد بعض من ممالك مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله التى تناولها هذا الفتح العظيم وجزء من تلك الاقاليم المنتظمة فى سلك ايالته العلية والامم التى دانت لدولته القاهرة على رغبة أو رهبة فما من تلك الامم اليوم سودانية أو مدرية أو وبرية الا من ألقى يد استسلام ودان لطاعة مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله فهى اليوم مكلؤة بعين حياطته نائمة تحت جناح عدله وخفارة سيفه معتجزة فضفاض اللامية الوافية بحول الله من الحوادث الطارفة مشمولة بكنف العناية الكفيلة بالسعادة الدنيوية والاخروية وهى على ذلك لهذا العهد الكريم وما يتلوها ان شاء الله كعطف الفاء من الفتوح أوسع نطاق وأسلس انتظاما واتساقا لينجز الله وعده الكريم بفضله فهو الذى بيده تصاريف الاقدار وزمام اليل والنهار واما ما لها من الخصوصية بمعدن الذهب الابريز وحد النضار الذى فغرت اليه أقطار الارض أفواها واستماحت نوالها استماحة المقتر المعسر ورمتها جلائل الامصار بافلاد اكبادها من غير مزاحمة قطر من أقطار الارض لها فى ذلك بمنكب ولا مساجلة لها فى ذلك المضمار بلن فبحسبك ما قاله ابن خلدون فى كتاب العبر له لما ذكر أن مجلبة المال ومثرات الامم انما سببه عراقة الحضارة وامتداد ظل الدول الاماد البعيدة قال واعتبر ذلك باهل الهند والصين وسواهم حتى ان كثيرا من الناس توهموا أن ذلك لان عندهم معادن الذهب والفضة وليس الامر كذلك لان معدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الاقطار انما هو ببلاد السودان وهى الى المغرب أقرب قلت ولاكفاء لبلاد استولت على مادة عمارة العالم وقوامهم

ص 133 ومناط معاشهم الذى تهوى اليه افئدتهم ★ من زوايا المعمور على شحط المزار وبعد الدار ويركبون اليه أكوار الاخطار ويمتاحون أوشال البوس حتى يخلصوا اليه بعد جهد

جهيد ورمق في الحياة زهيـد فهـم الدهـر منقطعون من كل أوب وصوب .

ذكر ثورة الناصـر بن الغالـب باللـه ومقتلـه

كان الغالب بالله عند انقسام الاعمال بين بنيه عقد لولى عهده على فاس وعقد لابى النصر رديفه على مكناسه ثم أسهم الى الناصر هذا بولايـة تادلا فأدال لـه أبـو النصـر بمكناسه وان كانت تادلا أقل عملا وأصغـر ولاية تفاديا من جوار ولي العهد لاستحكـام النفرة بينهما ثم ضرب الدهر ضرباته وأسرح الفلك دوراته فهلك الغالب وطيـر بخبـره الى المتوكل ولى العهد أولياؤه من مراكش من قبل فشوه واذاعته حسبما قدمنا في محله فوافق حضور الناصر هذا لديه بفاس غـب عيد الفطر لما جرت به السنة الى اليوم بين أبناء الخلفاء رضوان الله عليهم من حضور صاحب مكناسه لمواسم الاعياد مع ولى العهد بفاس تأدبا فاضطرب رأى المتوكل فى شأن الناصر وقد طوى عنه الخبر وزين له بعض أهل بساطه القبض عليه فاذهلـه الجـزع فسرحه لاعماله ثم بدى له فى أمره فسـرح اليه الملا من العلماء أرباب الفتيا والقضاء من بعد أن اقتضى لهم اليمين من نفسه بالوفاء له فتلقاهم الخبر على ظهر الزاويـة بفـرار الناصر الى جهـة طنجـة من ثغـور العـدو فاعترضته خيل صاحب القصر فقبضوا عليـه واستاقوه لاخيه المتوكل فامتحنه بالاعتقـال بدرعه ثم بتدلا ثانيا وقطع عمر دولة أخيـه فى الثقاف الى أن أتى الله بالتى هى أحسن من استيلاء مولانا الامام المنصور بالله أميـر المومنين أيده الله وأخيه المعتصم على المغرب واستويا على كرسى ملكهم واحرزوا تـراث مولانا الامام رضى الله عنه والدهم فاقطعوه جانبا من العيش أخضر وخلـص من عـض الثقاف طول أيامهم فلم يسوموه خطة خسف ولا هوان ولا حمله على الادهم الذى حملـه عليه ابن أبيه ولا التوى على مناقبـه منـه ثعبان أسود ولا لسعته منه أفعوان لا تنجع فى سمه الزعاف ترياق فمضى يغدوا ويروح فى ظل العافية ويختال فى أثـواب الهنـاء ويسرح فى رياض النعمة والهنيئة والخليفتان رضى الله عنهما يزدرعان صنعهما الجميل منه فى أرض سبخاء لاتنبث ولا تثمـر الى أن أتاح الله الغزوة التى طنت حصاتها ما بين نقطتى الشروق والغروب وجلا عروس فتحها على صفحات صفاح مولانا الامام ★ المنصور بالله أمير المومنين أيده الله فى يوم مشهود ص 134
ملائكة الرحمن شهود فكان الناصر هو اخر من شقى بالفرار من معسكر المسلمين ليلـة بيات الملتين على المصاف فاعترضته البربـر من الهبط فلم ينج لبلـد أصيلـه وكانـت ساعتئذ باقية على كلمة الكفر الا من بعـد عصب الريق وهلاك بعض أصحابه فطلع على المشركين صبيحة يوم الفتح بطلائع النحوس وانطلق اليهم مع البوس يستبقان كفرسـى رهان فوافى مع خبر الاستيلاء على سـواد المشركين واطباق تيار الهلكة والاسر علـى جميعهم على قدر وكأنما اجتمعـا على وعـد فكان ذلك أول طليعة فلت عزمهـم وجبـت

سنامهم من طلائع شؤمه ولما ملك مولانا الامام أمير المومنين أيده الله قياد أهل مملكة برتقال لاستيلائه على أكابر دولتهمْ واقتاتهم وبطارقتهم وقمامستهم وأساقفتهم فبخعوا لـه بذلـك واستكانوا كان أول ما أشرط عليهم تغريب الناصر الى بلادهم واقصاؤه الى أرضهم ليخلوا منه وجه أهل الفساد والانحراف الذين أضمَر أمير المومنين العزيمة على الفتك بهم مـن الجيش فأسرعوا الاجابة الى ذلك مهطعيـن فعبروا به البحر الى الاشبونـة دار مملكـة برتقال فنزل على طاغيتهم قرديال (1) القائم بتدبير ملكهم من بعد هلاك ابن أخيه بستيان قتيل سيوف أمير المومنين بوادى المخـازن المتقدم فما لبث أن هلك قرديال وثل بموتـه عرش ملك برتقال وزحف طاغية قشتالة (2) بعساكره الى الاشبونة فافتتحها عليهم عنوة وخلص اليه ملك برتقال فانقرضت دولتهـم عند قران السوء الحاصل بمقدم الناصر عليهم فاعتدوا عليه هذه ثانية الاولى فتحاموه تحامي الحرباء ثم انتقل الى أرض قشتالة (3) فطلع عليهم بطلائع الخسف والتدبير ونزل عليهم بعهود التعس وسوء الادبار .

رجع التاريخ ولما سيم الطاغية من مكان الناصر من بلاده وتبرم من مقامه فى أرضـه وطول مكثه وتطيـره من طلعتـه على أفقـه وءانس أيضا مع ذلك نار العزم تلتهب من جانب العناية الامامية المولويـة المنصوريـة التهابا وبحـر الاحتفـال تضطـرب أمواجـه الزاخرة بكل عدد وعدد اضطرابـا والهمـم الشريفة قد همت بتجديد الاسطول وكلفت بالاستكثار من المراكـب الجهاديـة والالات الحربية بما كان مولانا أمير المومنين أيـده الله يومل من فتح جزيرة الاندلـس وعبـور البحر اليها بجنود الله وعساكـر الاسـلام لتجديد رسوم الايمان بها وافتكاكها من يد الكفر المتغلب عليها فى أيام المستضعفين من دول الاسلام بالمغرب وحذر الطاغية مغبة ذلك وعلم انه اليه يساق الحديث والى أرضـه بالخسف والتدمير تهفو الالويـة وتخفـق الرايات فاعتمل مكافأة مولانا أمير المومنيـن أيده الله على ما ءانس من تلقائه من الاسـداء والالحام والاسراج والالجام بما أمل أن يفت به فى عضد الدين ويسعى به فى تفريـق كلمة الاسلام فأمل الناصر لذلك ورمى بـه
ص 138 الى وراء البحر فكان من خروجـه ★ بمليلـة(4) ما نذكر .

---

(1) يعنى الكاردينال هندى (1578 ـ 1580) .

(2) يقصد ملك اسبانيا فيليب الثانى (1555 ـ 1598) .

(3) بعد تولية المنصور التجا الى البرتغال اميران سعديان هما : الناصر بن الغالب والشيخ بن المتوكل ، وعندما اخذ المنصور يظهـر التعاون مع الانجليز ضد الاسبان وآوى فى مراكش الامير البرتغالى دون كريستوف بن دون انطونيو المطالب بالعرش البرتغالى ، قام ملك اسبانيا فيليب الثانى بنقل الاميرين السعديين من لشبونة الى قرمونـة Carmona بالقرب من اشبيلية فى شهر ماى 1589 واخـذ يلوح للمنصور بامكانية مسـاعدتهما للثورة ضده ، وقد اقدم الملك الاسبانى على ذلك فيما بعد .

(4) الانتقال الى صفحة 137 . (5) كانت مليلية احدى قواعد الاحتلال الاسبانى بشمالى المغرب وذ لك منذ عام 1497 م .

ذكر خروج الناصر بمليلة وايقاع المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ بـه وبجموعه على البغلة .

لما عظم على الطاغية شان ما أسفه من اسداء أمير المومنين والحامه وشحد عزائمه الماضية على ما يؤمل من نكايته وتدمير أرضه وأقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال في المكايد التى هى جنده الاقوى وحصنه الذى يلوذ به عند الشدائد فأملى الناصر لتفريق الكلمة وتحريك حوار الفتنة به ليثنى بذلك عزم مولانا أمير المومنين ويشغله عن شأنه ويكافيه على ما يعتمد فيه من نكايته فرمى به الى مليلة من سواحل العدوة فنزل بها لثلاث بقين من شعبان عام ثلاثة وألف (1) وجاد بالخروج الى تلك الجهة ليخرج بها عن سمت الممالك الشريفة وعن حدود الايالة الكريمة حذارا من المباغتة والمعاجلة بالعساكر وليصل يده بالعرب الاجلاف أهل ذلك الوطن المسخطين الدول فى الحديث والقديم بالسعى فى الفساد والخفوف الى القيام مع أول ناعق ينعق بالفتنة من الثوار وليجد وليجة الى المروق من هنالك لجهة الشرق ان بدى له من أمره ما يكره فاتصل به للحين أولاد شعيب أهل وطن مليلة ثم لحق به سائر الاحلاف فالتفوا به وأعلنوا بدعوته وخرجوا به الى احيائهم فصرخ الشيطان به في اذان غوغاء تلك الناحية من أهل الجبال المصاقبة لها فطاروا اليه من كل أوب وصوب وتسايلوا نحوه من كل فج عميق ومكان سحيق وساهق منيف فالتف به منهم جموع لاتحصى وشمر ولى العهد صاحب فاس المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المومنين أيدهم الله الى قطع دابره فبادر أولا بتسريح ابراهيم ولد القائد كتيرس أحد قواد عساكر النار فى جيش من الرمات زيادة على الحصة المرتبة بها من قبل حذارا من مفاجأة الناصر لها على حين غفلة ثم سرح على الاثر القائد أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فى عساكر من الخيل والنار وخزائن الرصاص والبارود والكراع الحامل للزرع والطعام وقدمه أيده الله امامه الى جهة تازى ريثما يزحف هو بجميع عساكره على اثرهم ويتخطى الى العدو وجموعه وكان الناصر ينحرف الى التعلق بجبل مدغرة وغياثة ليتعلق بذروته ويجاجى بأهله الى الالتفاف عليه ولما أحس به القائد أبو عبد الله بن بجة قد ثقلت خطومه بكثرة ما حمل من الخزائن والطعام بادر بتسريح جملة من تلك الخزائن والطعام مع عبد الله اعراص فى جيش من النار رجلا وخيلا ليمدوا بها من بتازى من العساكر فاعترضهم الناصر على فج الفرس * فتخاذلت منهم فئة ومالت اليه ورجعت أخرى لابن بجة بخزائنهم وظهرهم ص 139

(1) ابحر الناصر من مالقا يوم 7 ماى 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من الموريسكوس ونزل بمليلية يوم الثلاثاء 27 شعبان 1003 الموافق ليوم 9 ماى 1595 واعلن منها الثورة ضد عمه المنصور .

الناصر الى تازى فى جموعه مـن العـرب وسائر الحشود وجيش النار النازع اليـه فنازلها يخادع حاميتها وألقوا باليد فدخلها وأقام بها يومين أساء فيهما الاحدوثـة بمـا تحدث الناس به الى اليوم بمصادرة أهلهـا وامتحانهم على امال ومطالبتهم بالمكس على سنة النصارى معجبا بسيرتهم مقتفيا اثرهم حتى لكان يقول لهم ان النصارى يغرمون حتى على البيض على سبيل الاحتجاج عليهم فيما يصادرهم عليـه ويمتحـن عليـه يهودهـم ومسلميهم وخلد لنفسه فى تلـك البرهـة القليلة من سوء السيرة شنائع جللته العـار واكسبته المقت عند الناس وتعرفوا منه عنوان أمره ولما دخل تـازى وتسامع بـه المغتـر بأباطيله الواهية الباء من قبائلها واخماسهـا وأهل جبالها وأوبـاش عامـة تلك الجهـات وغوغائها تسايلوا اليه ينسلون من كل حدب فتكاثرت جموعه وحشوده والتفت عليه منهم عالم من العرب والبربـر يخص به الفضـاء ويكاثر الرمل والحصى واجتمعت اليـه مـن عساكـر النازعيـن عن أعراص بالخزائـــن والاقوات والنازلين عن حكمـه على تـازى جيوش وافرة فلاح له من ذلك بارق خلـب اكذبه امنيته فقوض عن تازى وتخطاها الى أمام فنهض اليه المولى الاميـر أبو عبد اللـه محمد الشيخ ولى العهد أيده الله من فاس نهوض أمثاله من الملوك العظام أولى الحـزم والنجدة فى أحكام التعبية واستكمال الاهبة ومضاء العزيمة وصمم نحـوه فى العساكـر والاجناد تصميم الليث العادى وقد جر اليه الانفاط القاذفة بصوت النـار وسار علـى التعبية يطوى اليه المراحل تلقـاءه فالتقـى الجمعان على عقبة من سفح جبل مدغرة وقد اتخذ الناصر موئلا يستند اليه فدارت رحى الحرب بين الفريقين ثم صدقهم المولى أبـو عبد الله محمد الشيخ أيده الله القتال فاندفع للهجوم بنفسه على العدو لفـرط شجاعتـه واقدامه وعظيم ثباته وصبره وجميل بلائه وحسن غنائه فى ذلك اليوم هجوم الاسـد على الرئال فتماسك الحدقـون بركابه مـن الموالى بعنانه ولم يسلموه ثم أهم بالترجـل عن فرسه مرارا لو أسلموه ليزحف علـى قدمه مع الرجل من الرمات الموالين لوجـه القتال لالقائه بنفسـه فى منتظـم أمواجهـم ومضطرم نيرانهم وقعقعـة رعودهم ووقوفـه بارزا عن موكب الخيـل فى قلب مصافهـم المتراصف فبعث بذلـك حفائـظ عساكـره وأجناده فتهالكوا فى الموت عليه وشددوا على العدو وألحوا عليه بشـواظ النار وارسـال صواعـق الانفـاظ فأحرقوهـم بسعيرهـا وتدافعت الكتائب وعظم زلزال الحرب وخرق بابها الكاشر ودلف الموت الاحمر وخان الصبر
الاشقياء المارقين فانكشف الناصر وذوبانـه وولى على أعقابه ★ مدبـرا وقـد أصابتـه ص 140
رصاصة أسفل الركبة فحطمت منها ساقـه وأدركته المشية فاحتمله العرب فى الهـودج وطاروا به مضجوريـن مع سيـران الفـلات مذعورين مما شاهدوا من ضنك المقام لايلوى أحد على احد وتفرق الحشود أيادى سبـا واستلحم السيف كثيرا منهم ومن العصابـة

النازعة للعدو ومن الرمات وانكفا المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ أيده الله بنصره لا كفاء له واقبال لايعدل به وطير بخبر الفتح والظهور على عدوه لمولانا أمير المومنين أيدهم الله والده وقد كان برز في العساكر والاجناد من مراكش لاول ما طرق الخبر باجلاب الناصر على تازى وعزم على الزحف بنفسه أيده الله بعساكر مراكش للمغرب فبرز بروزا فخما أوائل شوال عام ثلاثة (1) وزجرت له يوم خروجه على عادة الشعراء الفال الحسن بأبيات شذ عن حفظي بعضها وهي :

مغالب أمر الله لاشك مغلوب	وباغي استلاب ما تملكت مسلوب
ومن تنوه بالحرب من أجل بغيه	فعنك بأجناد المقادير محروب
فلا تكترث بما يلم فقد طوى	لك الله في المكروه ما هو محبوب
عدوك كان البحر يلقاك دونه	فأملا كي تغتاله وهو مجنوب
تبرم من ذل الصليب كان به	يرى وهو فوق الجدع في الجو مصلوب
تجرع من أيدى النوائب صابها	فان رام تصعيدا أتى وهو تصويب
يرى لك فضلا في اراحة نفسه	ففي الموت للمحروم سهل وترحيب

فكانت أصدق فال لموافقة الحال كما سنذكر بعد وتلوم مولانا أمير المومنين أيده الله بعسكره من باب أغمات أياما ريثما استكمل العساكر أهبة السفر فارتحل لنهر تانسيفت ولقيه البشير من قبل النزول بخبر هزيمة العدو وظهور مولانا محمد الشيخ ولده أيدهم الله عليه (2) ثم ترادفت البشائر بكتب ولي العهد بوصف الحال على السنة الحاضرين من أجناده للقتال فعظم الفرح والسرور وتمت البشرى وتضاعف السرور لمولانا أمير المومنين بما تواتر عن ولده أيدهم الله من حسن البلاء ومصابرة الحرب وجميل الغناء ورسوخ القدم في مستنقع الموت وكمال المعرفة بالحروب وردا وصدرا والاضطلاع بدفاع الاعداء وحمد الله على صدق النظر والاجابة في اختياره لولاية عهد الاسلام واعتيامه لكفالة الامة من بعده وأقام أيده الله على نهر تانسيفت من بعد ورود البشرى ريثما فرق اغلات والعساكر على الجهات للانتقام ممن بدى منه عيب في السبل وخاض في فساد من الرعايا والقبائل * مدة الالتفات للعدو ثم انكفا للحضرة مسرورا ص 141 محبورا وواصل العرب الاجلاف الناصر الى مأمنه من جبل بني يزناسن فنزل على صار دار بن مشعل وقد أوهنته رجله المنكسرة من الرصاصة فاقام هنالك يتجرع الامها

(1) اوائل شوال 1003 يوافق الاسبوع الثاني من يونيه 1595 .
(2) جرت المعركة التي انهزم فيها الناصر يوم الخميس 26 قعدة 1003 الموافق 2 غشت 1595 كما جاء ذلك في الرسالة التي وجهها المنصور الى قواده بالسودان .

وأوصابها الى أن كان من الايقاع به ثانيا على فاس وقطع دابره ما نذكر ان شاء الله .

ذكر ايقاع المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ بالناصر على فـاس ثم القبض عليه وقطع دابره .

كان ما قدمنا من ايقاع المولى الاميـر أبي عبد الله محمد الشيخ ولي العهد أيـده الله بالناصر على عقبة فباله واجفال العرب به الى مأمنه من دار بن مشعل من جبل بني يزناسن من ايالة الترك معتصما بها أجمـع السلطان مولانا أمير المومنين أمره أيده الله على النهوض بنفسه بالعساكر والاجناد من مراكش الى المغـرب وعلى الاقامـة بفـاس وتجهيز العساكر منها مع ولي عهده أيدهـم الله الى اقتحام جبل بني يزناسن على الناصر غير مكترث باولي الايالة عاملا على الاجـلاب عليهم وعليه ان راموا النصرة له والوقوف للدفاع دونه (1) فصمم عزائمه الماضية على ذلك واحتفل له احتفالا عظيما وأخبـر ولـي عهده أيدهم الله بما بني عليه عزمه فأهـاج حفائظه الهاشمية واستنكف من نهوض أمير المومنين بنفسه ولج في الايالة له والمنع مما عزم عليه وهون عليه أمر الناصر ومن لاذ به وتكفل له باقتحامه وقطع دابره ودابر كـل من يقف دونه ونهض لانتصاره من الاتراك الذين اوى لايالتهم وانه كاف في ذلك ومغن فيه وحتى عن الامداد له بشـيء من اجناد مراكش وجيوشها لاستغنائه بعساكر فـاس وجنوده بها وبالغ في ملاطفة مولانا أميـر المومنين أيدهم الله وجعل يفتل في الذروة والغارب حتى كسر من سورة انبعاثه فسكن وهدأ وأسعفه الى ما أراد فانبعث ولي العهد أيدهم الله للوفاء بما شرط وشمر لذلـك تشمير أولي الحزم فاضطرب معسكره على فاس فجلس للعطاء وبذل الاموال فيعساكره واجناده وبعث الحاشرين لجيوشه من سائر أعمال العرب التي لنظـره وكفالته فجمـع واستكثر واحتفل بما لم يعهد ثم هجم فصل الشتاء فنزل عليه الثلج بمعسكره وكان العام شديد القر بكلب البرد وتوالى ارسال السماء بمدرارها فصابر أيده الله تلـك المشـاق ومطاولة الاقامة على معاناتها بمحلاته لمدة من ثمانية أشهر حتى انصرم فصل الشتاء الذي
ص 142 تتعذر فيه الحركة ⋆ من شدة البرد بالغرب فانبعث حينئذ بحر احتفاله وماج وقد أخذت العساكر أهبة الاحتفال والاستعداد وتراكمت الخزائن واستوعب الظهر والكـراع فقـوض أيدهم الله تلقاء العدو في جيوش ضاق بهـا وسع اليباب وعظمت النجود والوهاد وطار

---

(1) كان التجاء الناصر الى الجـزائر العثمانية اما لتخلي الاسبان عنه أو لطلب العون من الاتراك ، وقـد كانت وضعية الاتراك في الجزائر جد مضطربة لاشتداد ثورة القبائل مما اجبر السلطان العثماني على تولية عدد من الباشوات دون جدوى وهكذا لم يكن في وسع الاتراك تقديم المساعدة للنـاصر ضد المنصور . وفي الوثائق التاريخية ما يؤكد التقارب الذي ظل الاتراك والسعديـون حريصيـن عليه للظروف الخارجية المتشابهة ومعاداة ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي كان يساعد الحلف المسيحـي باوربا الشرقية ضد الاتراك ويمد بالعون الناصر في المغرب ضد المنصور

دوى زحفه أيده الله فملأ مسامع الخافقيـن وتزلزل الشرق ومضى على التعبية حتى تخطى بلاد تازى الى مجمع الطريقين الاخذة علـى تافراطا ذات اليمين والاخذة على جارت ذات الشمال فرءا أيده اللـه بمقتضـى حزمـه واحتياطه انه ان سلـك على اليمين لربمـا يعقب الناصر على جارت الى جهـة الريـف فيتعلق بجبل غمارة وان سلـك علـى ذات الشمال فربما يخلفه على تافراطا الى جبل مدغرة وغياثة فاحتاط بأن جرد من عساكـره محلة وافرة من عساكر الاسل والنار عقـد عليها للقائد أبى عبد الله بن بجة وعـززه بجماعة من القواد أولى الرأى وتدبير الحروب فسلك بها على جارت وارتحل هو أيدهم الله سائر جنوده على تافراطا ذات اليمين ليسد بذلك مسالك النجـاة على الناصـر وكان أيدهم الله قد نمى اليه قبل ذلك بمراسلة بين جيش الشراقة من جيوشه وبين الناصر على سبيل الاستمالة والانحراف فاتهم ذلـك واعتقد بعده عن الصدق لما يرى ان القـوم ممن ارغد له فى العيش وبسـط بالنعمـة وأوفى به علـى مراتـب الاصطفـاء للخدمـة والاعتزاز بعز الرماية تجبى اليهم ثمرات كل شىء فيسيـل عليهـم منها سيـل العطـاء فيسقيهم علا ونهلا ولا يد عليهـم للناصـر وسابق خدمة ولا سابق نعمة ولا مجرد معرفة حتى بالعين وما فيهم من حصرهم طرفا مـن دولتهم فى أيام أخيه وأبيه ومع ذلك فمـا أضاع الحزم فى أمرهم بل أوسعهم حين نمى اليه ذلك عطاءه ونشر فيهم نعماءه ووطأ لهم أكنافه وأفاض عليهم سجال هباتـه وطيـب نفوسهم من ذلك بما يستميل به العدو الى الصدقة فكيف بمن يمترى اخـلاف نعمتـه لعشرين سنة ثم استوثق منهم بعـد ذلـك بالايمان الغليظة عرضوا على المصحف والبخارى بها واحدا فواحدا عرض البيعة فزحف بهم حينئذ أيده الله حتى اذا افترقت المحلتـان اغتنمها الاشقياء الذين منهـم مع ابن بجـة فثاروا بقائدهم من مماليك الامير أبى عبد الله ولى العهد أيدهم الله فقتلوه ثم وثبوا على ابن بجة أيضا فعلتـه سيوفهـم ثم نجـاه الله من كيدهم وطار الخبر الى الذين فـى محلات ولى العهد منهم فركبوا اليل متسايلين لاخوتهم فميز الله الخبيث من الطيب وجعل الاشقياء وجوههم الى الناصر وكانوا زهـاء خمسة ءالاف كلها من عساكر النار فلما سدى
ص 143 للمولى أبى عبد الله الشيخ أيدهم الله ما كان من غدر الاشقياء وانتزاعهم * للعدو ورءا أن يرجع لفاس حتى يستأنف الاهبـة ويعـاود النهوض فانقلب بسائر عساكره على هـدو وسكون لم يتضعضع له بنكث المارقين جلد ولا طاش له خلد ولا تخرم من جمعه السالم سبد ولا لبد حتى نزل على فاس واضطرب معسكره من ساحتها على كدية (1)
فبث العطاء فى الاجناد ثانيـا وأزاح عللهـم وأرهف للصدمة حدهم وجلس للوثبة علـى

(1) يوجد فى الاصل بياض

براثنه ينتظر مثال العدو وكان الناصر عندما اتصل به جيش المارقين الاشقياء وراهم عصبة قوية وظن انهم معظم شوكة ولي العهد من عساكر النار فحسبها فرصة أتيحت له ومددا سيق اليه ولم يعلم أن الله تعالى خدله بهم فبعثهم اليه حتى يكونوا له قادة الى حتفه وسببا لاستنزاله من معتصمه واستخراجه من جحره بادر النهوض فيهم فأقبل يطوى المراحل لفاس ووجد ولي العهد أيدهم الله في جنوده له بالمرصاد فحاد الناصر عن جهته فنزل يوم الخميس على وشتاته وارتحل ولي العهد الى مقابلته فنزل على دار الرحاء فكانت يومئذ بين عيون الفريقين مناوشة كان الظهور فيها لعصابة الحق أصحاب ولي العهد ثم أصبح الفريقان يوم الجمعة على هدو وسكون لم تخفق للقتال فيه راية ويوم السبت وهو السابع عشر من يوم غدر الاشقياء كانت المناجزة وكان من مدد الله تعالى فيه لولي العهد أن مولانا الامام أمير المومنين أيده الله كان لما بلغه عيث اولاد حسين بجهة أسايس بقطع السبل على الرفاق عند مغيب ولي العهد عن فاس في نهوضه للعدو بجبل بني يزناسن جهز أيده الله وصيفه قائد باب قصبتهم السعيدة بمراكش مسعود بن مبارك في جيش من عساكر النار مع جيش هكسيمة قواد خسان من جيوش الاسل وأوعز اليهم أن يخيموا بجامع الحمام لقطع عادية المفسدين العابثين وحماية الطرق للمارين ثم حدث ما كان من غدر المارقين ورجوع ولي العهد لفاس فوافق وصولهم ساعة رجوعه عن تازى يوم السبت وأطلوا عليه برايات النصر والاقبال وحضروا معه القتال فكانوا أعظم عصابة الحق يومئذ بلاء وغناء وصبرا واقداما ونصر الله بهم حزبه ومد سبحانه بهم ولي العهد من غير قصد عند احوج ما يكون اليهم وكان من وصف القتال انه لما كان يوم السبت اصبح ولي العهد على التعبية فجند الكتائب ورتبها وخفقت الرايات وتزاحف الفريقان والتقى الجمعان بمنزل حاجب وكان ولي العهد ايدهم عندما شاهد رايات العدو أقبلت وتراءى له حزب الضلال وجموعه شد على فرسه في راياته المظفرة واجناده المنصورة شرها الى العدو حنقا على عصابة * الغدر ص 144
الناكثين فانصب عليهم الجنود انصار الحق انسياب الجبال على نعم الوهاد والغيطان وتنافست العساكر في احراز خصال الصبر والاقدام فتهالكوا في الشجاعة والهجوم على العدو فاشتبك الاسل والنار بالنار وبرزت الحجال والغدارى المخدرات عالية على اساطح فاس تشاهد الحرب وتنظر مناقع الموت وكانت مع العدو جموع وافرة مما كتب الله عليه الشقاء غطت النجد والوهد وتراءت على السفح تحجب راياتها عين الشمس لكثرة ما التف عليه من قبائل أهل النفاق والانحراف لم يتقاعس عنه احد من مشاهير قبائل الخلط واعيان عرب الغرب قاطبة وكانت قبائلهم تتسايل اليه الى ساحة الحرب فتوافى منهم اولاد بيسى وشهدوا معه الحرب كافة وقبائل الحياينة اهل جهة تازى وكانوا من

حزبه واولى السبق اليه لاول ظهوره وشهدوا معه الوقعة الى غير هؤلاء من قبائل الشظة وعرب الصحراء مع عصابة الغدر من عساكر النار فلما اشتد زلزال الحرب وتهالكت عصابة الحق في الشد على الاعداء هبت من الله ريح النصر لولى العهد فمنحه الظفر ونكص الناصر على عقبيه في خيل له فولى وجموعه الادبار مهزوما وترك الاشقياء المارقين بين الناب والظفر فاستلحم السيف الكثير منهم وابتلع الاودية والشعاب والغيظان من تخطاه الموت منهم الى اجل وانكفا ولى العهد ايده الله بنصر لا كفاء له ثم طير في الحين وراء الناصر جيشا من الاسل وعززه من عساكر النار بجيش اخر اركبهم خيل البرادع وجهز عليهم مملوكه مصطفى كبير المماليك ببابه والقائد ابا محمد عبد المومن بن ملوك والقائد بن بجة وجماعة من وجوه القواد وروساء الاجناد فلحقوه بلجايه وقبضوا عليه وقتلوه لحينه واستاقوه لفاس فوجه ولى العهد برأسه وجثته لامير المومنين والده ايدهم الله بمراكش فنصب الرأس حتى شاهده الناس تنكيسا للفساد واخمادا لنار الفتن الناشئة بسببه ثم امر مولانا الامام امير المومنين ايدهم الله بموارات الجثة وراسها من يومه وتم السرور لمولانا الامام امير المومنين ايده الله وقد وافته البشرى بمعسكره من باب أغمات وكان من خبر خروجه انه لما بلغه كتاب ولي العهد ايدهم الله تعالى بخبر نزوع جيش الشراقة الى العدو وقام لها في ركايبه وقعد اجمع امره على النهوض بما حضر من جيش مراكش وان يحمل الرجل من عسكر النار على خيل البرادع فيجد السير يطوى المراحل لفاس ليباغث العدو والناكثين ثم عد من تاريخ الكتاب الى
145 يوم وصول السفير به فوجد ثلاثة عشر يوما لتثاقل المجدبه * من فساد الطريق عند اقتراب الملتقى فجزم بأنه لا يدرك الملتقى ولو طار بالارض فأخذ حينئذ ايده الله في أهبة النهوض بسائر العساكر عاملا على اقتحام فاس على الناصر ان قدر له دخولها وانه لا يثنيه عنه تان حتى ينشب به اظافره ولو ابتغى نفقا في الارض او سلما في السماء فوجه ايده الله عن ولده الامير زيدان أن يستحثه بمن معه من العساكر من سجلماسة وكان قد جهز اليه في جيشه بتدلا وأمده بجيش آخر من عساكر النار من مراكش وسرحه اليها لمدافعة الناصر عنها ان رام النهوض اليها من دار ابن مشعل وليسد في وجهه وجوه المسالك الى السوس او القبلة ان رام الخروج اليها على الصحراء ثم وجه عن عساكر السوس وكانت مخيمة على آنسى بالمرصاد للاجلاب على الناصر ان زلت به الاقدام الى الانحدار للسوس من ثنية الصحراء ثم وجه عن العساكر التى بحاحة وبلاد دكالة وتامسنا وسائر العساكر المتفرقة على الممالك في سبيل الردع والانتقام من القبائل المثيرة للفتن وقطع السبل والمجاهرة بالنفاق والسعى في التهويل عن الدولة عند صرف العزائم الى الناصر فتوافت الاجناد وتوالت الامداد واخفت في

النهوض العساكر من كل بلد فتكاملت الاهبة وعظم الاحتفال من الاستعداد وبادر الخروج ايده الله ثالث يوم ورود الخبر بنزع الناكثين وكان ايده الله ساعتئذ بين يدى خروجه رؤيا صادقة على عادة مرائيه الصالحة وانه على قصر بمحلة عالية على هيئة افراك وهو القصر المعد لمنازلهم ايدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من كتان مترف قال الا ان برج ذلك فى مكان باب الصرف من افراجنا نحن اليوم لم يختلف الا فى هذا الوصف قال ايده الله فقبل لى هذا قصر المنصور ابو جعفر فدخلت فوجدت صاحب القصر واقفا لى فى البرج كان ينتظرنى فاظهر لى البش والترحيب ثم رفع الرواق دون القصر فاذا فيه من النضرة والبهاء ما لا يبلغه الوصف ولا يخطر على القلب ووقعت عينى داخل القصر وفى منتهاه فى مقابلة باب البرج على صورة امرأة لم تقع عينى قط على اجمل ولا ابهى ولا احسن منها وعليها من الحلى والحلل وفاخر الزينة ما لا عين رأت فقال لى اقم هنا خمسة ايام وياتيك قال ايده الله فاستيقظت فتاولت أنها دنيا وبشرى تاتى فقال لأهل شوراه عند الغد ليس الا العزم بالخروج لعل الرويا تصدق بموافات البشرى بالمحلة ونحن فى قصرنا فخرج ايده الله يوم الخميس ثامن عشر رمضان عام اربعة(1) ثم وافته البشرى يوم الاربعاء فلم تمض من بعد يوم خروجه ايده
ص 146 الله * الى يوم الخميس الاخر الا خمسة أيام كما ترى ووافته البشرى وهو فى افراك وجلس للوارد بها من قبل ولى العهد فى برجه على نحو ما رءا الرؤيا المباركة كفلق الصبح جلاء وظهورا وصدقا وعدت من مرائيه الكريمة التى هى اصح من روية العين فكان ذلك اليوم من ايام الدنيا بما عم الناس من اسرور وشمل من الفرح للخاصة والجمهور وبرز مولانا امير المؤمنين ايدهم الله اثر ورود البشرى بل عند ورود القبض على الناصر على تفئة ذلك الى فسطاطه الاعظم المعد للديوان العام ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد فجلس للتهنية وانثال الناس عليه من العساكر والاجناد واهل الحضرة فازدحموا على الفسطاط ازدحام الحجيج على البيت وبرزت ارباب ءالات الغنا من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت اصوات ءالات الملك فامتزجت وملا دويها الخفاقين وضم المعسكر محشر عظيم ودوى هائل فكادت الارض تميد بمن عليها هناء وسرورا واطمئنانا ومحبة فى امير المومنين ايده الله وشحا بايامه السعيدة وضنانة بدولته الشريفة التى أثرت العديم واكسبت المحروم ولقد حدثنى من اثق به انه شاهد ناسا من النظارة يوم بروزه أيده الله من الحضرة الى معسكره من باب اغمات يبكون حشية ورافة ومحبة وارتفعت الاصوات فى المساجد والمكاتب شيوخا وولدانا ونساء

(1) الخميس 18 رمضان 1004 يوافق 16 ماى 1596 م.

وصبيانا وحتى شرعت النساء وراء حجبها وحجالها عن ظهر غيب بالدعاء له ايده الله وعلى الناصر المثير للفتن التى بعد العهد بها فاجاب الله دعاء عباده وحكم له سبحانه بعدله بما شاء على وفق علمه ليتم عليهم نعمته ويهنىء باتمام الحق امته ورفع الشعراء والكتاب الى مولانا امير المومنين قصائدهم يهنئونه بما صنع الله له من الفتح على يد ولى عهده ايدهم الله بعضها في الوقعة الاولى والبعض فى الثانية فمن ذلك قصيدة الهوزالى وهى :

هو النصر يجنى من ذوابل مران خياشمها يرعفن بالعلق القانى

وبيض صفاح بتريمينة ومقدرة شقر سواهم غران

عليهن من شعث الذوائب فتية نما هم الى العليا معد بن عدنان

ص 147 تسامت بهم غاى المدى وتوقلوا ذرا النسب الوضاح من قيس عيلان*

أهاب بهم والجو بالنقع حالك يغطى دياجى ليله شهب حران

اغر رحيب الباع من سرها شم سليل الملوك الصيد من آل زيدان

فروى صوادى السمر من ثغر العدى ومطعم سيدان الفلا هام اقران

هو الملك المامون ميمون غرة تكنفها لليمن واضح عنوان

حمى بيضة الملك الاغر وقد غدا من الدم عريان الظبا غير عريان

خطى فوق اشباح المنايا ولم يبل وللطن فى الهبات ارزام ارنان

بيوم عبوس لو تقادم عهد لعهد مديد لم يصف يوم بسيان

اذا افتخرت بالشعب والجون عامر ولا عد فخرا يوم عبس وذبيان

ولا دثرت ذات الاصاد بفقدها لقتلى بنى بدر لها ميم فتيان

الا سحبت ذيل ازدراء بقتلها بنى جشم بالخوذ هل بن شيبان

لقد جرد المنصور منه مهندا فرى كل ليث من عناد وعدوان

وهد به هضبار رواسى شمخا تكاد بها الدنيا تميد بأركان

عشية سالت بالاحالف للوغى مهامه عادت بالقنا غاب غيطان

ولاحت عليهم كل زغف كانما افيضت على ابدانهم زرق غدران

فلاقوا دوين الورد كل مدجج يهز اليهم كل اسمر ظمئان

وبارقة للموت تحت سحابها صواعق تتلوها موارج نيران

يقيم لها الاحلاف برقا فامطرت عليهم بشؤبوب من الموت هتان

فكانوا يساقون المنايا واجفلوا لوقع الردينيات اجفال ظلمان

بلا فيهم المامون كل مصمم ولدان أصم جربا منذ ازمان

راوا فيما يقتاد من كل باسل مشوق الى الهيجاء آساد جفان

النهوض العساكر من كل بلاد فتكاملت الاهبة وعظم الاحتفال من الاستعداد وبادر الخروج ايده الله ثالث يوم ورود الخبر بنزع الناكثين وكان ايده الله ساعتئذ بين يدى خروجه رؤيا صادقة على عادة مرائيه الصالحة وانه على قصر بمحلة عالية على هيئة افراك وهو القصر المعد لمنازلهم ايدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من كتان مترف قال الا ان برج ذلك فى مكان باب الصرف من افراجنا نحن اليوم لم يختلف الا فى هذا الوصف قال ايده الله فقبل لى هذا قصر المنصور ابو جعفر فدخلت فوجدت صاحب القصر واقفا لى فى البرج كان ينتظرنى فاظهر لى البش والترحيب ثم رفع الرواق دون القصر فاذا فيه من النضرة والبهاء ما لا يبلغه الوصف ولا يخطر على القلب ووقعت عينى داخل القصر وفى منتهاه فى مقابلة باب البرج على صورة امرأة لم تقع عينى قط على اجمل ولا ابهى ولا احسن منها وعليها من الحلى والحلل وفاخر الزينة ما لا عين رأت فقال لى اقم هنا خمسة ايام وياتيك قال ايده الله فاستيقظت فتاولت أنها دنيا وبشرى تاتى فقال لأهل شوراه عند الغد ليس الا العزم بالخروج لعل الرويا تصدق بموافات البشرى بالمحلة ونحن فى قصرنا فخرج ايده الله يوم الخميس ثامن عشر رمضان عام اربعة(1) ثم وافته البشرى يوم الاربعاء فلم تمض من بعد يوم خروجه ايده
ص 146 الله * الى يوم الخميس الاخر الا خمسة أيام كما ترى ووافته البشرى وهو فى افراك وجلس للوارد بها من قبل ولى العهد فى برجه على نحو ما رءا الرؤيا المباركة كفلق الصبح جلاء وظهورا وصدقا وعدت من مراءيه الكريمة التى هى اصح من روية العين فكان ذلك اليوم من ايام الدنيا بما عم الناس من اسرور وشمل من الفرح للخاصة والجمهور وبرز مولانا امير المؤمنين ايدهم الله اثر ورود البشرى بل عند ورود القبض على الناصر على تفئة ذلك الى فسطاطه الاعظم المعد للديوان العام ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمها على بعد فجلس للتهنية وانثال الناس عليه من العساكر والاجناد واهل الحضرة فازدحموا على الفسطاط ازدحام الحجيج على البيت وبرزت ارباب ءالات الغنا من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت اصوات ءالات الملك فامتزجت وملا دويها الخافقين وضم المعسكر محشر عظيم ودوى هائل فكادت الارض تميد بمن عليها هناء وسرورا واطمئنانا ومحبة فى امير المومنين ايده الله وشحا بايامه السعيدة وضنانة بدولته الشريفة التى أثرت العديم واكسبت المحروم ولقد حدثنى من اثق به انه شاهد ناسا من النظارة يوم بروزه أيده الله من الحضرة الى معسكره من باب اغمات يبكون حشية ورافة ومحبة وارتفعت الاصوات فى المساجد والمكاتب شيوخا وولدانا ونساء

(1) الخميس 18 رمضان 1004 يوافق 16 ماى 1596 .

وصبيانا وحتى شرعت النساء وراء حجبها وحجالها عن ظهر غيب بالدعاء له ايده الله وعلى الناصر المثير للفتن التى بعد العهد بها فاجاب الله دعاء عباده وحكم له سبحانه بعدله بما شاء على وفق علمه ليتم عليهم نعمته ويهنيء باتمام الحق امته ورفع الشعراء والكتاب الى مولانا امير المومنين قصائدهم يهنئونه بما صنع الله له من الفتح على يد ولى عهده ايدهم الله بعضها فى الوقعة الاولى والبعض فى الثانية فمن ذلك قصيدة الهوزالى وهى :

هو النصر يجنى من ذوابل مران   خياشمها يرعفن بالعلق القانى

وبيض صفاح بتريمينة ومقدرة شقر سواهم غران

عليهن من شعث الذوائب فتية   نما هم الى العليا معد بن عدنان

ص 147 تسامت بهم غاى المدى وتوقلوا   ذرا النسب الوضاح من قيس عيلان*

أهاب بهم والجو بالنقع حالك   يغطى دياجى ليله شهب حران

اغر رحيب الباع من سرها شم   سليل الملوك الصيد من آل زيدان

فروى صوادى السمر من ثغر العدى ومطعم سيدان الفلا هام اقران

هو الملك المامون ميمون غرة   تكنفها لليمن واضح عنوان

حمى بيضة الملك الاغر وقد غدا من الدم عريان الظبا غير عريان

خطى فوق اشباح المنايا ولم يبل وللطن فى الهبات ارزام ارنان

بيوم عبوس لو تقادم عهد لعهد مديد لم يصف يوم بسيان

اذا افتخرت بالشعب والجون عامر ولا عد فخرا يوم عبس وذبيان

ولا دثرت ذات الاصاد بفقدها لقتلى بنى بدر لها ميم فتيان

الا سحبت ذيل ازدراء بقتلها بنى جشم بالخوذ هل بن شيبان

لقد جرد المنصور منه مهندا   فرى كل ليث من عناد وعدوان

وهد به هضبار رواسى شمخا   تكاد بها الدنيا تميد باركان

عشية سالت بالاحالف للوغى   مهامه عادت بالقنا غاب غيطان

ولاحت عليهم كل زغف كانما افيضت على ابدانهم زرق غدران

فلاقوا دوين الورد كل مدجج يهز اليهم كل اسمر ظمئان

وبارقة للموت تحت سحابها صواعق تتلوها موارج نيران

يقيم لها الاحلاف برقا فامطرت عليهم بشؤبوب من الموت هتان

فكانوا يساقون المنايا واجفلوا لوقع الردينيات اجفال ظلمان

بلا فيهم المامون كل مصمم ولدان اصم جربا منذ ازمان

راوا فيما يقتاد من كل باسل مشوق الى الهيجاء آساد جفان

وجودب اذيال العلا فتهيجت حفيظة وراد المهالك غيران
تصلى بجمر الحرب حتى كأنما له بمناخ الموت مالوف أوطان
الا أيها المنصور بالله اذ عنت لسيفك اعناق العدى اى ادعان
كفتك ظبى المامون كل ملمة ومبهم خطب مسدل ذيل اجنان
فدم فى سماء العز شمسا منيرة تضىء لاقصى المغرب اقصى لان
ولازال ملثوما ثرى عرصاتكم لافواه املاك معفرى تيجان ★ ص 148

ومن قصيدة صاحبنا الكاتب ابى على الحسن بن احمد المسفيوى وهى هذه :

وافاك فتح واضح الاقبال اربى على الماضى مدى استقبال
وتلوت آى النصر وهي كتائب ورويتها امرا وهن عوال
لله اية عزمه مصمية فى خيث تنبو مصميات نبال
ما للتمام وهيبة الباس التى قصفت جنوبا بعد قصف شمال
كم ذا عزمك من عدو قبله فصدعته صدع الرداء البالى
واذا انتحاك الجمع منه فانه وقف على التكسير واستيصال
فجعلت من علق لحائمه الظبا وردا وسبيهم من الانفال
وادلت اشوس صاغرا فاعتاظ من شمم المعاطس موكس الاذلال
وتركت اربعهم نهابا للبلى درس المعالم سجد الاطلال
ما عاصم من دونهم هرب ولا ينجى سريع الوخد والارقال
ينقض جارح كيده فى اثرهم اهدى اليهم من قطا ارسال
لو انهم سلكوا المجرة لم يكن مجرى النجوم اذن بعيد منال
وبعيد مطمح همة لا يقتنى الا دلاصا سابغ الاذيال
ويرى العلا ما يقتنى او يجتبى من صارم او ذابل عسال
طب بتلقيح الحروب مجرب شهم ابى مدرك الادخال
من زاغ عن رشد فان بكفه ماضى الشباب مقدم الضلال
كم صك سمع الخافقين بوقعة صارت بها مثلا من الامثال
ملكت مهابته القلوب وما زجت حبا كمزج الماء بالجريال
وله مآثر سائرات دونت سير الكيما تحتذى بمثال
وله المعالى النيرات الزاهرات الظاهرات الباهرات خلال
اغنيتنا عن نصب تمييز لها ودليل البات ووصف الحال
من ذا يساجل مجده بل اين من طامى العباب بلالة الاوشال
من ذا ينافس قدره وجلاله انفاس شمس ظهيرة بذبال

فهو الحقيقة فى المكارم والنهى وسواه احقاب وطيف خيال

ص 149 وهو المقدم حائزا قصب العلى وسواه فيها مقرف أوتال *

ومشيم بارقة المنى من بشر يجلو الخطوب الجون وهى ليال

لله فيك مغيب يوتى لهذا الدين يوما عازب الآمال

عما قريب سوف ترغم قيصرا ويجود اندلسا سحاب وبال

حتى تسربل ذلة احزابه ويصير رهن القيد والاغلال

لازلت منصورا ودمت مؤيدا تختال فى دعة وأمن زوال

وللقائد ابى الحسن على ابن منصور الشيطمى :

هاكذا هاكذا تكون المعالى مسندات عن العلى والعوال

وكذا تعطى الفتح أول شىء حركات المنصور وفق اقتبال

هل يرام المنصور بالله من قد بطلت معه حيلة الابطال

من اباد العدى وطهر منهم فى الجنوب البقاع او فى الشمال

فسئل الركن والمخازن عنه اذ جد الخطب عند ضنك المجال

ايعانى عزمات ذى الملك الشهم سوى نكسن اجهل الجهال

او يدانى عرينه الا شب الحمى الا معرض للوبال

فلو ان السماك ذا الرمح ناواه لامسى عن رمحه فى اعتزال

او نوى النسر طائرا عنه منحى لغدى وافعاله فى جبال

ضل من ظن أنه منه ناج فى فضا بعد حرب او تلال

ولو أن القطا اعارته ريشا أو اقلته أرجل الاوعال

اثكلت أم الثائر المتدلى بغرور لحربه أو ملال

لم يقم حتى اقعدته رماح للمرضى الشيخ الليث طود المعالى

غره برق خلب قد اشارت فى جهام به نوى الامحال

من بغات تساقطوا كفراش فوق نار للحرب ذات اشتعال

اوقدوها فاطفاتها دماهم من سيوف للشيخ سمر طوال

غادرتهم وهم على الترب صرعى بعراء مستوحش الربع خال

عبث الطير فيهم والسيد والاسد باشلائهم وبالاوصال

وقضى بالشق الاله عليهم وبنصر المامون أفضل وال

ص 150 عمدة الامر عائد الصلة المرفوع فى الابتدا وفى كل حال *

قمر التم من اتاه كمال قبل عشر او قبل الاستهلال

واتانا منه الزمان بفرد متغال فى فضله متعال

فلعمري لـو كان بعـض سنـاه لهلال لانفك نقـص الهــلال
ذو وقار يسبى النـهى وثبـات دولة القطب او رواسى الجبـال
حاز رشد الرشيد في هدى مامون وعليا على الـوصى المفضـال
يا رعى الله منه ابى همـام قد اذاق الهمـوم حـزب الضـلال
وحـمى بالبيـض وسمـر العوالى حوزة الملك من اذى كل قـال
وكفى اوكفـت يـداه خطـوبا هائلات تمـوج بالاهــوال
وأرانـا شـفى الغليـل بفتـح نعم فتح المولى العـلى الجـلال
مرحبا المـامون بـه واتـانـا معلـما بالشفـاء والاكـمال
فهنيئـا لكم امام الهـدى مـا منح الله من جزيـل النـوال
ذاك فتـح قـد جـل قـدرا واعيا وصفه مقولى وفكرى وبـالى
رشتمونى سهما ونبلتمونى فـارتياشى مـن عنـدكم وانتبـال
وبكم قـد ردت الصـعاب ولانت لى القوافى الممكنات الحوالى
دمت بالمامون حسامك تحـمى بيضة الدين والعدا فى اختـلال
وادام المـولى لملكـك نصـرا لا يرى فى الدنيا له غير تـال
ثــم لازلت بالمســرة تجنــى ثم المشتهــى بكــف الكمـال

وكنت شرعت ساعتئذ فى قصيدة اساجل بها القوم فتجاذبتها مع الاشغال المتنالة حينئذ فغلبتنى عليها من بعد الجهد فى المكافحة وانا ءورد ما خلص لى منها وقد وريت فيها بمنزل صاحب مكان الملحمة والتورية فى عدة ابيات منها بما كان مولانا الامام امير المومنين ايد الله يرى ان الكلام الخالى من محاسنها المتعارفة عند أهلها كلام لا تشره اليه الاسماع ولا تنقل له بالطبع الطباع وهى :

الفتح من حركات احمد واجب ... كل العواهى فى العداله طالب
يعنو الى السنون من اسيافـه ... قلب المعاند وهو قلب واجب* ص 151
ايروم احزاب الضلال سفـاهة ... غلبا لحزب الله وهو الغالـب
اودى بجمع مكسر جمع لـه ... تعنو الجموع اعاجـم واعارب
جمع له فى الحرب اى وقائع ... اضحت على الاعداء وهى نوائب
ملات باشلاء النـفاق تنائفـا ... اضحى الوهاد بهن وهى اهاضب
قد حلقت للنصر فوق سمائها ... من كل فتحاء البنود عصائب
صبت على السودان منه صواعق ... فهمت على اسحاق وهى مصائب
فهو الذى من جبره او جلبه ... تلقـاه امـا جابـر او جالـب

يروى عن المنصور فيه محمـد ما اسندته الى الوصى مناسب
اسـد هريث الشدق يفغر فكــه نحو العدى فكأنـه متثـاوب
يفرى الكتائب سيفه ولرعبـه جند يغير على العدى وكتائب
سيف به جب السنام لخاسر فى صفقته وجب منه الغارب
لكس لـ ((1)) المناجس منزلا لفعته عيناه وقطـب حـاجـب

وكان مولانا الامام امير المومنين ايـدهم الله كتب اثر الفتح الاول عنـــد انهزام العدو وجموعه على عقبه قبالته الى الامراء على ممالكه السودانية والى اجناده وعساكره فطار الى ممالك بلاد القبله بانهاء البشرى ووصف الحرب والاعلام بما اتاح الله على يد مولانا ولده ولى العهد ايدهم الله من الفتح وهـــو وما بعده من التعريفات بالفتح وما يتعلق به كلها من انشاء العبد مولف الكتاب سمح الله له ونص المكتـوب الى كبيـر المماليـك المقتسمين لاعمال الممالك السودانية وهـــما منصور باشى وجوذر باشى اسمعكم الله من البشائر ما يملا صدوركم انشراحا ويوالى لديكم مسرة وافراحا سلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته اما بعد حمد الله الذى ايـد الاسلام بمحمد فأصبح وهو فى كيد الاعداء مامون وحمى الحقيقة بسيفه الــذى لاتزال جماجم الاعداء ساجدة لحده المسنون والصلاة والسلام على نبيه الكريم الذى سطع به نور الحق المبين واقام به أود الدين فاصبـــح وحبله قوى متين والرضى عن ءاله الشم العرانين واصحابه الذائدين بسيوف الحـــق دعاة الباطل فاضحى الهدى منـهم فى حـرم امين والدعاء لهذا المقام العلى الامامى الاحمدى المنصورى بنصر يطوى الارضين ويوسس الدين على دعـائـم التمكيـن ويروى صــدى
ص 152 السيوف من قلب * قلوب المشركين وأولياء حزب الشيطان المارقيـــن الملحديـــن بعزه وعنايته فكتابنا هذا اليكم على معسكرنـــا السعيد على نهر تنسيفت والا جديد بحمد الله الا ما عود من عوائد النصر والاقـبال والبشائر تنتاب اسراب العلية فى الصباح والمساء وتنتال هذا والذى ننهيه الى جهتكم من الانباء المثيرة للفرح والسرور والبشائر المثلجة للافئدة والصدور اعلامكم ان الشقى الناصر حليف الصليب وولى الطاغوت ورضيع لبان الموالات لدولة الاقنام والناسوت كان الطاغية خذله الله قذف به الى جهة مليلـة قذف النوات ورمى به رمى السلا عن الستات متحاميا للخروج فى جهتنا لما يظن ان العرب اخف باسا والين مســا وكــان بظننــا ان النصارى خذلهم الله لا يفلتوه من أيديهـم أو يسلموه للبعد عنهم وانهم انما يرمون به فقط مغالطة وزبونا منهم لاكنا مع هذا لم نضيع شيئا من اسباب الحزم وموجبات العزم بل انفذنا فى الحين الى ولدنا الاجـل بـب

(1) بياض فى الاصل .

الشيخ اعزه الله تعالى أن يأخذ للوثبة عليه الاهبة والاستعداد ويجلس على براثينه للأجلاب عليه بالعساكر والاجناد وبرزنا نحن بعساكرنا المراكشية حماها الله الوافرة واجنادنا المؤيدة بالله الظافرة بحال من الاحتفال والاستعداد تسر الاسلام وتسوء عبدة الاصنام مما كان الا ان اقاده وباله لما فيه حممه وسعت به الى اراقة دمه اقدامه فحمله الجهل بعواقب الامور والدوائر التي عليها وعلى من التف معه من الاحلاف ومن تبعهم من اهل الفساد تدور فاقبلوا حتى تخطوا تازى وراءهم واتخذوا جبل غياثة ومطغرة موئلهم والتجاءهم وما كرهنا نحن منهم التوغل الى حيث لا ينجوا منهم احد ولا يخلص لهم مال ولا ولد ولا سيد ولا لبد فلما اتاح الله فيهم الفرصة بادر بب الشيخ اعزه الله تعالى انتهازها وركب الى الاشقياء جسر السعادة الربانيه ومجازها فما راعهم الا انقضاضه عليهم بجنود الله الاسود الابطال وليوث الحرب والنزال وضراغم الهياج الذين تزول لصدمتهم رواسي الجبال من كل رام بشرر وضرب بالنبل والوتر وشهم يقيم هامته مقام المغفر وبطل يقدم اقدام الغضنفر لا ياكل السرحان شلو صريعهم مما عليهم من القنى المتكسر فصبحهم اسعده الله الاشقياء في يوم اغر محجل وطلع عليهم بالرأى تحمله السيوف والاسل فصدقهم القتال وهجم عليهم هجوم الاسد على الرئبال وهم أعزه الله مرات عديدة بالرجل عن فرسه زاحفا مع الرمات في مستنقع الموت على قدمه فأغرا لالتهام الاعداء الاشقياء فكي فمه فيعزم عليه الانكشارية اصحابه

ص 153 بالركوب فيمتنع عليهم * ولا يكاد الا بعد الالحاح العظيم يلتفت اليهم وتبدى منه اعزه الله في ذلك الموقف الضنك من الصبر والشجاعة والاقدام ما قرت به عين الاسلام ولم يكن الا كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقى وجموعه الادبار واستاصلتهم السيوف والنار وأخذهم الله تعالى على يد ولدنا أسعده الله تعالى اخذة رابية وأتت عليهم سيوفنا المشرفية ورماحنا الردينية فلن ترى لهم من بقية هذا من بعد أن لم يال الشقى وجموعه جهدا في الاحتفال والاستعداد بما لا مزيد عليه عدا وعددا ورجال فقد زحف معه عرب الشرق بحللهم وأولادهم كافة ما عدى أولاد طلحة خاصة ثم أخماس تازى عن اخرها ومشهور البربر بجذافرها وست عشرة مائة من عساكر النار وغير هؤلاء من الحشود الذين اضلهم الله وقادهم غويهم لدار البوار فاتى السيف عليهم بحمد الله أجمعين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وكان ذلك يوم الخميس السادس وعشرين من ذى القعدة (1) والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفناكم بما سنى الله من هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لتاخذوا من السرور بشارته بحظكم

---

(1) الخميس 26 قعدة 1003 يوافق 2 غشت 1595 .

الوافر وتشكروا صنـع الله فهـو الكفيـل بالزيادة للشاكرين وتبثوه الى من هنا لكم من عساكرنا المويـدة بالله والاجناد والـى سائر أهل ممالكنا الشريفة بتكلم البلاد حتى ياخذ الجميع ان شاء الله بحظه من السرور بهذا الفتح المبين والمن الجسيـم ويطمئنـوا بما عود الله لمقامنا العلي من عوائد النصـر والاقبال ومساعدة والايام والليال حمدا على ما أنعم وشكر لما كمل وتمم ثم اعلمـوا أن بروزنا بمحلتنا السعيدة لساحة حضرتنـا العلية ما كان الا لمجرد استشراف أحـوال ولدنا أسعده الله تعالى لاغيـر والتطلـع لما لا ياتينا من تلقائه من أخبار الخير واليـوم لما أجمل الله العاقبة بما منح من الظهور على الشقى الذى أراح منه العباد وطهر منه البلاد واطمأنت برسوخ الهناء والعافيـة الجهـات والاقطار والقرى والامصار هانحن بحمد الله داخلون لدارنا العلية لناخـذ فى شأن مـا أمدكم به ان شاء الله من العساكر والاجناد ونجهزه تلقاءكم من سائر العدد والامداد فان ذلك عندنا هو الشغل الذى نعمر به الوقت فى الحال ونصرف اليه وجه الاعتناء والاهتبال وكتب فى السادس لذى حجة الحرام المبارك متم عام ثلاثة وألف (1) ولما أجزل الله المـن وشفع الفتح الاول بالثانى واتى بالتى هـى أحسن من قطع وأسر العـدو واستيصـال شافة المارقين الناكثين كتب أمير المومنيـن أيده الله الى سائر ممالكه الشريفة يعرفهـم
ص 154 بتمام الفتح وقطع دابر العـدو ثم الى أهـل فاس والى حواضره ★ وأهل الثغور من بلاد المغرب يشكر لهم الثبات على العهد والوفاء والمجاهدة بمناوات حزب الشيطان ومشاقته وعدم الاكثرات بطنين ذبابه ونصه : من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيـز نصره أوامرهم وظفر عساكرهم الى الجماعة التى نواليها بمزيد الشفوف والايثار ونختصها من أهل ممالكنا الشريفة بخصوص المزيـة والاعتبار ونخلع عليها من عنايتنا الكريمـة الملابس الساطعة الانـوار ونمهـد لها مهـاد السكون والاطمئنان فى كفالة سيفنا الماضى الغرار والصفوة التى نعرف لها صفو الوداد وخلوص الاعتقاد فى حالتى الاعلان والاسرار جماعة الفقهاء والشرفاء والاشياخ ونواصـل لديكم بالمسرات الغبوق بالصبـوح سـلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته اما بعـد حمد الله الذى وعد بنصر من ينصره فكفى به وليا وكفى به نصيرا جامع كلمة الاسلام فمن أراد تفريقهـا باء بغضـب منه وسـاء مصيرا والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى نصره بالصبا فكانت له ظهيـرا وابتعثه أحمد الحاشر فكان بالرعب منصورا والرضى عن ءاله الذين اذهب اللـه عنهـم الرجس وطهرهم تطهيرا وعن أصحابه الذين أرغموا أنف قيصر قسرا وتركوا جناح كسرى

(1) يوم 6 حجة عام 1003 يوافق 12 غشت 1595 .

كسيرا والدعاء لهذا المقام العلي الامامي الاحمدي المنصور الفاطمي بنصر يوسع الاولياء حماية والمارقين الملحدين تدميرا فكتابنا هذا اليكم كتب الله دوام العافية واتصالها وعصمة لاتزول وان زلزلت الارض زلزالها وحفظ لكم وللاسلام من حفائظ هذه الدولة الشريفة الاحمدية حامية لا تورد الا قلب القلوب نصالها ولا توخر عن الذياد والبلاد مصالها من معسكرنا السعيد بظاهر حضرة مراكش حاطها الله ونصر الله تعالى قد ملأت الخافقين أجناده وتوالت مع العشي والابكار امداده وارعدت بالصهيل الى الكفاح والجلاد جياده وسيفنا المنصور بالله قد تنضنض تنضنض الثعبان فلا تكاد تمسه حنقا على المارقين الاشقياء اغماده هذا وانه بلغنا أنجدكم الله تعالى ما أنتم عليه من طروق الخيال الذى ما ألم حتى قوض والبار الذى خبى عندما أومض من رسوخ نياتكم وصفاء
ص 155 طوياتكم ومضاء عزماتكم وما كان من عدم اكتراثهم بطنين ذبابه ★ والاستنكاف من الانصات الى لمع أسرابه والاهتمام من عواء ذيابه الى ما بدا لنا من الاستماتة على كلمة الله العليا وتصميمكم على حزب الله المفلح في دار الزلفى ودار الدنيا واطباق صغيركم وكبيركم على المحبة التى لاشرط فيها ولا ثنيا والمجاسر بمناوأت حزب الشيطان ومشاقته وبذل كل أحد جهده على حسب طاقته حتى عرفكم الله عاقبة النجح وجلا على صفحات ولدنا وولى عهدنا وكافل الامة ان شاء الله من بعدنا عروس هذا الفتح واستأصل بحمد الله بسيوفنا شافة المارقين الطغام وأباد بها الاشقياء أولياء عبدة الاوثان والاصنام والى هذا فالذى يتقرر لديكم حرسكم الله وأنجدكم وفسح فى الهناء أمركم انه ما كان ظننا من قبل فيكم أهل ذلك الثغر المحوط والبلد المحفوظ الا مثل هذا وأكثر واجل وأكبر ولا نعتقد فيكم الا اعتقادا يفيد القطع بمحبتكم ونجدتكم فى كل مورد ومصدر ولا نراكم لهذه الدولة الشريفة الا الشعار والدثار ولا نعدكم الا حيث نعد الاولياء والانصار وانكم عندنا ممن لايوثر عن هذا الجناب العالى ولا ينخدع بخلب بارق ولا بلمع سراب فبهذه المنزلة المكينة من ضمائرنا الشريفة انزلناكم وعلى هذا المحمل الجميل من معتقدنا الكريم حملناكم ولهذه الخصال الجليلة والاوصاف الجميلة أهلناكم الى أن كشف بهذه الخصلة التى أحرزتموها الغطاء وبرح الخفاء اتضح حينئذ بحمد الله مصداق ظننا فيكم اتضاح النهار ولاح للعيان بارقة المستطار وتضوع فى سائر الافاق نسيمه المعطار فازداد بذلك اعتقادنا الجميل فيكم تصميما واربى حسن ظننا على ما كان من قبل به عنكم زعيما ولاح للبادى والحاضر دليل ما كنا نقطع به عنكم من الوفاء حديثا وقديما وانها لخصلة مهدت لكافتكم جميل الرضى بعلى هذا المقام ووسيلة لا نزال نرعى لكم بحول الله مواتها مع اتصال الايام ومزية تقضى لكم من على مقامنا ان شاء الله بنباهة المقدار والعناية السامية المنار وجميل الرعى وجزيل الايثار والشفوف

الذى تسنى لكم به المزية على سائـر أهـل الحواضر من ممالكنا الشريفـة والامصـار
وركابنا العالى على أهبة الرحيل ان شاء الله من العناية التى تشملكم سرا واعلانا وتلقون
من صنع الله تعالى لديكم وصنعنا ما يقربـه أعينكم دهورا طائلة بحـول اللـه وازمانـا
فلتنبسط بذلك ءامالكم وتـرون أحوالكـم ويطمئن بالكم بعز الله وعنايته وقد عاينتـم
نور الله ببصائركم ان هذا الامر العزيز عند الله بمكان وشانه لديه سبحانه ★ لايوازيه ص 156
قدر وشان فعناية الله محفوفة ونصرته له معروقة وامداده له على الـدوام مـن قوتـه
واحسانه اليه متزايدا واختياراته له فوق ما ينتهي اليه اختيار الرائد لاينـال منه كيـد
كائد ولا يخضده خذلان خادل ولا عناد معاند عصمة من الله لاتخشى بفضله ومنه انتقالها
ونعمة نوصيكم أن تجعلوا استدامـة الشكـر عقالها فان حبل اعتصامكم بحبل هذه الامامة
الشريفـة مربـوط وهنٌاءكـم بهناء أيامهـا السعيدة موصول ومنوط وزمنكم بزمنها المتد
الاعصار بحول الله وقوته مرموق ومغبـوط وسربكم بكلاءة الله تعالى وكلاءتها مع اتصال
الايام بحول الله مرعى ومحوط والله تعالى يوزعنا واياكم شكر نعمائه ويصل لنا موصول
صنعه الجميل بصلة اياديه الجسام وءالائـه وهو المسؤل سبحانه ان يحفـظ رجاءكـم
ويصدق فى فضله الجزيل وصنعه الجميـل رجاءكم ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمت الله
تعالى وبركاته وفى يوم الاثنين ثالث عشـر شوال المبارك عام أربعة وألف من الهجرة (1)
النبوية الكريمة ولما تكاملت هـذه الفتـوح الجليلة وفرغ مولانا الامام أمير المومنين أيدهم
الله من تدويخ أهل الزيغ والانحراف واطمانت البلاد وهـدأ الاضطـراب ورسخت قواعـد
العافية وقفلت العساكر والاجناد من الجهات أهم أيدهم الله بالجهـاد وأخـذ الاهبة لـه
والاستعداد ومجازاة عدو الدين على ما كان اعتمل فيه من كيد الاسلام وتفريق كلمتـه
والعزم على استرجاع جزيرة الاندلس من يد الكفر وتطهيرها من خبث الشرك فكتب الـى
أهل الخير والدين وأولى الصلاح بكل بـلاد يلتمس منهم أيده الله التوجـه الى جنابـه
العالى بالادعية الصالحة والابتهالات الناجحة وطلب الاعانة والامـداد مـن ملـك الارض
والسماء على ما أهم به وعزم عليـه وتوجـه بنيته الصالحة اليه فمنها الى صاحب مكة
والمدينة وأرض الحجاز السلطان حسن بـن أبى نمى من بنيهم الشريف ءال الحسن رضى
الله عنهم ونصه من عبد الله تعالى المجاهـد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين
ابن أمير المومنين بن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيز نصره أوامرهم وظفر
عساكرهم الى الاصالة التـى تبجبحت مـن ذوابة هاشم فى صميمها وتوغلت من عرصات
حرم الله ما بين زمزمها وحطيمها وتمتعـت من عرارة نجد بانتشـاق نفحاتهـا الاريجـة

(1) الاثنين 13 شوال 1004 يوافق 10 يونيه 1596 .

وشميمها أصالة السلطان الاثيل المثيل الاسنى الاسمي الازكى السلطان حسن بن أبى نمى
ص 157 أبقاكم الله والبيت ذو الاستار تتفيئون ظلاله وتلثمون من الحجر الاسعد خاله سلام عليكم*
ورحمت الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله معز هذه المثابة العلية الامامة النبوية العزيزة
الانصار السامية المحتد والنجار ساحب اذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامى
المنار بحر القسط من برها وولائها لحيها سكان الحمى والذين تبوءوا الدار والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى اطلع شموس الهداية الساطعة الانوار والرضى
عن ءاله الذين تضاءل لمجد هم السامى المقدار الشموس والاقمار وعن أصحابه الذين
استاصلوا شافة الكفر بمواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى
الابدى المنصورى الحسنى بنصر تجنى الفتوح من قضب رماحه وتجرى الاقدار على وفق
اقتراحه فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله وصنع الله تعالى لهذه الدعوة
النبوية مفعم السجال واسع المجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة
الثغور موذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور بعز الله
وعنايته هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما
أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل وهب له من حرم الله نسيم يميل وءان للمطايا أن
تعمل الوخد والدميل مد الى على مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله
ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مقامه ومرتحله يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد
والمصدر ومدة مقامه بجواركم من حرم الله تجاه البيت والمشعر فحملناه هذه العجالة
لترعوا له ان شاء الله عنها المعتبر وتوالوه من جانبكم بما يصدق فيه الخبر الخبر ويدنى
له من ءاماله قطوف كل فنن مهتصر ثم مما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه
ونطالبكم لوشائج الرحم التماس دائه المساهمة بالدعاء مع الاحيان تجاه البيت
الحرام وعند الملتزم والمقام أن يويدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق
فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس
وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الدين فيها بكلمة
الله التى طالما سكت عنها بدائه وخرس وشرق بريقه فغص واحتبس فذاء دعاء لايرد
لانه جرى من أهله فى محله ومعاد السلام الاتم الانم عليكم ورحمت الله وبركاته ومنها
الى قاضى القضات المالكية بمصر الشيخ بدر الدين القرافى ثم الى كبير مشايخ الاولياء
والعلماء علم الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الاستاذ زين العابدين بن الشيخ
ص 158 القدوة محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى وكلاهما * من أهل ود هذا الجناب العلى
النبوى وأوليائه محبة وصداقة يفاتحون مولانا الامام أمير المومنين أيده الله على تتابع
الاناء مع كل ركب برسائلهم وبهداياهم من كتب العلم التى هى أنفس الذخائر عندهم

أيدهم الله فكتب اليهم مع صاحب الركب عامئذ فى معنى الجواب والتعريف بالفتح والتماس الادعية الصالحة منهم ومن أهل الخير والصلاح هنالك بالحرمين الشريفين على أيديهم ونص الخطاب الشريف من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيز نصره أوامرهم وظفر عساكرهم الى الفاضل الذى اعتجر بلباس التقوى وهو زين العابدين وتحلى بحلى المعارف الربانية وملك حلية العارفين والسابق الذى برز فى الطريقة وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ففاوت شاو السابقين والعارف الذى تجرد عن رعونة الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجديد الى حضرة الواصلين الفاضل السرى العارف الربانى سلالة العلماء سبط الفضلاء الشيخ أبى عبد الله زين العابدين بن أبى الشيخ السامى المقام قضب المشايخ الاعلام فخر علماء الاسلام الشهير البركة فى الانام تاج العلماء قدوة الفضلاء كنز الاولياء علم الطريقة أستاذ الشريعة والحقيقة الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى أبقاكم الله وأرواحكم تتعطر برياحين الانس فى حضرة القدس وتتنسم النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج النفس ومعارج النفس سلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله يفيض أنوار عناية أحمد على صاحبه الصديق مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى اختار لمرافقته صاحبه فى الغار والعريش والطريق والرضى عن ءاله ايمة الخلق وسيوف الحق وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق والدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى المنصورى الاحمدى بنصر تتسق به الفتوح اتساق الاسلاك وسعد تدور على قطبه دائرة الافلاك فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله وصنع لهذه الدعوة الامامية مفعم السجال واسع المجال وعزماتها الماضية تبعث الى العدى رسل الاوجال وتسرى اليهم سرى الاجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور مؤذنة بانتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور هذا وانه اتصل بعلى مقامنا كتابكم الذى
ص 159 صدحت على أفنان البلاغة ⋆ سواجعه وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت فى كل معنى من المعانى أساليبه ومنازعه وتالفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه وأينعت بأزهار المعارف الربانية اباطحه الفيحاء واجارعه ومعه المنظومات التى سحت بالحكم ديمها ورسى فى البلاغة قدمها وربى فى منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها فحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا فى مطلعها والبدور ليلة تمامها اعجابا بها وتنويها بمهديها وابتهاجا بالخوارق التى أطلق الله على لسان مبديها والى هذا فيحيط بعلمكم أن هذا المقام العلى

مقام تنفق فيه على الدوام ان شاء الله سوق بضائعكم وتنموا فيه مع الايام سعود مطالعكم وتسموا فيه على كل مقام مقاماتكم وتستوضح فيه على المحبة الصحيحة اماراتكم الواضحة وعلاماتكم فعلى هذا تعقد منكم الخناصر وتشد الاواخي والاواصر بعز الله ومنه ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذى هو اليوم العدو الاكبر للاسلام وعميد ملل التثليت وعبدة الاصنام لما ءانس من تلقاء جنابنا العالى نار العزم تلتهب التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا وهممنا الشريفة قد همت بتجديد الاسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول وعلم أن الحديث اليه يساق والى أرضه بالخسف والتدبير بحول الله يهفوا كل لواء خفاق رام خذله الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت فى عضدنا الاقوى وعزمنا الذى بعناية الله يزداد ويقوى فرمى بمخدول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما الى مليلة أحد ثغوره المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التى الى كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة ان شاء الله من بعدنا الامير الاجل الارضى صارم الحزم المنتصر وحسام الدين الامضى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله وصل الله لركائبه الظافرة التأييد والظهور والعز الذى يستخدم الايام والدهور فالتف عليه ممن بأباطيله الواهية البناء من أوباش العامة والغوغاء ومن قضى له من اجناد تلك الناحية بالشقاء جموع تكاثر الرمل وتفوت الحصى والنمل لاح بها للشقى خلب بارق اكذبه منيته فصمم نحوه ولدنا أعزه الله تعالى بجنود الله التى اليه وبعساكر تلك الممالك
ص 160 التى القينا زمام تدبيرها فى يديه ★ فما راع الشقى الا انقضاضه عليه من جوه انقضاض الاجدل وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود وتفلق الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد الله للحين وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغر محجل وساعة انزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل فاستأصلتهم الشفار وحصدت هشيمهم المصدح السنة النار وقبض على الشقى فى يوم كان شفاء للصدور ومنتزها لحملة السيوف وربات الخدور وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لولدنا اعزه الله تعالى فى خاصة أجناده ونهض وحده بأعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون فلم يحتج الى انجاده من قبلنا ولا امداده والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفناكم لتاخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التى اسرت الاسلام وأساءت بحمد الله عبدة الاوثان والاصنام وتعلموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ ءاراء الحزم واعمال عوامل الحزم الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التى عادت عليه اسفا ولهفا واعادة ما كان أسلف من ذلك ان شاء الله بالمكيال الاوفى

وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا ان شاء اللـه بادعيتكم الصالحة أوقات الاجابة وتحرصوا على التماسها لنا هناك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خشوع وانابة ان يويدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمـان بهـا واحياء اطلالـه الدرس حتى ينطلق لسان الاذان فى أرضهـا بكلمة الله التـى طالمـا سكت عنها بدائـه وخرس وشرق بريقه فغص واحتبس فبيده الحول والقـوة وعنايته العناية المرجـوة ثـم نوصيكـم بحسـن الوقـوف لاصحابنا فيمـا يشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنـا الكريمة الامامية العلية ثم الاتحاف بديـوان الشيخ والدكم التماسا لجميل بركاته وتمسكا بما سبق من الاجازة العامة وسائر منظوماته وموضوعاته ومروياته وهذا موجبـه اليكـم وسلام الاثر معاد عليكم ورحمت الله وبركاته فى ربيع النبوى عام خمسة وألف (1) .

ذكر الايقاع بعرب الغـرب أهـل النكـث والانحـراف

قدمنا ما كان من استلاب هولاء القبائل من ميزة الجندية التى كان البسهم اياها أمير 161 ، الموم‍نين وأخوه المعتصم عن الزحـف تحـت راياتهم الى مراكش وما كان من انتـزاع ٭ الخيل منهم على يد القائد بن بجة ومحمـد بن سليمان وردهم الى الاثارة التـى دربـوا عليها من لدن اسخطتهم الدولة فى أيام الامام رضى الله عنه على الانحراف الـى الاعـور بوحسون واستنزالهم من رتبة الخدمة الـى الانخراط فى سلك الرعايا الغارمة فانطـووا لذلك على الضغن للدولة من حينئذ وتربصوا بها الدوائر الى أن كان ما ذكرنا من ظهـور الناصر وهبوب ريحه الراكـدة فاغتنموهـا وحسبوها فرصة أتيحت لهم للافســاد علـى الدولة فانبعثت ضغائنهم من مكامنها وكشفوا وجوههم فى الانحراف والخلاف وتسايلـت رجالهم الى الناصر واكبوا على شراء الخيل والعدة والاستكثار منها وتشاغل عنهم أميـر الموم‍نين وولى العهد أيدهم الله حين صرفوا العزائم الى العدو فما فزعوا من حسم دائه واقتلاع جرثومة بغيه حتـى غلظت شوكـة هؤلاء القبائل وتكاثرت خيلهم وتجاوزت حد الاحصاء جموعهم لتراجع خارجهم المفترق على البلاد من ضغط المغارم وهبوبهم الى أوطانهم من كل أوب وصوب حتى ضاق عنهم نطاق الوطن وتراكمت حللهم السود تراكم السحاب المرزم فانبسطت فى ازغار وارخت على جوانبه سدول ليلها البهيم من سفح جبل لطة الى البحر والى سلا فغطـت السهـل والحـزن وملات الشعاب والاودية وحضـر معهم مـع الناصرين من خفت نهضتـه مـن جموعهـم القريبة من فاس وشغل الاخرون من يليهـم من الاجناد التى نقلها مولانا أمير المومنيـن من عرب مراكش والسوس أنصار الدولة الى

(1) ربيع الاول 1005 يوافق نوفمبر 1596 .

أوطانهم وأنزلهم بين اظهرهم ضغطا لهم وحذارا منهم من مثل هذه عن الحضور مع ولي العهد لينقصوه حصتهم ويزيد بمثلها في العدو فكانت بينهم حروب مدة أيام نهوض ولي العهد بالعساكر لجبل بني يزناسن ورجوعه لفاس الى حين الايقاع بالناصر وأضرموا الاوطان وراءه نارا وفتنة فاسفوه بذلك أيدهم الله واحفظوه فجهز اليهم العساكر اثر الايقاع بالناصر مع القائد أبي محمد عبد المومن بن ملوك ثم حدث له ما استدعى اليه القائد أبا محمد المذكور من الامور التي لايطلع عليها الا خاصة مثله فبعث عنه وأمر العساكر بالاقامة بمحلتها وبمكانها حتى يعود فبعثه سفيرا الى أمير المومنين أيدهم الله في شأن ما عرض لهم من المصالح المهمة فازدادت بذلك قبائل الانحراف جرأة وأوهمتهم أنفسهم في استدعاء القائد أبي محمد والاخذ بحجزة العساكر عن الزيادة اليهم وقبض عنانهم عن الاجلاب ما لا يطيقون فتداعت جموعهم الى الزحف تجاه قبائل مراكش والسوس أنصار الدولة الذين جاذبوهم الوطن وفغروا أفواههم لالتهامهم
ص 162 فجندوا جنودهم وتدافعت حللهم المائجة بسواد لايحصى فكاثروا العرب * أنصار الدولة وشمروهم عن البلاد التي أقطعوهم وادى بهت فاستندوا الى سلا وبلغ الخبر الى أمير المومنين بمراكش فاستشاط غضبا على أهل الانحراف وجرد عسكرا ضخما من عساكر النار رجلا وخيلا من جنود مراكش مساعير الحرب الذين طالما اصطلموا بجمرها وعززهم بجيوش جرارة من أهل الاسل وعقد على الجميع للشهم البهمة القائد أبي عبد الله بن بجة فارتحل بهم يطوى المراحل وأفئدتهم تلتهب حنقا على الاعداء الناكثين وعهد أمير المومنين الى ابن بجة أن لايبقى منهم ولا يذر فلما اطلت رايات عساكر مراكش اسود الحفائظ المبتزين لتيجان الاملاك على سواد الاشقياء الناكثين وقد كانوا جندوا الاجناد وكتبوا الكتائب وتجاوزت جموعهم حد الاحصاء ويقال كانوا زهاء ثمانين ألفا عشرين خيلا وستين رجلا وأعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا أجفلوا أمام الرايات اجفال الرئال امام اساد الغيل وقوضت حللهم تقويض اليل البهيم وانبثت في البسائط تبغي النجاء ولات حين نجاء فركبتهم العساكر ولصقوهم لصق الزروة للغارب فأمطرت عليهم السماء بموارج النيران وشهب الرجم وانقضت عليهم الخيل انقضاض الجوارح على الكراكي وأوغلوا في اتباعهم مستلين للارواح ومكتسحين للسرح ومنتسفين للزرع ومدمرين للوطن ولاذ الاشقياء بالاذعان وطلب الابقاء فسدت العساكر في وجوههم الثنايا والفجاج وجثموا على أنوفهم واقتعدوا لتف رياشهم فتتبعوا الخيل أولا فارجلوهم عنها ذكرانا واناثا فاستيقوا للحضرة اسرابا اسرابا فغصت بهم الحضرة وساحتها وضاقت بهم مرابط الملك ومزارع السلطان وافنا منهم الموت وبعث منهم الى ممالك السودان وتوزعتهم أيدى التفريق على الاجناد ثم طالبتهم العساكر بالناض فنفضوا

منها أكياسهم نفض الجراب ثم اكتسحوا الاموال والانعام ورضوا الازودة من الطعام ثم استلبوهم من الحلال والحرام وطووا البيوت والخيام فكانت هي الباقية على الاشقياء فانتبذوا بالعراء حفاة عراة جياعا كأنهم سكارى من رجة الصعق ثم انفثوا في البلاد متفرقين في سبيل السقاية والرعاية والحراثة بالخمس يتكففون الناس وأفقر منهم الوطن فلا تلقى به اليوم منهم انيسا ولا تسمع رغاء ولا صهيلا الا وعوعة الذياب في الاودية والشعاب وأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وكان من سر الله تعالى ومن أعظم الايات الدالة على عنايته بهذه الدولة الشريفة

ص 163 النبوية أن طوائف من هؤلاء الاشقياء كانوا عند تشتيت * شمل قبائلهم وتفرقهم على البلاد أيادي سبا الى وطن تامسنا لخصبها يعالجون المعاش وينتعشون بالحراثة فلما جاء الصيف أرسل الله عليهم نارا استاصلتهم بالحريق ورعت زروعاتهم رعي الهشيم فكانت تطلبهم في بطن الارض لالقاء انفسهم في المطامير فتفيض أنفسهم من لهيبها وتتبعتهم يتخطفهم لسانها من بين من جاورهم يمينا وشمالا حتى اذا استأصلت حبوبهم وافنت كثيرهم اطفأها الله من عنده فلم تعد على أحد سواهم على افراط خصب الوطن وكثرة من ضم من شعوب وقبائل وعجل الله لهم عذاب النار في الدنيا ايذانا بعذاب الاخرة فكان خارقا عظيما أظهر الله به صنعه لهذه الدولة الشريفة فيمن شقي بعصيانها وسعى في خذلانها وضرب به مثالا لاولي الابصار .

(أوضاع أوربا الغربية في السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر) (1)

فأظلم (2) الجو بالفتن على طاغية قشتالة منذ نزوله عليه وتهالكت في مشاقته ملوك الامم النصرانية فكان أشدهم تكالبا عليه وأكثرهم جرأة على الاجلاب عل ممالكه والتضييق عليه والاخذ بمخنقه ايزبيل (3) سلطانة ممالك بلاد نكلطيرة لاغراء مولانا أمير المومنين اياها بمناوأته وشحذ عزائمها على عداوته ومظاهرتها على مغالبته بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها فنصبها أيده الله في وجه عدو الدين وقيض له منها أيده الله بمقتضى حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياطه شاغلا يشغله تفرغا واستجماعا الى ما كان أيده الله صرف اليه وجه عزائمه الماضية من تجهيز العساكر

(1) اقتضى ترتيب المعلومات وتنظيمها وضع هذا العنوان، وللاشارة الى الاحداث التاريخية الهامة التي تضمنها المخطوط والمتعلقة باوربا الغربية في اواخر القرن السادس عشر مما يندر وجوده في مصادر أوربية معاصرة .

(2) الانتقال الى صفحة 134 .

(3) ايليزابيت ملكة بريطانيا (1557 – 1603) .

الى بلاد السودان التي فتح ممالكها وملك ارضها فتم له ايده الله في ذلك تدبيره وكمل
ص 135 في نكاية عدو الدين مراده وقصده واغترت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرته * وطاوعته
على ما اغراها به وتوكأت على منساة الاسناد الى عالى جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه
والاستمداد من شريف ايالته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خطتها
فسمرت لمشاقته ومضايقته فنازلت اولا بعساكرها الاشبونة(1) قاعدة بلاد برتقال
من ممالكه ثم رام مناهضتها واحتفل في تجهيز الاسطول لمنازلتها فأوقعت به
أساطيلها وارتد على اعقابه مفلولا فازدادت بذلك جرأة عليه وبالغت في الاحتفال له
فملأت عليه البحر اساطيلها وجرت عليه هزائم واتيح لها عليه الظهور واوغلت في
مضايقته حتى هجمت اساطيلها على أسطوله بمرسى قادس(2) من سواحله فنالت منه
سبيا وتغريقا وملكت عليه البحر اجمع فكادت اساطيلها تقطع عنه منافع الهند ومجابيه
وعطلت على بلاده مرافق البحر والتجر وضاق منها مخنقه الى اليوم ثم ساجلها الافرنج
في الانتفاض عليه والمجاهرة بمشاقته والاجلاب على ما يليهم من اطرافه وممالكه وذلك أن
ملك الافرنج كان في القديم من اضخم الدول وافخم الممالك واوسع الايالات خطبة واعمالا
ثم رجع القهقرى شيئا فشيئا حتى ضاق نطاقه وتوزعت ممالكه فغلب على
بعضها طاغية قشتالة عند ركود ريح الدولة الافرنجية وتقاصر قدرتها بالضعف
العارض للدول عند هرمها ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور
أهل تلك الممالك الى الدين الحادث في الامم النصرانية المعروف بلاتريان(3) فكان
ذلك اعون على خذلان ملك الافرنج لاطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على
دينه الاول ورام رعاياه يسوقهم بعصى القهر الى دينه فاستعصى عليه شأنهم فتجافى عنهم
وتركهم ودينهم مداجاة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث ملكه ذكرا والبنات لا يرثن
الملك في دينهم كما يرثن عند غيرهم من النصارى فلم يكن اقرب اليه واحق بارثه
من ابن عم له سلطان اهل نبارة(4) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة وكانوا كلهم على دين

---

(1) قامت القوات البريطانية اثر انهزام الاسبان في الارمادا بحملات عسكرية بحرية ضد لشبونة خلال ماى ـ يونيه 1589 ولكنها فشلت ، وتشير الوثائق الانجليزية المعاصرة بان فشل الحملة يرجع الى تراجع المنصور عن تقديم المساعدات التى وعد بها ، والواقع هو أن المنصور قد استغل الصراع الاسباني ـ الانجليزى للضغط على خصمه فيليب الثاني ملك اسبانيا الذى اشترى حياد المنصور بالتخلى عن مدينة أصيلا يوم 13 سبتمبر 1589 . ومن الجدير بالذكر هو ان بالوثائق المغربية رسالة للمنصور تتضمن معلومات هامة وقيمة عن معركة الارمادا البحرية التى جرت بين الاسبان والانجليز صيف 1588 .

(2) تم احتلال الانجليز لمدينة قادس خلال يوليوز 1596 وما اورده الفشتالى من معلومات قيمة عن المضاعفات الخطيرة التى ترتبت عن احتلال قادس يدل على سعة افق مؤرخنا ومدى اطلاعه على مختلف الاحداث والتطورات المعاصرة .

(3) يعنى الحركة اللوثرية نسبة الى مارتن لوثر زعيم المذهب البروتستانتى .

(4) يقصد امارة Navarre الفرنسية

لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة فى ملك الافرنج لانقطاع وارثه وتحول دين أهلـه فاعتمل فى التضريب بين سلطانهم وقومـه واغرى بعض اهل بارس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهـم وتوجس فى نفسه من ذلك فانتقل عن بارس الى روان (1) احدى ممالكه ووصل يده بيد ابـ عمه صاحب نبارة(2) ثـم عاود باريـس منازلا لها فدس اليه اولياء طاغية قشتالة من اهلها بالغدر على يد قسيس فطعنه ثم غالبه السلطان المطعون على سلاحه فقتله بـه في الحين ثم هلك هو من طعنته فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكـة افرانصـة برطانية ويرجوم(3) والبعض مـن نبـــارة
ص 136 وصارت باريس بعد خروج صاحب افرنصة عنها ليجيه(4) ومعناه جماعة تديـر الامـــر وصاحب قشتالة معهم فى تلك الليجه كأحد تلك الجماعة وكان يمدهـم بجيشـــه الذى بافلانفس(5) ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان الهالك باريس واتصل أهل افرانصة وانضم بعـض الى بـعض فقويـت شوكـتهم واستفحل امرهم وتعاظمت صولتهم فسمت هممهم الى استرجاع ممالكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكـه فصمـــدت عساكـرهم الى باريـس فنازلوها واجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهـور عليــه فتهالكوا لهذا العهد(6) فى مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخنقه وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته ثم عززوا بثالث الاثافى من أهل فلنفس(7) وهم أهل مملكة الطاغية القديمة التى منهـا أصله وقد انتقضوا عليه وصاروا عليه البا مع الافرنج وأهل بلاد نكلطيرة فاضرمـوا عليه جهات ممالكه نارا وفتنه وصلى بنـار حروبهم برا وبحرا فظهـروا عليـه ظهـورا أطمعتهم فى انتثار سلكه ومقاسمته فى ملكه وفى هذا التاريخ صمد اليه اسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار عـلى احتـفال عظيم يقدمها دون كشطوبان (8) الـذى كان اوفده على امير المومنين والده دون انطون سلطان برتقال النازع الى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبمـــا قدمنا وطارت لذوى زحفها طيارات الطاغية واغربته الناعقة وتصاعدت مـن الذعـر الى اوكارها مشرقة ومغربة حذارا من انقضاض الفتح الكواسر عليها من مراكب اهل نكلطيرة

(1) مدينة Rouen الفرنسية
(2) يقصد Heuri de Navarre
(3) يقصد
(4) يقصد بكلمة ليجيه La ligne
(5) يقصد Flandres
(6) يعنى عام 1596 .
(7) يقصد ثورة الاراضى المنخفضة.
(8) Don Gristophe بن Don Autonio الطالب بالعرش البرتغالى .

المائلة لعظمها وجفانها على تيح الموج كالمعاقل الحصينة فاجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من ارضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه والعقيلة المائلة على كرسيها فى بحر الزقاق انفة وعزة وتحصينا فافتض عذرتها اسطول الانكليز واستباحوا حماها وكانت اغربة الطاغية الاندلسية واسطوله المعد لسفر الهند جاثمة عليها ومحامية دونها فأوجف عليها اسطول الانكليز ولم يكن لنا من قبل بمدافعته فأوقع بها وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالاموال يقال فيها من السلع النافقة بارض الهند النامية الارباح يساوى المئين من الالاف فاتيح للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسحوا الاساطيل ثم اضرموا أعوادها نارا فاتى عليها التدمير تغريقا وتحريقا ثم

ص 137 اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلبا وقهرا فاستباحوها ★ واطلقوا أيدى العيث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبحرة وتجائرها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها فاحاطت العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الاحمر فالقوا باليد واستأمنوا وطلبوا الابقاء على مال بداره فداء يقال انه مائة وأربعون الف دقاة ويقال مائتان وبعثوا الى قومهم باشبيلية فأعطوها عن يد فاخرج عنهم عساكر الانجليز فخرجوا متسايلين الى ارضهم ناجين بانفسهم من بين الناب والظفر ومغتنمين الابقاء عليهم واجتمعت على المدينة العساكر وسائر عمارة الاسطول وتهالكوا فى تخريبها واضرموا بيوتها نارا فاصرعوها الى الارض والصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت اطلالا دارسة كان لم تغن بالامس واقاموا عليها ستة عشر يوما منادين هل من مبارز فأعطاهم الطاغية الاذن الصماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المصيبة وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث فى سواحل الطاغية وتدمير ارضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة فى نكايته وهو متطامن لصولتهم ومستكين لا ينبس له عرق بحركة ولا يختلج منه خافية ولا قادمة لنهوض ولا مدافعة والبسته هذه المعرة الشنعاء الذل والصغار وجللته الهوان عند الملوك اضداده فاطمعتهم فيه وفغروا أفواههم من كل جانب الى التهامه مكن الله منه بعنايته وعزته حزب الاسلام وجعل ملكه نهبة سيوف مولانا الامام .

ومازال(1) ايده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك فتقتاد

---

(1) الانتقال الى صفحة 303 حيث يشير الفشتالى الى عزم المنصور على استرداد الاندلس وما قام به من محاولات لاستغلال الصراع القائم بين الاسبان من جهة والانجليز والفرنسيين والهولنديين من جهة اخرى وكيف أن الاسطول المغربى قد اصبح قوة يخشى باسها فى الدفاع والهجوم ، وقد قام الاسطول المغربى بهجومات على جزر كناريا واحرز انتصارات عديدة بها كما يؤكد ذلك الفشتالى .

السبي والانفال ولا كالجزائر الخالدات التى ضرستها بانيابها واضحت مشمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيها المغرب بالظبـاء والعفر من نسائها العربيات الاصل والخلق يسحبن الاذيال ويمشين مشى قطا البطاح تأؤد ارهب الحصور رواجح الاكفال وهـو اليوم ايده الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوى الاسر بحمد الله وافر العدد والمدد مراش الجناح بما اتيح لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع فى الانفاق الذى لا يخشى عياة ولا فقـرا وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها عـلى تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفقانا وسرعة وطيرانا كمل الله تعالى قصده وأنجز وعده فانه احد وجوه الحيل التى كان بنى ايده الله على أساسها الوثيق نيته الصالحة عند انبعاث عزيمته على تجهيز العساكر لبلاد السودان فى تلك داءه ونصر لوائه ان يجيب فى هذه نداءه ويشحذ عزائمه الماضية واراءه حتى يبلغ امل الاسـلام فى الجهاد ويفتح من أرض الاندلس من اقصى البلاد والاقطار البعاد بعزته وقدرته .

واذ(1) جرت بنا جياد الاقلام فى ميادين التقييد الى هذا المدى البعيد عن دولـة مولانا الخليفة حامى بيضة الاسلام امام الامة كافل الملة تاج الخلافة مركز دائرة الامامـة
مولانا * الامام المجاهد ابى العباس المنصور بالله امير المومنين أيده الله فقد ءان لنا أن ص 170
نختم هذا السفر بمئاثره الشريفة المنيفة التى وعدنا اول الكتاب بسوقها الى أن يسنى الله تعالى بفضله على يده من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به ان شاء الله سفرا ءاخر متصل موصول الاخبار المتقدمة بصلة من اخباره الحسان وعائدة من مئاثره الكريمة الباقيـة مع الايام وبالله نستعين وبحبل عضده نعتصم واياه نستغفر من زلل القول والعمل انه هو الغفور الرحيم .

(الناحيـــة الاداريـــة) (2)

واما(3) العدل الذى قوام الملك ونظامه فقد أجمع أنه ماريء من ملوك العصر اعدل منه ايده الله وما فى الارض اليوم مملكة جارية على حكم طريق العدل وقوانين الشرع ومناهيج السنة احسن من مملكته ولا سلطان أعدل من سلطانه ولا وطن اكثر رحمة واسلم اعتقادا واوضح مذهبا وامتن دينـا واكثـر لاهل الخير والصلاح جمعا وابعد عن البدع والمناكر نزاهة واعتصاما أجمل من وطنه المبارك وايالته الكريمة الامامية وهذا بحيث يعترف

(1) الانتقال الى صفحة 169 .
تبدا من هنا دراسة المظاهر الحضارية فى عهد المنصور .
(2) اقتضى امر تنظيـم المعلومات الحضارية فى عهد المنصور وضع هذا العنوان الخاص .
(3) الانتقال الى ص 193 .

به الصديق والعدو ولا يجحده منصف والمكابر منقبة خص الله بها هذه الايالة النبوية والامامة الكريمة الحسنية ليدل بها على شرف النجر وكرم المحتد وطهارة الاغراق ولما ورد أن الخلافة انما خص بها من يشاء وشرعها فيهم لكونهم مجبولين على العدل الذى هو أقبح الرذائل حسبما نص على ذلك أيمة المذهب وعلماء السنة وقد صدق فى ذلك الخبر الخبر لما شاهدنا من سير الخلفاء رضوان الله عليهم ومعدلتهم فى رعاياهم وامامنا ايده الله اجراهم فى ذلك على سنن والده الامام رضى الله عنه الذى هو واسطة عقدهم والقطب الذى عليه مدار فلكهم ولذلك كثيرا ما نراه ايده الله يوثر سيرته الحميدة ويجهد نفسه فى سلوك طريقه القويمة وجادته المستقيمة ويمضى رسومه الكريمة على الاطلاق ويامر لى انا عبده ومن خصه من كتاب الانشاء ببابه العالى بكتب ما يجدد بعلامته الكريمة من رسوم اسلافه الكرام والاوامر القديمة بالتجدد على كل ما يرفع الينا من كتبه رضى الله عنه على الاطلاق من توقف ولا اعمال نظر فى مضمنها ايثارا منه ايده الله للعدل وعلما منه بأن الامام رضى الله عنه فى ذلك ثالث العمرين وفاروق زمانه بلامين ومئاثر امير المومنين أيده الله فى ذلك يضيق عنها حجم الكتاب خصوصا ما يرجع الى المحافظة
ص 194 على حدود الشريعة فلقد كان * ايده الله فى ذلك صلب العود قوى الشكيمة أشد الخلفاء انقيادا للشرع منصفا حتى من نفسه فيما يتوقف عليه حكم الله ومن اغرب ما يحكى فى ذلك من مئاثره ايده الله على حسن معدلته ايده الله وشرف انصافه قضية البغل وكان من خبرها ان رجال قائد رواء امير المومنين والقيم على مراكب الخلافة العلية عثروا على بغل عليه سمة دواب امير المومنين التى تمتاز بها فرفعوه الى قائد الرواء وادعى الرجل ملكيته فترافعا الى قاضى الجماعة الشيخ الفقيه العلامة الاوحد ابى الفضل قاسم بن على الشاطبى فى يوم القعود للفصل بالمحكمة من ديوان الخلافة العلية فادلى قائد الروى بدعواه محتجا بسمة لامير المومنين التى على البغل فعارضه الرجل فدعى الملكية وطالبه القاضى بالبينة فلم يحضرها فاستفهم حينئذ قائد الرواء عن البغل أله أم لامير المومنين فقال بلى هو لامير المومنين فقال اذن يحلف امير المومنين على بغله يمين الاستحقاق وحدثنى القاضى ابو القاسم هذا أنه لما رفع القضية لامير المومنين وعرفه بتوجيه اليمين عليه سر ايده الله وامر من حينه باسلام البغل الى الرجل من غير أن يبدو عليه شىء من تخليل الانقباض للحكم عليه ولا لاحت عليه شواهد الانفة التى تلحق جبابرة الملوك الذين لايميزون حقا من باطل وحاليا من عاطل قلت والولد سر ابيه فقد روى ان امير المومنين على بن ابى طالب رضى الله عنه تحاكم مع رجل فى حدود أرض كانت بينهما الى القاضى شريح رحمه الله فانكر الامام رضى الله عنه ما ادعاه خصمه فقال شريح للمدعى الك بينة فقال لا فقال لعلى كرم الله وجهه اذن تلزمك اليمين على يمين على نفى

دعواه فقال علي رضي الله عنه الحمد لله الذي اراني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يقضي لمساكينها على خلفائها فكانت هذه المنقبة الجليلة التي لمولانا الامام امير المومنين ايده الله بها الاسوة الحسنة بجده الامام علي كرم الله وجهه اعظم منقبة تروى وءاية تتلى ومأثورة على منصة الاشتهار تجلى ومن مشهور مآثره في العدل أيضا أيده الله غلظته على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وموالات تكلمه عليهم وشمولهم بأنواع العذاب والانتقام وقذفهم في السجون والمطابق مقرنين في الاصفاد ومصادرتهم وغلق أبواب الشفاعة دونهم حتى يهلكوا تحت العذاب أو يصيروا بتوالي الاحقاب ونسج عناكب النسيان عليهم في عداد الاموات كما فعل أيده الله وأجزل مثوبته بأصحاب صاحب الشرطة بالحضرة عند أمير المومنين وكان رجلا منبوزا عند الناس بارتكاب الجور والحيف وقساوة القلب واستحلال أموال الرعايا بالنهب لايرقب في مومن الا ولا ذمة
ص 195 حتى شهر بذلك وجلب اليه مقتا * أوجب منابزته واطراحه وأقعد به عن الاستعمال في الخطط الى هلم وكان ءاخر الاعمال التي أوبقته وابارت صفقته وجلبت لسوقه الكساد وكسته مذلة العز أن أمير المومنين أيده الله كان سرحه في عام ثلاثة وتسعين من معسكره بتانسيفت في الاجناد مع مولاه قائد الموالي المعلوجي من عساكر النار بحضرته محمود بن علي زرقون لاستيصال شافة أهل الدعارة والفساد بدكالة وبلاد حاحة وتمهيد السبل وانتزاع خيل العرب وتدويخ المنحرفين عن الطاعة وجعل أمر الجيش لمولاه والنظر في أمور الرعايا لداود بن علي فأساء السيرة وأطلق على الرعايا من عماله النار الموقدة واستباحهم بالنهب ولما قفل للحضرة تعلق باذياله أصحاب الظلامات واجتمع منهم عالم كبير فغصت بهم أبواب قصور الخلافة وأفنية دور الملك وشوارع الحضرة وارتفع للسماء ضجيجهم ضارعين شاكين فامتعض لذلك أمير المومنين أيده الله واشتد غضبه لما وقد في صدره من الشفقة على رعاياه فأمر بداوود فأحضر بين يديه وقرعه بالتوبيخ والملامة فتنصل من العهدة وبرأ منها الى العمال المباشرين للرعايا فالزمه أمير المومنين باحضارهم فجيء بهم كافة فتل بهم الى السجن فنظمت في أعناقهم السلاسل والاغلال وضربت على أرجلهم القيود ثم جلس امير المومنين أيده الله لسماع شكايا الرعايا وأذن لهم في رفع ظلاماتهم فكان يوتى بالعمال أيام قعوده للفصل مقرنين في الاصفاد حتى تقضى منهم حقوق الرعايا بمجلس الحكم فيعودوا الى محبسهم واستمر الامر على ذلك أياما عديدة يباشر أمير المومنين أيده الله النقض والابرام بنفسه احتسابا لله ووفاء لحقه في عباده الذين استرعاهم له وجعل اليه كفالتهم حتى استوعب أيده الله النظر في أمور أهل الظلامات وانصفت الحقوق وردت المظالم وجبرت القلوب فارتفعت الاصوات وامتدت الاكف بالدعاء له والضراعة الى الله في استدامة أيامه وكريم امامته ووارف ظل

عدله ثم شفع ذلك أمير المومنين فاسقط على كافة من استعمل عليه داوود عماله من الرعايا تطهيرا لدولتـه من ءاثامـه وتكفيرا لذنـب استعمالهم مثقالا عن كل نائبة فاعتاض لهـم أمير المومنين من عنده ودفع لهم خراجها من بيت ماله وكان الواجـب في ذلـك أمـوالا عريضة فارتفع بذلك النداء بكل مصر وفـي كل أرض باسقاط ذلك تخفيفا ورحمة فانطلقت ألسنة الشكر وارتفعـت الى اللـه الكلمـات الطيبات الذكر داعيـة لاميـر المومنيـن بما نرجوا الله أن يطرز به صحيفة أعماله وبره ثم جعل أيده الله فئة العمال وديعة السجون

ص 196 ورهينة القيود فضرب عليهم بسور من الاهمال والاعراض ★ لاتخترقه شفاعـة حتى هلـك جلهم تحت عذاب السجون ومحنة الثقاف الى أمثال أمثال هؤلاء ممـن يشـق حصاءه مـن جبابرة العمال وقسات القلوب اللذ استصفيت أموالهم واصطلت نعمتهم وغودرت ديارهـم بلاقع واودعوا بطن الرمس من طول الثقاف وتوالي السجن اراحة للبلاد والعباد من سوء ملكتهم نفعه الله وأثابه على صالح نيته ومن مناقبه الجليلة التي اشتهر منها أيده اللـه فضله ووسع الورى عدله الزامه العمال غرم ما تحلف عليه الرعايا انهم جاروا عليهم فيه وانتهبوه منهم حيفا من غير احتياج الى اقامة بينة احتياطا منه ايـده الله عـلى الرعايـا وكسرا لشوكة العمال جاريا في ذلك على ما ذكر صاحب المازونية في قضية الفقيه الامـام الصالح عبد الرحمن المعروف بشبطون بفتح الشين والباء الموحدة الاندلسي وعلى ما ذكره أيضا الامام العالم أبو العباس أحمد ابن يحيي الونشريسي في القضية نفسهـا في كتـاب الفائق له رحمه الله وعلى ما استحسنه امـام المذهب مالك بن أنس رضى الله عنه فجزاه عن الاسلام والمسلمين خيرا وكان أيضا أيده الله قد سوغ للقاضي توجيه الحكم على مـن يتعين عليه حق في داره الكريمة وكم شاهدنا من اماء استاقها عمال الخراج هدايا لـداره العلية فاذا قام من الرعايا من يدلي بحق في بعضها ولو بعد حين أمر أيده الله باخراجهـا من قصره لدار القاضي حتى تستحق وربمـا وجه القاضي في ذلـك من عنـده من غيـر مشورته ثقة بما يعلم من عدله الى قائد القصر وكبير الموالي العبدي بأبـواب دور الخلافـة عنبر الخصي فيامره باخراج من يتعين فيـه من رقيق دار الخلافة فيمتثل أمره عملا على ما تقدم من اشارة أمير المومنيـن أيده الله ولو بسطت الكلام في هذا الباب لاستقل منه تأليف وحده بعدله أيده الله الذي جدد بـه ءاثار من مضى من الائمة الخلفاء أشهر بحيث لا يخفى واما سيرته الكريمة أيده الله فـي ملكه ورعاياه وخروجـه ودخولـه وجلوسـه وركوبه فاقول كانت سيرة الخلفاء رضـوان الله عليهم من أول الدولة الى أيام المتوكـل عفى الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية ساذجة غير مرتاضة للقوانيـن التي تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها الى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملـك

أمير المومنين المعتصم رحمه الله فجنح بالدولة الى السيرة العجمية بما كان تقريرها رحمه
الله على السيرة العربية كما قدمنا وحمل الناس عليها حملا عنيفا فشق عليهم ذلك
لتنافر الطباع واضطربت الاحوال لتغيير العادة وايناس الامور الغير المعتادة ثم جاء
ص 197 الله * من مولانا الامام المنصور بالله أمير المومنين أيده الله بالطبيب الماهر والحكيم
المدبر الباهر الذى يحيل الصبغة ويولف الطباع الشادة فلم الشعث وجبر الصدع
وسكن الهيعة ورتب الالقاب وواخى بحسن سياسته وحميد سيرته وجميل معدلته بين
الشاة والذيب والضب والنون والعير والبعير وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة
الواصلة وقربى الصداقة الجامعة وندب لكل منهم أهل بلواه من الصنفين فاختص رؤساء
العرب وأكابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل اليزنية واصطفى من
العجم موالى انبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا
أضخم حالا وأعظم شأنا من أمكر ناحية فمن الاكابر المشاهير من الطبقة العليا منهم الذين
لهم مزيد الحظوة والمكانة والتقدم على الجماعة كبيرهم سنا مولى أمير المومنين أيده
الله ولزيم بابه العالى من قبل الخلافة منصور باى لان باى لفظة عجمية معناها قائد القواد
وهو لقب يختص به عندهم قائد جيش الاصباحية من جيوش النار شرفه أميرالمومنين
وميزه بتسميته تنويها لما رقاه لهذا العهد من قيادة الانكشارية كانت له أولا الى قيادة
الاصباحية ثم للفتيان الخاصان المقدمان على سائر الموالى بأبواب الخلافة العلية أبو الثناء
محمود صاحب خزائن الدار وقائد جيش الموالى المعلوجى من عساكر النار المعروف
بجيش الانكشارية وصاحب فتح ممالك السودان الفتح الثانى ثم جودر قرعه فى
الحظوة والمكانة وقائد جيش الاندلس من جيوش النار وصاحب فتح الاقطارالسودانية
الفتح الاول والمخصوص بمزيد الاستعمال فى الولاية وتقليد الخراج والجباية ويلحق
بهما الفتى عمر رديفهما قائد جيش أهل السوس من عساكر النار بحضرة الخلافة
العلية وتلى هذه الطبقة فى الجلالقة فئة أخرى ردفا لهم فمنهم حيوان وبختيار ولبيب
وبغا وفلان وفلان من أمثالهم ومن دونهم من ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية
وكانوا عددا جما يضاعف أمير المومنين منهم مئون بما كان أيده الله عنى لعهده الكريم
بجمعهم والاستكثار منهم وتفريقهم واحظائهم واستكفائهم فى خواص أمور الملك والثقة
بأمانتهم على المهجة وانتقاهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه ومناولة طعامه والوقوف
على رأسه وموالاة ركابه متجملين بالملابس الجميلة والديباج وسائر أنواع الحرير
والمناطق المذهبة والسيوف المحلاة والعمائم الضخمة الموكلة ببديع الصنعة المحكمة على
رءوسهم كالصوارج فصاروا لذلك أبهى حلل الملك وطرازا على ملابس الدولة واتخذ من
ص 198 هنا الجنس الذى هو جنس العجم الصنف المسمى * بالبياك وهم أهل القالنس الصفرية

المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبة جلوسه من الايوان في الحضر وأمام فسطاط جلوسه في السفر والصنف المعروف بالسلاق وهم أهل القلانس الطويلة البينة مسبوغة على المناكب ويناط من أعلا الجباه جعاب صفرية مذهبة يقف هؤلاء خلف البياك سماطين ايضا من خلف البياك الصنف المعروف بلبردرش أهل اللقاقيف وهي رماح قصار غليظة العصى مغشاة بالحرير وغير مغشاة ومرصعة بمسامير بيض وغير مرصعة ركبت عليها اسنة عظام وزجاج هائلة تنبت من ريشتى كل سنان منها أضلاع مستقيمة وغير مستقيمة يقف هؤلاء خلف السلاق سماطين أيضا ثم الشنشرية وهم الذين يتولون مناولة لطعامه وصنعا ورفعا وغسلا ومسحا جعل نظرهم لقائد سفرته وقيم جفانه ومرتب صحوف خوانه بختيار مولى أمير المومنين ومن سباياه بوادى المخازن ويقال انه ولد القنت دون ثم القبجية وهم حفظة الابواب وحراسها قدم عليهم حاجب بابه العالى ونشاة دارهم الكريمة القائد مولود مولاه ثم خدمة سريره الكريم وانماط جلوسه وسدنة كرسيه كل هؤلاء لايحصوا من غاشيتهم أبواب الخلافة وأواوين الامامة يتداولون بها وظيف الخدمة وملازمة الابواب الشريفة كل يوم مناوبة وتزيد القبجية على من سواهم بمبيت طائفة منهم تحرس الابواب ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بقصور الخلافة ثم الشواش وهم الطائفة التى تتولى ضبط الجيوش عند المصاف في حرب أو سلم على الكتب الى الجهات والاقطار بانهاء خبر أو نفوذ أمر أو تقريع ظالم أو جائر أو تصفيد خارج ولا مكان فى المناوبة بين الطبقات المرتبة لملازمة أبواب الخلافة العلية وكل هذا مما زادت به دولته الشريفة على سائر دول أسلافه الايمة الكرام وخلفاء الاسلام بل وعلى سائر الدول بما جمعت من ربى العرب والعجم والفخر الذى ما اتفق لاحد من الامم وان كان أخوه المولى عبد الملك أمير المومنين المعتصم بالله قد عانى شيئا مما وصفناه لاكن كانت أيامه من قصر عمرها وكثرة أهوالها كخيال طارق وخلب بارق لم تستقر فى شيء أحواله ولا تمت في كل ما يروم أعماله رجعنا الى ذكر سيرة مولانا أمير المومنين أيده الله وكان اذا ركب أيده الله فى العيدين للمصلى أو خروج الى حركة أو دخول منها أو لملاقاة ولي عهده وهى الايام التى فيها الاحتفال وتتظاهر بها جنوده في زيها الذى هو شعار الاسلام وزينة الايام جندت الجنود وكتبت الكتائب ومتدت العساكر ★ أمام موكبه العظيم حبلين يتقدم الحبلين لواء من كل واحد منهما عند منتهى الحبل وكل قائد من قواد عساكر النار يقف عند انبعاث حبل جيشه تحت ألويته محفوفا بجيش من روساء جنده أهل الخيل الذين يدعون باكباشيات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه من خلفه وهكذا متقهقر الى أول انبعاث الجيش من تلقاء أمير المومنين وكل يعرف مركزه ورتبته لايتعداه الى غيره بتقديم أو تاخير ولا يجد السبيل الى ذلك ص 199

لوارد والترتيب الذى جرى عليه العمل فى عساكر النار بالحضرة أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقه وكل واحد من هذين العسكرين ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالى العلوجى ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل فى زمرتهم وهذان العسكران المجران يسيران صفين متساويين لتعادلهما واتحاد رتبتهما واستواء منزلتهما فى كل شىء حتى فى التقديم على سائر الاجناد عند العطاء فتارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء مناوبة غير أن جيش الموالى الاعلاج يحظى بالمسير فى الميمنة لمزية الولاء وكلاهما يحظى بمولاة ركاب أمير المومنين يتقدم عليهما قائداهما الفتيان الخاصتان الجليلان محمود وهو قائد الموالى وجوذر وهو قائد الاندلس ما لم يغب أحدهما أو كلاهما فى زحف لتمهيد أو فتح بلاد أو اقتضاء خراج فيخلفهما الاعلى من الطبقة الرادفة لهما من خواص الموالى والمماليك وترفع على رأس كل واحد منهما الالوية والرايات ويحفه عسكر مجر من بلكباشات ثم يتصل بهذين العسكرين الداخلة العظيمة الفخمة الهائلة وهى المؤلفة من البياك والسلاق ولبردروش على ما وصفناه ءانفا من زيهم وترتيبهم فاما البياك وهم أهل القلانس الصفرية ذوات الاعراف الريشية فهم الذين يلون ركاب أمير المومنين يحف به بعضهم يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه اليزنية المنصورية أمامه ومنهم صاحب مظلته العظيم المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة ركوب أمير المومنين القريب منهم درجة لقائدهم برويز مولى أمير المومنين والموالى له رتبة واذا كان أمير المومنين ماشيا على قدميه الشريفين حالة مروره الى المسجد الجامع على مقبرة سلفه الكرام للباب النافذ الى جهة قصوره أو متقلب برسم الراحة فى المشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع الذى من ءاثاره الشريفة تولى قائدهم برويز رفعها بنفسه ويسير عن يمينهم وشمالهم السلاق وهم أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ذوات الجعاب المذهبة المنوطة بها من أعلى الجباه * ويزيد هؤلاء على الحزام على ص 200
ما كنا وصفنا من زيهم قبل بأجنحة طوال يوافونها أيضا من ريش النعام الباقى على أصل خلقته (1) المنوطة بالقلانس من أعلا الجباه ويرسلونها الى وراء ويسير عن يمين هولاء وشمالهم لبردروش أهل اللقاقيف وتتكيف من الجميع صورة هائلة تبعث للمهابة فى الاعين والرعب فى الصدور وتسير الجنائب فيما بين سماطين هذه الداخلة مجنوبة صفا صفا الى ألوية عساكر النار ومنبعث حبا لها المرودة يقودها صنف يدعون السراجة ركبانا وكانت جنائب الخلفاء من قبل يقودها الرجل من الوزعة فكان هؤلاء أحسن زيا وأكثر نفعا عند الحاجة اليهم فى الحروب ونحوها وجيش الاصباحية العرمرم

(1) بياض بالاصل

الـذى لنظر بـاى لارباى(1) ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب ويرفع اللواء العظيم الابيض الذى هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصور على رأس أمير المومنين أيـده الله يستامه من خلفه ثم من سائر الالويـة عدد كثير أكثرها حمر وامامه الطبل العظيم الذى يسمع دوى صوته على البعد ومن خلفه الطبول الاخرى التى يقرع مع المزامير المعروفة بالغيطات واحدتها غيطة يتولى النفخ فيهـا قوم من العجم أساتيذ يتعلمونها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لاتحرك الطبع ولا تبعثه على شيء سوى الحرب حكمة فلسفيـة ومزاميـر أخرى وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنبطات مما أحدثه أمير المومنيـن أيده الله أيضا فى دولته ازدادت بها تلك الالة حسنا ومزيد فخامة ويـردف هذه الالويـة والالة من خلف أمير المومنين موكبه العظيـم يمد على الارض جناحـا مـن خيـل الاسنـة بالجمال والتتميمات وكم رأينا كافرا ترك دينه والتزم دين الاسلام ابتغاء عـرض قليل مـن الدنيا يناله وكم قد سمعنا من مسلم فـى أرض الشرك ارتد افتتانا بعرض يسير مـن عرض الدنيا وأخلق بخصلة يترك الانسـان لها دينه الذى يبذل دونه نفسـه أنْ تكـون جليلة القدر عظيمة الخطـر وأحـوج الناس اليها وأفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة انتهى .

ثم(2) كانت الغزوة العظمـى التـى اقتطع بها أهل الثغر حامية سبته من أحزاب الشرك واقتادوا من سبيهـا نحو أربعمائـة نفس ثم شفعها الله بارتجاع مدينة أصيلة واقلاع الكفار عنها اغتناما للفلته من لهوات أمير المومنين أيده الله ثم صرف همته أيده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه وعقد على رياسته لرجل من أهل المغرب يدعى الرايس ابراهيم الشطـ المثل المضروب فى الشجاعة والمعرفة بأحوال البحار والحصون وكتب له بذلك أيده اللـه تقليده الشريف من انشاء الكاتب أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عيسـى على رسـم المصطلح الذى كان الانتقال عنه ونصه هـذا ظهير كريم رفع للجهاد أعز منـار واستـل لاعزاز الله عضبـا ماضـى الغـرار وهيـا للجوارى المنشآت ثبج البحار أمر به عبد الله تعالى أمير المومنين المجاهد فى سبيـل رب العالمين أبو العباس المنصور بن أمير المومنين محمد الشيخ بن أمير المومنين محمد القائـم أيد الله تعالى أمـره وأعز نصـره للرئيس الانجد الاحظى الامضى المجاهد الاوجه الاكمل أبى سالم ابراهيم الشط ولما كان ممن علمت كفايته واشتهرت فى الجهاد عنايته واربت فى البر والبحر على الغايات غايته وأحاطت بتصاريف ذوات الالواح والدسر درايته راى أيده الله أن يقلده قيادة الاسطول ويقضـى به لوظيفه الجهادية دميثة المطول ويسند اليه

(1) بايلر باى او بكلر بك : قائد القواد
(2) الانتقال الى ص 302 .

رياسة القطائع والشواني ويحط زمامها من يده بيد الحازم اليقظ الذى لايلم به الكسل
ص 303 والتوانى فقدمه * أعلى الله قدمه وعرفه الخير والبركة فى كل ما توجه اليه عزمه ويممه(1) على العمارة البحرية والقطائع الجهادية فليتقدم لذلك بما لديه من الجد والمضا والكفاية التي يستمد منها الصارم المنتضى عاملا بما يقضى له من الله الثواب ومنا مزيد العز ومزيد الرضى وانا نسئل الله له توفيق الاعمال والبلوغ فى هذا القصد الى أقصى مراتب الكمال بيمنه وكرمه فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام ولما كمل بناء حصن الفتح الذى هل به أيده الله تعالى باب البحر ومتبوا السفين من مرسى العرائش نقله اليه وانزله به توثقا بمكانه واستنامة الى حرمه وضبطه وصحة عهده ونصحه ووفائه وأدال منه برجل من العلم هاجر لمالكه الشريفة يدعى الرايس شعبان فهو اليوم قبطان الاسطول الامامى الجهادى ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية .

ومن(2) المئاثر التى حسنت فيها أيده الله سيرته وحمدت طريقته تقسيم زمانه الى أيام الديوان وهى التى يجلس فيها للجمهور والوفود وأحكام الجند ومناولة أمور المملكة بالنقض والابرام وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء وكذا سيرته الكريمة أيده الله فى كل يوم منها أن يخرج بعد الفراغ من وظيفته وقراءة ما كان يلازمه من الاوراد الى ايوانه الكريم وقت الضحى غالبا وبين يدى حضور الطعام فيوذن للناس فى الدخول على طبقاتهم وأولا قاضى الجماعة بحضرتهم ثم المفتى بها ثم من يحضر من كبار الفقهاء ومشيخة العلم ثم الحاجب وقائد القواد والكتاب ثم سائر أكابر الدولة وروساء الاجناد ووجوه الناس على طبقاتهم وعلى حسب مراتبهم فيأخذون مجالسهم بين يديه ثم يومر بالطعام فيوتى به ويشرع الباب للداخلين ويغص الايوان بالخلق ويواكل بيده أيده الله بقية الامراء الكرام ومن يخص من القرابة وكبار العلماء الذين سميناهم انفا يوثرهم بذلك اجلالا للعلم وتعظيما لاهله فاذا أكل وضعت موائده أيده الله بين يديه وينادى بأهل البساط وأكابر الدولة للاكل منها تشريفا وتنويها ثم تتبع بجفان جمه وموائد أخرى متتالية ويدعى سائر الناس اليها طبقة بعد طبقة ومائدة اثر مائدة حتى يكتفى جميع الحاضرين ويفضل من الطعام ما يكفى أكثر من ذلك وكان أيده الله يعجبه الاكل بيديه ويدعو اليه الناس وينقبض لانقباضهم عن القيام للاكل وربما عنف على ذلك بالقول شيمة حسنة وخلق كريم فى الفضل فاذا قضى ذلك وقام ودخل وأفاض ذلك الحجيج

---

(1) بياض بالاصل .

(2) الانتقال الى ص 204 .

وانصرف الجم الغفير لمنازلهم وجلس أهل الايوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الامور يرقبون خروج أمير المومنين ثانيا فاذا حاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلوس وابراسيم أمور ملكه وسلطانه فيحضر خواص بساطه الكريم وكاتب سره ويناوله ما ورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره على الكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ثم يوذن لسائر الاكابر والكتاب وأولى المناصب فى الدخول فيأخذ عند ذلك أيده الله فى العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة ان كانت الكتب أجوبة أو ظهائر وتارة بالطابع ان كانت مظالم أو براوات الاشغال والعطاء أن يأخذ فى املاء الاجوبة على الكتبة أو فى سماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر على ذلك حتى يصلى الظهرين غالبا يوم الناس
ص 205 فيهما فيدخل الى قصره أيده الله ★ ويتفرق الديوان وهذا أيده الله دأبه غالبا فى الحضر والسفر وربما عرض له ما يوجب انقباضه عن الخروج للغذاء فيستنيب ولده الاعز عليه والمترف بالسكنى لصقه فى حضرته المولى أبا فارس أعزه الله عند مغيب شقيقه ولى عهد أمير المومنين وخليفته من بعده وكبير بنيه الامراء الكرام المولى الامير الامام الاعظم أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله أعزه الله تعالى والى أيام الراحة وهى التى تتخلل أيام الديوان لايحضرها الا الندمان من الخاصة أو من ينادى من غيرهم لخدمة تعرض أو مشورة تتعين ان كان من أهلها واذا كان يوم الجمعة صلى أيده الله بالمسجد الجامع من قصبتهم السعيدة المنسوب الى يعقوب المنصور من بنى عبد المومن من خلفاء الموحدين وجلس اثر الصلاة على ضريح الامام والده رضى الله عنه بالروضة المشرفة الكائنة بقبلى المسجد الجامع حتى يقرأ الحزابون بين يديه سور الملك وما يتبعها من الآى وخواتم السور الى الاخلاص والمعوذتين وءاية الكرسى وخواتم البقرة وكل ذلك من أوقافه على ضريح الامام والده قدسه الله ثم يدعوا أيده الله وينصرف الى قصره الكريم من الباب النافذ على يسار الخارج من الروضة المشرفة وربما جلس هنالك لسماع المشتكين والنظر فى المظالم وأكثر ما يكون ذلك فى ايوانهم الكريم رضى الله عنهم يوم الاثنين غالبا وربما استناب على ذلك ولده المولى الامير أبا فارس أعزه الله عند مغيب شقيقه ولى العهد المولى الهمام أبى عبد الله محمد الشيخ المامون أعزه الله تعالى واذا عرض من مصالح الامة والنظر للمسلمين ما يصرف وجه عناية امير المومنين وعكوفه عليه وعين ايده الله لملازمته ولده وحضور مجلس حكمه قاضى الجماعة ومفتى الحضرة وصاحب المظالم وما اشكل من القضايا رفعه الملا الى أمير المومنين ايده الله بالديوان الكريم فيقضى فيه قضاءه المصيب وينظر فيه نظره السديد واذا انصرمت من الزمان مدة تفقد ايده الله السجون وامر الملا المذكورين بالغدو الى ابوابها والنظر فى احوال المنكوبين وذوى

الجنايات فمن بان وجه تسريحه سرحوه وما اشكل رفعوه الى امير المومنين ايده الله وعرضوه والاحوال اليوم(1) جارية على هذه السنة الحسنة والطريق السوية كتب الله تعالى لمولانا امير المومنين اجرها واجر من عمل بها من اعقابه الكرام من بعده ومن الامور التي يتأكد حرصه ايده الله عليها ويصرف وجه اهتمامه اليها بعد الاطلاع على ما عليه احوال رعيته وعماله ويتفقد جهات ممالكه واعمال النظر فيما يتكفل المسلمين بصلاح احوالهم وبسط ءامالهم وكلما ءانس احدوثة محا رسمها او ثلمة تلافى سدها لا يشغله عن * ذلك ص 206
شاغل ولا يصرفه عنه صارف واما معرفة اخبار الافاق الشاسعة والاقطار البعيدة والاطلاع على انباء الملوك اضداده واوليائه وبث اصحاب الاخبار فى البلاد دانيها وقاصيها واذكاء العيون فى سائر جهات ممالكه من داره الى اقصى المغرب بل والى قاصية السودان اليوم(1) من ممالكه فهو فى ذلك ايده الله ءاية باهرة وعصمة للاسلام ظاهرة فله من رجاله المصطنعين على كل مرقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفى كل خلوه أو جلوة عيون اذكاها موكلين بنقل ما يحدث من خبر او قصة او يدور على الالسنة وله فى كل صنف عين كالئة واذن واعية وطلائع مرتبة فكانت الاخبار لذلك تسبق اليه قبل بروزها للناس بايام وباشهر وربما استأثر بعلمها وطوى ذكرها عن الناس كافة ولايكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر أو بحر وكان عمال ثغوره وولاة الاطراف من ممالكه وبلاده يجهدون انفسهم جهدها ويذكون على كل ثنية لعلهم يحظون لديه بانهاء الاخبار اليه وتطييرها لجنابه على أول موردها وانبعاثها ثم لا تكاد ارسالهم ورقاقصهم تصل اليه الا وقد الفوا الخبر قد تقرر لديه وسبق اليه باوعب مما كتبوا واشفى مما سمعوا فيقفوا موقف الحيرة والبهت وربما تهكم ايده الله تعالى على بعض اصحابه فى الجواب عن خبر يظن انه قر اغرب به وهو قد سبق اليه بامد بعيد فيقول له ما معناه لايزال على هذه العناية المشكورة من انهاء الاخبار والمسارعة بها والمسابقة قبل كل احد الى ابوابنا نفاذها وهذا باب لم يزل يعنى به قديما وحديثا اولو الحزم من الملوك لما ينبنى عليه من جلب المصالح ودرء المفاسد والاستعدادات للامور قبل هجومها وامير المومنين ايده الله اشد حزما واعظم تيقظا واكثر ضبطا ممن رىء وسمع به فى ذلك من الخلفاء العظام والايمة الاعلام ولقد بلغ به الاغراق فى مذاهب الحزم ايده الله الى ان اخترع لهذا العهد (1) أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من أسراره ومهمات اموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معانى الكتاب ولا الوصول الى فهم

(1) يوافق ذلك عام 1002 هـ

سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط او ضاع او وقع في يد عدو لامنت غوائل الاطلاع على اسراره فكان في ذلك ءاية اعجز بها الورى ثم نوع ايده الله هذا الخط الى انواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معمى كتبه ثم اذا جهز احدا بالعساكر
ص 207 أو بعثه في غرض رسالة او قلده جانبا من أطراف ممالكه وثغوره * ناوله خطا من تلك الخطوط يفك به رسائل امير المومنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الاخبار وخبايا الاسرار(1) فختم بذلك ايده الله على اسراره ختما لا يفض بحدس ولا يدرك بمعنى ولا حس ولا يرسم حده بنوع ولا جنس وصارت هذه المنقبة من اعظم ءاثاره في الحزم وحسن الضبط ومن اشد اعوانه على الاضطلاع بابباء سلطانه وشد اواخي ملكه وضبط امور رعيته وبلاده امتع الله به الاسلام وخلد امره مع الايام واما السياسة فاقول هذا الباب كالجامع لما قبله لكون حد السياسة من حيث هي تعم الجميع واما ما يرجع الى السياسة الخاصة التي هي جبر القلوب واستيلاف الشارد وتسكين المرتاب وارضاء الموالى ومداحات العدو وجمع التفريق وتفريق الجمع وانتهاز الفرصة عند تأتيها والعمل على الحزم والاخذ بالحذر وامضاء العزيمة عند تحقيق الظفر والدفاع بالتي هي احسن عند اشتباه الامور فمضمار لا يبلغ فيه ايده الله شاوه ولا يشق غباره واما جبر القلوب فاشهد انه ايده الله في ذلك وحيد الايمة وفريد الخلفاء الاجلة حضرت ليلة بين يديه ايده الله أنا واخى بلدا ووطنا وصاحبى عشرة طويلة ورفيقى مدة مديدة منذ عهد الشبيبة وزمان انثياب مجالس العلم والاخذ عن مشيخته الكاتب الفاضل ابو عبد الله محمد بن على الفشتالى ومعنا الحاجب المعظم الصدر الكبير القائد اوبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتى وقد كنا أفضنا في الحديث مع مولانا امير المومنين ايده الله حتى جن الليل وانصرفنا لمنازلنا بالبلد فوجدنا قصبتهم السعيدة قد غلقت ابوابها فانقلبنا الى الايوان الكريم وبتنا في ضيافة امير المومنين ايده الله وكرامته وبرز للعبيد ايده الله من قصره الكريم ومتعنا بمسامرته ليلتئذ فاتفق ان استدعى منى ايده الله ومن صاحبى ما عندنا من مهمات الاجوبة المكتوبة للجهات والاقطار فرارا من البطالة ومن تاخير عمل اليوم للغد فناولته أيده الله ما لدى من السجلات ولم يكن عند صاحبى غير كتاب من امير المومنين الى القائد الصدر ابى عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة يعزيه في ولد توفى له فاعتذر صاحبى بانه لم يحضر غيره وانه ليس من المهمات التي تتكلف ليلا فرد عليه امير المومنين أيده الله وقال له او ليس في الكتاب تسلية المخاطب به وجبر قلبه وفي المبادرة به دليل على الاهتمام بشانه فقلنا جميعا بلى يا امير المومنين فقال ايده الله واى شيء

(1) في مجلة الاسبيريس Hespèris لعام 1927 ص 221 نموذج للشيفرة التي اخترعها المنصور .

اوكد واهم من جبر القلوب فدعونا وفدينا وشكرنا وتناول ايده الله الكتاب فعلمه من
ص 208 حينه وهذا كما ترى ★ غاية في مكارم الاخلاق وجبر القلوب ومراعاة السياسة .

(النــاحيـــة الاقتصــاديـة) (1)

ومن(2) اعظم آثاره ايده الله تعالى التى تتقاصر فيها اهل الدول العظام عن قترة ومسبار عورة حاشا مولانا الامام المهدى رضى الله عنه وقدسه المعاصر السكرية التى ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش وعلى مسافة القصر منها وهى من الامور التى انفرد ايده الله بتدبيرها فجاء للناس منها بآية الاعجاب والغرابة اذ يرون ذلك مما تختص به تربة بلاد السوس التى اخترعها بها مولانا الامام المهدى والده قدسه الله حسبما قدمنا فكان كل من تولى الخلافة من ذريته الخلفاء الكرام منه الى مولانا الامام امير المومنين ايده الله نجله يقطع بان ذلك لا يتأتى من جهة الامكان فى غيــر ارض السوس ويعتقدونه مذهبا وقوفا منهم رحمهم الله فى ذلك وفى غيره مع المالوف من الامور
ص 280 والمشاهد من الاحوال فسدوا باب القياس واعمال التجريب ووقفوا مع التقليد ★ فسدوا شان الانبعاث الى اختراع الاشياء وتوليـــد الامور والتهم بما لم يمض منها فى سالـف عصر ولا تقدم العمل فيه من زيد ولا عمر فسادا فى العقل ولا خللا فى حاسة الفكــر واضربوا صفحا عن قول الحكماء كم ((2)) الاول ((2)) الهمـم ورضــوا بالسهل وقنعوا باحراز الوجود الى ان جاءت دولة امير المومنين ايده الله فرفض التقليد واتسعت التوليد والاختراع واطـرد قـياس المشاهد على الغائب وعظمت الانفـة مــن الاقتصار على الكفاية فجاءت الاثــار بادرار الفتوح ونبالة الصنائع وتحكم الحضارة ولطف الاختراع والتوليد وسعة الـذرع وضخامـة اشكل بحيث لا تشبيه بينها وبين ما تقدم زمانها ابقى الله ايامها ونصر اعلامها وحفظ على الاسلام امامها وشان هذه المعاصر شان الخوارق الخارجة عن طـوق البشــر جفـاء وعظمة وتوطيد او تشييدا ما شئت من برك رحيبة وجفـان كالجـواب وقـدور راسيات ولوالب فلسفية وحركات هندسية ارتاد ايده الله للاولى منها البسيط الافيح بوادى وال من بلاد حاحة وانفذ اليها العرفاء بامــور المعاصر وتصاريفهـا ومقاييسها ومقاديـرهـا والتربة التى تركـو بها غـروس قصبهـــا ((2)) قدس اليهم أهل البلاد زعمـوا (3) فى سبيــل الملاطـفة واعـــمال الحيلة فى ل عزيمة امير المومنين واقطامه عنها فحدث الملا ايده الله عن تعنيف امورهم وتعسفها فاتهمهم وتفطن لاذهانهم وتهددهـم وردهم ثانيا على اعقابهم وخالطهم بمن يثق

---

(1) اقتضى تنظيم الموضوعات الحضارية وضع هذا العنوان .

(2) الانتقال الى ص 279 .

(3) بياض بالاصل

به فصدقوه ((1)) حينئذ النظر واخلصوا النية والعمل رغبا ورهبا فنمت الارادة ونجح المسعى واحاط الحدس والتقدير بسائر امورها واعمالها وتصاريفها ثم انطلق العمل وغم الاغتراس بالقصب الاوطان ((1)) ديار الطحن ومساكن العمل ومخازن الشعير واهراء الحبوب والبرك ((1)) تمتار منها قدور الطبخ مياه السكر أوان الطحن ثم افرغ القدور الراسيات والجفان والجوابي ووقع الاحتفال من ذك بما يوجب البهت والحيرة ثم اجرى ايده الله لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجافية الاجرام النهر المعروف باسيف انوال المخترق للبسيط الافيح يتسنم ظهر السور السامى الذروة القوى الاسر البادى البناء الطامح العرف الى عنان السماء وتوصل الى امتطاء صهوته في سهل من الارض بتدبير احكمته الفلسفه والهندسة يتطاطا له حتى يركبه اولا على وجه الارض عن ذراع وذراعين ركوب الراحلة الداخلة الذلول ثم لايزال تسمو به نهضته على التدرج متصاعدا الى السماء وقد تماسك باعرافه ولزقت بظهره حياته ((1)) بين أطمه حتى ينحدر عند مصبه من ميازيبه على لوالب الارحى من اربعين ذراعا ونحوها ثم
ص 281 عززها ايده الله بالثانية التي اخترعها على الرسم ببلاد شوشاوة ★ واذا القيت عصا التسيار بمعصرة منهما رايت مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل وكورة النحل ومدرج الذر لكثرة ما ضمت من العملة وحشرت من الخلق ولا تسأل عن هولها ولغط الاصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة احوالها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من اهل الذمة ((1)) عن كل سنة وناهيك من امام يستنتج بسديد رايه وصالح تدبيره ولطيف توليده هذا القدر من الخراج الوافر الذى لايزال بيت المال هنيئا بمرى اخلافه مع الايام إن شاء الله بباب دار الملك وعلى عتبة حضرة الخلافة عفوا من غير احتياج الى ما تحتاج اليه الجباية من تجهيز العساكر المعينة على انتزاع نواجدها وهو اليوم ايده الله بصدد استحداث ثالثة لصق اختها بشوشاوة قوى العزم على الاستكثار من المعاصر حتى ينموا العدد ويتضاعف الخراج كمل الله تعالى مقصده وثبت قواعده واجرى على ما فيه صلاح المسلمين مصادره وموارده .

واما(2) ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة الماثلة قرب ابوابهم الشريفة من قصبتهم المحروسة المذكورة بزفير الاكيار وزبر الحديد لفح جهنم الى ما يجلب مع الاحيان على يد المعاهدين من تجار الحربيين من السيوف الهندسية والقسى
ص 304 الرومية والمكاحل النارية فشىء غصت ★ به الخزائن السلاحية والديار العادية واذا

(1) بياض بالاصل .
(2) الانتقال الى ص 303 .

وصلت الى هضاب الاكر الحديدية والحجرية والرصاص الماثل كالجبال الراسية والبارودالمنيث في الدهاليس الندية والمخازن الرحيبة رأيتها يبلد الفكر ويوجب البهت ولقد بلغ الاغياء في الحزم لهذا العهد الى اتخاذ حصن دار الجلد من قصبتهم السعيدة لاختزان البارود وحب الجوف بعيد الغور ندى الارض بالغ اقصى مبالغ الضخامة والجفوة قد احاط به سوار الخندق المنيع البعيد المهوى الى قرارة الارض قد حتم عليه التحصين بأبطال الكيد واختصته الشريفة والهمة الكريمة الامامية باحتكار الفاضل عما تمتاز منه الثغور والحصون والمعاهد والاطراف والممالك القاصية والاقطار البعيدة الشاسعة كل ذلك عدة للجهاد وحياطة على البلاد وحماية لبيضة الاسلام الوثيق العماد اسئل الله تعالى لمولانا الامام ظل الله في الانام منشىء الاثار التي عرف فضلها الاسلام بقاء يخلق اثواب الايام ونصرا تخفق بعزه الرايات والاعلام وتحصد سيوفه المنافقين وطواغيث الشرك وعبدة الاصنام بمنه وفضله(1) .

الناحية الاجتماعية (2)

ذكر مئاثر مولانا الامام المنصور بالله امير المومنين ايده الله وأولا ما يتعلق بذاته الكريمة خلقا وخلقا .

فاما الخلق فاقول وبالله استعين ان الله بلطيف حكمته فضل هذا النوع الانساني بأن خلقه في احسن تقويم ثم قسم سبحانه هذه الهيئة الحسنة والصفة الجميلة التي اخترعتها قدرته ودبرتها حكمته في سائر اشخاصه فجعل صورها تتفاوت فيه بالكيف والكم فمن ابيض واسمر واحمد واسود واعين واغور وأقنى وأخنس ابلج واقرن وافوه واشفه واشبه وطويل قصير ومعتدل وجعل الكيفية الجامعة للمستحسن من هذه الاوصاف الجميلة سمة يمتاز بها من يشاء من عباده ليدل بذلك على ايثار من اتصف بها وعلى عنايته بشانه لما جاء ان الله تعالى اذا أحب العبد حسن خلقه وخلقه ولما كان لهذا الامام ايده الله من الشان عند الله ما شهد له بمغبة حاله من كونه حامي بيضة الاسلام وكافل امة نبيه عليه السلام وشرف الليالي والايام وامام الجماعة عند سائر الانام خصه تعالى بما اتاه من الكمال وحسن الخلق في الذات والصفات التي منها اعتدال القد وتناسب الاعضاء وسبط الخلق وجميل الرواء ورقة البشر فجعل بذلك سبحانه صورته الحسنة قيدا للابصار ومورد السوام والالحاظ ونهبة للاحداق حتى انه بما اعطى ايده الله تعالى من تمام الخلق وحسن الطلعة ووسامة المحيا الذي يجول من تحت اديمه الشفاف ماء النعيم من المهابة التي تفرق لها الاسود وتومىء الى الارض بالسجود بحال لو أبصره عليها

(1) آخر كلمة وردت في المخطوط

(2) اقتضى امر تنظيم المعلومات الحضارية وضع هذا العنوان .

مبصر في عالم من سرات الناس وساداتهم وهو لا يعلم من يكون لحكم لاول ما يقع عليه بصره انه اشرف القوم ومولاهم ومودع سر الله منهم لما قام ايده الله تعالى على ذاته
ص 171 المشرفة وطلعته الغراء ★ من الشواهد التى لا يدانيه في وصف من اوصافها الكاملة وملامحها الجميلة الرائقة ولا سرى ولا سيد وسبحان مكون الاكوان ومخترع الصفات والالوان في ابدع تكوين واحسن تقويم لا اله الا هو فتبارك الله احسن الخالقين واما الخلق فيتنوع الى الحلم وكظم الغيظ والدين والتوكل والصبر والعفو والعدل وحسن السيرة وجميل السياسة وكرم النفس والسخاء والشجاعة فاما الحلم الذى هو ميزان العقل ورأس العمل الدينى والدنيوى فهو حلة مولانا الامام المجاهد المنصور بالله امير المومنين ايده الله تعالى السابقة ومنقبته الذى شهد بها وغلب عليه اسمها اجمع الناس قاطبة من عهد مولانا الامام المهدى امير المومنين والده قدسه الله الى هلم أنه أحلم الخلفاء كافة من أهل بيته الكريم واكثرهم اناءة واملك لنفسه امساكا عند الغضب عن العجلة الموقعة فى الخطأ عند اقامة الحدود والمواخذة بالجرائر ومذهبه الجميل ايده الله ادراء الحدود بالشبهات وتكفير السنة لعشر امثالها والتماس التاويل وقبول المعذرة ورعى الذمام فيمن لا يغضب الله والصفح عن كل ما لا يتعلق به من الذنوب حق غير حقه ولو كان مثل جبل احد ما لم يعد على المسلمين بضرر او يحدث فى الامرين خرق فيثب حينئذ وثبة الاسد ويهجم هجوم القدر وتنسف عواصف باسه الديار نسفا فلو لم يكن من مناقبه الشريفة ايده الله فى هذا الباب ومثاثره السائر المثل الا ما كان من تجافيه عن عبد الكريم بن مومن ابن يحيى الحاجب كان عند الخليفة الغالب بالله وكان بذى اللسان جموع العنان واغضائه عن جرائره التى احفظه كان بها يبتغى بذلك التقرب الى مخدومه الغالب بالله وكان بذى اللسان جموع العنان لكان ذلك كافيا وبجميع مكارم الاخلاق لمولانا الامام المنصور بالله امير المومنين ايده الله ولقد سمعته ايده الله مرارا يقول ويقسم على ذلك ((1)) انه ما علم من نفسه اعتمد قط السطو باحد او تصدى الى نكبته لمجرد غرض نفسه وحظه او وتر له قبله قال ولو كنت اواخذ بذلك احدا واتتبع الحسايف السالفة ما كنت لاقيل لعبد الكريم بن الحاجب عثارا ولا اهمل فى القود منه ثارا وعلى ذلك فقد كان عندما صارت اليه الخلافة رفع محله ومكن فى بساطه قدمه واثبته صدرا فى دولته وجعلته بحى خلواته واضرب صفحا عن هفواته حتى كانه قد احسن فيما اساء ونفع من حيث ضر ثم اسف على فقده عند انقضاضه لايعبر عنه لما يعلم من نصحه الذى شفع له لديه وسمعته لذلك ايده الله يقول فى حقه لو

(1) بياض بالاصل .

ص 172 كان يقتدى * لبذلت فيه الطارف والتاليد من كنوزى وهذا كما ترى خلق عظيم لا يوتاه الا
من اتاه الله شرف الخلق والتكوين من معدن النبوءة وطينة السر والمعجونة بماء الرسالة
واما الدين والتقوى وخشية الله تعالى والتنصل من الحول والقوة اليه واظهار التملق لعظيم
قدرته والخضوع لجلاله والتواضع لكبريائه وعظيم جبروته فذلك شعاره ايده الله الذى
يمتاز به ومذهبه الذى به يدين نفسه وعلمه الذى يروض عليه جوارحه وسيفه الذى يغالب
به سلطان شهواته آخذا نفسه ايده الله باداء حقوق الله وفرائضه الواجبة التى منهـا
حضور الجماعة والسعى للجمع واداء الفريضة المكتوبة فى وقتها المختار شديد الحرص عليها
كثير التأسف على فواتها ومماطلتها بوقتها حتى لربما عنف لذلك مؤذنه على اغفال
التنبيه وتكراره ان عن له من امور المسلمين المتدبرة ما يشغله ويصرف سمعه عن الاصغاء
للنداء وكان سبيله فى ذلك ايده الله ان يوم بالناس كافة ايام الديوان المعقودة لتناول
امور المملكة بالنقض والابرام وحضور الجم الغفير وبالندمان خاصة ايام الراحة ومنهـا
قيام رمضان واحياء لياليه المباركة بالاشفاع ينتقى لذلك مشيخة القراء والاساتيذ
المبررين فى السبع وحسن الاداء والتلاوة ويستنفرهم لشهود رمضان معه فى الحواضر
كالشيخ الحافظ ابى العباس احمد بن على الزمورى المصلى كان الامام والده من قبلـه
منذ عام الفتح بفاس ثم بسائر بنيه الخلفاء من بعده الى هلم جرا وغيره من مشاهير
الاساتيذ والقراء فكان ايده الله يقوم معهم ليالى رمضان كله ثم يبرز صباح كل يوم من
ايامه لسماع الحديث الكريم ايضا وسـرد الجامع الصحيح للبخارى بين يديه يعقد لذلك
مجلسا حافلا من اهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم فى اسرار الاحاديث النبوية
ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع اليها فيما اشكل حصة وافرة من تاليف
غريبة وكتب جمة النفع مما ضمته خزائنه الكريمة المشتملة على علم الاولين والاخرين
فاذا حاول العلماء بميدان المذاكرة فى فهم مسئلة شاركهم بغزارة علمه وملكته وربمـا
تناول رأيه السبق الى فهم المسألة فيطبق المفصل بما يقر العين ويشفى الصـدر
ويبهت الحاضرين فاذا كان عشى النهار وبرز للايوان وقعد للرمى بين يديه للسهـام
يجلس لذلك الموالى ومن فيه دروبة من كل صنف وتوضع لهم دارهم معدة لذلك فمـن
أصاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة
ص 173 لذلك فتنبعث المنافسة الواقعة * بين القوم فى ذلك على مزيد التدريب والتخريج فـى
الرماية وهذا دابه أيده الله فى رمضان كله حتى ينصرم والقصد فى ذلك كله جميـل
والنية صالحة (1) معه الله وأجزل(1) واذا كان فى ليلة الاحياء قل من يستطيع

(1) بياض بالاصل .

قيامها معه وكلما صلى فبالقيام لا بالقعـود لما ورد أن صلاة القائم تفضل صلاة القاعـد بسبع وعشرين درجـة وكان يصلـى صـلاة الصبح بوضوء العشاء وأكثر ما كان يتفـق له ذلك ليالي المسامرة ولطالمـا قطعنا معـه الليل معشر المتعين بمنادمتـه حتى يطلـع الفجر في بعض الاوقات أو يكاد فاذا انطلقنا الى مراقدنا تطارحنا سكـارى من الكـرى فيأخذ هو أيده الله على رسله الجلوس حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء غالبـا حدثنـا بذلك مرارا على سبيل التهكم بنا حيث يرانا نتمايل بين يديه من سنة الكرى وهو أيده الله أقوى من سمعنا من الملوك جسرا على المسامرة حدثنا أنه ما غالبه النوم قط بل ربما استدعاه يشرد عن عينه لايلافهمـا التيقـظ والهجود وهي خصلة شريفة خصوصا فـي حق الملوك لما تدل عليـه من شـرف الهمـة وصرفها عن الالتذاذ بالمقام الى الالتذاذ بأعمال الفكرة في الامور العظام وكان مع ذلك أيـده الله مواظبا على صيام الايام المستحبة عنـد العلماء في كل شهر وله أيضـا أوراد مـن الذكر ووظيف من السبحة أدمن عليها والتزمها منها مسبعات مولانا الامام والده رضي اللـه عنه الى أدعية أخرى جمعها هو ونظمها في سلك أذكاره وسلسلة أوراده من ذلك الجزء الذى من تاليفه جمع فيه الادعية المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم في كل ما يستعمله الانسان من العبادات والعادات ويقوله عنـد جميع الحركات والسكنـات استقرا ذلـك وتتبع جمعه واستخراجه من كتب الايمة التى منها جمع الجوامع للامام الحافظ الاسيوطـى وسأذكر هذا الجزء عند ذكر تاليفه أيـده الله وأورد هنالك خطباته البارعة التى من املائه أيده الله بنصها وكانت له أيضا نيـة صالحة ومذهب جميل في حـب أولياء اللـه وزيارة مشاهير الاموات منهم والرغبة فـي لقاء من علم فضله ومتانة دينه وصحة تقواه من الاحياء اذ كان أيده الله بفضل علمه ووفور عقله وسعة درعه في المعرفة و (1) في الدهاء لاينخدع بتمويه المتنومسين ونصب المحتالين الذين ياتون الدنيا من طريق الاخرة فهؤلاء أخس الناس صفقة لديه وأسقطهم في عينيه أما الاموات الذين كان يتعاهدهم بالزيارة فالشيخ أبو عبد الله الهزميرى بأغمات أعمل الحركة الى جهتهـا مرتيـن مـن الحضـرة وكلتاهما في ابان الربيـع وازدهـار الارض بزخرفها بقصد زيارة ضريحه المبارك ولحده المقدس والتبرك بما هنـاك ★ من مشاهيـر ص 174
الاولياء أمثاله كالشيخ عبد المجيد المدفـون بباب قصبتها وكان قبره قد غمره الردم وجر عليه الخمول لذلك ذيله حينا من الدهر الـى أن دل عليه رجل رءاه زعموا في النوم فـي قضية مشهورة عند الناس وعرفه بمحل قبره فشهده الرجل ونحن عند الردم حتى خلص الى القبر الى أمثاله من مشاهيـر الاوليـاء كالتونسى وغيره ممن ذكره صاحب كتـاب

(1) بياض بالاصل .

التشوف الى رجال التصوف فأما حركة مولانا الامام أمير المومنين أيده الله الاولى اليها فقد كانت يوم الاثنين عاشر شعبان في عام اثنين وسبعين وتسعمائة وكانت حركة زيارة وراحة فاحتفل لذلك أيده الله بأفخم زى وأكمل بهجة وأرغد عيش وكنت يوم خروجه أيده الله من الحضرة تأخرت وراءه هنيئة فخرجت أقتفى أثر الركاب العالى فبينما أنا فى أثناء الطريق وقد اصفر الاصيل ومد على الارض طرازه المذهب وتراءت لى قباب الخلافة العلية تلوح من بين شرفات السياح وهو قصر اتخذه مولانا الامام أمير المومنين أيده الله من الخشب المولف ذات الالواح بعمل عجيب مموه فيرتمل به فى الاسفار القريبة حسبما ياتى ذكره ان شاء الله اذ أدركنى شيخنا العالم العلامة السرى الفاضل الحسيب مفتى الحضرة الشيخ أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسنى فارتجل نصف بيت عندما وقف على فى معنى التشوق وشكوى البين ومفارقة الاحباب وهو : (أبا فارس بان الخليط وودعو) وقال اجز يا فلان فقلت : (وولوا وحسن الصبر شيعوا) ثم قال (وغرد حادى البين وانشقت العصى وكاد فؤادى للنوم يتقطع) فقلت (الى الله أشكوا فرقة منهم وقد تجرعت من كاس النوى ما تجرعوا) ثم زدت فتخلصت للمدح فقلت :

لئن شرد السلوان عني بعدهم ففى صحبة المنصور انس أجمع

ثم قال :

تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع

وقلت :

سياج به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الامامة تطلع

فانتهينا الى المحلة السعيدة عن أبيات سبعة أو ثمانية وعمدنا الى بساط مولانا أمير المومنين أيده الله وتهيأ لنا الدخول الى مقامه الكريم فعرفته خبر الابيات وسردتها عليه فارتاح لها واستحسن ثم ارتحل أيده الله فضرب مخيماته بساحة اغمات وتلوم بها يومين وقصد للثالثة من يوم نزوله لزيارة مشاهير الاولياء فاعتمو ضريح الشيخ أبى عبد الله الهزميرى وعاج على ضريح الشيخ عبد المجيد ونصل الى مشاهر الاولياء بالجبانة

ص 175 الكائنة خارج المدينة * تجاه المصلى فدعى بكل مقام منها وفرق على ذوى الحاجات هنالك أموالا جمة على يد قاضى الجماعة أبى القاسم بن على الشاطبى والامين الفقيه أبى الحسن على ابن سليمان (1) حملوا الحقائب بالبركة والثواب وكان ممن صحب ركابه العالى أيده الله فى تلك الحركة المباركة شيخنا العالم العلامة قاضى

(1) بياض بالاصل .

القضاة بفاس الشيخ أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى بما كان مولانا الامام أمير المومنين أيده الله استقدمه عامئذ من فاس برسم القراءة معه حسبما أذكر ذلك عند ذكر علومه الكريمة ومشايخه الذين أخذ عنهم وكان لوذعيا خفيف الروح حلو الشمائل فاتفق أن بعث اليه الفاضل الكاتب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله العنابى من أصحابنا بكبش وعسل أتحفه به فكتب اليه القاضى يداعبه ويمدحه بأبيات من نظمه ورفعها الكاتب أبو زيد الى شيخنا العلامة أبى محمد عبد الواحد الشريف وسأل منه أن يجيب عنه القاضى ويهزمن لسانه عليه العذب الماضى فاستجاب أبقاه الله وانتدب وقدم لذلك مقدمة رفعت لاهل الاداب ومن اشتملت عليه المحلة المنصورية السعيدة من الشعراء والادباء والكتاب راية خفاقة وأقامت للبسط والدعابة سوقا نافقا وسال جميعهم أن ينسجوا على منواله ويحذوا حذو نعاله وصاغ الكل من أشجاعه الرائقة ودرره المتناسقة قلادة حلا بها جيده وجلا من فقرها أبكار القول وغيره فتباروا فى ذلك الميدان تبارى الجياد يوم الرهان وأنا أصف الحال وأذكر منظوماتهم على نسقها لما اشتملت عليه من غرر الادباء وحسن الفكاهة التى تصقل النفوس والارواح وتهدى اليها البسط والارتياح ونصها قال شيخنا العلامة أبو محمد عبد الواحد الشريف أبقاه الله تعالى الحمد لله فائدة لما تقرر فى الفطر السليمة والسنة القويمة ما يجب على العلماء من التعظيم وعرف اطراد ذلك بين الناس فى الحديث والقديم أهدى الفقيه الاجل سلالة الصالحين ونجل العلماء العاملين أحد كتاب ديوان الخلافة ومن له فى السكون والوقار المزية والانافة أبو زيد عبد الرحمن بن الامام علم الاعلام سيدى أبى محمد عبد الله العنابى رضى الله عنه ونحن بمحلة مولانا الامام المنصور بالله أيده الله لزيارة اغمات عسلا وكبشا لسيدنا قاضى الحضرة الفاسية العالم الامام العلامة وأحد الفئة وصدر هذه المائة ذى الاخلاق الحميدة والمذاهب السديدة أبى محمد عبد الواحد الحميدى استجلابا لمودته وصالح أدعيته فكتب سيدنا القاضى المذكور الى الفقيه أبى زيد المذكور أبياتا فتح بها الى المباسطة والمداعبة بابا على عادة الافاضل أمثاله فقال : * ص 176

أيا كاتب السر يا من بانت ... محاسنه فى الورى باهره
هديت الى الشفا ... فأكرم بها منحة ماهره
وكبشا سمينا له كلوة ... تفوق الكلى نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الانام ... سيوفا لاعدائه قاهره

ولما دارت هذه الابيات بين من بالمحلة المنصورية من الكتاب وتلقوها بالبر والترحاب فلهج بها الشادى والبادى وغرد بها فى آثر الركائب الحادى فوقوا الى مداعبة الامام ناظمها سهائر القوافى وطاروا لمباسطته بالقوادم والخوافى فأوجفوا على أبياته بخيل

البديهة والارتجال وقاموا لذلك على قدم الاستعجال فقال أقصرهم فيذلك باعا وأقلهم بهذا الفن اضطلاعا عبد الواحد الحسن :

اشيخ الجماعة يا قطبها ومن فى العلى مركز الدائره
شننت بأبياتكم غارة فاحييت لى همة غابره
وذكرتنى مربعا لم تزل قديما به مقلتى ساهره
وحركت فكرى بعلم غدت بصدرى مراسمه داثره
فهذا جواب لابياتكم الى ابن بدور العلى السافره
سليل الافاضل حقا ومن محاسنه فى الورى ظاهره

ثم قال وقال صاحب القريحة الوقادة والمحاسن المالوفة منه والمعتاده صاحب القلم الذى تزرى شباته بشبا السنان وتوقظ فقره من السنات الوسنان المثقف بثقاف الاداب المنصورية أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم القشتال يعنى مولف الكتاب سمح الله له :

أبحر علوم طمت زاخرة وشمس معارفها الباهره
لك الفضل عقدا فقد أصبحت كتائب نظمكم ثائره
وهزت صوارم ابداعها فصلت بها صولة قاهره
بقيت تشن بها غارة لتنشر أمثالك السائرة

وأردفتها بفقرات من النثر فقلت فخذها أعزك الله على عجل تسعى لجلالك العالم على قدم الحياء والخجل وتقف فى مجال الاجادة دون طرف بلاغتك الاغر المحجل والسلام ثم قال وقال الفقيه الكاتب المجيد والاديب الذى يبدى فن المحاسن ويعيد صاحب القلم
ص 177 الذى يصيب من الاغراض كلاها ومفاصلها وتعترف له بقوة امضاء * من الصوارم مناصلها والفقر التى رفعت للبلاغة لواء وارتدت من المحاسن رداء وضرب بها المثل فى العذوبة ولقلوب الادباء خلوية أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرحمن الفشتالى :

نسجت أبا مالك حلة بصنعاء أفكارك الحاضره
وأجريت ماء الربيع الى رياض فكاهتك الساحرة
وأخفقت قيد المعانى على مواكب أغراضك الظافره
عيون البيان ولاكنها لغير النهى لم تكن ناظره
فخذها بديهة من قد غدت وجنوه فهاهته سافره

ووصلها بنثر يقول فيه فدونكم أعزكم الله هذه القطعة وقد ظاهرت بين ثوبى وقصور وسترت وجه عوارها ببرقع العجلة التى هى محل اغضاء فحول المنظوم والمنثور ولا غروة وأنتم أرباب النظام وأمراء الكلام اناستنتجتم عقيما واستقرضتم فى هذا الفن مزجى

البضاعة عديما بقيتم تقيمون للعلم رسوما وتثبنون للمعانى حدودا ورسوما والسلام ثم قال شيخنا وقال الفقيه المتفنن ذو الفهم القديم والادراك المستقيم قائد المسائل العويصة بنواصيها ومستنزل عصم القوافي من صياصيها شعلة الذكاء والنير الذى يزرى سناه بذكاء أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالى حفظ الله مكانته وحرس مجادته :

أيا تحفة الدهر يا ناظره وطرفة أيامه النادره
وبدر العلوم التى قد نضت دجى الجهل أنواره الباهره
ومن كرعت في حياض المعانى له بديهته بالذكى ساخره
أنظمك أم قرقف بابلى ولفظك أم نفثه الساحره
تعلل أرواحنا مذ عشانا بأرواح روضاتك الزاهره
أمن دارن قد سرى موهنا أم ارتاح أخلاقك الطاهره
فككتم به عن أسارى القوافي قيودا بأرجلها دائره
فلا زلت يا شيخنا يهتدى بنورك فى الليلة الساهره

ووصلها من نثره بقوله لاغرو أعزك الله أن جاءت لحضرة جلالك تمشى على استحياء فقد راعها ما راقها بمحلك السامى من سنى وسناء ياله من علا لو سابقت بديهة فى العلا فى ميدانه وكبى فى الثناء عليه جواد بيانه ونبا عن المضاء فى وصفه كاشح لسانه وشباة سنانه لازلت فى أفق الجلالة بدرا يلوح للهداة التياحا وبحرا
ص 178 للفضل ترده * الامال فتتمايل انشراحا وتشمل ارتياحا والسلام وقال شيخنا وقال الفقيه المتفنن المشهور الاديب ملتقى راية الادب باليمين والمتئان أن لايشارك فى نيلها باليمين من قصرت عن مجاراته من أرباب البيان الخطى وتسنم غارب الاجادة دونهم وامتطى قيد اللواحظ ببيانه وبنانه ومستوقف الطرف بلسانه وسنانه مجرى أنفاس المحابر على صفحات المهارق ونجيع الكلمات على صفاح الصوارم فى المئازق أبو الحسن على ابن منصور ابن سليمان الشيظمى أبقاه الله طول المدى محفوظا مما يتقى كلما راح واغتدى :

أيا عالم العلم يا ناشره وحامل راياته الظافره
وقاضى القضاة الذى فاخرت به الشرق مغربنا الظاهره
وناظم عقد المعانى التى جرت دونها المثل السائره
وازرت بفضل الطلا بالنهى كذا بشدا الروضة الزاهره
وظلت تردد حسن الثناء ترويه عن نفسك الطاهره
وأخلاقك الغر لما قصدت عن النزر بالدرر الفاخره
وأيقظت عمدا عيون البيان من كل فتانة ساحره

تشير بمعنى لطيف الى محاسن أخلاقك القاهره
وتبنت سحر البلاغة في مهارق ظلت لكم شاكره
رويدك نبهت سرب المعانى بعيد الكرى فاهتدت حاضره
ونبهت كم من بليغ بها جديد الذكى نافذ الباصره
يطبق منها المفاصل غير هيابة ذى قوى ظاهره
تصرفت أقلامه بالكلام كالريح بالمزنة الماطره
ولولا المضاء بلا نبوة لشبهتها بالظبى الباتره
فلله درك من ماجد محاسنه جمة وافره
ومن سيد جامع للذكاء حلو الشمائل وال( )دره

ووصلها أيضا من نثره بقوله اليك أيها السيد الذى اهتدى بمصباحه واعشق الى غرره وأوضاحه بنيات أفكار تمر الى كفالتكم يد الافتقار ملتمسة منكم نيل القبول والاغضا والنظر اليها بحسن التجاوز والرضى فمثلكم من كفل وصفح عن العى والخلل واستقرض
ص 179 فارضى وسامح فى الاقتضاء أبقاك الله للادب نحوك حلله وتجمع يفاصيله وجمله *
وللقريظ نقطف زهره ونجتلى غرره ما ذر شارق ولاح سنى بارق والسلام قال شيخنا وقال الفقيه الاديب الكاتب الذى ارتفع صيته فى دمات الاخلاق وسما وغدا بين النظراء فى عذوبة الشمائل علما وحصل من الادب على حظ وافر ونصيب ورمى الى غرض الاجادة فى منازعه بالسهم المصيب وتدرع من حسن الخلق جنته لاتقلها سهام الانزعاج والقصب ونسلت القلوب الى محبته من كل حدب أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبى القاسم الشاوى أبقاه الله تضرب به فى رين العريكة الامثال وتتهاداه لفضائله وفواضله أندية الملوك والاقيال :

أمحيى رسوم القضا الداثره وانسان مقلته الساهره
ومطلع شمس المعارف من مغاربنا حكمة ظاهره
وبحر العلوم التى أوجبت له الفخر والعز فى الاخره
وقاضى عساكر ملك غدت لاخمصه السبع كالساهره
ودانت له الارض طولا وعرضا فارسال أملاكها سائره
الى بابه تبتغى وطأة وأمنا لسطوته القاهره
كفاك افتخارا أبا مالك حضورك أيامه الزاهره

أتتك أيها السيد الذى يقتدى بعلومه ويهتدى الى معرفة الصناعة الادبية بمنثوره

(1) بياض بالاصل .

ومنظومه باسطة اليك أكف الاحتقار ومسفرة لجلالك عن وجه القصور والاعتذار وأنتم أعزكم الله محل التجاوز والاغضاء والنظر اليه بعين القبول والرضى أصلح الله بطول بقائكم عامة المسلمين ونفع بعلومكم مولانا أمير المومنين أيد الله سلطانه ومهد أوطانه ثم قال شيخنا قال الفقيه الجليل المقدار والكاتب الذى طار صيته فى حسن التوقيع وسلامة الصدر كل مطار الفاضل الذى لاينسج الا على منواله فى السكون والوقار والاخلاق التى لايستفزها العقار صاحب التوقيعات المنصورية الكفيلة برد المظالم والاخذ بشبا قلمه بثار المظلوم من الظالم مقيد الاوابد الادبية بعقال والمعمل فى نيلها الوخد والارقال حتى لاح بدرا فى سمائها وائتلق وجاز عمن سابقه فى مضمارها خصل السبق ذو المناقب الفاضلة والمزايا ومحط رحال الشكايا أبو محمد الحسن بن عبد الكريم بن عبد العزيز بن علي أبقاه الله وأزمات الملهوفين لاتنكشف الا من يراع بنانه ولا يهتدى فى كشف كربهم الا ببيانه : * ص 180

أشيخ العلوم التى قد سرت بدائع أبياته السائره
طلعت وكنت كنجم الصباح وسدت باخلاقك العاطره
اذا ما نويتم طلاب العلى فكل المعالى لكم سافره
أتتنى بالامس أبياتكم رياض المعانى بها زاهره
محا شعركم ذكر عبد الحميد وأضحت فصاحته داثره
فلومه فى عمر البحترى لا عجب من فطنة باهره
علوت وقفت قضات الورى فدم هكذا مركز الدائره

أطال الله بقاء سيدى وأجل ذخائرى وعددى اننى علقت هذه الابيات والاشغال تكتنفنى وكذا الخاطر بأسباب شتى تقسمنى ووراء ذلك كلال الدهن وجمود الطباع ونقصان الخواطر عنون الابداع واستمرار البلادة التى هى من لوازمنا عادة من لى بمساجلة من لايدرك مضماره ولا يشق فى ميدان البلاغة عباره :

ولا عار ان قصرت دون مبرز سعى الناس قبل سعيه وشئان

انتهى ولما قضى أمير المومنين وطرا من الزيارة أرسلت السماء على محلته المنصورة بمدرارها واسترسل صبها الغزير أياما تباعا حتى أجهضته على الرحيل وما تملا من الراحلة ولا استكمل اربا من النزهة فقفل الى الحضرة لثمانية أيام نفعه ( ) وأجزل مثوبته واما ركته الثانية اليها فكانت فى جمادى الاولى من عام ستة وتسعين فطاف أيده الله على مشاهر الاولياء على سنته الاولى ودعا بكل مقام وبذل الصدقات

(1) بياض بالاصل .

وفرق الاموال وقفل ماجورا واحتقب محمـلا مبرورا وكان قد تثاقل أيده الله في مغداه لاغمات من الحضرة ومنقلبه وتلوم شهريـن أونحوهما يتقلب في البسيط الممتد من الحضرة لاغمات حتى قضى وطرا من النزهة وتملا من الراحة وفي مقامه أيده الله بمحلته السعيدة على أغمات صدرت عن جلاله العالي أبيـات من نظمه البارع الذى يسلب الوقار ويفعـل فعل العقـار في الاعتـذار عن ترك الـوداع وهي :

تبدى وزند الشوق يقدحه النوى فتوقد انفاسي لظـاه وتضـرم
وهش لتوديعى فاعرضت مشفقـا على كبـد جـرى وقلب يقسـم
ولولا ثواه في الحشا لاهنتـــها ولاكنها تعـزى اليه فتكـــرم
فاعجب لاساد الشرى كيف تحجم على انه ظبى الكناس ويقـدم ★

ص 181 فانثال عليه من بالمحلة السعيدة مـن كتاب حضرته وشعراء دولته انثثال الهيـم على الورد والنحل عـلى الشهـد وتبـاروا في تدبيلها ونظم حصبائهم في اكليلها ونـص واراهم غبارا ثم قال الحقوا وكان اول الحلبة في ذلك الميدان واحرزهم لراية السبق يوم الرهان شيخنا العالم العلامة مفتي الاسلام وعلم الاعلام ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف ابقاه الله فقال :

واعجب من ذا طور صبرى عندما تجلى فـدك والجـنان متيـم
تحمل في القلب في شرك الهوى وحل اصطبارى وهو من قبل مبرم
وغادرني مضنى حليف صبابـة وقدما تبغد بين خليق ومغـــرم
فلله عينا مـن رءانـا وبيننـــا رسائل شوق لا تبين وتكتـم

ثم تلاه شاعر الدولة ابو عبد الله محمد بن على الهوزالي فقال :

اخوض عباب اليم في حومة الوغا وسمر القنا بين الضلوع تحـكم
واصدع قلب الفيلق المجر عنـوة ويصدع قلبى احور العين افحم
واحمى دمار الملك شرقا ومغربا ويحمى فؤادى وهو فيه محكـم
واكتم ما انويه حتى عن الحشـا واودع من بلواه ما ليس يكتـم

ثم تلاه صاحبنا الكاتب ابو على الحسن بن احمد المسفيوى فقال :

توای به ما بـى اسى وصبابـة طواها قبات البين عنها يترجـم
فهاجرني اودى بحسن تبضـرى وذا جلدى نهب لـديـه ومغنـم
ليهنهم مشوى الضلـوع فـانـه سليم على حكم الصبابـة مسلم
فان يك تعذيب المتيمفى الهوى فان فـؤادى في هواهـم منعـم

ثم تلاه مؤلف الكتاب سمح الله له فقال :

الم يك هذا الخشف يالف وجرة فمـا بـالـه بالمنحنى يتلـوم

صحبت اخاه البدر فى الليل ساهرا يمثله فى الهوى والتوهم

وقالوا نظير الخير ران قوامه فقلت غلطتم انه منه اقوم

لقد وسع الارضين صدرى فسيحة فضاق احتمالا بالذى منه يكتم .

قلت اردت بالمنحنى منحنى الضلوع فوريت بالمكان المعروف ورشحت ذلك بذكر

ص 182 وجرة وتلانى صاحبنا وبلدينا الكاتب ابو عبد الله بن على الفشتالى فقال : *

خضوعى حاكم الغرام قضى بــه وشان القضاة بالشهادة تحكم

فلو لم ير العدلانى دمعى وزفرتيلما كان فى رسم القضية تعلم

غزال يميس خوط بان واننى لا نجد دابا فى هواه واتهم

فهبنى اروم كتم نار صبابتى فان لسانى الحال عنها يترجم

ثم تلاه الفقيه الاصيل الفاضل نادرة العصر ونخبة الدهر القائد ابو الحسن على بن منصور الشيظمى فقال وقد تخلص من الغزل الى المدح وتخطى القطعة الى القصيدة على عادته ابقاه الله فى الاكثار :

فيطلع قرص الشمس من تحت دجنة يمد بها املود بان مقدم

غزال على الاقدام جراه النوى بقلب جرىء للهوى فيه يعلم

يصول فيردى الضد وهو مصمم وتثنى المهى منه العنان فيحجم

امام على كل الكمال قد احتوى فلا فضل الا وهو فيه متمم

لئن شغف الارام حبا فقد بسى فؤاد المعالى وهو فى الغيب مكتم

وشاق كذا بكر الخلافة فارتمت عليه جهاا والمفاطس رغم

فعلتها بين الصوارم والقنا وكانت شهودا والصداق التقدم

وحلى لها جيدا وساقا ومعصما بنصر عزيز يزدهيها ويعصم

تخطت اليها الخاطئون ولم تكن لتعدل بالمنصور والله يعلم

ولو لم يصلها لاستمرت مشيخة عن الغير او تبقى الدنى وهى ايم

فلم لاتجر الذيل فخرا وقد سمت به حيث لم تسمو شموس وانجم

اليس هو المنصور من وطد العلا وذب عن الاسلام والخطب مظلم

ومهده بالهند وانى والقنا وما اسس الراى السديد المعلم

اليس الذى حاط البرية واغتدى به الدين مرصوص المبانى مفخم

وتلل عرش الكفر عند احتزابه وغادره بالبيض وهو مصرم

فدانت له صيد الملوك واصبحت مماليك تمضى كل ما هو يلزم

وطاع له الدهر الكؤد واجمعت عليه السعود تنتجيه وتخدم

فشيد ما شاء العلاء ولم يدع من المجد طراما يفوت ويبهم

ص 183 واحيي رسوما للقلوب قد احتوى عليها العفا فهي به اليوم تنعم *
وقام بها يجــلى حلاهـــا مطبقا مفاصلها والفــهم في ذاك صيلم
يبيت عليها ساهر العين كائنـــا لسلطانه في الرأى يسدى ويلحم
خبير بما تحوى الدفاتر مخبـــر ولاكنه مغرى بذلـــك مغـــرم
عليم باســرار الديانـــة عامـــل وقوف على حد الشريعة قيـــم
امام له ارث النــبوءة والهـــدى دوين الملوك ان ذاك مسلـــم
سليل رسول الله والمحتد الذى تقر له بالفضل عـــرب واعجـم
فمذ ظفر الاسلام منـــه بصارم تيقن ان الشرك لاشك مقصـــم
كما انني منذ اتصلت به سمت بي الحال وانثال الغنى حيث تعلم
واصبحت اكنى ثم لولاه لاغتدى سمى كذا عند النـداء يرضـــم
ولو لم افز بالسبق منه لما اعترت عيون المعاني فكرتي حين انظـم
ولا صاغ لي صوغ القوافي ارومها فتأتي سريعا وفق ما اتحكـــم
ولا طاع لي حر الكـــلام يزينـه مديح الامـــام حيثمـــا اتكلـــم
ولانقاد لي جيش النظام اقـــوده فيتبعني من خلف وهو عـرمـــرم
ولا تنف صنع له الشكر فيـــه لا الى فانني عـن نهاه معلـــم
وما الشعر الا جوهر لا تنالـــه من ابحره ذات الاعارض عـــدم
ولو نيل بالايدى لهان ولاستوى بليـــغ يجيد القول فيه ومفحـــم
ولاكن بغوص الفكر بعد ارتياضه زمانا باداب تعيـــن وتفهـــم
لقد رضته الى ان انقاد واغتدى يسلم لي فيه حبيـــب ومسلـــم
وها اناذا قد جئت فيه بمدحـــةفان قصرت فالامر من ذاك اعظـم
وان صادفت قصد الامام فانـــه مرامي والامر الذى كنـــت ارام
فخذها اميـــر المومنيـــن عقيلـــة تروم رضاكم فهو للفـــوز سلـم
محبرة تروى احاديث مدحـــكم فتطرب عنها النفس اذ تترنـــم
محلاة بالمدح مدحك قد ضـــفى عليها يمان من ثنانـــك معلـــم
ندبت لها من بعد أن زنت صـــدرهـا باربعـة تعلـو مـن يتمـــم
فجلدت بوجه المدح غرة ادهـــم وتلك تجر الذيل زهوا وتفخـم
ص 184 تهنيك بالزور الذى نلت اجـره ويعقبه بالله فتـح معمـــم *
ويمن واقـــبال وجـــد مجـــدد ونصر وتمكيـن مبيـــن ومغنـم
بقيتم بقـــاء النيريـــن وملككـم مدى الدهر بالنصر العزيز مخـدم
ولا عدمـت منك الخلافة ناصرا فانت لها دون الانـــام القـــيم

ثم ذيل القطعة الامامية ثانيا بأربعة ابيات اخر اظهار للقدرة وكمال التصرف وجريا على سنن الجماعة فقال :

ويعجبه منها الحجال فيغتـــدى عليها ويمضى حكمـه وتسلـــم
ويشرع رمحا من قوام وينتـضى ظبا من جفون في النهى تتحكـم
ويقدم تيها وهو بالحسن صائـل فيبهـــر من ذاك الاسود فتحجم
وتشفق مع ذا أن ترى ومكانــه من القلب مستولى عليه التألـم

واما من كان يرغب في لقائه ايده الله من كبار الاولياء والصلحاء الاحياء لاشتهار فضله وقوام طريقته بما كان ايده الله لا ينخدع بتمويه اهل البدع وتمويـه اهـل
ص 185 الحيل حسبما قدمنا فجماعة منهم الشيـخ الولى الصالح البركة العالم العلامة ★ امـــام المحدثين وكبير الاولياء وقطب العلماء العاملين بالمغرب ابو نعيم رضوان بن عبد الله نزيل فاس احد مشايخ مولانا الامام امير المومنين ايده الله الآتى ذكرهم وكان رحمه الله احد رجالات الكمال علما ودينا وغاية في الزهد والورع والاستمساك بالسنة والتجرد مـــن ملابس البدع شديدا في احواله منـــجزا منقبضا ذواقا كان اميـر المـومنين ايده الله لذلك يؤثره ويعتقده ويعظمه وكلما صعـد لبابه العالى لرواية يرويها او لشفاعة يرفعها هش للقائه واقبل عليه بوجه البر والترحيب ومهد له الجلوس بازائـــه تعظيـما واجلالا واختصه بمزية الخلوة حتى ينصرف مكرما ومعظما ومشفعا ومنهم الشيخ العالم البركة الصالح الواعظ الصوفى عـالــم مكناســة وخطيبها والمعظم عند الخاصة والعامـة مـــن أهلها احد بها ليل الجنة الشيخ ابو بد الله البصرى المكناسى وكان مـــن اولياء الله الصادقين علما وقدما ومن أبيله البهاليــل اهل المقامات والكرامات وكان امام اولى الامر بمكناسة في المواسم والاعياد وخطيبا بالجامع الكبير منها وشيخ الفتيا بها والوعظ وكانت تصحبه رضى الله عنه غفلة جرها عليه علو السن وطبيعة البله فكان يطرح لذلك الادب المستعمل مع الملوك في القول والعمل ولا يبالى بما قال او فعل ولقد شاهدته يرتمى على نمارق امير المومنين ايده الله مستنـــدا ومتملا ومتمرغا فكان امير المومنين ايده الله على خنزوانة الملك وشمم انف الخلافة يحمل ذلك منه ويخفض له جناح الذل من الرحمة ويليق له في القول حتى ينصرف راضيا ويمضى شاكرا داعيا ومما يلحق بمآثـــره الشريفة ايده الله في هذا الباب ايضا تعظيما للعلماء الذين هم ورثة الانبياء واجلالهم ورفع منازلهم على سائر رجـال الدولـة وايثـاره اياهم بمزيد القرب في الدخول عليه من قبل الجمهور ايام الديوان والتودد لهم بمواكلـة المشيخة منهم واهل المناصب يدا بيد في المائدة كقاضى القضاة بحضرته العلية العالم العلامة الصدر الاوحد ابى الفضل قاسم بن على الشاطبى ومفتيها الشيخ الامـام العالـم العلامة الصدر الفاضل ابى مالك الحسيب

السرى عبد الواحد بن احمد الشريف والفقيه الفاضل السرى وبى سعيد الشريف احد اعلام تلمسان وعلمائها المهاجرين الى الخلفاء رضوان الله عليهم وكقاضى الجماعة بفاس الشيخ العالم العلامة الاوحد ابى مالك عبد الواحد بن احمد الحميدى والفتي بها الشيخ الامام العالم العلامة المحقق ابى زكرياء يحيى ابن محمد السراج والشيخ العالم العلامة ابى العباس احمد بن علي الزمورى الى امثالهما من مشيخة العلم بفاس. كشيخ
ص 186 الجماعة ★ الامام الاوحد الحافظ القدوة ابى العباس احمد بن علي المنجور والمجتهد الحافظ العالم المعلم الصدر ابى العباس احمد بن علي الزمورى وقاضى الجماعة بالحضرة المحمدية قاعدة السوس الشيخ الامام العالم الزاهد الورع البركة المسن ابى عثمان سعيد بن علي الهوزالى والمفتى بها الشيخ الفقيه العالم الفاضل السرى ابى عبد الله محمد التلمساني وكل هؤلاء ايده الله يؤثره بالمواكلة معه في مائدته متى عن حضور بعضهم أو جميعهم في الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرقه الى منازلهم وابياتهم وكل ذلك اجلالا للعلم ومحبة في اهل الخير وتوددا لاهل الدين وأما احسانه أيده الله الى من دون هذه الطبقة من طلبة العلم واقباله على كل صنف منم وتضعيف الجرايات لهم وايثار المجتهد وذوى الفهم منهم بمزيد العناية والاقبال فعناية اشرقت على جميع العلم انوارها وعمت كافتهم جدتها حتى لقد تنافس الناس لهذا العهد الكريم من اجل ذلك في اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسعة ارزاقهم حتى كثر حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التاليف والتصنيف حسبما ياتى بسط ذلك في محله وكل ذلك بعناية امير المومنين ايده الله وشريف همته وصالح نيته كتب الله له اجر ذلك واجزل له ذخره يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا واما شانه ايده الله في التوكل وجميل الاخلاص وحسن التواضع لعظمة الله وجلاله والتادب مع قدرته التى امسكت السماء ان تقع على الارض وبها اختراع الكل والبعض فمقام الخاصة من اوليائه الناظرين الى صور الاشياء بعين الحقيقة والانظار الدقيقة وحالة من يعلم ان العزائم وان فلقت الصخر والاجناد ان ملأت السهل والوعر والسيوف وان ارهفت الاسود وملكت البيض والسود وانجابت لوهيضها الخطوب السود واوشكت ان يفتح بمفاتح اقفالها السد السدود لا تغنى فتيلا ولا تملك من الامر دبيرا ولا تبيلا ما لم ينهض لها من عناية الله وتاييده عضد عاضد وساعد مساعد ولهذا لن تراه ايده الله على انقياد الدهر لحكمه وتضاؤل الافلاك لنعله وامتثال الايام لامره ومثول الدنيا ببابه الا منتصبا على حال الاستسلام ومتحاميا لحمى الربوبية ان يستام خائفا على فوار بر التوكل ان يتصدع وعراها ان تفصم لذلك اذا شمر لامر من أمور سلطانه يتوكل على عصا المشيئة وينهض على منساة التوكل وعمود الاخلاص ويتجرد من لباس الدعوى والانفة

ص 187 ولهذا كان كثيرا ما يحضنا ايده الله معشر كتاب الانشاء ببابه العالى ★ على استعمال المشيئة والاكثار منها فى الكتب الكريمة الصادرة عن مقامه العالى الامامى شرفه الله وقد فعل وربما عنف على تركها عند عرض السجلات بين يديه وتصفحها بحضرته فيلحقها مرارا بيده الطاهرة فى محلها من الكتب حرصا على استمرار عادة التادب مع الله وسلب الارادة عن نفسه للقادر المريد والفاعل المختار الذى اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون لا اله الا هو جل اسمه وتجده ايضا اذا امتدح بنظم او رفع اليه الشاعر كلمة يتدبر معانيها ويعرض على محك اختباره مبانيها فاذا وجد لفظة ينظر اليها النقد بطرف خفى لخروجها عن سياج التادب مع الله ولو بأقل شىء مما لا يقدح فى عقيدة ولا يحدث وصمة فى الدين تورع عنها وخرج الى الله بالبراءة من عهدتها وامر بنبذها وادالتها باسهل منها وربما اصلحها على قائلها اذا كان زمام القول أيده الله بيده فمن ذلك ما اتفق لعبده مؤلف الكتاب فى ابيات اربعة كنت صنعتها باقتراحه ايده الله لتنقش على بعض ابواب قصره المبارك السعيد الطائر الذكر الشهير بالبديع الاتى ذكره ان شاء الله يتضمن البيت الاخير منها تاريخ المبتنى فقلت على لسان القصر :

هذه وفود السعد نحوى تنتمى وطلائع البشرى لبابى ترتمى
وسمت الى عفات عرفك مثل ما يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
خطت بمصر عن السعود بشائرا لاحت على الشرفات مثل الانجم
واوان صنعى ان تقول ولا تبل فبديع احمد جنة المتنعم

ولما رفعتها الى جلاله العالى وعرضت على اختياره وبحر معرفته الذى لا ملمح لشطط وانتهى الى محل التاريخ من قولى فيها : فبديع احمد جنة المتنعم باستخراج مالها من الحساب بعد اخراج ما لسل فى تلك الجملة استنكف ايده الله من اطلاق الجنة التى هى دار النعمة الباقية على قصره الذى هو دار النعمة الفانية ورغب لذلك عنها تورعا وتادبا مع الله ذى الجلال والاكرام فأوجب ذلك الانتقال الى غيرها واين هذا ممن يلقب مبانيه بالخلد ويسميها بالفردوس ويطلق عليها دار اسلام كما هو مشهور لخلفاء بنى العباس فى مشيداتهم ببغداد ومن هذا المعنى ما اتفق للعبد ايضا وقد نظمت قصيدة اخرى باقتراحه ايده الله لتكتب فى مباح القبة الخضراء من قباب قصره السعيد المذكور فقلت منها اصف القباب :

من كل سامية العماد فتاجها بسنا النجوم مكلل ومرصع

ص 188 ثم قلت مشيرا الى القصر : ★

نلقى به زمر الملائك عكفا يسجدون فى حرمى حماه وتركع

فانتقد على ايضا أيده الله من جهة الورع اطلاق الحرم على قصره وتاكيد ذلك بذكر

الملائكة وعكوفها على السجود والركوع ثم حاول ايده الله اصلاح المعنى على فارشدني بفضل معرفته ولطف اشارته الى ما يناسب ذلك في بيوت الله كالمساجد وما في معناها من الاماكن المتعبد فيها ليسهل مـا قصدت ويصلح ما اردت فقلت حينئذ بيتا اقتحمته بين البيتين وهو :

وبكـل زاويـة بـهـا متعبد خلع الوقار عليه ما لا يخلـع

واردفته بقولي :

تلقى بها زمر الملائـك عكـف يسجدون في اكنافهن وتركـع

فنسبت عكوف الملائكة على السجود والركوع الى المتعبد واضربت عن ذكر الحـرم صفحا فاستقام حينئذ المعنى وزال الاعتراض وازداد الكلام بهجـة ورواء فاستفدت منـه لذلك ايده الله في هذا المجلس ادبين أدب الدين وادب اللسان الذى هو مراعاة جانب التناسب بين الكلام والالتحام بين المعاني حتى يصح الارتباط ويقع الاغتباط وينبعث النشاط وهذا امر لا يجاريه في مضماره ايده الله فرسان هذا الشأن حسبما ياتى من كلامه البارع ايده الله ما يدفع عنها تهمة الميـل ودعوى الاطراء (1) .

ومما يحكى في هذا الباب قضية الثلج الذى ارسل الله على معسكره ايده الله حسبما قدمنا ذكره ءانفا منصرفه من الحضرة لفاس في صفر من عامنا هذا وهو عام سبعةوتسعين فقد كان الواقع فيها جللا والخطب عظيمـا ولولا ما تدارك من لطف الله الذى شانه ان يتدارك به المضطرين من عباده وكان اميـر المومنين ايده الله اشد النـاس فيـه بـلاء وامتحانا لافتراقه عن وطنه واثقاله وسياجه وسائر خيامه وخزائنه من وهن الظهر وانسداد المسالك بالثلج المتراكم بعضا على بعض فلم ينتظم شمله الا بعد ايام فكنا نشاهد منه ايده الله خلال تلك الشدائد وملاقاة تلـك المشقة من عظيم الصبـر والتجلـد وجميـل الاحتمال ما يشهد ان ذلك غريـزة وسجيـة كريمة جبل عليها ايده الله ولو تتبعنا جزءيات هذا الباب وما شاهدناه أو سمعناه من حين نشأته ايده الله الى هلم من جميـل صـبره وحسن رضاه لشذت عن الحصر والاحصاء وضاق عنها نطاق الاستقصاء فانه في ذلك ايده الله المثل المضروب ضاعف الله اجره وأجزل ذخره وأما العفوو التجاوز عن هفوات

ص 191 المذنبين فاقول اعلم ان هذا الامام أيده اللـه ورضى عنه ★ أعظم الخلفاء عفوا وأبعدهـم فيه شأنا وربما كان أعظمهم قـدرا وأرفعهـم صيتا وذكرا وأكثر في أفواه الايام ثناء وشكرا ولو فصلنا المجمل من عفوه وحللت الكليـات الى الجزئيات لضاق حجم الكتاب عن وسعها ولاكن ءاتى ببعض الجزئيات لتكون عنوانا على ما وراءها ان شاء الله فنقول قد قدمنا فـي

(1) الانتقال الى ص 190 .

باب الحلم ما كان صفحه وتجاوزه عن عبد الكريم ابن مومن الحاجب كان عنده وعند الخليفتين أخويه المولى عبد الملك والمولى عبد الله فيما كان سلف منه من الهفوات التي أحفظه بها أيام أخيه المولى عبد الله الغالب بالله فاغنى ذلك عن الحادثة ومما يحكى عنه أيضا أيده الله في هذا الباب من الخصال العظيمة والمناقب الكريمة عفوه عن أهل السوس فيما كان سلف منهم أيام المشاقة والعصيان السالف في خلافة أخيه وصدرا من خلافته هو حسبما قدمنا فظهر منهم من المجاهرة بالخلاف والزحف لحربه تحت رايات عدوه والمظاهرة عليه بالانفس والاموال والافحاش عند المقابلة فالاذى الذى يغرس في الصدر البغضاء ويزرع الغل ويوقد نيران الاحقاد ما لاتحمله كل النفوس ولا يتغاضى عنه الملوك عند الغلب والاستيلاء فما كان الا أن مكنه الله تعالى وأظهره عليهم فدوخت سيوفهم دانيهم وقاصيهم واستنزلت من صياصيه عاصيهم وانثالت وفودهم على بابه العالي ضارعين خاضعين ناكسى الرؤوس من وجوم الذنب واظهار اللياد بالعفو منه والتوسل فألقى الله في نفسه أيده الله عند ذلك من الرحمة والشفقة والعطف ما يجده المرء على ذوى رحمه فقابل جميعهم بالعفو وخفض لهم جناح الذل من الرحمة وبسط رواق حلمه عليهم ورفع سيفه عن سفك دمائهم وتجاوز لهم عن كل ما سلف منهم من سوء المشاقة وقبح المقابلة فأصبح جميع اقليم السوس امنا مطمئنا وهو على ما هو انفساح خطة وكثرة شعوب وقبائل فكم اشتملت عليه من خلق وضم من ضعفاء وصلحاء وعلماء يكتب الله أجر كل واحد منهم على انفراده ثم شفع لهم أيده الله فضيلة العفو والتجاوز مما لم يكن في حسابهم فأسقط عنهم مغارم ثلاث سنين رفقا بهم ورجاء أن يخلف الله عليهم بما كانت حروبه السالفة مع المتوكل أفنتهم واصطلمت نعمتهم وأقوت مخازنهم وخربت عمرانهم فتلاشى أمرهم وانثالت أحوالهم حتى راشت العافية وتمهيد الدولة لهذا العصر الكريم جناحهم ببركته أيده الله ويمن نقيبته وشمول عدله واطمئنان الدولة لعهده(1) .

ص 192 ومولانا أمير المومنين أيده الله المثل المضروب في هذه السجية الكريمة والخصلة الشريفة ولو تتبعت ما له أيده الله في هذا الباب من المآثر وعظيم المفاخر وشغلت الفكر بتذكاره والقلم باحصاء سحائبه الغدقة وأمطاره لنفذ البحر قبل أن تنفد كلماتي وأنا ألم ببعض ما على البال من ذلك ما وقع لصاحبنا الكاتب الفاضل اللوذعي الحلو الفكاهة الجميل الدعابة أبي عبد الله محمد بن عمر الشاوى ما (2) لطول الاغتراب

(1) الانتقال الى ص 200 .
(2) بياض بالاصل .

ص 201 بالجزائر في خدمة المولى المعتصم بالله عبــد الملك أمير المومنين بمطرح ★ اغترابه منهــا وقد كانت عند صاحبنا ابن عمر فرقة مــن قبائل مسفيوة أهل الجبل المطل من درن على الحضرة سوغوه أيدهم الله تعالــى مغرمهــا طعمة مكافأة على الهجرة وتناول الاستثنــاء عشر الزيت من مغارمها لاستئثــار خزانــة السلطان بها في سائر الافق المراكشي فمــا كان الا أن تدبر ابن عمر أبياتا شعرية تناهز الخمسة يهز بها جذع كرم أمير المومنيــن أيده الله ويسئل منــه صرف عشــر زيت أصحابه عليه لينفرد بمغارمهــم جملة وكان الشعر أنجح الوسائل عند مولانا أمير المومنين أيده الله فقبل وسيلته وسوغه ذلك أيــده الله تعالى وهو عدد كبير من القناطر المنقطرة وما زال يبيع منها في كل عــام بآلاف مــن الذهب العين حتى صار بذلــك فــي عــداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية ومن كرمه الذى كاد أن يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التى يصــل بها أيده الله خاصتــه وأهل بساطه غالبا عند المواسم ودأبه في ذلك انه اذا كانت ليلة العيد أحضــرت التخــوت ونضدت في سبانى من الوشى ونثرت على من حضر من أهل البساط وربما رفعت الــى من لم يحضر من الخاصة وأكابر الدولة لايكاد موسم يخلوا من ذلك يختص القاضي منهــا بخلعة يتجمل بها للخطابة به أيده الله فى كل يوم عيد الفطر وربما شفع الخلع ببضائع من العين حضرت مجلس الخواص من بابــه العالى أيده الله ليلة عيد الفطر من عام ثلاثة وتسعين وقد استدعاني لشغل تعين وكتــب تأكد فالفيت القوم ينتظرون الخلع الموسمية لوعد سبق لهم بها وتقدم من قبل أن أخــرج فبرزت اليهم ونثرت عليهم فقلت فى ذلــك أخاطب مولانا الامام المنصــور باللــه أميــر المومنين أيده الله :

يا اماما شاد مجــدا أقعســا وعــلى هــام الثــريــا عرســا
ما لريقى لم يجد بطحاءه عــارض من راحتيــك انبجســـا
أمطر الخلق تخوتــا وكسى مطرا جودا وعندى احتبســـا
أفــلا عــبــدك عبــد جــاءك من ثنــاه لعلاكم سندسا
فاذا ما اختال غيرى فى ملا قد كسته الفخر ابهى ملبســا
فلدى المنصور أرجــو نائـــلا يثقل الظهر ويثنى الاروســا

ثم ما زال ينثال على بعــد ذلــك من شئابيب احسانه أيده الله المتوالية وسحائب (1) الهامية مــا أفعــم الكيــس واثقــل الظهر والرأس ومما يحكى فى هذا البــاب
ص 202 أيضا من مناقبه الشريفة أيده الله ومئاثــره المنبقة قضية الفقيه الفاضل السرى الحسيب ★ المسترسل النشــاة عن الفطــرة والسداجــة صاحبنا الحاج أبى العبــاس أحمد بن أبــى

(1) بياض بالاصل .

العافية الشهير بابن القاضي وهو لقب غلب على هذا البيت القديم السرور والاصالة وكان من خبر الحاج أبي العباس انه لما ارتحل الى المشرق في عشرة الثمانين لقضاء الفريضة ولقاء مشيخة العلم والاخذ عن الايمة أقام بمصر وروى عن علمائها وحمل اجازاتهم الى المغرب ولحق بمستقره من فاس ثم وفد من بعد ذلك على مراكش وتلطف حتى وصل الى مولانا أمير المومنين بمداخلة أهل بساطه من العلماء والكتاب وكان يمحضني الود من بينهم فكنت سفير وسائله ومنفق بضائعها حتى نجحت وحصل على الامنية من خدمة أمير المومنين والانتظام في سلك أولي الموات المرعية ثم تاب له رأى في معاودة البلاد المشرقية للتطوع بحجة أخرى واستزادة العلم والتحصيل وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا الامام أمير المومنين أيده الله في الافاق فجمع من مفاخر الدولة وأمداحها وفتوحهاومئاثرها ما أملى بثه في الاقطار ونشره في المشارق لو ساعدته الاقدار واستأذن مولانا الامام أمير المومنين أيده الله فأذن له ووصله وتوخى الطريق على البحر فركب السفين من ثغر تيطاون فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فأسرتهم وحصل في ورطة عظيمة لولا ماتداركه من الطاف الله تعالى وشمله من عناية مولانا أمير المومنين أيده الله التي تجلى الخطوب المدلهمة وتفك عن العناة قيود النوائب المليمة وطير الى أبوابه الشريفة كتبه من أرض العدو ضارعا ومتطارحا عليه ومقدما وناشد اللموات التي لاتحفز ذمامها فانبعث لها أيد الله وحفظ له عهودها ووصل أخوه العدل الشهير من صنف الحضر بفاس بوفور العقل وكمال الدهاء محمد شقرون بن القاضي في جملة من أهل بنيهم بفاس وأشفق وترحم ووعده بخلاص أخيه وهناه مما أهمه من أمره وكتب في شأنه أيده الله الى قائد تيطاون والى الامين على أخماسها ومغانمها التاجر الارضي أحمد فظل يحرضهم على السعاية في افتدائه وصرف العناية الى استخلاصه بكل وجه يمكن وكان الكفرة قد توسموا فيه مخائل السراوة وتنسموا منه رائحة الحسب والاصالة فانبعثت مطامعهم اليه وشططوا في الفداء وبعث الى أهله في ولد لنصراني معلم ماهر قد نصبه طاغية قشتالة لصناعة اكوار الانفاط وعمل السلاح بحجرة بادس فكان له بذلك عندهم خطر وبال وزعم النصراني لابن القاضي بافتدائه بولده وكان من أسرى الجانب العالي الامالي ومن سبي وادي المخازن

ص 203 فتقدم بنو القاضي الى مولانا أمير المومنين أيده الله ⭑ فيه وكان لديه أيده الله من أهل الفدية والمقاطعة بالاموال الطائلة فدفعه اليهم ولم يكن شيء اسهل عليه من بذله على خطره فذهبوا به لفاس لينطلقوا به الى تيطاون للموعد الذي ضربوا بها مع والده فوافق ذلك ما كان من خلاص أخيهم الحاج احمد وخروجه من سبته الى تيطاون بتدبير التاجر الحاج الفلوس من اهل مكناسة كان في بلاد العدو منذ أعوام يخاصم في مقاطعات بعض الاسارى

غدره بها علج ارتد الى دينه الاول ومر فى طريقه راجعا على جبل الفتح بالحاج أبي العباس فاحتال وتلطف حتي قاطعه بمال لم يخل عن رفق لمكايد اعتمل في استخلاصه بها فلم يتفطن بها الكفرة الا من بعد عبوره الى سبتة فأدركتهم الندامة وطيروا السفن اثره فأفلت من حبالها ابن القاضي وحصل في انشوطتها الحاج الغلوسي مستخلصه فلم يتخلص منها الا بعد عصب الريق وبجاد أمير المومنين وعنايته واغلاظه على من تحت ايالته من أساقفة الكفرة وقسيسيهم الذين على يدهم مفادات أسارى المشركين فعمل الحاج أبو العباس وقومه وجوههم الى مولانا أمير المومنين أيده الله يسئلونه الانعام عليهم بما تقاطع من المال لبقاء الحاج الغلوسي رهينة فيه هو وسلعه بسببه فلقاه أيده الله برا واكراما وأمر بتلك العدة من المال فدفعت اليه من حينه وشفعها له بصك سوغه به أيده الله ما حصل منه على ربح عظيم أورثه الثروة وكان صاحبنا الحاج أبو العباس يزعم أن جملة المال بما بذل له أمير المومنين أيده الله في المقاطعة وبما حصل عليه من الربح بسبب ما سوغه وبما أطرح عنه من اللازم بعنايته وجاهه تناهز عشرين ألفا يعدها عدا ويفصلها تفصيلا وهذه منقبة عظيمة ومئاثر جليلة جسيمة لو لم يكن ليحكى من مناقبه مولانا امير المومنين أيده الله في هذا الباب الا هى لكانت كافية وبجميع المفاخر وافية لما تدل عليه من عظيم الكرم والجود وحسن العهد والوفاء ورعى ذمام الخدمة والاوفياء وعلى انها بالنسبة الى غيرها بعض من كل وقليل من كثير واما صلاته الجزيلة أيده الله تعالى وهباته الجسيمة الجليلة للشعراء ومن يفد على حضرته العلية من وفود الاعيان والعلماء وذوى الحاجات المنثالين على بابه من كل قطر وفى كل وقت فاجل من أن يحصى أو ياتى عليها العد والاستقصا فان حضرته أيده الله كانت لاهل الارض قبلة تؤمها الوفود وتنجع اليها القبائل والمران اليزنية تفوت الرمل والحصى عدا ويغمر بحرها الارض غورا ونجدا وكل ذلك على أحسن نظم وأبدع ترتيب وأفخم زى

ص 208 وأكمل بهجة ورواء وبحالة تقر بها اليوم والمنة لله * عين الاسلام ويخلع قلوب الكافرين من عبدة الاصنام (1) .

وأما مسائلته أيده الله عمن يعتل أو يمرض شيء من أهل بساطه وأكابر دولته وعبيد حضرته واربياء نعمته واظهار الشفقة لهم والضنانة بهم والجزع عليهم وعيادة الخاصة منهم بنفسه وتعاهدهم بارساله وانفاذ أطبائه اليهم على القرب والشحط وتمشيه ما يليق من الادوية والاشربة لهم من داره وحضور جنازة من يموت من خاصته واركاب بنيه الامراء الكرام للطبقة التى من دونها قشيمة تستعبد الاحرار وسياسة تاخذ

(1) الانتقال الى ص 208 .

بمجامع الالباب وتبعث على بذل المهج فـي جانب رضاه الكريم وما عسى أعد من مناقبه الشريفة وأنشر من مئاثره الكريمة في ذلـك فحدث عن رمل عالج كثرة لاكني أذكر بعض ما يحضرني ليكون عنوان على ما وراءه مرض لصاحبى ووليي الكاتب أبى عبد الله محمد ابن على الفشتالى صبى صغير مرضا أشرف به على الاياس واتفق أن جاءه يوما بالديـوان الكريم النذير من منزله باشراف الولد علـى الفوت فأرهقته الشفقة التى تجد الوالد على الولد وازعجته الى منزله قلقا ثم عرض بروز مولانا أمير المومنين أيده الله للايوان الكريم فاستدعانى وأملى على من المهمات ما تتعين فى كتبه المشاركة والمعاضدة قصـــدا للانجـاز والمبادرة وسألنى عن صاحبى بما كان ظهيرا ورداءا لى عن الانشاءات التى اختصتنى وايـاه العناية الامامية بالنهوض بأعبائها والامانة على أسرارها وكنت جهلت السبب الذى آزعجـه وخفى عنى وجه العذر فاستنشاط مولانا أمير المومنين أيده الله غضبا لغـدوه من قبـل أن يحين الرواح وبعث عنه أيده الله مستحثا له فلم أشك ان وصل أن يصب عليه من العتاب والملامة سوط عذاب واهمنى ذلك شفقا على صاحبى من موقف الخجل والارتباك فوصـل وأعرب عن حاله وأبان وجه عذره فما كان الا أن رق أيده الله للحال واستحال من حينـه الغضب الى الرحمة وجعل يسائل أيده الله عن حال الصبى ومرضه سوال مشفق وبالغ فى ذلك الى أن قال له أيده الله ان أمـراض الصبيـان قلما ينجـع فى علاجهـا الا طـب العجائز ولا كعجائز دارنا فابعـث لهن مـن يسائلهن ومن هذا المعنى أيضا ما اتفق لعبدهم رضى الله عنهم مولف الكتاب وهو ان ولـدا كان لى صغيرا يناهز السنتين مرض فقضى فوافق أيام الديوان التى يتعين فيها البكور الى الابواب الشريفة لاقامة وظيـف الخدمـة فتأخرت لموارات الصبى وكتبت لحاجب الباب أعرفه بالقصة ليقيم المعذرة عند السؤال عنى فما كان الا أن خرج مولانـا أمير المومنيـن الخروج الثانى المعقود لعرض مهمات وابـرام
ص 209 أمور ملكه * وفقدنى فى خدمة بساطه فاستفهم عنى فأخبره حاجب الباب بالحادث الذى أخذ بحجرى عن الطلوع للديوان الكريم فتأسف للرزء أيده الله أسفا نبـه على فريقيـن بيـن عبيده وشاد لى الفخر على صنفى من خدمـة أبوابه وأطال أيده الله فى السؤال عن الولد وعن مرضه وهل لدى ولد غيره ثم هل هم لام واحدة أم لامهات وأطنب أيده الله فى السؤال ووليى أبو عبد الله يجيب عن الحال اطنابـا أشعر الحاضرين من الخاصة بما (1) الخدمة ووسائل التربية حتى أرسل الى أحد الخاصة ممن يانف من انتباب الابواب بولده عن ساعتـه بولـده يعزينى عـن المفقـــود فاستحالت التعزية الى التهنية بسبب مـا شرفتنى بـه عنايته ايده الله من الاهتبـال بشأنى والاهتمام مما أهمنى والتأسـف لمـا

(1) بياض بالاصل .

أسفني ولما بكرت على العادة للابواب الشريفة في الديوان الثاني ووافق ذلك انقباضه أيده الله عن البروز للناس يومئذ من أجل ألم خفيف ألم بذاته الكريمة شرفني بالدخول الى حيث مقر ذاته الشريفة أيده الله بالقصر الذى هو من مشيدات الامام والده قدسه الله لكثرة ما كان يالفه ويوثره على غيره من قصورهم العالية من قبل اكتمال مباني قصره البديع المعفى على ءاثار الاولين والاخرين حسبما ياتي في محله فافتتحني أيده الله لاول ما اطمأن بى المجلس بين يديه بالتعزية عن الوليد الناشىء في نعمته مظهرا أعلى الله أمره وأطال للاسلام عمره غاية الشفقة والاسف وانبرى يسئل في الحضور عما سأل عنه في المغيب وأربى واستقصى حتى كدت أتلاشى بين يديه خجلا وسرورا بما شاهدت وأما ما قابلتني به عنايته أيده الله عند انغماسي في العلة المتطاولة لامد من حولين كاملين وشملني (1) واهتمامه وحنوه علي ومواصلة سؤاله وانفاذ أطبائه وارساله وطورا بحاجب بابه ومتاحفتي بالمربيات والاشربة المعتامة لداره فشيء لاتنهض العبارة باعباء شكره ويحجم البيان عن استيفاء قله فضلا عن كثره والله تعالى أسأل أن يحفظ على الاسلام مهجته الكريمة ويحلى جيد الدين والدنيا من دولتهم الغراء بالدرة الثمينة اليتيمة وأن يجعل أسيافهم المؤيدة المنصورة لحماية الله والامة جنة وارفة وافية وتميمة وأما الكرم والجود والسخاء الذى لايلحقه شرف وهي أعظم الخصال وأشرف الخلال وأكرم السجايا التى لها عند الله وعند الناس البال فأقول يحق أن أقدم هنا فصلا استفتح به الفهرى هذا الباب ليكون تذكرة لاولى الباب قال رضى الله عنه وهذه
الخصلة الجليلة قدرها العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها وهي احدى قواعد المملكة * ص 210
وأساسها وتاجها وجمالها تعنوا لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع الجبابرة وتسترق بها الاحوال ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء وتحقن بها الدماء ويحسن بها الثناء وتملك بها القرباء والبعداء ويسود بها في غير عشائرهم الغرباء وهذه الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه عنها بها مساقط وبل الجود قد ارتحلت اليها الشعراء من الاقطار القاصية والافاق الشاسعة وضربوا الى بابه أكباد الابل وكان ممن أزجى مطيته الى حضرته العلية مادحا ومسترفدا شاعرالمشرق والمغرب لوقته بلا مدافع الشريف السرى الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المكي وفد على حضرة أمير المومنين أيده الله من مكة وخاض اليها حشى الديمومة وشبح البحار فسقط على المغرب في عام ثمانية وثمانين وأناخ على ولى العهد بفاس المولى الامير الهام أبي عبد الله محمد الشيخ المامون ابن أمير المومنين أيده الله فأكرم وفادته ووطا له أكناف القبول وبسط عليه النعمة ثم وصل صحبة ركابه العالي الى باب أمير المومنين أيده الله عند مقدمه عليه بمعسكره

(1) بياض بالاصل .

على نهر تانسيفت في جمادى العام حسبما أسلفنا ذكر هذا الملتقى المبارك فمدح أمير المومنين أيده الله بقصيدتيه الطنانتين وهما اللامية التى أولها (1) والدالية التى مطلعها :

أترى زمان الرقمتيــن يعـود ومذيب جسمي بالبعاد يعـود

ثم بقصائد اخر وتوشيحات مذهبات تضمن جميعها ديوانه المجموع فى امداح امير المومنين ايده الله المروع فى خزانتهم الكريمة حسبما ياتى ذكر هذه المنظومات فى محله ان شاء الله فوصله ايده الله فى تلك النوبة بالف اوقية وخلع وحملان وانقلب صحبة ولى العهد أعزه الله تعالى لفاس فاقام بها مكلوا بعنايته مشمولا بمبرته مغمورا بعوارفه الى ان تحرك مولانا امير المومنين ايده الله على تفئة ذلك بفاس حسبما قدمنا ايضا فلقيه هذا الشاعر فى جملة وفد اهلها بقصيدة لامية موصولة اولها :

قدومكم بالسعد غنت بلابــه اواخــره محمـودة اوائلـه

وستاتى ان شاء الله ايضا عند ذكر شعره فكان يتمشى له فى كل شهر من لدن مقدمه الى حين منصرفه تسعمائة درهم وكانت مدة اقامته نحوا من سنتين فلما ازمع القفول الى* المشرق وصله مولانا امير المومنين ايده الله ومولانا الامير الهمام ولى عهده ايدهم 211
الله تعالى بنحو اربعة ءالاف اوقية دون الخلع والكسى وشقاق الملف ورقيق الكتان فذهب مملوء الحقائب موفى الرغائب وحمل معه سجلا كريما بخاتم امير المومنين ايده الله الى ملك بلاد الروم من بنى عثمان عرض فيه ليقلدوه قضاء صنعاء اليمن فنجحت فى ذلك وسائله بعناية مولانا أمير المومنين أيده الله ونفوذ ارادته عند ملوك الارض وكتبوا لابن الفضل التقليد فقوض الى اليمن محبورا ثم عاجل بدره السرار من قبل التمام وانشبت به المنية اظفارها فطرقه المرض بالبحر عابرا الى الاسكندرية ففاضت نفسه رحمه الله وقذف به فى الموج فعادت جواهره النفيسة الى معدنها وبيعت تركته بالاسكندرية واشتمل عليها ولاة الروم بها قدسه الله تعالى وغفر له واما اكرامه ايده الله لصنف العلماء الذين يجلبهم الى حضرته من الاقطار برسم التحليق للمذاكرة فى مجلسه الكريم وللاخذ عن المشيخة الاعلام منهم وانتفاع طلبة الحضرة بهم فشىء لم يعهد فى غير خلافته الكريمة وايامه السعيدة وكان كل من وفد منهم على بابه الكريم لا ينقلب لاهله الا بآلاف من العين واوقار من الملف والكتان وانواع الملابس واماء ومراكب حتى كان شيخنا الامام العلامة شيخ الجماعة وصدر العلماء ابو العباس احمد بن على المنجور رحمه الله كثيرا ما يقول ما عهدنا بذل المئين فى الصلات الا فى ايام الشرفاء ولا عهدنا بذل الالوف الا فى ايام مولانا الامام المنصور بالله امير المومنين

(1) بياض بالاصل .

اذ كان رحمه الله ممن ادرك دولة بني مريـن فلم يكن ليعهد فيها بذل المئين فضلا عن
الالوف وعطاياه ايده الله للواردين عـلى حضرته العلية ووفود القاصدين من العـرب
المصطنعين وجماهير القبائل المنثالين على ابوابه الكريمة من كل أوب وصوب وما يبذله في
سبيل الخير وطريق الزلفي لو تعرضنا الى عده وتفصيله لضاق عنه حجم هذا الديوان
ولقد رأيت كثيرا ممن يتبجح من المؤرخيـن بمفاخر ملوك قطره واولياء نعمته يعد لهم من
بعد المبالغة في الاحتشاد والاستقصاء مئاثر لو قابلنا جميعها بمفرد من مئاثر مولانا الامام
امير المومنين ايده الله ما رجح بوزن حصاة من مئاثر الحجة من ذلك ما ذكر ابن حيان
في تاريخه ان المنصور بن ابى عامر اعمل غزاته الثامنة والاربعين الى مدينة شنت ياقوب
وهو تغيير اسم يعقوب كبيـر الحـواريين الاثنى عشر اصحاب المسيح عليه السـلام
ص 212 بلغت كساه فيها الى الفي كسوة وذكر ذلك على سبيل الغرابة وليت شعرى ★ اى نسبة
بين هذه الجزئية التي وقعت وانقطعت وبين اضعافها مما يبذل امير المومنين فى سبيل
الخير كل عام ويجرى على يده مرتبا مـن الكسى سانهة على الدراع فقل أن تصحـوا
يوما ابواب ديار العشر ومودع السلع مـن غاشية اهل االاعانات واولى التفضل والانعام
الذين يتحينون اوقات الملابس المرتبة زمرا تتبعها زمر دون ما يبرز من قصوره الكريمة
احيانا الى الاشراف والصدور ووفود الملوك وارسالهم من المتاحفة بمفاخر الخلع والتخوت
ونبيه اللباس وربما شفعت بالمراكب العتيقة والحلى الثقيلة والاموال الطائلة الجسيمة واما
ما يجهزه صحبة بعوثه الى فتـح الجـهات والاقطار وعساكره التى يرمى بها اقاصى
المماليك البعيدة فاتحة ومدوخـة فشيء لا يحمله الا البعير ولا ياتـى عليـه حسبان ولا
تقدير فحدث عن كتب يمرين كثرة

ذكر الاحتفال للميلاد الكريم والتنويه بموسمه العظيـم

ص 281 هذا الموسم الكريم النبوى ومشرق انوار الطلعة النبوية ومجلى عروس الكون ومظهر
كنز الله فى العالم وسره المنتقل فى اصلاب النبيئين عليهم السلام من آدم خير من طلعت
عليه الشمس صلى الله عليه وسلم صـلاة يتهادها فم الى فم وقلم الى قلم حتى تظلنا
فى اعسر من عنايته الراية والعلم هو مطرح الهمة الكريمة الامامية النبوية الشريفة المنيفة
ومرمى اعتنائها وعظيم اهتبالها واحتفالهـا واكراما والاجلالا ولئن كان الخلفاء رضوان
الله عليهم لم يجدوا ايامهم ومددهم من احياء سنته التى ثابروا عليها خلفـا عـن سلـف
والاحتفال لوليمته العظـمى التى تحضـرهـا ملآئكة الرحمان ويهتز لعظيم شانها الملوان
فلقد اربى عليهم مولانا الامام امير المومنين ايده الله تعالى فى صنيعها الجسيم والاحتفال
لليلها العظيم ويومها الكريم بمقدار ازديـاد بحره الطليق على نهرهم وامتداد باعه الرحيب
ص 282 على فترهم حياها الله من همم هاشمية ★ وشيم نبوية ونفوس كريمة علوية كم لها من

فخار عظيم ومآثر تلوح غررا فى جباه الايام وهى كمأثرة يرضون بها الرب فى كل عام وتقر بصنيعها عين المصطفى خير الانام عليهاطيب الصلاة وازكى السلام والرسم الـذى جرى به العمل (1) لاحتفال هذا الموسم النبوى الكريم انه اذا طلعت طلائع ربيع الاول طلائع هذا النبى الكريم صلوات الله عليه وسلامه توجهت العناية الشريفة الى الاحتفال له بما يربى على الوصف ويقف دونه همـم الحاسب فيصير الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين النعارين فى السحر بالاذان واصوات رهبان فيهوون للدعوة من الاماكن النائية ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلو الحاسن هـذه الجهابدة الذين يبارون النحل فى نســج أشكالها لطفا وادماجا حتى اذا كان ليلة الميلاد الكريم وقد اخذت الاهبة وتـم الاستعداد وتناهى الاحتفال واقصى مبالـغ الكمال وتلاحقت الوفود من مشايخ الذكر والانشاد وحضر وقت زفاف العارى فى رياض الشموع الى الابواب العلية الشريفة وحضـرت الآلـة الملوكية والافلاك المؤلفة من الاخشاب لحمل جذوعها يحملها اسارى الدولة وأولو الطرق من الصحافين المحترفين بحمل خدور العرائس عند الزفاف يتقدمهم عريف الاشغال بالباب العلى مصلحا لشأن افلاكها ومعدلا لسيرهـا مشايخ الوزعة وخدام الشرطـة ومشايخ البلد انتظم عالم من النظارة سماطين بحافى الطريق من ابواب الخلافة العلية الى حيث مثوى الشموع من منزل اولى صنعها وخدمتها قد جللوا جنبتى الطريق وركبوا الاسوار والاسطاح وبرزت ربات الحجال من اعلى المنازه والصروح فضخمت الجملة وعظـم الزفاف وبرزت جذوع الشمـوع كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن والضخامة والجلال واحتملت على افلاكها يقفوا بعضها بعضا فى عدد كثير كالنخيل فارتفعت اصوات الآلـــة وقرعت الطبول وضـــج النـاس بالتهليـل والتكبير والصلاة على النبى الكريم وتتصاعد على الوصف من الزى العظيم والزفاف الجليل حتى تستوى على منصات الشهرة بالايوان الشريف ثم يقع البيات على التغليس لحضور المشهد الكريم فاذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا الامام امير المومنين ايده الله فيصـــلى بالناس ثم يقتعد اريكة قبته وسرير ملكـه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة وقد ازدهى المحفل وضخم الحال وتناهى الجلال واصطفت امام القبة جذوع الشموع المبارية للمآذن والنخيل ضخامة اجرام وطموح اعناق واصطفاف العذارى المختلفة الالوان فمـــن بيض كالدمى وحمر جليت فى ملابس ارجوان وخضر سندسية ★ الغلائـل وقـد تقسمت ص 283

طول جذوعها قباب مستديرة بهـــا استدارة اركان المآذن وتفننت فيها الصنائع نسـجا وقادت بين الارجل الضخمة والافلاك المضاعفة تنوء بها العصبة اولوا القوة متعددة المواقد والمشاكى كانها هضاب نرجس نهر ذوائبه ايدى النواسم واستحضر من انواع الحسك امام الحضرة كل توراء مصنوعـــة من النشب اخذت مدمج خصورها التفافيـج

(1) بياض بالاصـل .

النافذة النقش قد ركزت في انابيبها المجوفة وغير المجوفة عمد ملبس الجسوم من الشموع طوال القدود طاعنة في الجو باسنتها المذهبة مولوية بالسنتها الدلقة تضرب باشهارها الجناة من اولى الدربة بقطف انوارها فتقطفها بالاجلام المحززة والمقطعات المجوفة التي تمسك ما ابانه الحلاق من شعورها فلا يسقط منها شرر ولا يعوم لها قتار وملئت امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية الصوغ بديعة النقش مظللة بالغطاء الدمج الشباك يناول مولاة وقودها العنبرى الى انفضاض المجلس قيم الاثاث في تسبيل من الظرف والخصوصية لا يغيب عن امدادها بالوقود فتتصاعد فوق المشهد منها غمامة عنبر قد سدت افق الشمس وضربت دون سماء القباب سرادقا جونا فتملأ المعاطس وتعلق عمائم الاطواق والجيوب واللبب وتسايل الناس من البلد على طبقاتهم مغلسين من شرفاء وقضات وفقهاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء واجناد ورؤساء واشياخ نبهاء وعمال اثراء الى من تعلق باذيالهم من اللفيف والغمار بما يعين التنخل ويعجز التأمل فاذا استوى الورود واصطفت الصفوف الاجناس وتألفت الاشكال ورضيت مقاعدها السرات وخلص من زحام الابواب الضيق وعصى الرياد عن كتب الله سلامة ثوبه وحفظ بشرة وجهه فكثيرا ما نرى الانوف لخدوشة من التزاحم والتدافع بالابواب التى يظللها عصى اشبه من عصى الوزعة ومن يسد طريق العارض الهاطل تقدم أهل الذكر والانشاد يقدمهم مشايخهم من بعد ان يفرغ الواعظ من قراءة ما يناسب المقام من الاستفتاح لفضائل النبى صلى الله عليه وسلم وسرد معجزاته والثناء على شريف مقامه وعلى جلاله واندفع القوم لترجيع الاصوات بمنظومات على اساليب مخصوصة في مدائح النبى الكريم صلى الله عليه وسلم يخصها اصطلاح العرف باسم المولديات نسبة الى المولد النبوى الكريم قد لحنوها بالحان تخلب النفوس والارواح وترق لها الطباع وتبعث في الصدور الخشوع وتقشعر لها جلود الذين يخشون ربهم
ص 284 يتفننون في ★ الحانها على حسب تفننها في النظم فاذا اخذت النفوس حظها من الاستمتاع بالحان المولديات الكريمة تقدمت اهل الذكر المزحزحون بالرقيق من كلام الشيخ ابى الحسن الششترى رضى الله عنه وكلام القوم من المتصوفة اهل الرقائق كل ذلك تتخلله نوبات المنشدين للبيتين من نفيس الشعر يتحينون به المناسبة بينه وبين ما يتلى من الكلام عند الانشاد من نسيب او غزل او المام بنسيج او تشوين للمعاهد الشريفة او مديح نبوى او ما ولى على سبيل لطيف من الظرف ولحن عريق في نسب الاجادة ثم حضرت دولة انشاد الشعراء وكان الخلفاء رضوان الله عليهم يتساهلون في اتباع الغث الذى يلهج به من ذلك العوام المتشاعرون بما يلفقون سفساف القول وسافل الكلام المصقول بشرك القافية الواهية والوزن الخارج عن نسب الاجادة ومصطلح الاوزان

العروضية فلما جاء الله بساعة الكمال القت الهمم العلية المنيفة الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية على الله بحبها وايد حزبها من ختم محاسن هذه المحاسن الشريفة النبوية بالدعوة الجليلة الامامية العلوية بمثلية هذه العصابة الخسيسة التى يتحاشي مجلسها النبوى عن خصف انعلتها الوطرة على اوطيته الشريفة الملوكية ويتنزه عن قولها الثقيل الذى تشمئز منه الطباع ولا يحصل لواحده على الاسماع اذن ولا قبول فانصبت مع الامتنان بحفظه الجراية وغشية الاحسان وادالتها العناية الشريفة الامامية بالعصابة الادبية من كتاب الدولة وشعراء (1) هذا الميدان وجهابذة هذا الشان ودفعتهم لهذا المضمار العادية (1) الامامية فتباروا فى احراز الخصل تبارى الجياد يوم الرهان والشان في الانشاد ان يقف الشاعر بازاء المسمع مستنبيا اياه فى انشاد ما خبره فاذا فرغ خنع الشاعر وانصرف لمكانه من المجلس الكريم وجرى الترتيب بتقديم قاضى الجماعة الشيخ العلامة جملة الفضل الصليب العدد القوى الشكيمة صدر الفئة اثير الخلفاء سفير الايمة خطيب الخطباء بلبل منابع الجمع والاعياد القاضي ابى القاسم بن على الشاطبى تغمد الله بعفوه فأنشدت له قصائد تابى الاثبات فى هذا الموضع وتلاه الشيخ الامام علم الاعلام مفتي الاسلام بحضرة (1) انمودج الفضل ولبنة التمام ذو النسب الشريف والحسب العريق الاصالة المشتمل بملاءة السودد والسراوة وذمائة الاخلاق ولين العريكة رضيع لبان العفة مليح البسط على ديانة مضمر ثغرة النادره (1) فصيح
ص 285 القلم المغبر فى وجوه * اهل اللسان والبيان شيخنا العلامة ابو محمد عبد الواحد بن احمد بن الحسن الشريف الحسني فانشد له :

الا حى نجدا والمعاهد من نجد وسائل بها من حل اكنافها بعدى
معاهد انس لاتزال اعراضها مصارع عشاق ومسلى لدى وجد
نعمنا بها والعيش فينان مورق وجرى الهوى ملء العنان بنا تردى
احن الى تلك المعاهد والربى وماذا الذى يغنى حنينى او يجدى
ليالى الهو بالكواعب كالدمى وينعم طرفى فى معاطفها الملد
وكل هضيم الكشح اغيد ناعم فلله من عقد عليه ومن قد
اذا هز عضب اللحظ ثم سطى به فرى فوق ما يفرى المجرد من غمد
اغازله فوق الكثيب سحيرة ويبدى من الاشواق فوق الذى ابدى
فبتنا على رغم الحسود وبيننا احاديث احلى من امان ومن شهد
اطارحه الشكوى واخضع ذلة واشفق من هجر يتاح ومن صد
اذا ما رنى طرف الى روض خده فما شئت من زهر جنبي ومن ورد
فلله عينا من رآنا وبيننا تدار كؤوس من وصال ومن وعد

(1) بياض بالاصل .

اقد غض جفن البؤس عنا ودونه ... مهامه تنضنى ضمر العيش والجرد

وقد امنت لداتنا من رقيبها ... فيا لك من عيش هنى لها رغد

هو العيش لو ان الشبيبة ساعدت ... ببقيا وما ان من بقاء ولا خلد

فقد نسخ المشيب حكم شبيبتي ... فما انا من ليلى ولا أنا من هند

ولكن الى الاخرى سرى بهمة ... تبارى نجائيا لخير الورى تخدى

عناد العصاة المؤمنين ومن به ... تلوذ دوو الامال طرا ولا يكد

هو البحر جودا والسماكان رفعة ... به العفو ارجو والشفاعة استجدى

هو الآية الكبرى التي عم نورها ... وذو المعجزات اللائى يعيين في العد

اليه تناهى كل فخر وسؤدد ... فيا كف مذنب باذياله شد

فمن جاهه قد نال ءادم طوله ... وحاز به رفدا فيا لك من رفد

ايا ليت شعرى هل بطاهر ربعه ... ارى ملقيا رحلى ومفترشا خد

وازجى له العيش الضوامر جاهدا ... قبيل انقراض العمر والكون في لحد* ص 286

واحدوا بها والليل ملق رواقه ... فطورا بنا تعدو وحينا بنا تخدى

عليه صلاة لايزال نسيمها ... يعاهده من قرب دارى أو المجد

وتم سلام لا يزال مجددا ... اليك أياذا الفضل والعز والمجد

اليك مددت الكف يا خير مرسل ... دعاء غريق في مئاثمه بردى

فبين يدى في المعاد مواقف ... اجازى بها عن هزل امرى وعن جد

بك استمسكت كفاى في كل موقف ... فلا تسلمني في مضايئها وحدى

وخذ بيدى فضلا فما لى وسيلة ... امت بها يوما اليك ومن ود

وود بنيك عشرة السبط انهم ... بدور الورى اهل الحفيظة والعهد

امان لاهل الارض ما وجدوا بها ... من الفتن الجما ومن كل ما يزد

ولم لا وانت جدهم وابوهم ... فلله من اب ولله من جد

وفيهم ومنهم من يلاذ بظله ... سميكم المنصور كالاسد الورد

امام الهدى خلف الندى قاهر العدى ... وواقى الردى هادى الرعايا الى الرشد

له همة تعلو الكواكب رفعة ... ويقصر عنها كل قيل وذى جلد

وصولة ضرغام اذا احمر باسنا ... ولان الشموس من كمال ومن عهد

ورأى اذا ما الرشد عمت وجوهه ... وحلم اذا طاش الوقور عن الخرد

وادراك ما يعيى العقول مناله ... وصدر بلا ضغن هناك ولا حقد

له استسلمت كل الملوك ومن لهم ... بلقيا هزبر لا في صدر ولا في ورد

ابوه جد الاملاك والجد جده ... فلله من هاد هناك ومن مهد

امولای حزت الفخر والفضل والندی ففاخر فانت اليوم كالعلم الفرد
علوت على كل الملوك وفقتهم فمالك من شبه ومالك من ند
هنيئا بما خولت يا خير من رقت اليه عيون من عفات ومن وفد
بكم ولكم ذلت ودانت طوائف فكلهم من خوف بأسك فى قيد
كففت اكف الظالمين عن العدى فما ينتهوا لولاك فيه الى حد
وأمنت ابناء السبيل وسبلها فجابوا مخاويف البلاد على قصد ص 287
وصينت بكم اموالنا ودماؤنا فكم لك من شكر علينا ومن حمد *
مدائحكم يعيى القوافى حصرها عن العجز مالى من محيص ولا حيد
ولم اتعاط المدح الا تبركا والا فانى لا اعيد ولا ابدى
بنفسى واهلى والعشيرة كلها وما كان او يكون نفسكم افدى

وتلاه الفقيه الفاضل جملة السداجة وكرم الخلق طيب النفس جميل العشرة وطىء الكنف فى الطبع مسترسل عنان النشأة على الفطرة جامع المجلس الاثاث من طلب ممتع وادب بارع وخط رائق وقلم فصيح وسيف باتر وسنان عامل القائد ابو الحسن على بن منصور الشيظمى وانشدله على الرسم المذكور :

أترى الزمان بوصل ليلى مسعدى وهل التقى ليلا بها فى مشهد
وابيت فيه مقبلا فى حجرها خالا لدى حجر هنالك اسود

ومنها :

وتبرجت تسبى الوجود بزينة وتصيد لب الناسك المتعبد
من اذا تجلت فى مشاهد قدسها اجلت هموم شهود ذاك المعهد
من لى بها قد اسفرت فى ليلة يزرى دجاها فى العيون باثمد
تلك الليلية ما لها اخت سوى اخرى بطيبة اختها فى العقدد
فهل اركبن لها المطى عشية واروح مشمولا ببرد الابرد
والليل يسحب مقبلا ديباجه والشمس ترفل فى حلى من عسجد
والعين تخفق للرواح خفية خفافها فى الطى طى الفدفد
ويسوقها تذكار من سكن الحمى وترى بطيبة او بقيع الغرقد

ومنها :

تلك المعاهد هل اراني نحوها اصل الشرى والسير سير المسئد
وهل اغتدى والصبح من كحل الدجا راء وعين الشمس مقلة ارمد
والليل من افق المشارق قد طوى راياته بعد انتشار الانبد
والنجم مسلوب السنا وقد انطفا طفأ الشرار على ثقاب موكد

ومنهـــا :

ص 288 شمليل تترك بالفضا شمل الحصا بددا وشمل الوصل غير مبدد ★

ومنهـــا :

ياهل ابيد بوخدها البيـــد الى ان ابلغ الارض الطيبة النــــدى
فاحط عنها فى القاعـد رحلهـا وازور بالزوراء قبـــر محمـــد
خير البرية خاتم الرسل الـــذى فاق الاوادم فى الندى والسؤدد

ومنهـــا :

تلك المعالى والـــعـوالى كلهـــا من دونـها فى قربهـــا المتفـرد
فاقت على السبع الطباق وخيمت فى حضرة القدس القديم السرمدى

ومنهـــا :

وسئل به آى الكتاب فقد حوت من سؤدد المختار ما لم يجحـــد
فالقدر اعظم والمقـــام اجل من ان يهتـــدى لثنائـه بتعـــدد
هـو النبـى المستـجار بظلــــه فى الحشر من هول هنالك مرعـد
هول يهيل الرسل لاكن ينجـلى بشفاعة المختار افضل منجـــد
غيث العوالم رحمـــة الله التـى شملت مواهبهـــا ولـما تنفـد

ومنهـــا :

فحمى بآيتـه وحـــد حسامـه شبه المعارض او وريد الملحــــد
فاسأل به بدر الذى ابتدر العدى فيه الردى من باسه المتأســـد
واسأل به احدا وهل اعنى بـــه احد خفاه بخطبـــه المتـــردد

ومنهـــا :

اختت على كسرى وقيصر بعد ان ثلت عروشهما كأن لم تعهـــد
ابـدت لهـا من غيض ماء بحيرة وخمود نـار قبلـها لـم تخمـــد

ومنهـــا :

صبح قد اصبح بالمهيـمن غــرة للدهر فاقدر قدر ذلك واحمـــد
واشكر لملك بعد اصبح مشهرا ذاك الصباح معظمـا للمولـــد
حلا النبى به ولـم يتـرك لـــه حقا ولم لا وهو فـــرع المحتـد
خيـر الخـلائـف احمـــد بـــن محمد المهدى الامام بن الامام محمد
القائم الهادى الذى ابدى الهـدى بالغرب شمسا بعد جد مجهـــد
ص 289 حزب الامام الطود منصور اللوى السيد بن السيد بـن السيد ★
وقضيت لهم اسيافهم وصعادهم ان يصعدوا فوق السماء الابعـد

تلقى بهم اسدا ظمـاء مالهـا ... يوم اللقا الا الدما من مـورد
وتريك منهم في النـوال اكفهـم ... تقضي مماليـك الابـي الابعـد
هم وطدوا المجد المؤثل فارتقـى ... بعماده المنصور فوق الفـرقـد
بخليفة اعيـى الملـوك عـلاؤه ... اذ لم تجد لمناله من مصعـد
انى لها بمؤيـد قـد مـده ... رب السماء باسعـد وتابـد

ومنهـا :

رأى اذا ما عنه جهز رايـة ... اغناه عن جند عليـه مجنـد
لاكنه مستصحـب بسعادة ... تقضى مماليـك الابـي الابعـد
وعزيمة ابقـت السـود في اى ... انقياد لامـره المسترشـد
وغدوا بها ما بين نفس مـروع ... ومجدل ومشـرد ومقيـد
هي عزمة قد انقت الامـر العلي ... من الاذى وسواد تلـك الاعبـد
شامت بوارقها القتام وارعـدت ... هندا والسند البعيـد بارعـد
وقبيلهـم تركت عساكر قيصـر ... بالقصـر هلكى بالرمـاد الرمـدد
في ما يبن تلقى الرؤوس بهالظبى ... فتخر ساجـدة لهيبـة أحمـد

ومنهـا :

هذى المواقف قد رسى للحلم من ... عليـاه طـود أي طـود أقـود
ويريك بحرا في المعارف زاخـرا ... عما تشا فسئل تفـز بالمقصـد
يقظ يوارى الغيب عنه حقائقـا ... فيرى بعين الالمـعى المتوقـد
ظفرت يـد الاسلام منه بصـارم ... حسن الروا ماضي الغرار مهنـد
أبراحـة اللـه الـذى بعـلائـه ... تم الهنـاء وسـر كـل موحـد
لقد أطلعتك على المحافـل رتبـة ... للملك كالبدر المنيـر الاصعـد
وسناك قد بهـر العقول وسرهـا ... مرءاك في هذا المقـام الاسعـد
ملأت محبتـك القلوب وقادهـا ... احسانكم يا ابن النبي بمقـود
وغرستـه فيـها فاثمـر بالثنـا ... وجنيته حلـو المـذاق بمـزود
ص 290 وبـه أتيـت مغـردا كالطيـراذ ... قامـت أياديكـم لنـا كالامـاد
يهنيك بالعيد الـذى عادت لكـم ... بـه المسـرة بالثـواب المخلـد
بـكم يهـنا العيـد لـوراء فلقد ... صغتم لاهبته حـلى لـم تعهـد
لا زلت زينـة كل عيـد والعـدا ... حصد لسيفك ذى الفقار الاربـد
وبقيت منصـورا بربـك غالبـا ... يـا خيـر منصور بـه ومـؤيـد

/ وتلاه مؤلف الكتـاب سمـح الله لـه فانشد:

أعد أحاديث سام والحمى أعــد   وعد بوصل اللوى والرقمتين عد
وعج على المنحنى من اضلعى بيد   نار الخليل التى سيطت بها كبدى
ومل لاكناف جرعاء الحمى لترى   مرابع الشوق قد أقوت من الجلد
حيث الجئاذر بالآساد فاتكة   وما عليهن من وتر الاقود
وشم بروقا أضاءت من ثناياهم   وان ظمئت فمن ماء العذيب رد
وقل لهم ان جرى دمعى بربعهم   لاتنهروا سائلا وافا على بعد
يا جيرة العالمين الله في دنف   يصلى بنار عذاب منكم وقد
ويا نسيم الصبا ان جئت كاظمه   وجئت حى خلول السفح من أحد
قف بالكثيب وعانق فوقه غصنا   يكاد ينقد من لين ومن عيد
وارشف ثغور الاقاحى وهى ضاحكة   تفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد
وطف لدى البيت سبعا واسع ملتثما   حتى تصافح لحد المصطفى بيد
لحدا تضمن خير المرسلين ومن   حاز الفضائل من مثنى ومتحد
من حبرت فيه ايات مبينة   من دونها الشهب فى الاشراق والعدد
به اعتلت مضر الحمرا الى شرف   تحنو لعزته الاقيال من اكيدا
أجل من كسرت جبرا قواضبه   جناح كسرى فلم تخفق مدى الامد
وجدلت قيصرا قسرا وقد حطمت   من فارس ققرات العمر والكتد
وغادرت كل جبار لديه وما   يرجى له الجبر مرغوب ولا عضد
وأصبحت ملة التثليث منه وقد   اخنى عليها الذى اخنى على لبد
محمد سيد الارسال خاتمها   هادى الانام الى نهج من الرشد
ص 291 يا صفوة الله يا غوث العباد ومن   فيه الكمال انتمى ختما ومنه بدى
أهدى اليك صلاة لا أزال مدى   عمرى وملء فم منها وملء يد
اهلا بمولدك الميمون طائره   به استقل منار الدين فى صعد
فى صبحه استبقت خيل السرور الى   كل الجهات فلم تقصر على بلد
يوم غدت كل ساعاته غررا   فى جبهة الدهر لم تكسف على الابد
قدركم الصبح منه الليل فالتبست   شهب السماء بشمع فيه متقد
من كل هيفاء قد قامت على سرد   مرفوعة من زبرجد على عمد
تظل من نغم الاصوات فى طرب   امسى بانسكاب الدمع فى نكد
قد ظللتها غمامات نواشىء من   دخان ند باوج الجو منعقد
يا مولدا وبه الايام قد علمت   وهى الولاية علم الام بالولد
يا مهرجان تود الحور لو حضرت   ما دار فيه بلا لهو وغير ردد

قد قارض الله في تعظيمه ملك ... بر له في سبيل البر كل يد
خير امام له في كل حارجة ... حبل من الود مربوط الى الخلد
من كفه ملتثما ... لاكنه بانسكاب العرق منه بد
ليث له من قناع القيل يسكنه ... ومن بنيه الاسود كل دي ليد
من معشر ان يكن عدنان أصلهم ... فهم لعدنان أصل المجد والسودد
فان تسألهم فهم بنو حسن ... وان تحاربهم فهم بنو أسد
له الرماح التي ان هز عاملها ... لم يثنهن نسيج الذرع والزرد
ان اشرعتها يد منه مويدة ... أقمن ما في عصى الدهر من اود
يقظان يقرء من عنوان فكرته ... في اليوم ما تبرز الايام بعد غد
فكر تخر له الافكار ساجدة ... اذا اغتدى نافثا بالسحر في العقد
يقذف بالدر وهو البحر منفردا ... والبحر يقذف بالدر وبالزبد
طوق جيدي بنعمى منه جارية ... ما زلت عمري في عيش بها رغد
قصرت اسجع مدحا فيه لاعب ... سجع المطوق في أوراقه غرد
سواك ربك من طين الكمال لذا ... أمسيت فيالخلق مثلالروح في الجسد
قد أكبرتك عيون الخلق اذ نظرت ... للشمس قد بزغت من جبهة الاسد* ص 292
روح سيوفك من دم العدا زمنا ... فكل جفن لها يشكو من الرمد
وما ورا السود الا السد تفتحه ... بجيش نصر له الاقدار من مدد

وتلاه الفقيه الكاتب ـ علة ذكاء ومحرز خصل السبق في مضمار الانشاء النابه النزيه العزيز المكانة المغدق السجية المسترسل الطبع العذب الفكاهة الحلو النادرة المبرز في اشتات الفضائل الاخ الكريم والولي الحميم أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي فأنشد له :

أسرار وجدك من جفونك تعلم ... ولسان دمعك عن هواك مترجم
تخفي الغرام وفي الشهود عدالة ... لا يقبلون رشي على أن يكتموا
دمع وسقم والسهاد وصفرة ... كل على عقد الصبابة يرسم
لم يدر من ألف السلامة ان ما ... ء العين من نضج الفؤاد معندم
اطبقت أحشائي على نار الجوى ... فمنازل الصبر بها تتهدم
وتأدبت فمن هويت جوارحي ... فالعين تنثر واللسان ينظم
ان لم يفض دمعي على أخدوده في ... صحن خدي فهو فيه مبهم
نار البعاد على خفاء مكانها ... احرق من نار العذاب وآلم
برق باقصى المشرقين ومساؤه ... من مقلتي بالمغربين به دم

يا ساكني سلعا فقد سلع الحشى … من رقش موصول التفرق أرقــم
وسكنتم بالمنحنى من اضلعــي … وجرت دموعي بالعقيــق عليكـم
وروت حديث ابى الزناد جوانحى … نوم المضاجع عن قتادة يحــرم
بتـولهـي وتولــحي وشــوقي … وتشوفى لــيورود طيـف منكـم
لانا الذى سلت عليه يد النــوى … سيفا من الهجران وهو مصمم
يا بادى النخل النجاب بمهمــه … ضل الظليم به ونســر قشــعم
اغواله وقـف عــلى ارجائــه … فالريح ان مرت بــه تترنـــم
فاضت مياه جهاتـه وتلاطمـــت … امواج ءالــه فـلا تتجشـــم
الف اغتيال السالكيـــن بقفـره … بطشا فلا تكاد نفس تسلـــم
صفر البسايط والذرى متهيـــب … بالال عن درك الحيـــا يتلثـم ★ ص 293
تطفو النجائب فوقــه فكأنهـــا … سفن يدافعهـن يـــم خضـــرم
تسموا على كفل النجـود وتــارة … ترسب فى خضر الوهاد وتتهم
رفقا على قلب الذى ذهبت بـه … تلك النواحى فى النوى تتحكـــم
هن القسى لرمى اهداف المـــنى … اوتارها الحدا ونحن الاسهـــم
واذا المطى بـــنا بلغن محـمدا … فظهورهن على الرجال تحـــرم
ولها المراعى الخضر حول مناهل … زرق ببيـض ازاهـــر تتنعـــم
بلغت بنا شمس الرسالة والهدى … سيف الالوهية الذى لا يقحـــم
تاج النبوءة سرهـــا وجلالهـــا … العروة الوثقى المــلاذ الاعصـــم
يا طلعـة بمولد جذلـــت بهـــا … الدنيا لها ثغر العـــلا يتبســـم
عم السرور العالمين وقد غـــدا … عـــرس بهـا للكائـنات وموسـم
ايوان كسرى ساجـــد شكـــرا … وشهب الافق ترمى المحرقات وترجـم
غاضت بحيرة ساوة كخمـود نــا … ر الفرس للنور الذى هو اعظــم
يا خير من عنت الوجوه لجاهه … وهو الوسيلة للجـنان وسلـــم
طلعت شموس الدين فى افق العلا … بك وانثنى للشرك ليل مظلــم
وغدا بك الكفر كـــان عيونــه … مطروفة او فت فيـــها حصـــرم
فبأى ءايات التحـدى يعتـــنى … فكرى ونطقى بالفهاهـة ملجـــم
ابا نفــجار المــاء من بين انـــا … مل حكاها النهر وهو مفصـــم
أم بانشقاق البدر وفق اللذ اتـى … عـــلى شــرط الذى يتـوهـــم
أم بالاساليـب التى بيمينهـــا … سيف البلاغة وهو عضب مخـذم
يفرى به غلب الرقاب من الاولى … جاءتهم عصم الفصاحـة تخـــذم

وأتى مسيلمة اليمامة افكه ... فكان منه على الحماقة ميسم
اترى الخواق من مخارق كاذب ... محمد لا يستوى ومذمم
شب أبو لهب ضرام لهيب ... ومن القرابة من يضر ويولم
قبل الدعاء على الصناديد الالى ... سحبوا الى غور القلب واسلموا
يا خير من نيطت بعروة عزه الا ... سباب وهى وثيقة لا تفصم
يا خير من خطت رواحل الدجا ... بفائه واليوم صعب ايوم ★ ص 294
اوصاف قدرك منهل متهيب ... وعليه اطيار المدائح حوم
ان كان قد اثنى عليك الوحى يا ... عين الوجود فما لنا متكلم
قل للذى حاك القريض لانت فى ... جنب ثناء الله الكن ابكم
فاثن العنان لنجله وسليله ... المنصور اى وسيلة لا تحرم
ملك ترى الاملاك خاضعة له ... لتحوز عزا من حماه يقسم
ودت عداه ان تكون رعية ... اخذا من الرأى بما هو أحزم
طود يلوذ بعزه وبعدله ... دين الرسول من الفساد فيعصم
الملك المنصور نجل المـا ... لك المهدى سبط محمد وهم هم
لهم الغطارفة الذين توارثوا ... مجدا بنوه على النجوم فخيموا
أنت الذى بكر الخلافة حزتها ... فى مأزق فيه القنا يتحطم
ولبوس باسك فى المخازن اردى ... وسط المخازى بستيان الاشئم
وبريت ارزاق الطيور من العدا ... فتخاف اخلاف المواعد فيهم
داست قبائلك القبائل واعتلا ... كعب ايالتك التى لا تسئم
جهزت جيشك وهو عذب كوثر ... عدلا ونار بالشهامة تضرم
فارفق على القوم الذين تريدهم ... فهم السوام وانت فيهم ضيغم
وطدت فى السودان مملكة لها ... بين المغارب والمشارق مجثم
فغزوتهم بصواهل وبوازل ... يدرى عنافتها الوجيه وشدقم
بخلائق ضريبة شهدية ... ساما وصاب فى الحروب وعلقم
وعواسل بجحافل وفساطل ... عقدت برودا بالقشاعم ترقم
وقواضب عربية قرشية ... علوية حسنية لا تهدم
رضاعة مهج الكمات اما درى ... الانذال ان ان رضيعها لا يفطم
بكتائب لون السماء دروعها ... وقلانص الفرسان فيها الانجم
دكن لهن من الاسنة اعين ... ومن مثار النقع ثوب اسحم
خرس كما ركد الادى شهامة ... ولسان سيفك فى الطلا يتكلم

ايم الفنات يغوص في يـم الدرو ع كأنه بدم القلـوب متيـــم

اما ترى سمر الرماح يسودهـا كالبيض فى الافرنج دابـا تحطم* ص 295

فاجتحت من بسنغاى اسحاقا وقد حف بجيش السود وهو عرمـــرم

ظنت حصاتك فى الوجود فكل من ناواك فهو بالمهابـــة يقصـــم

اهل الاقاليم ابلـت امـا تــرى جــل الاقاليــم بذل سلمـوا

فمدت الامـــلاك من اقطـارهـا راح الضراعة زنجهـــا والديلـم

هذى العزائم قد ارشت نبالهـا فقسيها الى بلـــب تسهـــم

فأجل قداح الرأى واعقد راية باليمن واركب فالنجاح مطهـــم

ابن الامام الظافر المهـدى مـــن فض الجموع وهو فرد معلـــم

ناداكم السعد باعـلا صوتـــه والدهر قاد نجائبا فتسنمـــو

علمت بنو الدنيا جميعا انكـم قوم لهم ملك الوجود مسلـــم

دوموا لهذا الامر وابنـــوا بيتـه لازال وهو بعزمكـــم مستحكـم

انبى القريض الخائضيـن بأبحـر من مدح أحمد فى السماء حللتـم

هذى الاناشيد التى تشدو بهـا ورق البلاغـة بالثنـا وترنـــم

من دوح فضلك يجتنى ثمر المنى بيد النشيـــد مؤخـر ومقـــدم

عذرا امير المومنين فمن غـــدا يرسف فى قيد المهابـة يفحـــم

وتلاه الفقيه الفاضل علقمة العصر والادب الرطب الجنى والهصر والمقول البـادى الكلف يجيب طى وقتل المهامه نشرا وطى الوثيق عقد للرجولة والجزالـــة والحســب والاصالة فارس الميدان وفاره الجوارح المطعم اكلة النظم المبرز فى الامداح المقومة الانابيب القاضى ابن عبد الله محمد بن على الهوزالى فانشد له على الرسم :

يا حبذا ريح اتاك نسيمهـــا ولديه من اخبارهـم مكتومهـــا

ودعاه من سلع بريـــق لامـــع فانصب من نثر الدموع نظيمهـا

فاحت به نفحات رملـــة عالـج بشذا عريب باللـــواء تخييمها

ينبئك عن مسراه فجر باســـم بحديث اشواق شـواك اليمهـا

يا ساكنا تلعات جرعاء الحمـــى فربى العذيب ظعينها ومقيمهـــا

هل لى الى تلـــك المعالم عـودة تشفى شجونا فى حشاى سمومها

بابى عشيات هنالـك تزدهـــى حسنا ويعبق نشرها وشميمها * ص 296

بيوانع عيـــن سقـام جفونهـــا سقم الجوانح لا يبـل سقيمهـــا

غيد تشب على القلـوب غرامهـا حتى يـلوب عشاقها وصميمها

من لى بمن حل العذيب ودونـه اعلام نجد سهلهـــا وحزومهـــا

ومهامه لـو كلفت بسلوكهـــا ... ريح لكل بليلهـــا وسمومهـــا
هل من خوانف مهريات صلــب ... اخفافها ولحومهـــا واديمــهـــا
وقف على اسرى السرى ارقالها ... ودميلها وعنيقهـا ورسيمهــــا
تخدي بنا فى كل مـرت صحصح ... والال يخفضها بـه ويقيمهـــا
تسمم المزورات المجاهل فاعـترت ... بزلالها ءاكامهــن وكومهـــا
حتى تشق الدرب فوق ظهورهـا ... ويسيل فى بطن المسيل سعومها
ونـنيخ بالبطحا فيحطم كل مـا ... حطمت عليه من النفوس حطيمها
واصب فى تلك الجمار مدامعـا ... تطفى لظى جحم الفؤاد جحيمهـا
وتعرفت عرفـاتهـا وحراؤهـا ... شوقى وزمزم والصفا ورسومهـا
واحيط عند المشعرين كليهمـا ... شعرى ومبط عن القلوب همومها
فأكون ممن قد اجاب ولم يـنى ... لمـا دعى للبيـت ابراهيمهـــا
وأرى بروقا موشـمات موهنـا ... من نحو طيبة لاازال اشيمهـا
لاحت فزفت للرحيـل رواحـل ... يحكى وشيـك وميضهـن طهيهـا
حتى وردن بنا العقيـق فراقهـا ... بتلاع هاتيك الربى تنويمهـــا
وتنسمت نفحات تربة مـن بـه ... طابت اباطح طابـة ونسيمهـا
وتلالات انواره فسمـــت لنـــا ... غرر طوى حجب الضلال نجومهـا
قبب حوت سر الوجود ومن لـه ... وجدت فراديس العلا ونعيمهـا
من تنجلى يوم الجزاء بجاهـــه ... عن اوجه الرسل الكرام غمومهـا
فخليلها انحى لاحمـــد قومـــه ... يبغى الجوار وروحها وكليمهــا
من افصح الحجر الاصم بصدقـه ... واجابه ذيب الـفلات وريمهـــا
وسقى واطعمها كتائب جيشـــه ... صاعا فاشبع هيمها ونهيمهـــا
والبدر منشـق لبعثتــه كمــا ... خمدت لفارس نارها وضريمهـا
قسما بساطـع نـوره ان حـم لى ... زور لتربته الكريمـــة خيمـها ★ ص 297
لاعفرن جبين وجهـى لاثمـــا ... لثرا رسـوم لا يمـل لثومهـــا
لمعالم جاست خـلال ديارهــــا ... اى ملائكة السـماء تسيمهـا
ءايات وحى احكمت واتى بهـــا ... مثوى الامانة روحــها وحميمـا
لاازال روح الله يعبــق عرفـه ... بجمى مدينته المنيـــع حريمهـا
وصلاته ابدا يضاعـــفها لـــه ... حتى القيامة لايـزال يريـمهـا
وادام تاييـــدا لـوارث مجـده ... اسنى الخلائف فخرها وعظيمهـا
ملك نمتــه دوحــة نبويــة ... وسمت به اقيالها وقـروحهـــا

شمسية احسابها وبهاؤها ... بدرية انسابها وارومها
سهلية ورحيبة اخلاقها ... جبلية اناتها وحلومها
مضرية مرية فهرية ... اسنى مناسب خندف وصميمها
اقماد مجد في مطالع سؤدد ... كشفت بهم بهم الخطوب وشيمها
اعلام فخر سودت هضباتها ... علما نزار قيسها وتميمها
لم تاب سوددهم ابات ربيعة ... بكر وتغلب ذهلها وجشومها
فمن بن قحطان عشت ادوارها ... اضواء خندف فاستنار صميمها
نسب تهز به قصى عطفها ... تيها وهاشما كذا مخزومها
ونقرع النور المبين محمد ... من هاشم أرج الاصول كريمها
ونما لنا المنصور فهو سليلة ... وامام أمته فنعم مسيمها
وأتى به المهدى فارع نبعة ... ينبوع عذب المكرمات نديمها
تتفيأ الانام وارف ظلها ... وتفيض فيهم بالمواهب ديمها
وافى أبو العباس فانتشرت به ... أغصانها وظلالها وغيومها
حتى أعاد لنا خلافة هاشم ... موطودة أكنافها ورسومها
مخضرة عرصاتها قد فوفت ... تلع المنى صمعاؤها وجميمها
لا زال منه للبرية سايس ... يقظان فى مهد الامان ينيمها
وغدت معاصم المواسم تزدهى ... بحلا محاسنه ودام يقيمها

وتلاه الفقيه الكاتب البارع النظم المطواع القريحة النبيل الاغراض العذب الالفاظ المطبوع الكلام المالك لزمام الكتابة والنظام الحسن التنذير الريان ★ من فنون ص 298
الاداب المعسول الفكاهة المغرب ببديع التنكيت الكاتب ابو على الحسن بن احمد المسفيوى بقوله على الرسم :

حيث رسومك جدة من دار ... وسرت عليك من الغمام سوار
فضبابتى بمحصب من خبئها ... نثرت جمار الدمع من اشفار
رسم يساوره البلا فكانه ... فيه وشيك المحو فى الاسطار
ترك المتيم لايفيق وما احتسى ... ولا مثار الشوق غير مدار
فيخال نفح الترب مسكا أذفرا ... ويخال عطفا لنوى شطر سوار
ومنازعى كاس السهاد زوامر ... أم الذميل بها بعيد مفار
أو بارق طى الغياهب مثلما ... خطت على سبح سطور نضار
قدحته أيدى الغيم فى فحم الدجا ... فكأنما هو من أوارى وار
ورعيتها حتى اذا صدحت على ... أيك الدجنة للصباح قمار

ولقد قدحت زناد شوق يبتدى ... بلهيبه طيف الخيال السار
لاكنهم منعوا الخيال مع الكرى ... وكفى بصد بعد شحط مزار
ان بان انسي كان انسي لوعتي ... أو بأن جارى كان دمعي جار
أو أنتشق أرج الحياة فذاك ما ... يهديه نفح بشامة وعرار
فاجعل شعارك عزمة من همة ... امضى واقضى من شباة غرار
وأخ الدميل على المطى سوى اذا ... أمت بوخد مطلع الانوار
والثم هناك تربة العز التى ... ازرى حصاها رفعة بدرار
الامجد الاشرف الذى قد جاءه ... من نفح روح الله صوب قطار
حرم الهداية والرسالة خير ما ... يلقى النزيل به عصا التسيار
وطن النبى الطاهر المختار من ... أعلا ذوائب يعرب ونزار
هاد الى السنن القويم واخذ ... حجز الخلائق عن شفير النار
ومؤيد بالمعجزات المحكما ... ت الساطعات الواضحات منار
وتباشر الهدى المنيف به كما ... يتباشر الامحال بالامطار
وتزينت بشعاره الدنيا كما ... تتزين الاغصان بالازهار
وانجاب غيم الشك عن وجه الهدى ... وأنار ندر الحق بعد سرار ★ ص 299
يا خير من يجدى الرجاء لبابه ... حذر البوار وموبق الاوزار
فصفاتك الغر التى لا تنقضى ... أو ينقضى بالعد قطر بحار
أخرسن كل أخى بيان مسهب ... وجلبن عى المصقع المكثار
صلى عليك الله ما نم الصبا ... بشذى رياض الزهر فى الاسحار
وأدام وارث دست هديك سبطك ... الزاكي الارومة فى أصيل فخار
سباق شأو المجد أدنى خطوه ... أمد المبارى أو طموح مجار
فاذا السوابق عارضت مضماره ... رجعت ولم تعلق له بغبار
أقلامه ان خط توقيع العلا ... يوم الوغى قصد الغنى الخطار
وله ندى كف يساجله الحيا ... فيغض جامحه يد الاقصار
ما أقسم العانى بها الا انثنى ... ويمينه مقرونة بيسار
هذا الذى سلب الملوك نفوسها ... ولبوسها ومهد الاقطار
ما عاصم من دونه لجج ولا ... يحمى شقيا منه بيد قفار
ومتى يجهز للعداة رسالة ... كانت لهم بالجحفل الجرار
قداح زند المكرمات ومعتلى ... اوج الفخار ومدارك الاوتار
وجميل ذكرك صار اسرى من صبا ... من حيث لا يبدوا دليل نهار

وكفى بلثـــم الترب من ءاثــاره   شرف الرقــاب ورفعــة المقــدار
لا زال وهــو مـؤيــد ومســـــدد   حامي الذمار مظفــر الانصـــار

الى غير هؤلاء من الفضــلاء الاعــلام وفرسان النثر والنظام من كل فياض القريحة يهز من لسانه العضب الحسّام وتمشي تحت رايته أمراء الكلام صان الله جماعتهم وأجزل من الدر المكنون بضاعتهم وألـزم الالفـاظ والمعاني طاعتهم ولم يـزل في خـلال دولـة الانشاد يختلف الظرفاء من الخـدام علـى الناس لاخصال الملابس بماء النعيم المصعد من نثير الورد والازهار الاردية يكسب عليها بطاقات الرياحين والآس سكبا غدقـا فـي الحجور والاردان فتدمث ما تعلـق باللبـاب والاطواق والجيوب من غمائم العنبر التـي تصاعد نؤها وسدافق المشهد الكريم فيلبث طيبها لصق بالاثواب مدة مديدة ثم تنهل على الحفل عارض النعمـة من أبـواب القصـور الكريمة ويخص بالجفان والاخونة والصحون
ص 300 والطيافير الرحيبة الاقطـار جامعـة لالحـم المسارح وأنواع الطير * ودواجـن البيـادن الفضاء الطبيخ بالايـوان الشريـف ويخـص الاطعام بين يدى الامـام طبقـة الاشـراف والنمط الاعلام من العلماء والفقهاء والقضات وأكابر الدولة ثم تبث الموائد بين الناس بكل جهة وتمد بسط الاديم والمطارف صونا لاوطية المجلس الكريم فيقال على الناس من النعمة العارض الهطل والسحاب المركوم فلا تسئل عن التفنن في المطابخ والتنويـع في المآكـل والارضا في النعمـة قد استهلكتـه ضـروب الحيوان وابيد طيـاره ودواجنـــه وانتهـى الاحتفال الى ما يوجب البهت وينغمس الناس في الاكل المتدارك والطعام والمتواتـر بحيـث لايبقى بين رفع الخـوان ووضعـه وتعاقـب الجفان فضلة من الزمن حتـى يقع البهـت وتختل الهضوم فتتم النعمة وتختم الكرامـة ويشرح بحمل الارضاخ بانسكـاب الحلاوى المتنوعة والمربيات المتقنة ثم تصب الحلقـات المستديرة للأكل الحصون العديدة المملـوءة بفانيد السكر الرحيبة الافطار المعتامة مـن البخار اللطيف المدعو بالفرفرى صبا غدقـا فيتطارح عليها صنف أهل الذكـر والانشـاد ولفيف أهل البلد لجنوبهم متهالكيـن فـي اختطافه وتناوشه بحالة تستضحـك أميـر المومنين ويهش لها ارتياحا ثم يختم بالشكـر والدعاء فينفصل المجلس ويفيض الحجيج وقد مكث من فاضل الطعـام بفضـاء الايـوان الشريف هضاب سامية فيؤذن للمساكيـن وذوى الحاجات المحومين عليهـا بالابـــواب الشريفة تحويم القشاعـم فينقضـوا عليهـا ويسيل على هضابها منهم السيل العرمـرم فلا يذادون عنها حتى تلقى كلمتهم ويرضوا جميعا فينقضوا عنهـا والجبـال جبال فـاذا انصرفت أيام الوليمة الشريفة برزت صلاة الشعراء وعليها التوقيـع الشريـف فينثـر عليهم وتشفع لعلية المشايخ بالخلع الشريفة تقبل الله من أمير المومنين وأجزل مثوبتـه وضاعف له الجزاء الاوفـى في دار النعيـــم وكانت لمولانا أمير المومنين أيده الله صدقات

فاشية واسعة عظيمة العائدة يجريها على أيدى ثقات من رجاله فمنها الاموال التى يخرجها ختم كل رمضان ويعم بها ذوى الحاجات بحضرته العلية أهل الخير والدين كل على حومته حتى صار ذلك رسما وعادة يتحينها أهل الحاجة ومنها المهرجان الذى يقيمه يوم عاشوراء كل سنة لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة وأحوازها وذوى الحاجة من أهلها يدخل بذلك أيده الله السرور على أولاد المومنين فيبكر الامناء ببابه العالى وقاضى الجماعة وصاحب المظالم المباشرة سنتها بالايوان الشريف ويتصاعد

ص 301 أهل حرفة الختان من أولى الحجامة وأهل الآلة والغناء ★ بأسرها التى ألفوها من عوائد الصلات والاحسان فيصطفون بالايوان الكريم وقد شحذت المواسى وتجاوبت الالحان واصطحبت أصوات المزاهر وارتفعت هضاب الكتان وأكداس الدراهم واستكثر من ذبح البقر فطمر بحر اللحمان وعلت أصوات الصبيان يتضاغون على أعناق آبائهم وقد مثلوا بالابواب الشريفة عالما يغص به الفضاء يعلوا وجوههم متار الحاجة ومذلة الانكسار فتنبعث الرحمة وترق النفوس ويعظم الخشوع وتقدم الصبية أفواجا أفواجا فكل من تناوله الختان أعطيت له أذرع من الكتان وحصة من الدراهم وسهم من اللحم يعمر باقامة هذه السنة بياض اليوم حتى ينهار الدم من كثرة ما استلحمته المواسى ويشمل الاحسان من ذلك أمما لاتحصى ويعم الصنيع أولى الحاجة وأهل الالة الذين أقاموا مهرجانها وجلوا محاسنها وزينة يومها وفخامة دعوتها فيحتقب مولانا أمير المومنين من مثوبة هذا اليوم

ص 302 المبارك مما يثقل الله به موازين أعمال بره يوم الجزاء الموعود وأما ما يجرى على يده أيده الله فى سائر الاوقات من البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من حال فى سبيل التوسعة على الفقراء بقسمه وطعام فىأوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مفاليس تقضى ورقاب أرقاء تملك وأسارى تفتدى فلا يدخل تحت ضبط ولا يتناوله حسبان تولى الله عن الامة جزاءه وأجزل له يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا فضله الواسع واعطاءه .

ذكر مبانيه الشريفة أيد الله تعالى واعز انظاره

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها ‏ فبألسن الشعراء والبنيان

ص 265 اقول ان امام الامة والماسك لعود الملة مولانا الامام امير المومنين ★ ايده الله تعالى لما اختصه الله تعالى بالكمال وشرف الخلال وجمع له الفضائل التى سارت بها الامثال وعلو الهمة التى تنادم الفرقدين وتتوسد الذراعين وتفترش السمكين فتبتغى فوق ذلك مظهرا وتخترق الافلاك معبرا فلا يرضى ايده الله من الامور الا ما خرق الاعتياد ومن الاثار الا التى لم يخلق مثلها فى البلاد تخر لشموخ انفها شوامخ الاطواد ويدين لها بالعجز فرعون ذو الاوتاد وثمود الذين جابوا الصخر بالوادى ممن شرف آثاره الجليلة الضخمة ومصانعه الجميلة الفخمة التى اخمل بها ايده الله تعالى ذكر مصانع قومه بنى العباس ببغداد

وبني مروان بالشام وآثار بني عبيد التي منها القاهرة وسائر ما يعزى الى اولي السلطان الاكبر من القياصرة والاكاسرة واهل الدول الاولى والاخرة قصره الشريف العظيم الخطر العديم الندو المثل الضخم العمل الذي هو المثل المضروب في الارض عظمة وفخامة وضخامة وجلالة واحتفالا وتقنيا وتأنقا ولابد عند الاستفتاح من ذكر هذا المصنع العظيم الشريف من مقدمة تكون هي النتيجة في اقامة المعذرة لي عما يستشعر من القصور من يقف على عين هذا الاثر الشريف الجليل المنيف فيرى ما ابصر اجل واعظم وافخر وابهر واخطر وارحب واوسع وآنف وارفع مما سمع فاقول ان الله تعالى لا يؤاخذ العبد الا بما يكون من العمل في وسعه وطاقته والاحاطة بأوصاف هذا الاثر والآية الخارقة لا جرم من قبيل المحال والتطيق بما لا يطاق لا يكفي اصف من الفلك بعضه واتقلد من العلا فرضه واتجنب البحر وخوضه فاقول :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة   فان وجدت لسانا قائلا فقل

فيا لله وللعجائب وللدنيا المنزوية في ارض المغارب والخوارق التي لم يخلق مثلها في البلاد بهذا العصر وفي الاعصر الذواهب فماذا اقول وقد رابت الامر جليلا وماذا أصف وقد حملني العجز عن الوصف عبئا ثقيلا ، ايروم اللسان وصفا لشيء ما له في الدنيا مثال وشبه وهذا المصنع العظيم ينبغي ان اثبه على لمولانا امير المومنين ايده الله من النية الصالحة في تشييده وهو ان موالينا الخلفاء من سلفه الكرام رضوان الله عليهم وان كانوا قد خطوا المدن ووطدوا القصور وشيدوا الاواوين واعلوا الصروح وبنوا المساجد ورفعوا المئاذن واجروا الانهار ورضوا الرياض واحدقوا الحدائق وابدعوا

ص 266 البرك واغترفوا البساتين المفوضة فما قنع مولانا امير المومنين ايده الله ★ لطموح همته الشريفة بالغاية التي وقفت عندها هممهم رضوان الله عليهم في كل شيء سمعت منه ايده الله مرارا اذا جرى ذكر التعجب من عظيمها اثاره المنيفة وضخامتها ومجاوزة المائة في فخامتها واحتفالها والمبالغة بما لا غاية بعده في تأنقها ولطف وشيها وتنميقها واستعظام الحاضرين لما بلغ الاتفاق عليها يقول ما بعثني على ذلك الا اني اذا نظرت الى ءاثار سلفنا الكريم اجد ءاثار الموحدين ما زالت تنازعها فضل تنجيز وضخامة واحتفال اربى عليها وءاثار بني مرين تجاد بها رداء التأنق وربما شقت في تنميق الحلة وبديع الطراز وافقت لاهل النبوءة ان يكون الفضل والشفوف لاثار من دونهم من الدول على ءاثارهم فلم ارض الا بما يضفي على ءاثار الدولتين قلت (1) قال ايده الله على ءاثار الملثمين لم يبعدني الحق لقيام الشاهد على صحة دعواه وهذا المعيار بين الدول في الاثار انما يرجع الى القصور لا الى مطلق الاثار والا فالمحمدية التي من مشيدات مولانا الامام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد السوس وأم القرى والامصار وملاك باب السودان ذات القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرياض المفوفة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة

(1) بياض بالاصل .

والمآذن المقرطة بلآلئ النجوم المشنفة الى معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم اهرام
مصر يتقاصر عن تشييدها اولوا القوة من عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالوادى ما
شئت من توطيد وتشييد وبرك مستبحرة وجفان كالجواب وقدور راسيات وحركات
هندسية ولوالب فلسفية ومقاييس حسبية وانهار تتسنم لاجراء ارخيتها العظيمة
الاخشاب ذرى الاسوار الممتدة الاعراف الى عنان السماء بتدبير وفلسفة تحار فيها حكماء
يونان وجنان سليمان لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذى هو عند بني
مرين مشيد به (1) ولا قصبة مراكش التى هى عند الموحدين ومن قبل الاعجاز بل
اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء وحسبما شهادة العيان رجع وبنى
العمل ايده الله في اختطاط هذا المصنع العظيم على هذه النيلة الصالحة وارتاد له
الجانب الشرقي وقصوره الكريمة لاتساع مساحته فاعتام له فى الطوالع النجومية ما
رضى اهل الرصد اثره وتحينوا اوانه فكان الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الاشهر
من خلافته السعيدة من عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل الى هذا العهد وهو
عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة وحشد به الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى
ص 267 من بلاد الافرنجة مكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصنائع الحكمة * وجهابذة البناء
واولى المعرفة والكفاية فى التنميق والتشييد ومن سائر الفصله واسارى الدولة خلق عظيم
يسمع لهم ومما يتالف برحاب القصر وساحته من (1) لشراء الخدمة والفعلة
والفواكه المختلفة والالبان واللحان دوى كدوى الاسواق الهائلة ويختص هذا القصر
الشريف من جميل الالقاب بالبديع لا جرم طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع
من انواع البدائع وغرائب العجائب يشرع اليه من الايوان فى مدخل عظيم عريض المسلك
تسافر فيه الخطى وتكل القوى بعيد الشقة يسبح منه العابر فى بحر المديد الطويل لا
تحصى لياته وتعاريجه والمدخل القصى من الباب الاقصى هذا القصر الكريم وهذا الذى
كمل اليوم من المدخل الطويل المديد تربيعه وتم توطيده وتنميقه عنوان المحاسن وترجمان
العجائب تتعدد فيه الخطى ويستلب الحجى ويسحر بمحاسنه العيون والالباب واذا
افضيت منه الى الدار الكبرى مثوى الامام نفسه ومطلع شمسه والفلك الذى تبدوا فيه
طوالع سعده فهنالك يخرس اللسان وتحار الاذهان ويملك الدهشة الجنان ويجف القلم
ويرتعش البنان وهذه الدار ارام العجائب وديوان الغرائب اخذ جدارها المنحوث من
الفلك المحيط جفوة وعظما جوانب البسيط الافيح بديعة الشكل متناسبة الاوضاع متقابلة
المحاريب والتماثيل تزخر من يركرها الخمس بحار طافية العباب قد مثلت فى رؤوسها
دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور
الادواح المفوفة ويخترق صحنها الفسيح الارجاء من هذه البرك البركة العظيمة المرموقة

(1) بياض بالاصل .

الارجاء بنجوم الفواقع الطافية من اضطراب احشائها وقد استدارت بوسط سمائها هالة البلع الاعظم المتلع الجيد السلامي الذوائب والاعراب قد ظللت هامـة جيـده الاعـلى بالقلنسوة المنمقة من منحوت المرمر بتماثيل مختلفة من انواع القتا وعراجيـن والاعـناب والبطيخ والدبا تنبع من خلالها ميازيب المياه الدافقة فترشق بسهامها المفضفضة نحـور الواردين وتنعكس سموتها من الفلـك الى الارض فتنساب خلال المحنشة المنحوتة مـن المرمر اناء الاراقم وعلى ضفة هذه البركة سماطان حافلان من اداع النارنج الباسق الافنان تروق العين منه كل عذراء سريسة الخلاء جعدة الوفرة تتوسم محاسنها من البركة فى مرءاة بديعة الصقل ونهرها المتدافع مخضر العذار بمماشى الزليج المنمم الرشى المسهم البرد بالجداول المرمرية تنتهى قباب هذه الدار الى عشرين قبة والاربع المتقابلة ★ طولا ص 268
وعرضا توله العقل وتبهر الناظر وتسبـح العين منها فى بحار الحيرة جفاء وعظمـة وهياكل ماثلة تحتقر اهرام مصر وتلف العالم فى ملاءتها سعة ورحبا وتسخر بقصور اهل القرون الاولى نقشا وزخرفا وتمويها وصبغـا متنوعة الاغراض متشعبة الاوضاع من محاريب وتماثيل ومقاصير وخزائن ومساجد الصلوات والتعبدات ومجالس الخلوات والجلوات تختص القبة الشرقية منها بسقف الزجـاج الملون فسميت هذه القبة بالزجاجيات بالاضافة اليه منظوم الالواح يفرج السقف المعتام لذلك من شجر الخلاف المموه بالابريز الفائض الشعاع واذا رمقت عين الشمس بمحاسن هذا السقف الزجاجى من خلال الكرى وفاضت اشعتها الملونة على الجدران فصبغتها رأيت نعيمـا وملكا كبيرا وكيفية تستخف الاطواد الراسية انفعالا وتاثرا قد دحيت ارضها بالمرمر الصقيل الفضى الملاءة ترقص وسطها فوارة خضراء زمردية (1) ويكنف ابوابها الثلاثة برطال عريض المساحة ضخم العمل مثنى الصفـوف بأعمدة المرمر تطاول جذوع النخل اعناقا وقوائم الجبال غلظا ونعومة على متين السوارى النواعم الابدان صفاء الوان ورقة ابشار عمد انعطفت عليها اهلة الخراسن الخشبية الجامعة من غلظ الاجرام ولطف التأنق وقد تنوع السقف الى سبع قباب نفتنت فيها الصنائع المقربسة الخشبية والمسطحة وتلومت بها ءالات النقش تعميقا وتكريما تحت كل قبة من هذه السقف فوارة فوراء كأنما قدت من اديم الدرتميس رقصا بالمياه وتزهوا هذه القبـة ببهوهـا المتبرج الزينة البديع النظرة الى المشتهـى الروض المنظوم بالبديع شرقا يشرع اليه من البهو على باب يسحر الطرف حسنا ولطفـا وتدبيجا انعطفت قوساه المنحوتتان من لباب المرمر انعطاف الحاجبين على قائمة من المرمر مسكية اللون ابنوسية الغلالة ابقى النحـت فى حلق القوسين منه وفى اسارير جبهتـه الناتئة تجاه الروض من البدائع المقربسـة أثرا يزهو على مرور الجديدين بين يديه شطرنجية كأنما نسجتها العناكب لطفا واذماجـا تمر الى بركة النهر ذات البلع المتلع الجيد التى تسافر فيها العين غربا الى القبة الخمسينية

(1) بياض بالاصـل .

وهذه القبلة العظمى الشهيرة بالخمسينية قيد البصر وانموذج الكمال وعنوان سعة الهمم مثلت بين القباب مثول عقيلة القصر المتربعة على كرسى الجمال والكمال وضخامة الجلال ابرزها الانقان وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووضعا وتأنقا وتقنا وزخرفا ورجفة تقع العين من عظيم هيكلها البارز على ما يوجب البهت ويحير الفكر ذات الوفر العظيم الضخم

ص 269 العمل الخشبى التأليف (1) * المديد الجناح على جوانب الارض واملت بين العادة اجرام الخشب الارزى المعتام فى المقاطع المنشود فى اغلال المنابت فاضلا اعجاز النخل طولا وسباطة وقام بجانبيه عند مراكز اجرامه فى الرقرق الهائل المحيط بالدار عقابان عظيمان ترى النسر فرقا منهما بين طائر وراقم وتبر هذه القبة بسقفها البالغ اقصى مبالغ الجفوة والضخامة يولد الدهش الناظر اليه كانما يرمى بطرفه الى قبة الفلك مستدارة ورحبا وتجويفا وسموا مكفوا على الجدران بغير عمد سوى قدرة الذى يمسك السماء ان تقع على الارض مظللا بالبراشيل الضخمة التى غادرت القحط فى المنابت الاشبه والمعادن الجديدة ولقد بلغت المنارة التى عرج بها المعلمون الى السماء وتسنموا ذروتها حتى توصلوا الى تأليف اجزاء هذا السقف الضخم الى سبعمائة حمل وهو كل زوج من افراد الاخشاب الارزية الضخمة التى لايستقل معها المطايا البدن الا عن رغاء يبكى الصخر ومن الحديد المؤلف لاجرامها مائة قنطار واعتبر هذا فى السقف الذى استفرغ هذا الوسع السلم اليه ثم فى البراشيل التى اكتنه والنقمتة فى جوفها فسبحان من تطاول قدرته واخذ الاحكام مقعد هذا السقف فولد فيه امهات الصنائع واصول الخواتم من العمل المدعو بمنقار وميجم توليدا يستوقف الناظر اعتبارا واستبصارا وتعجبا . وانساح من تحته مربل الجفت فى بحر من الجص طامى العباب بالعجائب وهناك تخارف الاحكام وتماجت النقوش وتفتت الصنائع تدبيجا وتكريشا وتحرشفا وكتابة تركب حروفها غصون التسجيرات وتتخللها قصب الورق اللطيف ويتصل بشط هذا البحر من اسفل نطاق المرمر الفضى الذى توشحت به القبة واستدار على خصرها مندمجا بالشعر فى وصف البناء واضح الكتابة بمرمر سبجى اللون قد بين فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود وساح عنه الزليج البراق الملون تترقرق مياه صبغه صفاء ورقة ديباجة قدانتظمت فيه الازر بفرش الارض لفا واحدا مشجرا بالقطيب اللون العاطف تصعيدا وتصويبا وتحريفا وبسطا وتركيبا يشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينية وتماثيل مذهبة ومفضضة ما بين اسود فاغرة الافواه تقذف باغصان اللجين انسكابا رقش رائقة الصفير متلمظة الالسن بسلاسل الفضة من سكب الماء وقد توسط فى البرزخ بين البركتين فوارة رحبية القطر واسعة الشكل كانما عجنت من طينة المسوك يعلوا جوهرها بزر السنيب ومدارج النحل

---

(1) بياض بالاصل .

هذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويها وزخرفا تلقى بصدره رءوس الطيـــر
ص 270 للاسفل نواطق بلسانها الاطراء والاغياء وابوابها* المقربسة المموهة ومصارعها الضخمة تذكر سد ياجوج جفوة وعظما بين يدى كل باب فوارة ضخمة متباعدة القطر كأنما هى سجنجل تتـوســم فيـه القبـة كلهـا (1) ومثـــل امـامـها البـرطـــال العــارض السـاحـــة المتعـدد القـسي البعيـــد الامـد الضخـم العمـد مثـنى الصفـوف مـن جذوعها المرمرية المائلة كالجبال المنحوتـــة مدحو الارض بالرخام الصقيل كأنه صـرح ممرد من قوارير بين يديها مسيل الـوادى المتدافع يغور فى الارض من تحتها ومعبـره على جسر من المرمر متعدد القسي تكنفها من عـن يمينـها وشمالها بركتــان عظيمــتان مصقولتى الزرد بمدارس ومن النسيم الدائم الهبوب قام بحفافيها سماطان من ادواح النارنج المفىء الظلال ويسموا على رأس هذه القبــة وأختها الزجاجية تيجان متلعة الجيد ضخام العمائم المعتامة من أكـوار نحاسيــة تراكب الذهب الابريز على سطوحها فيكاد سنا برقه يذهب بالابصار قد نقص عددها من عـــدد أكوار تيجان المآذن وتطأطأت عن نهضتهــا تأدبا مع بيوت الله ويساجل هاتين القبتين الضخمتين ترباهما المتقابلتان عرضا والمدعوة منهما بقبة النصر الايـة المحكمـة والمثـل المضروب فى مصانع الارض جفـاء ورحبـا وزخرفا ونقشا وتمويها وصبغـا لا تتناهـى أوضاعها وأغراضها من محاريـب وتماثيـــل ومفاخر وخزائن ومساجد ومخـازن ومغابـن ومنافس حتى لاتتقـاذف دخنـة الشمـــوع الدائمة الارق صونا لحلتها الموـمية من درن أنفاسها واذا نازعتها لداتها من القباب السالفة فضل احتفال وجاذبتها ملاة الطراز أبـرت بسقف بهوها المعتام منمنحوت العاج والابنوس وبسقفها الرزم على فضائـها الافيـح رزوم رزوم الغمامة الوشيعة الرداء بالاشعة الاصيلية فمن أصفر فى أخضر فوق مبيض كل ذلـك بالصنائع المقربسة التـى تحار فيهـا جفـاة العماليق وحكماء يونــان واذا نظـرت الـى غلائلها من الجص المرقومة بكـل يد صنـاع ودهن ملىء بالحكمة نظرت الى ما يحجم عنـه البيان وتكل العبارة تدقيقا وتعميقا وتخليصا وتمويها وادماجا وفى زليجها المنظـوم الازر بالفرش تحار الاذهان ويتعلثم اللسـان قـد تنادت فيها الصنائع المتفننة بالمبـارزة وبلـغ الاغياء فى لطف جواهرها الفرديـة لغايـة لا تستبين العين صورها دقة وادماجا كأنما رقمتها الابر اللطيفة يغشى العيون أشعتهـا المنبعثة لايكاد يثبت البصر عليها صقـلا وتبرجت منها القبة فى حلة مـن الوشـي سابغة تستهان عنـدها الستـور المرقومـة والزرابى المبثوثة والبرطال الماثل أمامها قيد الابصار وحلة اعتبار قد استدار قوس خـرسنته العظمى متمطيا فى الهواء كأنما حـــذر
ص 271 من قوس الغمام جفوة وضخامـة وشاشيـة مسقفة * الوسطى خباء مطنـب فى السمـاء تحف به قلانس فارغة السمك وعناقيد جعدة التركيب تبدوا من خلال خمائل مفوفة مـن بديع النقش وزخرف التنميق وعمده المرمرية التى انعطفت عليها اهلة مسية وتقبل القبة منها بثمان تبهر الناظر جفـاء وطولا تتخلـل الخضر السندسية الغلائل منـها البيـــض

---

(1) بياض بالاصل .

الحسان والفوارة العظمى الراقصة بالمياه أمامها الغرة الواضحة والشمس البادية التكوين فى الارض وقد جرت مع هذه القبة أختها المتبرجة أمامها المدعوةبقبة التيجان ذات الابهاء الرحبة الفناء فى طلق واستبقنا فى ميدان الجمال والكمال وضحات الجلال استباق فرسى رهان وتتميز هذه بشعار سقف المخزن الذى عقدت سماواتها منه بالصنائع المقربسة الندى وجناتها بشامات زرق من سحيق اللازورد المزمل بالنضار الفائض الشعاع الى محاريب وتماثيل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنميق رافلة فى حلل الاتقان وملابس الاحسان وكم من هذه القباب المنبثقة من اترابها الكواعب وضراتها البيض التراب من كل عقيلة تكبر ان توصف وتجل ان تحصى محاسنها وأوضاعها ويليف كالخضراء الرافلة من فرشها وعرشها فى مطارف سندسية واتراب الوادى ومركب السفينة ومسرح الطرف الى رياض المسرة (1) من القوية الفهم العمدالضخمة الحظية بملاك المعراج الى ادرج المصريةالشامخة الانف جليسة النجوم وكناس الغزالة الفلكية بالغة الصرح الطاعن بأسنة شرفاته كبد السماء الى لداتها تشييدا وزخرفا ونقشا ورحبا وعمدا ضخمة ومحاريب متقابلة وتماثيل متناظرة ومحاسن جمة ومأرب متممة والرفرف الذى يجمع فلك عمامته المعلمة على فودها عجب يروى وآية من الايام تتلى عظيم الهيكل ضخم العمل خشبى التأليف هريت شد: القب كسيفيه جافى أسنمته الغنى معقودا اسارير الجبناه وزوايا الغب بالصنائع المقربسة طلق المحيا بالعبيسات المسطرة والسوارى المصطفة سابغ ازر المشيعات الفضفاضة قد استهينتفيه معار الصبغ والتمويه واستهلكت النقوش المتماجنة وتلوحت بفغراته المخدوشة وصفحاته الملس الات الزخرف فتفننت الصنائع وتخارق الاحكام تنطق أعالى طرره وأسافلها بلسان الاغياء والاعجاب وتنادى مصانع الدنيا هل من مبارز ويزيد زخرف الخمسينية على زخرف هذه الدار الهائل بكونه مثنى العمل فهو على ضخامته وبلوغه أقصى مبالغ الجفوة

ص 272 بديع (1) نظره سموا وشموخ أنف وقدالتقت الادواح وتفيأت ٭ الظلال وارتفعت الارض على أصول الاشجار ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الغصون الملد وغلائلها الخضر وزهرها الغض وثمارها المتادنية القطاف قد افترشت مماشى حدائقها الغلب المتخفضة من الدار وأرض القبو الهائل الواصل بين عرصتى الدار بالزليج المليح الثوب ترقص الفوارات المرمرية بالمياه السلسالة بحيث يرى المنحدر اليها دنيا من تحت الارض قد توارت محاسنها بالغور عن لفع العيون ينترها خدمة سلطان الملك من خلال الاولاراق دنانير تفرش أرضهم وترقم اثوابهم ويحف بهذه الدار ديار عديدة تحيط بها اسماء وألقاب الدار (1) البيضاء والدار الحمراء كلما سرحت بها العين رتعت منها فىمحاسن جمة من المياه الدافقة والفوارات الراقصة والنقر المربعة والبرك الريانة والسرر المرفوعة واذا بلغت الدار التى يقضى اليها منالبديع

(1) بياض بالاصل .

من اعلى يمين الخضراء متصاعدا مع الـدرب المالك لابوابها حتى تنتهي الى أقصاهـا مـن الجانب الشرقي رأيت برنامج المحاسـن فيوانموذج الكمال بناؤهـا عادى يجلل الاذهان وتناهي التشييد بها والتوطيد الى أقصـى مبالغ الفخامة والضخامة وتبر على المصانـع الحافلة بغريب الوضع الذى لم يسبق اليـه ولا حام طائر فكر عليه نتيجة همة صيغت من نور النبوءة المتحدية بالخوارق الخارجة عن طوق البشر ومألوف الصور لما نظـم مولانا أمير المومنين أيده الله صورها الخيالية بذهنه الشريف وحدسهـا الكريـم الذى يختـرع الاشياء في أحسن تقويم أحضر عرفاء المباني فاقترحها لهم وأخذ أيده الله يرشدهم بحاسة الوصف الى أشكالها التى تصورها فلم يكونوا ليهتدوا حتى تولى لهم رسمها ببنانه الكريم في قرطاس فلمسوه بأيديهم ورأوا ما قد اهتدوا الى فهم ما لم يوته أولوا الحكمة مـن يونان فبهتوا ثم شرعوا في تشييدها وفـق الاقتراح الكريم والهمـة الشريفـة المنيفـة فانتظمت دوائرها المتراكبة بعضا على بعض في الهواء وطبقا عـن طبق سماطين متقابلين نظاما يوجب البهت والحيرة بحيث تسموا عن قبابها المنيفة غرفها الاثيرة ثم لايرى سكان علوها أهل سفلها مع جلب الضياء الفائض الشعاع للديار السفلى المحجلة عن العليـا بحكمة لطيفة المدارك دقيقة المسالك وانتسجتفوق صحون أعيالها الشبابيك الحديدية وتمتار المياه الدافقة بالبارد والسخن مـن الحمـام المنتظم ببنيها شرقـا ذى البركـة العظيمـة المفروغة الوقود من تحتها من النحاس الاحمر تنابها القواديس الفاغرة الافواه اليها مـن
ص 273 كل جانب فتملا حواصلها وتسافر بها لهـذه الديار وقد أخذت * الاهبة لمصبها في النقر المرمرية بكل دار من أنبوبين ينبجس احدهما البارد والاخر بالسخـن مغديـن بلوالـب تنجذب عند الفتل طوع يد التخيير بين الحار والفاتر ومزجهما عند الاستعمال فاصبحـت هذه الديار مكملة الاراء متممة المآرب قد ختم عليها التحصين والمنعة وارخى عليهاالاحتجاب سدوله بحيث لايخلص اليها الطيف حتى لقد بلغ الاختفاء مبالغ في ذلك مبالغ الاغياء الى اتقاذ منحوت على شكـل الفالـوس الكبيـر مغشى بصفيـح النحاس الاصفر الصقيل قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتام لمناولة مايرد من المرافق والمشاكـل والمشـارب علـى الديار يدور بوجهه عند الداعيـة من الامـاء والخدم القائمة بخدمـة سيداتها من أهـل الحجاب العالي فليس في جوفه من وراء الجدار ، ثـم يـدور بـوجهـه لداخـل المنـزل فتقع المناولة من غير أن تتراءى الى الاشخاص وتبدوا منها للعين قلامـة ظفـر اغياء فـي الاحتجاب وملاصفة في العين التى صار بهاأميرالمومنين المثل المضروب فيعالم الارض وتسمو بمنتهاها شرقا بنية المجلس الكريم الرافـل في حلل الوشي والتنميق والزخرف ثم يزهو الجانب الغربي منهـا بالمصريـة الشامخـة الانف الغريبة الشكل المستوية على عمد المرمر الشامخ فيها محكم الجص حتى في الشبابيك البديعة التكريش والرءوس والجباه المقربسة

(1) بياض بالاصل .

فأصبحت فى ذلك نسيجة وحدها ذات الغرف الاثيرة والشراجيب البديعة والمجالس الكريمة المربية على مصانع الدنيا ببديع النظرة الفاعلة بالنفوس والارواح فعل العقار اسفار بالاطلال على بستان النهر الذى تسافر منه العين الى رياض القبة وبساتين الملك التى تصرح خلالها القصور المنيفة كالنجوم العوائم ثم الى جناب الخضرة المحدقة بها على مسافة تناهز اليوم والمقام المقابل برد الريانة والجداول المنسابة والحدائق الغلب ثم الى بسائط الحضرة ذات الانهار الجارية والخلجان المتدافقة والسواقى المتدافعة التى انتسجت منها أيدى الانواء ومجارى الماء نمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة وتساجل هذه الديار فى التشييد والتوطيد والاحتفال والتعداد والاغياء فى مأرب التجارد والتحسين وجر ذيول المحاسن والتفخيم الديار المنظومة والمقامات الرافلة فى حلل الزين اللائذة بالعقيلة الكريمة من قبة النصر التى سحبت عليها ذيول عزها واناقتها من خلفها تحت خفارة السور الاعظم الطامح الغرف المحيط بأقطار الدار ويفوت هذا القصر القصور الاولى من مبانى الدار العظام ومصانع أولى الملك بالمرمر الكثير العدد الضخم العمد
ص 274 الصافى الجوهر * الناصع البياض المعتام من المعادن النفيسة تتبارى التجار من أهل الحرف فى نقله وجلبه طوع اقتراح مولانا أمير المومنين أيده الله من قاصية بلاد البنادقة متهالكين فى تجشم الشقة البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا فى نقل اجرامه الجافية التى يئود حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها وكان بنو عبد المومن خلفاء الموحدين لما اختلفوا وما أبقوا للتشييد قصورهم بمراكش ووكلوا بها همما طامحة لم ترض بالدون ولم تقتصر على النزر التافه قصارى ما انتهت اليه هممهم جلب المرمر لها من عمل المرية بالاندلس ثم جاءت دولة بنى مرين فاتخذوا فاس دار ملكهم وترامت همم بنى عبد الحق ملوكهم الى مساجلة بنى عبد المومن فى اختطاط القصور بها وتشييد المصانع فكانوا ينقلون المرمر لها من قصور الموحدين بمراكش ثم جاء الله بالدعوة الكريمة النبوية والدولة الغالبة القاهرة العاتبة الحاشرة فأنفت الهمم الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية أعلى الله منارها وخلد اثارها من تخريب مدينة من قواعد ممالكه الشريفة بتجديد أخرى كما فعل بنو مرين نهبة سيوفهم العلوية الزيدانية المظفرة وتخطى التى هى هى قصارى الموحدين الى تخوم البنادقة أغرابا بمعدنها النفيسة الاديم المعقود من حصباء الفرد الملى الذمة مما يشاء من الفنون المقترحة فاشتملت قصوره من ذلك أيده الله ومصانعه الشريفة على ما تقاصرت عنه قدر الخلفاء الاعاظم ودانت بالعجز عنه ول الاعاريب والاعاجم فلقد دارت لوراء الدار الكبرى من قصوره الشريفة على خمسمائة عمود مرمرية ماثلة كالجبال الرواسى ضخامة وجفاء وقسموا القباب وبراطيلها على مائة منها ترجح الواحدة بالاعداد من عمل الموحدين الماثلة الاشخاص اليوم مع الشفوف فى المعدن ونضارة النحت ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط بأقوار

(1) بياض بالاصل .

الدار ما بين المثلثات الاشكـال والمفـردات النابتة تحت السوارى الازرية لصق الجـدار الى اعمدة ضخمة الاجرام زمـرديـة الالوان منحوتة من معادن بعمل مراكش هدى اليهـا رائد البحث الناشىء عن طموح الهمة فواصل بين العمد البيض الحسان الموائد من القباب وأما ما تضمنت الحمامات والمساجد والمجالس والقباب والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى وقد تخارق الاحكام وتفننت الصنائع حتـى استعمل المرمر فى ملاطـم المساجـد وقسـى الابواب والمحاريب والتماثيـل والمقاصـد والخزائن وقبة النصر ملية الذمة من هـذه الفنون مشرات اليد من بيضائها وصفرائها وخضرائها متفننة المساجد والمجالس والمحاريب

ص 275 والتماثيل منه رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها فأصبح ★ البديع السعيد من هذه الاثار الفخمة نسيج وحده فى مصانع الارض لايشق له غبار ولا تلحـق القصـور الاولـى شأوه وقد قام على رأس هذا القصر الصرح العظيم الذى لاتطاوله بنية ولا تباريه قامة البادى الصلب العظيم التيه عـلى المصانـع بحسن الشكل وتغـالى الزين وجر ذيـول الوشى وشموخ الانف متواضعا عـلى عظمتـه ببيوت الله ومآذنها حاصدا بنجله المغرب فى الحسن مـرمـر الظـلام لتـرعـاه غـزالـة الصبح الكانسة فى التافه مغربا على الصروح المنيفة بالمجالس الكريمة المتراكبة فى معارجه طبقا عن طبق قد بلغ الاغياء فى الاحتفال فيها الى تنجيد الفوارات المرمرية اللجينية المعدة للرقص بالمياه الغزيرة التى يسموا بها مـن الدولاب العظيم والفلك الكبير الداخـل فـى جملة الاثار العظيمـة التى وكـل بها أميـر المومنين أيده الله عزمه فى هذا التاريخ ان شـاء الله تعـالى اسئل الله تعالى أن يمنـح مقامه الكريم تماما على الذى احسن ويحفـظ عـلى الاسـلام من دولتـه الغـراء امة كى تقر عينها ولا تحزن وحمام هذا القصر العظيم الذى تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسـن الاختيار فدلكـة المحاسـن والجمـوع الخوارق وبيت القصيد ويتيمة الجيد ومنتهى الكمال وخاتمة الاختراعات ذو الابواب الاربعة التى يفض منها الى قصر مولانا الامام المقدس مهدى الامة رضى الله عـنه مألف الايمـة الخلفاء ونشيدة بسطهم الذى يجد منه الحال فيه نشوة لا يستطيعـها الجريـال منقبة استأثر بها على سائر القصور وءاية شاهدة على صلاح بنية بانيه رضى الله تعالى عنه وسقاه الرحيق المختوم فى دار نعيمه ثم الى حمى العقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى البديع ثم الى باب القصر حيـث مقصـد الخاصـة والبطانة ناهيك من حمام خارق سياج العادة وعرض المتبر للتهمة وأعـى ذرع وصفـه سنبك اللسان الى وصل القلم الطلق ما شئت من ضخامة البناء وتعالى المزين واختراع الوضع الذى اضحى به نسيج وحـده فى حمامات الارض يشتمل من عمـد الحمام على خمسين عمودا دارت قوراء الدار منها على اثنى عشر جـدعـا جـافيـة الاجـرام طـافحة الاعنـاق رقراقة الاديم زمردية الالوان لجينية الرءوس والقواعـد وتـتوزع البيـوت والمساجـد

(1) بياض بالاصـل .

والبراطيل والمحاريب بفية العدد وانزاحت فوق براطيله المتقابلة وصناعتها المتناظرة في حراسته التمانيه منعطفة في الهواء انعطافاقواس الغمام خنبية التاليف قد تلومت بهاء ءالات النفش والزخرف واستهينت فيها معادن الصبغ والتمويه وانسحب فوق قبته العادية البناء مسجده العديم النظير وبراطيله المتقابلة الاوضاع ذيل السقف العجيب المدعو

ص 276 بمنقار وميجم وكله ★ بعمل المندروش قيد اللواحظ والابصار حسنا وزخرفا وصبغا وتمويها وسقايته المغدقة السقيا والميضأةالطويلة الاعناق الدارة المياه المثل المضروب في الحسن والتنسيق البالغ اقصى مبالغ الاغياء ان اربضاء الاسود الرمرية متناوبة بالمياه المصوغة من سنبك اللجين وسلاسل الفضة وقد سنخ المرمر فيه حكم الجص فصيغت منه الشباك المعقودة فوق الاساطين والرؤوس المقربسة من تحت الخراسن وتخارق الاحكام فاستعمل في قسي الابواب وملاطم المسجد والبيوت والمحاريب والمقاصير فادلج يجر ذيول الزهو والفخر على سائر المصانع الشريفة والقصور المنيفة الى الباجين الماثلين في صدر البيت الاقصى من بيوته المعدله للهواء المعتامين من نفيس المرمر لصب الانبوبين المنبجسين بالسخن ولقد رأيت ما يسحر الطرف ويوجب البهت حسنا وظرفا واختراعا ويتصل بهذا القصر الشريف قبلة بستان النهر وهو لقب وضعه مولانا امير المومنين ايده الله في تاريخه علما على الروض والاخذ ما بين لابتى سور القصور وسور القصبة قبلة الآخذ بالنهر الذى اخذ أيده أيده الله تعالى في اجرائه الى قصوره الشريفة واستفرغ كده في بنائه العادى عريض المسلك فسيح المد كان بناءه المرصوص مفرغ من الصخر الململوم يشع ما بين ادواح هذا الروض المفوف صفوفا بشجر النارنج والاس متدافع السيل غير مغمد السيف حتى ينتهى الى ترابه من القبر المعد له تحت القبة الخضراء بروضة المجاز ومركب السفين ومن هنالك تتهاداه البرك والقباب حتى يتصلت من الخمسينية كما قدمنا ويقابل باب النهر من هذه الخضراء تجاه القبلة وبمنتهى بستان النهر الفضاء الافيح المرتاد للقبة العظمى التى امر مولانا امير المومنين ايده الله باختطاطها وتوطيد بنائها العادى في ازيد من ثلاثمائة شبر طولا ليسع لحما والجم الغفير في الاعياد والمواسيم والوفود المتتالية على الابواب الشريفة من الممالك القاصية والارسال المتتالية من المشارق والمغارب ورسم ايده الله تعالى ان يكون مسقفها من البساط المزيف خلف التمدية والزخرف البديع الخواتم والنقوش المحدودب الظهر البين في الاضلاع المصفد بالاخشاب الضخمة المزخرفة المعترضة بين الجدارين مثنى ويشرع باب الى المسرة وبهوها الضخم البناء الرحب الفناء الياجوجى السد المفرغ القطر العادى البرج القوى الناحية المعقود الظهر لحمل الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار في سبيل الاغياء والمبالغة في المنعة والتحصين ينطبق على الباب المضارع البالغ اقصى مبالغ

(1) بياض بالاصل .

ص 277 الجفوة والفخامة مغشاة بصفيح ★ الحديد المثبت بالمسمار الضخم التكوين وانتظمت القصور الشريفة الامامية بهذه البنية العظمى بضخامتها على الاواوس الفخامة فى ابدع اجادة والطف سلك واحسن ترتيب وذهب بمزية الفخار على قصور الخلفا وملوك الارض ببديع النظرة التى تسافر بها العين على فاسخ من باب قبة الزجاج القبلى بالدار الكبرى الى الباب الجوفى من الخضراء ثم الى باب النهر منها وتسموا مع بستان النهر ما بين القضب النحيفة الخصور المتمالية القدود على ارداف الموج الثقيلة حتى تند من بابى القبة العظمى متصاعدا مع الطريق المنحرفة الظلال من عن اليمين وعن الشمال حتى تنتهى الى البنية المنيفة الماثلة على البركة العظمى فى اعلى المسرة وهذا الروض المدعو بالمسرة المنتظم ببستان ظهر المصرية الاخذ ما بين لابتى سور القصبة والصالحة عرضا هو ما هو من بعد الاقطار وانفساح الخطة قد مد على البسيط الافيح جناحا اخضر مكل فى جوبه جياد الرهان بديع الوضع حسن الترتيب تتناظر فيه الحدائق الغلب من مغروس العنب والزيتون والرمان ونخيل صنوان وغير صنوان ومن كل قنوان دانية وجنات الفافا تتقسمها طولا وعرضا طرق شتى محفوفة باحواض الآس والنارنج وشجر الخابور وخمائل الورد والنسرين والياسمين وغاب زينة المربى على التقدير كثرة وانبساطا على مناكب الارض عدة لامتياز البلاد واذا بلغت الى البحر الزخر من البركة العظمى التى باعلاه رأيت ما يبلد الفكر ويوجب البهت ضخامة وجفاء ورحبا يسع ممشى الضخمة الاجرام حلبة الخيل عرضا تضطرب احشاؤها اضطراب موج التيار وتسافر منها العين فى مجرى السفين متباعدة الاقطار تستبين للعين سيما الواقف بعدوتها الخمس المعقودة بالبناء لصق جدارها شرقا وغربا قيد البصر حسنا وضخامة يفور التنور منها بجدول متدافع السيل وتكتنفها ادواح الآس وشجر النارنج والاترج وكل غريب من انواع الشجر الذى لا يسقط ورقة ولا تخلق الايام غلائلها السندسية والبنية العظمى الماثلة عليها المثل المضروب فى حسن المنزلة وبديع النظرة يخترقها النهر المتدافع الى مصبه فى البحر المحيط فى البركة المتموجة بين يديها وتتصل بها قبلة مدينة انيقة شرع مولانا امير المومنين ايده الله فى تاسيسها ليخص بسكناها ممالكه الذين ازدهت الخلافة بباهر زيهم وجمال موكبهم لا تنال حسن مكانها وشريف منزلتها وبديع نظرتها والانهار الجارية من تحتها والاودية المخترقة لبسائطها والرياض المحدقة بجناتها والمنازل المشرفة خلالها والقصور المنيفة امامها بغداد ودجلتها

ص 278 وجلق وغوطتها وقاهرة مصر ★ ونيلها ومما اسهم به ايده الله وخلد ايامه لمدينة فاس من الاثار الشريفة والمصانع المنيفة التى هى طرز على عواتق تحصينها ومنعتها الحصون الشامخة الانوف الجاثمة حواليها والمعامل الماثلة اعلاما راسية ازاءها ضرب بها ايده

الله على اهلها :

خواتم من طين الحصانة افرغت   فليس لها حتى القيامة مـن فض

بحول الله وقوته اما المدينة (1) قومه ءال ادريس التى جلل عمرانها المتراصف جانبي الوادى فيكتنفها شرقا وغربا المعقلان الضخمان اللذان انشاهما (1) بها تحت كفالتهما ان شاء الله تعالى للموطد بالجانب الشـرقى منهما الربوة المنيفة ذات الصخر الملـوم الثقيل بحجرة قطران تجاه المصلى القديـم العيدى من باب الفتوح وبمقابلته بالجانـب الغربى من المدينة اتجاه القبلـة مدفـن بنى مرين وبمصلاهم العيدى قريعة لابل كبيرة الذى يلفه على عظمته فى زاوية من زواياه ذو العمل الضخم والزوايا المثلثة الشكل والبناءالبالغ اقصى مبالغ الجفوة قد اغرى بهما ايدهالله‌عنايته ووكل بشأنهما كفايته فجاء بها ءاية الاعجاز توطيدا وتشييدا وتحصينا متممى المـآرب والمرافق مستكملى التحصين من مآرب الحامية المنتقات من جيش النار ودار قائدهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص وأهراء الطعام وجبات المياه الرحبة الاجواف وابار منحوتة فى الصخر الى قعر البحر من المـاء العذب الفرات مستكثرا فيها مـن الانـفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار والاكوار العادنية والصخرية التى تذر الجبال كثيبا مهيلا وتلقى من صواعقها على الاسماع قـولا ثقيلا فعوذ بهما ايده الله المدينة من كـل طارق يطرق الى غابر الدهر بعز الله وعنايته اما البلد الجديد حيث متبوأ الامر وغاب الملك فقد وفى له ايده الله السهم وأجزل القسط بمـا أدار بـه مـن الابـراج الضخمـة التى انتبذت لصق سوره حصونا شامخة واقطعت اعـلامـا ماثلـة سمت جدرانهـا وتصاقـت شرفـاتها وتفننت فـى سبيـل التحصيـن اوضاعها يحرس بعضها بعضا وتكاثر النجوم عدد انفاضها الفاغرة الافواه لالتهام من ينتابها كان كل برج منها قرية من قرى النمل واذا استهلت رعودها فى العيدين عند العود مـن المصلى او لورود بشارة عظمى فلا تسئل عن تزلزل الارض ورجفانها تذكر رجة الصعق والنفخ فى الصور ويمتد على البلدين ركام البارود كأنما هو ليـل مطبق فترى النـاس سكارى وما هم بسكارى من قعقعة الرعـود وهول الصواعق فسبحان القادر الغالب *(1) ص 279

والحصن الجاثم من هذه الحصون امام باب السبعاذ يأخذ بكظم البرج الجديد معدم سامى الذروة شامخ الانف وفحل الرسيعة الذى لا يمتطى صهوته ولا يقذع انفه ولا يطرق حماه وحوزته وبرج العقرب الذى لا ترقى حمته ولا تعالج لدغته ولا تسام مع الايام المدينة التى كفلتها رقبته قد انتبذ امام البلد الجديـد ربيئـة الجيش وبطل الكتيبة الذى يحمى الحقيقةقد اسبغ من لام الحصانة وظاهر منها فى ذرع مبالغ فنادى هل من مبارز واذا انتهيت الى الاثرين العظيمين والفلكين المحيطين والحصنين الضخمين اللذين خيم بهما على انف عـدو الدين بمرسى العرائش العديمة النظير فى مراسى المعمور سعة وانفساحا وهدوا رأيت

(1) بياض بالاصل .

ما يوجب البهت ويبلد الفكر جفاء وضخامة ومنعة وحصانة استفتح ايده الله بالاولى منهما المسمى حصن الفتح كتاب اعماله البرية لاول خلافته السعيدة فكمل لسنين منها ثم عززه بالثاني الذى ناهز اليوم التمام فجاء عديم النظير اطبق اهل المعرفة بمباني الحصون من العرب والعجم وارباب الجولة من اهل الملتين انه ماريء مثله فى حصون البر والبحر وضعا وشكلا وجفاء وضخامة وجمعا لشرائط التحصين جمعا مستوفي وقد شد به ايده الله باخيه عضد الاسلام وركنه واتى بهما آيتين باهرتين ابطل بهما كيد عدو الدين ودفع بهما في صدر طاغوت الشرك واقامهما مع الايام شجى فى حلقه وصان بلاده منهما باجمتين الاسود الفاغرة الافواه (1) بعز الله وعنايته ولبس الحصن الذى اختص ايده الله تعالى على بلاد تازى ببعيد من هذه الآثار الضخمة والحصون الفخمة

ص 281 تشييدا وتوطيدا ومنعة وتحصينا ★

واما ما اصلحه ايده الله تعالى ورمه او زاد فيه فتممه بمدينة ءاسفي وبلد ءازمور الذى جدد ايده الله سوره واداره بكماله ومدينة اصيلا وسائر الاطراف والثغور وببعض الجسور فشيء يضاعف الله به الثواب والاجر ويجزل الذخر يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .

الناحية الفكرية
ذكر علومه الشريفة وسائر مروياته ومن اخذ عنه من الايمة الاعلام ومشايخ الاسلام★

ص 218 أقول ان امام الامة ومهديها رضى الله عنه وان كان له الفضل الذى لا ينكر فى القيام على علوم جمة ورسوخ القدم خصوصا فى علم القرءان الكريم اداء وفهما واحكاما وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم طرقه ومعرفة اساليبه وما يحتاج اليه

ص 219 من الفقه وفروعه ومن العربية وفنونها والتضلع وعلم الطلب ★ والانفراد بمعرفة ديوان ابى الطيب واستحضار حكمه وامثاله والبراعة فى علوم البيزرة فمولانا امير المومنين ايده الله من بعد اعلم الخلفاء (2) وسعيد النصبة التى حكم له بها شرف بيته والامام الذى صلت جماعة الملوك والخلفاء من فضله فضلا وكمالا واصالة وجلالا وشرفا محضا وملكا ضخما وعلما جما ومشاركة تامة اقدرته الملكة بها ايده الله على فهم سائر العلوم والاضطلاع بها معقولها ومنقولها اصولها وفروعها قديمها وحديثها يقتاد العويص منها والسهل بزمام ادراكه ونفوذه واذا رءا مكانا عليا قالت همته انا اولى بمكان علي ومن يرضى بالوقوف دون مكان ءابائه وجدوده الا قد رايت أن أعول فى تحقيق هذا الباب على تقييد شريف بخط

(1) بياض بالاصل .

(1) بياض بالاصل .

يده الكريمة ناولنيه ايده الله متضمنا لذكر ما قرأ من العلوم وذكر من اخذ عنه من الشيوخ وسنده عنهم في كل فن حتى في الفقه الغريب الاسناد الى مؤلفه في هذه العصور قال ايده الله بدأت قراءة كتاب الله عز وجل على معلم اولاد الملوك في الدولتين الفقيه الاستاذ امام جامع مشور فاس ابي عبد الله محمد الدرئي رحمه الله الى ان انتقل السلطان بمراكش فاخذت في القراءة على الفقيه الاصولي النحوي العددي الفرضي ابي الربيع سليمان بن ابراهيم الى أن تحرك السلطان رحمه الله لسوس ولمعاودة جبل درن رحلني معه رحمه الله فبدأت الرسالة بالسوس على الفقيه ابي عمران موسى السوسي رحمه الله وسلكتها على الفقيه ابي الربيع سليمان باللوح مرتين وكنت اقرأ مختصر خليل لنفسي واكتب منه لوحا وبعد خروجي من الكتاب ادرسه اذ لم يكن يكلفني السلطان رحمه الله قراءته لطوله ثم درست الرسالة ايضا باللوح على الفقيه النحوي ابي محمد عبد العزيز بن ابراهيم سلكتين وقرأتها عليه قراءة فهم وتدقيق بعد حفظها وقرأت عليه ايضا مقدمة ابن ءاجروم قراءة فهم وتدقيقمرارا متعددة واعربها عليه وقرأت عليه أيضا القبة ابن مالك باللوح سلكتين او ثلاثا واعربتها عليه مرارا متعددة وقرأتها قراءة فهم وتدقيق مرارا متعددة وكذا لامية الافعال له ايضا وقرأت عليه علم الحساب وقرأت علم العربية على الفقيه الاستاذ نحوى زمانه بلا مدافع ابي العباس احمد القدومي رحمه الله وبدأت قراءة الالفية على الفقيه المتفنن الدراك الفهامة ابي عبد الله محمد بن ابي القاسم الشريف وعاق عن التمام ما كان من تحرك الطاغية باستدعاء ولد اخينا فتحركت لفاس ومنه لبسيط ازغار وكنت في خلال ★ الاقامة بازغار اقرأها على الاستاذ ابي عبد ص 220
الله محمد الحارثي وقرأت على الفقيه العالم الاوحد ابي العباس احمد المتجور اصول الدين وقرأت عليه كبرى السنوسي رحمه الله قراءة فهم وتدقيق وبحث ورويتها عنه وسائر عقائد السوس عن شيخه وشيخ الجماعة بفاس ابي عبد الله محمد اليسيتني عن شيخه الامام المتفنن ابي زكرياء يحيى السوسي عن شيخه الموحد الصالح ابي عبد الله محمد بن ابي مدين عن شيخه ابي عبد الله السنوسي قرأت عليه حاشية الصغرى عليها من لفظي الى قريب للنصف واجازها لي وكذا اجاز لي حاشية الكبرى وشرحيه الكبير والصغير على قصيدة ابن زكرياء وقرأت عليه ايساغوجي والشمسية في المنطق وقصيدة ضياء الدين الخزرجي في علم العروض مرتين فيما أظن ومختصر السعد قرأت عليه بعضه واجاز لي باقيه وكذا المطول وحدثني بتلخيص المفتاح والايضاح للقزويين عن جماعة من اصحابه الشيخ ابن غازى كالشيخ ابن هارون عن ابن غازى المذكور عن الشيخ ابن مرزوق الكفيف عن ابيه شارح خليل عن جده شارح العمدة عن الشيخ جلال الدين القزويني مؤلف الكتابين واخذت عنه شرحه على قصيدة ابن الصباغ المكناسي في علاقات

المجاز قراءة لبعضه من لفظه واجازة لباقيه وقرأت عليه اوائل الكتب الخمس بل البخاري والترمذي ومسلم واجازني فيها وفي باقي الكتب الخمس بسند متصل مذكور في فهرسته التي كتب برسمي واجازني فيها بكل ما له من مقروء ومسموع رحمه الله وقد رويت عنه الحديث المسلسل بالاولية وحديث المصافحة وحديث مسح الخفين ورويت الفقه المالكي عن الشيخين العالمين الاستاذين شيخي الجماعة ابي العباس احمد المنجور والقاضي الاعدل ابي محمد عبد الواحد الحميدي الامام شيخ الجماعة ابي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله كالشيخ ابي محمد سقين والشيخين الامامين ابي الحسن ابن هارون وابي عبد الواحد الحيدي والفقيه ابي محمد عبد الرحمن ابن ابراهيم وشيخهما الامام ابي عبد الله اليسشني رحمه الله عن شيخ الجماعة ابن غازي الامام الحافظ المحصل ابي عبد الله القوري عن شيخه الفقيه الصالح ابي عمران موسى الجاناني رواية الشيخ الفقيه الكبير ابي عمران موسى بن معطي العبدوسي عن شيخه الفقيه العبدوسي المذكور عن الفقيه المحقق ابي فارس عبد العزيز القزويني عن شيخه ابي الحسن الصغير شارح التهذيب عن الفقيهين ابي الوليد راشد الوليد وابي ابراهيم الاعرج اورياغلي صاحب الطرر على الدونة عن شيخهما الفقيه الكبير الامام الصالح ابي

ص 221 محمد صالح الهسكوري * عن اشياخه الفقيه ابي القاسم زانيف والفقيه ابي موسى المومناني والفقيه ابي القاسم بن البقالي عن الفقيه المحدث الكبير ابي القاسم بشكوال عن ابي محمد بن عتاب عن ابي محمد مكي بن ابي طالب عن الشيخ ابي محمد بن ابي زيد عن ابي بكر بن اللباد عن يحيى بن عمر عن سحنون عن ابن القاسم عن ولي مالك ولي اسناد في المذهب عن الشيخ ابي محمد المنوني على قرابته بالبلاد المشرقية وهو أني اخذت عن شيخنا ابي العباس المنجور وهو عن شيخهم الامام ابي عبد الله اليستيني وهو عن ناصر الدين اللقاني وهو عن الشيخ نور الدين السنهوري ونور الدين عن الشيخ عبادة الزيني والشيخ عبادة اخذ عن الشيخ جمال الدين الاقفهسي وجمال الدين عن تاج الدين بهرام وهو عن الشيخ خليل وهو عن الشيخ عبد الله المنوني ورويت توضيح خليل على فرعي ابن الحاجب عن شيخنا المنجور عن شيخه الامام الرحال ابي عبد الله اليستيني عن الشيخ ناصر الدين اللقاني عن الشيخ نور الدين السنهوري عن الشيخ عبادة الزيني عن الشيخ جمال الدين الاقفهسي عن الشيخ تاج الدين بهرام عن الشيخ ابي المودة خليل بن اسحاق وحضرت في ايام الاخ رحمه الله مجالس عدة عند الفقيه الشيخ سيدي شترون بن هبة التلمساني في التفسير والفقه والنحو والكلام وممن اخذت عنه الفقه الفقيه المحدث الصالح ابو المنجاة رضوان بن عبد الله واجاز لي الكتب الخمسة في الحديث وحدثني بالحديث المسلسل بالاولية وكذا الفقيه الرحال الصوفي ابو عبد

الله محمد بن علي رويت عنه حديث الرحمة المسلسل بالاولية وحدثني باربعين الاسيوطي واجاز لي اجزة عامة فياله من مقروء ومسموع ومن جملتها احياء الميت بفضل اهل البيت للاسيوطي والجامع الصغير للاسيوطي قرأت عليه طرفا منه وأجاز لي فيه عن شيخه الامام العلقمي عن مؤلف الكتاب الاسيوطي وبجميع تأليف الاسيوطي عن العلقمي عن الاسيوطي وممن اخذت عنه الفقيه المعبر قاضي الحضرة بفاس ابو محمد الحميدي المتقدم الذكر قرأت عليه من التفسير والفقه وبعضا من كافية ابن الحاجب في النحو والشمسية للكاتبي وقرأت عليه من مختصر خليل دولتين احداهما من اول الكتاب والثانية من النكاح وبعضا من جمع الجوامع الامام السبكي في أصول الفقه وشرح جلال الدين المحلي عليه وكذا الفقيه المفتي بحضرة فاس ابي زكرياء يحيى السراج حضرت مجلسه بفاس وفتح الله علي في فهم كتاب اقليدس في الهندسة بغير استاذ لعزة وجوده بهذه البقاع المغربية فكنت افك في كل يوم شكلا من اشكاله ولم بعض معرفة بعلم التعديل . انتهى ما نقلته

ص 222 من خطه أيده الله تعالى * وكان ايضا يتعاطى ايده الله بمحضر الملأ من الفقهاء والعلماء الذين يجمعهم للتحليق في مجلسه الكريم للمذاكرة بمراكش وفاس وفي بعض حركاته السعيدة كتباجمة فمنها ما يقرأ متنه ومنها ما يرجع اليه نقلا ومطالعة ومن ذلك الكشاف في علم التفسير وحواشيه للطيبي وسعد الدين والسيد والفارسي وابن خلين السكوني وللعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوي وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الاسيوطي وملا عصام وكتاب الرصاع على ءاى المغني ومرائي المجد الى ءاى السعد من تأليف العلامة الامام ابي العباس احمد المنجور شيخ مولانا امير المومنين ايده الله وشيخ الجماعة ومغني اللبيب في العربية وحاشية الشموني عليه وشرح ابن الدماميني وحاشيته ايضا عليه والارشاد لامام الحرمين في علم الكلام وشرح المقترح له وشرح تلميذه الشريف زكرياء والمعالم الدينية للفخر وشرح شرف الدين التلمساني لها وشامل ابن عرفه الذي حاذى به طوالع البيضاوي والصحائف وشرحها السمرقندي والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازاني والمواقف لعضد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجاني وحاشية حسن جلبي على شرح السيد والاربعين للامام الفخر والقطب في علم المنطق على الشمسية للكاتبي وحاشية سعد الدين عليه وحاشية السيد عليه وشرح سعد الدين ايضا عليها ومنطق الشفا لابي علي بن سينا وشرح الارشادات له أيضا لنصير الدين الطوسي وشرح الفخر لها ايضا وكافية ابن الحاجب كان يدارسها مع الحافظ العلامة الفقيه الاستاذ النحوي العروضي ابي العباس احمد بن علي الزموري وشرح النيلي عليها وهو من أنبل شروحها وشرح الرضي عليها وشرح المؤلف عليها وملاجامي عليها وشروحات وحواشي عليها غير ما ذكر وشرح ابن الدماميني على تسهيل ابن مالك وغير هذا من المصنفات الجليلة النفع ومن المشايخ الاعلام

الذين اجازوه ايده الله كتابة ومراسلة من الشرق الى المغرب الشيخ الامام العالم العلم الصدر الكبير الشهير رئيس ايمة اعلم بالديار المصرية وقبلة اهل الارض قاطبة علم الطريقة ومركز دائرة الشريعة والحقيقة حجة الاسلام وعلم الاعلام وقدوة الانام الشيخ الامام الاوحد الغوث الرباني ولى الله ابو عبد الله محمد بن ابى الحسن البكرى الصديقى ونص كتابه المتضمن الاجازة الى مولانا امير المومنين ايده الله تعالى (1) الله سبحانه وتعالى له العزة التى لا تضاهى والعظمة التى لا تباهى والكبرياء خضعت له املاك السماء وملوك الارض والجبروت الذى تهيض لذكره رواسى الدماء طولا والعرض سبحانه فلق

ص 223 بنور الايجاد ظلمة العدم وابدى ابداع وانشأ * واخترع وانفرد بذاتى القدم تضطرب من هيبته احشاء الزواجر فيتطاير اديها فرقا وتتصدع من نواميس سلطانه الافلاك فتشقق فرقا له الحمد سبحانه ان دل بمصنوعاته على واحدية ذاته العلى واشار بمسبحة مخلوقاته الى احدية قدسه الازلى ولاكمصنوع القى شعاع ارادته على مرآة حقيقته فاضاء بسبحات صمديته وموضع لنظم شتات المخلوقات محمول على اكتاد العنايات لم يستدخله قبله جنس ولا نوع بل هو مظهر وترتيه حمد نفسه بنفسه وابرز سر حامديته من حيث هو وهو بمطلع محمديته واحمديته ثم أنجب منه بالواسطة العلية العاوية من البتول الزهراء الطيبة الطاهرة النبوية ابناء لولا الختم المحمدى لكان كثير منهم ابناء الى ان تتم الدورة المفتتحة بمحمد النبى صلى الله عليه وسلم المختتمة بمحمد المهدى انتهاء لاجرم واختار منهم علماء رحماء خلفاء على البرية ملوكا طلعت شمس عظمتهم من الافاق المشرقية والمغربية فمحت ظلاما وأذهبت باليقين شكوكا وواعجبا من طلوع الشمس من المغرب امانا للعالم وحفظا كافا كف العدوان من بنى ءادم كيف وهو أحمد خليفة ملك ملك حبات القلوب وسلطانا بتلك الاقطار استطار ذكره بين نقطتى الشروق والغروب لا بدع فهو فى ابناء الزهراء قسم من قسمات جبين جده المصطفى صلى الله عليه وسلم تسجد له الغزالة رابعة النهار وتجرى على وفق بل فوق مراده باذن الله سبحانه الاقضية والاقدار انفرد فلا يلز معه فى مضمار واحرز قصبات السبق فلا يشق له غبار ودعته العليا اليها لتدرك به شاو الفخار وحشرت لدعوته افئدة الموحدين فكل ينادى البدار البدار وارعدت من هيبة سيف ظهوره المقوم الفقرات افئدة الملوك فلا سيف الا ذو الفقار هذا وعذرا فى تصبب القول الذى لم املك كفافه فتامظ به لسان القلم قبل اهداء التحية الى سدة الانافة فاما اولا فانى اقبل بجبينى واهداب مقلتى اجلالا لتلك الحضرة الكريمة المقدسة عن شفتى عتبة النبوءة والرسالة وساحة العظمة والجلالة بين يدى غرة مولانا

(1) بياض بالاصل

امير المومنين وقبلة الموحدين نجل المصطفى صلى الله عليه وسلم وسليله ومن نصر بالرعب غنيا عن الاخذ وصليله والاقب وصهيله من طنت فى آفاق العالم حصاته وتعبت بضبط مناقبه حفظة القول وحصاته ونزعه الى الانزاع البطين كرم الله وجهه عرق خلافة بغير العدل لا ينبض ونماه بالجد الاسعد الى الجد الاصعد سر خصوصية لم يزل يقسم له من المواهب او فى العطاء ويفرض وفى القطر المغربى آثره الله وللتعميم حذفت له متعلقا واثراه من العلم * والنسب والدولة والصباحة والفصاحة اذ كان ثم غيره منها ص 224
مملقا واستله من غمد الغيب حساما لاعداء الملة حاسما وجعل انف الكفر لا يبرح من ذكره راغما وارسل لديه ارسال العطايا بما يخص ويعم البرايا واختاره لذلك قاسما وجعل بيده الشريفة ميسم السعادة فاذا اسعد عبدا كان له به واسما واورد سيوفه النبوية موارد ورائد عبدة الصليب فلن ترى لهم من باقية واخذهم الله على يده باسرهم ونحرهم اخذة رابية فاصبح الاسلام متوجا منه بعزة الحى القيوم واعداؤه يدعون بالويل والثبور لبوار دولة الاقنوم وتشرف به تحت الخلافة على الممالك المغربية ورميت بسهامه الصائبة اكباد اهل الملة المسيحية فاصبحت ملوكهم يتهاداها الرخم والبغاث وياباها العقبان والنسور فلا احتفال ولا اكترات مفعمة اودية سيول عساكره فى موارد الوغى ومصادره باعراب كم دربوا على حرى اخلاف الحرب ووروى زناد الطعن والضرب ومغاداة ومراوحة للجلاد وهز للصوارم وتثقيف الصعاد من كل مقتعد من عرب الجياد واحسن معتقل من اصم الكعوب بكل رعاف الانابيب بناصرهم من فتاك الاتراك كل قسور قاسر ومن صيد الحقاد يدخل كسروى كاسر وغششهم همام وايهم مقدام جارين بذلك اجيش بحارا وسيولا ومن الدوابل ذيولا حتى تركوا معاقل الكفر قنيصة حابل ونهبة عاجل عاقدين بالعثير من مثار النقع قبة آخذة باقطار الجو مسمعين من صلصلة رعود مقارعة السيوف والاسنة ما ملأ اكناف الدو فيا له ادام الله نصره واقباله وابد له العظمة والجلالة من ملك جر على المجرة اذياله وفات القول مدحا فما الخضم بالنسبة للثناء عليه الا بلالة واستعلى سناه على القمرين فما هما بالاضافة لنوره الا ذبالة ومع ما قدمته ورقمته ومن النسج المهلهل من حيث الانشاء حبرته ألا انى بغير اوصافه الشريفة ما جبرته فلابد من توفية السنة الشريفة فى اهداء السلام حقها وانى ألاحج واصاقب هديها ووفقها فاقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله ألا هو واصلى واسلم على عبده ونبيه ورسولنا سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وشيعته ووارثيه وحزبه سلاما كانما هب من رياض رضوان من بين الحور والولدان نسيمه بل كانما طيب فراديس الجنان خلال الرفارف والعبقرى الحسان شميمه وانهى الى تلك الحضرة المقدسة التى لم تزل على معاقل التقوى مؤسسه الباذخ شرفها بالغر الميامين من آل

ص 225 هاشم وابناء العوانك والفواطم المنقطع درس مبدا شرفها * العلي ليت كل ليث اراد ذلك السؤدد وتوخاه وبحسبي من كنت مولاه فعلي مولاه وكفاني وكل منتهض للحجاج لذلك المقام العلي ما روى لكل نبيء نظير وانت نظيري يا علي وماذا عسى ان القم به فم المعارض من الحجر بعدما روى من قوله صلى الله عليه وسلم من لم يقل علي خير الناس فقد كفر اما الحديث الاول فمشهور ومقبول واما الحديثان بعده فالقول بعدم وضعهما عند مهرة الفن منقول على أن في المحجة البيضاء غنى عن بنيات الطريق فقد علم الناس المفادى بنفسه والموذن ببراءة وآخذ الراية يوم خيبر ولو شئت لقلت وسلني عن مخبآت الفريق وحملة ما انهيه وبالنوع ارسم مبادىء قوادمه وخوافيه ان ادعيتي لذلك المقام النبوى والمحتد العالي العلوى تكاثر وبل الغمام ومتعنجر السجام سيما اذا ارخى اليل سدوله وبسطت الى الله اكف لم تزل عنده مقبولة ولقد وصل الى المقال العديم المثال المزرى نظامه بعقود اللآل فاذا به السحر الا انه الحلال يسكر سامعه بلا حد بيد أنه الجريال لا تبلغ طوامير البطحاء ولو طالت السنة اقلامهم عنان السماء عشيرة او لا تصل قواهم ولو امدتها كل النفوس الناطقة الى تحبير مثله ولو كان بعضهم لبعض نصيره وظهيره ولو ادعى احدان من معجزات احمد صلى الله عليه وسلم ان يمد الله كراما كاتبين في زمن نجله امير المومنين احمد بكتاب كريم على اسلوب قويم يرسله الى لجب قديم من النبعة والصميم لم نكذب دعواه فما من خارق في الامة الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم علاه وما جملني به من شعار او اثار او جررت به على الروض ديلا معطارا فذاك ولا تسأل عن الخبر وسبحان من يرضى من عبده بالثناء عليه وهو منه واليه فكأنه سبحانه لنفسه بنفسه شكر وما شافني به من طلبه الاجازة فالبيت والحديث له وهو في اوج هذه الرتبة الرفيعة المنزلة ولاكن رب أب ارسل الى ابنه على يد عبده عطاء فنقله واليه باءره وحمله وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العبد بجميع ما يجوز لهذا العبد وعنه روايته بشرطه المعتبر عند اهل الاثر وبمثل ذلك مجاز اهل العصر اجازة عامة بعا مليكون ابناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام فانه ايده الله بملاتكته وهو السبب في تحصيل هذا المرام وما برز به من مجلدة جامعة مطنبة واسعة لعل الله ببركة مولانا ييسرها ويجرى بها قلم العناية

ص 226 فيجبرها ويحررها ويرسلها العبد الى حضرة سيادتكم * ولعلها تقع موقع القبول من شريف حضرتكم ومولانا وابناؤه وعطاء حضرته ووزراؤه وكبراء امرته وجنوده واركان دولته في امان الله وحفظه ورعايته ولحظه ما (1) وخطت الاقدار وعبت الهوادر وصبت المواطر احسن تحرير في رابع عشر ربيع الثاني عام اثنين وتسعين وتسعمائة العبد الداعي محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن وممن اجازه ايده الله كتابة

(1) بياض بالاصل .

ورسالة الشيخ الامام، نخبة الفضلاء الاعلام تاج الملة علم الايمة فخر العلماء الجلة قاضي القضاة المالكية بالديار المصرية الفقيه الجليل العالم العلم الفاضل الشيخ بدر الدين القرافي ونص الاجازة بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم الحمد لله الذي بعث اكمل خلقـــه المصطفى احمد وانزل عليه كتابه الكريم فكان اجل مبلغ واحمد واتاه جوامع الكلم وجميـل الارشاد والحكم فابرز القول الصحيح الحسن الاحمد والصلاة والسلام على تلك الحضرة العلية القرشية القاسمية الهاشمية اجل من قدمه الله الحي القيوم الاحد كشف به الغمة وكف به الظلمة ورقاه الى اعلى مراتب القرب واصعد وكمله وكمل به واسعد وعلى ءاله الطيبين الطاهرين اولى السيـادة والسـعادة والقدر الامجد وصحبه الفائزين بمصاحبتــه ومناصحتــه باوفى حال يحمد وبعـد فان واردوات العناية وامدادات الهداية نعم اختارها سبحانه لمن اختاره وقربه فكان مـن اهـل الكرامة والرعاية ومنح قسمها بحسب ارادته كما شاء لمن شاء وهذبه فلا صنع للعبد في بداية ولا في نهاية قسمة حيرت اولى الالباب وحالة تفاوتت فيـــها مراتـب الوصـول والانتساب فوهب جزيل المواهب وذهب بمن سلك به طريق العلم احمد الطرائق واحسن المذاهب واناله زيادة السعادة والمطالب فكان لمحصلي هذاالعلم النصيب الاوفى بما فقههم في دينه وجملهم بجليل المناقب وجعلهم نجوما يهتدى بهم في ظلمات الغياهب وقدمهم وقربهم وانالهم مزايا المآرب فرفلوا في حبرات القبول وحصلوا من ثمرات العلوم الاطايب وبلغوا نجم سولهم لما بلغوا نصح الرسول المجتبى في المشارق والمغارب فهم صفوة اصفيائـه وورثة انبيائه الذين رقاهم بالصعود في منازل السعود الى ارفع المراتب وفضلهم بما فتح عليهم من معاني المعالم وفضلهم ففضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فرفعت اقدارهم الدعوة المباركـــة ووضعت اجنحتها لهم الملائكة فما لهم عـن رضوان الله حاجز ولا حاجب وكفاهم من الله العلي العليم على مر الدهور ★ مزيـــد ص 227
التشريف والتكريم حيث اقامهم شهداء على وحدانيته بقوله شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ففازوا بعزته وحازوا من الكمال فاخر رفعته وقد قيض الله سبحانه وتعالى لهذه العصابة من كل اهل السعادة والاصابة في كل زمن رفع لهم شأنا وانالهم ثوابه حفظا لهذا الشأن واهله وصونا له عن وقوعه في غير محله ونفعا لعباده وارشادا لعباده في ارض الله وبلاده فكان من اجلهم في هذا الحيز شأنا وارفعهم واعلاهم مقامـا ومكانا من انام الانام في امن وامان على مدى الايام ورفـــع عنهـــم حوادث البغي والاثام وانتشر له هذا الذكر الجميل عند الخاص والعام ونظر في رغبته نظر مشفق عالما انه عبد من عبيد الله مكنه من خلقه ربه الله ومولاه فحفظهم باوفى ذمام وسلك بهم مراقبا اقبال الله عليه التام وجاهد في الله حق

جهاده فكان احمد قائم ما اغمد سيفه عن الطغاة اللئام العلم الخافق على رؤوس الانام سيد الاشراف بقية الاسلاف الحائز بجميل الاوصاف ذى العنصر الاطهر والمقام الابهى الاظهر والمجد الاسمى الاسنى الازهر سلامة سيد من تقدم وتأخر امير المومنين القائم بنصرة الدين مولانا احمد المنصور بن مولانا امير المومنين سلطان القطر المغربى وكافله لازالت اعلام عزته باهية التمكين ولا برحت مزايا عزماته مكلوة بعين الله الملك المعين مؤيدا بمدده الباهر المتين مشيدا عزه محفوظا سعده محظوظا باوفى تأمين وانه بهذا الشأن له عند الله اليد الطولى والفضل الاكمل الاوفى ومزيد الاجر فى الاخرة والاولى فان هذا الهدى من هذا البيت الشريف توالى وهم احق من لنشره تولى وقد ورد علينا الامر الكريم من هذه الحضرة العلية السلطانية الهاشمية المحفوفة بعناية الملك الرحيم والخطاب الباهر الفخيم واستدعاؤه الوسيم الى هذا العبد الفقير المقيد بقيود التقصير المنكسر خاطره لقلة العمل والتقوى ولحوق الحال الخطير بابراز سلسلة الفقه الى امام المتقين عالم دار هجرة سيد المرسلين مالك ابن انس الاصبحى ابن عبد الله المدنى الفقيه الممدوح يقول البخارى اصح الاسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه وارضاه وما لهذا الفقير من السند فى الحديث الشريف النبوى حسبما نطق به مرسومه العلى وابانه مكتوبه الجلى بعبارات جليلة النظم بديعة الرسم فاخرة فى جيد
ص 228 الزمان قلائد موشحة بفرائد الفوائد دالة على انه فى الاعتناء بهذا الامر من اعلى المراتب * والمصاعد :

ان وجها يضىء بالعرفان ... نعمة قد زكت من الرحمان
نحمد الله اذ ارانا كمالا ... فيه عز للعلم من سلطان
دام فى عزة وفاخر شأن ... وبعقباه نيل اعلى الجنان

فرأيت امره تشريفا وتكريما واقبالا واجلالا وتعظيما لازال علم الدين به مرفوعا وعلم أمره على الرؤوس محمولا وعلى العيون موضوعا فبادرت لامتثال ما ندب اليه واراده واقبل عليه ورأيت ان طاعته ومخالفته غرم مع ما انا عليه من كثرة الاشغال بالفتوى والقضاء وعدم الخلوص الى القضاء وكان فى هذه الاشارة الشريفة الهاشمية السلطانية فضل مزيد وحال سعيد وذلك أن سلسلة الفقه الى وقتنا هذا لم اقف على من تعرض من مشايخى ومشايخ من الطبقة التى فوقهم الى مالك ولا من حرر هذا الامر ولا نظر فيه وانه لامر يحتاج اليه كل فقيه فكان هذا الخطاب الشريف داعيا الى هذا الحال الجميل والاسلوب الجليل فوجهت الوجهة الى امره الشريف وفق ما طلب ووفيت من مقصده الارب واتحفت حضرته العلية بزيادة باهرة حسنا زاهية زاهرة الفضل والمعنى وهى الاجازة بسورة الفاتحة للفوز ببركتها الناجحة بسند لهذا الفقير بينه وبين من انزلت عليه صلى الله

عليه وسلم وشرف وكرم من العلي الكبير على شريف ذلك الجناب خمس فى المشايخ الاعلام الانجاب وأنه الحقيق بالفوز بهذا السند العالى المستطاب والكمال الباهر العجاب راجيا منه دعوة بظاهر الغيب لافوز بالمجاب وقلت متشرفا باقباله داعيا بازدياد دولته وصولته وجلاله وحفظ مهجته الشريفة وحراسة السادة الشرفاء من اولاده وتمكنه في ارضه وبلاده لنفع عباده

اجزت لمن تفضل واستجار … او بادر لاقتنا خيرا وحازا
وبرز فى سلوك العلم حالا … به من فضل مولاه يجازى
امام كامل عون البرايا … امير المومنين حوى محازا
وذلك بعد تشريفى بامر … وقصد للاجازة واستجازا
فبادرت امتثالا قدر وسعى … ومقتفيا مناهج من اجازا
وقد ابديت حقا لا مجازا … لما صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى … وسلسلة لمن حاز امتيازا
ص 229 بدار الهجرة العليا امام … بما ابداه من فضل مجازا ★
وارجو منه يبذل لى دعاء … بما ارجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغنى مراما … بجنات اراها لى مفازا
واشياخى تبلغهم رضاء … ويوصلهم الى خير مجازا

ورتبت هذا المطلوب على فصلين وخاتمة الاول فى الاجازة بسورة الفاتحة ثم بسند الحديث الشريف وازهاره الفائحة الثانى فى الوصول الى امامنا امام دار الهجرة وسلسلة فقهه الشريف والخاتمة فى الاجازة وذكر مولدى وما يسر الله تعالى من التاليف وانعم به من فضله المنيف وبالله التوفيق والهداية الى سواء الطريق وهو حسبى ونعم الوكيل الفصل الاول فى سند الفاتحة العالية والاحاديث الغالية اما الفاتحة الشريفة فقد تلقيتها عن بلدينا المحدث الرحلة بقية الاوائل جامع الفضائل ولى المعارف وكنز العوارف هو الواعظ الخاشع على ابو الحسن فخر الدين الشهير بلقبه بن احمد الانصارى القرافى الشافعى وكان بينى وبينه من المودة والمحبة الشأن الكبير وله تهجدات مستمرة ومسكنه بالقرافة المشكورة واجازنى بجميع مسموعاته ومروياته ومؤلفاته وما له من منثور ومنظوم وما له فى طريق القدم من السلوك المعلوم وسأذكر مشايخه الآخذ عنهم فى الحديث قرأت عليه سورة الفاتحة واجازنى بما له فيها من السند الجليل حسبما سمعته من لفظه وكتبه لى بخطه وذلك انه قال قرأتها على قاضى القضات شيخ الاسلام محمد بن ابراهيم التتائى المالكى شارح مختصر سيد الشيخ خليل بن اسحاق وتتاء بمثناتين فوقيتين قرية من قرى مصر واجازنى بها وربما قراه من كتابه السلسبيل الفائض

وبجميع مؤلفاته ومروياته قال وقرأتها ايضا على الشيخ العالم الصالح احمد شهاب الدين البلقيني الشافعي واجازني بها وهو قرأها على الشيخ العالم الحجة في مذهب مالك شمس الدين اللقاني واجازه بها وكل من الشيخين شمس الدين التتائي والشيخ شمس الدين اللقاني قرأها على شيخهما قاضي الجماعة برهان الدين التتائي المالكي واجازهما بـها وشيخهما البرهان اللقاني المالكي قال قرأتها على العلامة المحدث علم الدين سليمان مؤدب أدب الجن واجازه بها قال علم الدين سليمان قرأتها على القاضي شمهروتي قاضي الجن واجازني بها وهو قرأها على النبي العربي اكمل الخلق محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وللقاضي برهان الدين اللقائي مـع الجن بعض وقائع متضمنة لمزيد توقير عندهم

ص 230 وامتثال قوله كما هو مستفيض مشهور وذكرت بعضا منها * في غير هذا الموضع وقد اجاز هذا العبد الفقير مولانا وسيدنا امير المومنين حافظ دين الله المتين بما اجازني به شيخي المذكور من هذه السورة الشريفـة والنعمـة السابغة الوريفة وادليته فيها ما وصلني منها وانها رتبة في الذروة العليا للقرب من اكمل خلق الله في الاخرى والدنيا جعلنا الله ممن شملته عنايته وعمته رعايته ووفقنا الى مـا رضيه وسنه واقامنا في اتباع الكتاب والسنة

خصصتك امرا ليس يخفاك شدناه ... فشديدا واداب لجمـع المآثـر
وكن عالما بالعلـم تحمد سـره ... وتلقى رضا البارى بحسن الذخائر
وجد وجد بالنفس في طلب الرضى ... تلاحظ وجه الله في اليوم الآخـر
اما قد رأيت الله اولاك رتبـة ... بها شرف الدنيا ونيل المفاخـر
وذلك عنوان القبول فمن رعـى ... لنعمة مولاه حوى خيـر فاخـر

وأما سندى في الحديث الشريف فقد اخذته عن الجلة من علماء بلـدى واجلهـم في هذا الباب شيخنا الولى الصالح الخاشع الناسك بقية السلف المحدث السند يوسف المدعو جمال الدين ابن شيخ الاسلام قاضي القضات زكريـا الانصـارى صاحب المؤلفات الفريدة في العلوم العديدة كان شيخنا المذكور له القدم الراسخ في التقوى والمجاهدة فـي رضى عالم السر والنجوى على سنن عجيب في الانجماع عن الدنيا واهلها والعكوف على بذل الفضائل في محلها واعانة طلبة العلم بمصفات والده واخذ الحديث عنه لازمته مدة قـرأت عليه من اول صحيح البخارى الى اول كتاب الصلاة وسمعت عليه بعضه مع بعض اصحابنا واجازني بالكتاب جميعه وبجميع ما يجوز له روايته بحق روايته للصحيح المذكور قراءة وسماعا واجازة بجميعه من والده شيـخ الاسلام زكرياء الانصارى الخزرجي الشافعي بحق روايته له قراءة لبعضه واجازة لسائره عن شيخ الاسلام ابراهيم الشهير بابن ابى شريف بكسر الشين المعجمة والراء المهملة المكسورة بعدها مثناة تحتية فاء القدسي الشافعي بحق روايته له سماعا واجازة لباقيه عن شيخ الاسلام ابراهيم القلقشندى بقاف مفتوحـة

ثم شين معجمة مفتوحة ثم نون ساكنة ثم دال مكسورة بعدها ياء نسبة الى قرية من قرى مصر الشافعي مذهبا بحق روايته له اجازة فقط عن الشيخ الصالح القدوة ابي عبد الله محمد بن الشيخ الصالح ابي الحسن على بن نور الدين ابي بكر البكري الصوفي القادري الشافعي ★ وعن شيخ الاسلام عبد البر قاضي القضات محي الدين بن الشحنة ص 231
الحنفي وعن الشيخ الامام العالم كمال الدين ابن حمزة الدمشقي الشافعي وعن شيخ الاسلام خاتمة المحدثين الاعلام ابي الفضل عبد الرحمن المدعو جلال الدين السيوطي الشافعي وعن الشيخ العالم الصالح ابي الجود محمد المدعو امين الدين الشهير بابن النجار بنون وجيم امام جامع الشيخ القمري بمصر ومنهم شيخنا العلم الباهر والعالم الفاخر خاتمة المحدثين بقية العلماء الماجدين ذو الوجه المنير الحسن من ظهرت فيه دعوة جد الحسن صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتي فاداها كما سمعها الشيخ الكامل محمد المدعو نجم الدين بن احمد الغيطي بغين منقوطة فمثناة تحتيه فطاء مهملة فمثناة تحتيه الشافعي المصري مولدا كان نفعا لخلق الله وجابرا للقلوب المنكسرة بلا اشتباه وكان المشار اليه في السنة الشريفة ببلدنا وكان بينه وبين والدى محبة قديمة قرأت عليه بالمدرسة الاشرفية بمصر المحروسة فى علوم الحديث وسمعت عليه بعضا من موطا الامام مالك ابن أنس وبعضا من صحيح البخارى وبعضا من صحيح مسلم بالجامع الازهر بمصر المحروسة بحضور اعيان ذلك الوقت من الفضلاء وصدور الابحاث الجليلة وسمعت من لفظه الحديث الشريف المسلسل بالاولية وسمعت من لفظه ايضا باقي الكتب الستة واجازني بذلك وبجميع ما يجوز له وعنه روايته وكتبه بخطه الشريف وذكر فيها سنده بالكتب المذكورة وذكر مشايخه فى الحديث المسلسل بالاولية وما فيه من الابيات الشعرية شيخ الاسلام زكرياء وشيخ الشيوخ عبد الله السنباطي والشيخ امين الدين ابن النجار المتقدمين والشيخ بدر الدين المشهدى ومن صحيح البخارى شيخ الاسلام زكرياء المذكور والشيخ الامام المحقق الهمام ابو السعود شهاب الدين بن الشيخ الامام عز الدين عبد العزيز السنباطي والشيخ امين الدين ابن النجار المذكور وشيخ الاسلام قاضي القضات كمال الدين ابو الفضل محمد بن على القادرى الشافعي المعروف بالكمال الطويل شيخ الاسلام كمال الدين ابو البقاء محمد بن حمزة الشريف الحسني وذكر شيوخه فى صحيح مسلم شيخ الاسلام زكرياء والسيد كمال الدين المذكورين ومن شيوخه في صحيح سنن أبى داود والسنن المسمات بالجامع الترمذى الشيخ زكرياء المذكور والشيخ عبد الحق السنباطي وفى سنن الترمذى الشيخ المحدث ابى الفضل محمد بن الشيخ المحدث الشهير محمد بن بهاء الدين المهدى ومن شيوخه فى السنن
ص 232 الصغرى للنسائى الشيخ زكرياء والشيخ ابى هريرة ★ عبد الرحمن بن عمر النشيلي

بنون ثم شين معجمة ثم مثناة تحتيه بعدها لام مثناة تحتيه نسبة لقرية من قرى مصر وفي السنن لابن ماجه شيخ الاسلام المذكور وشيخ الشيوخ هو ابو الفضائل عبد الحق السنباطي المذكور ومنهم شيخنا الولى الصالح والعارف الناجح والقدوة الفالح مربى المريدين قدوة السالكين العلم الخافق ابـو عبد الله محمد بن الولى ابى الصفا احمد شهاب الدين بن الشيخ العارف ابى الفضل عبد الرحمن بن الاستاذ الوارث الراسخ والعلم الشامـخ الولى الكبير والمقتدى الشهير صاحب الكرامات الخارقة والاحوال الصادقة والمشاهد الفائقة القطب الربانى الباقى بعض كراماته بزاويته بمصر الى يومنا هذا أبـو الاخلاص محمـد التيمى البكرى الصديـقى الشـاذلى الشهيـر بالحنفى بقية العصابة الشاذلية اعـاد الله تعالى علينا من بركاته وخالـص امداداتـه اجتمعت به بمنزله الكائن بجـوار زاويـة جده المذكور وصدر بينى وبينه محبة عظيمـة وكان بينه وبين والدى صداقة ومودة قديمة قال لى قد اجتمعت مع والدك يوما فى موضع فضمنى ضمة وقع عندى انـها ضـمة وداع وفراق وكان الامر كذلك ولم يقـع بينهمـا اجتماع وكان يبالغ فى حفظ مودتى وخصنى بدعوات وجدت نفعها وكان توجهه الى فوق الحد وقد استجزته له وله علو السند كمـا ستقف عليه فاجازنى بالبخارى ومسلم وجميع ما يجوز له روايته مـن مقـروء ومسموع وحديث وفقه واجازنى بطريـق الشاذليـة بالسلسلة التى قيدتها عنه وقال انها اصـح الطرق الشاذلية واجازنى بالباس الكوفيـــة والعرقية والطيلسان وارخاء العذبة والجلوس على السجادة وتلقين الذكر على طريق القدم ولم ازل ملازما له الى حين وفاته وكان لـه اجتماع كثير على كثير مـن اولـياء مصـر المشهورين بالكرامات وذكر من مشايخه الشيخ الكامل الفاضل عبد القادر الشاذلى أخذ عنه صحيح البخارى عن الشيخ شهاب الدين احمد الشاوى سماعا لبعضه واجازه لباقيه بالمدرسة لكاملية بالقاهرة المعزيـة بين القصرين عن امام الحفاظ ابى الفضل عبد الرحيم بـن الحسين العراقى ومن شيوخه قريبه الشيخ الفاضل ابى الخير خير الدين بن القطـب سيدى محمد الحنفى المذكور قال اخبرنا به الشيخ شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابى بكر الواسطى بحق سماعه له من الشيخ صدر الدين أبى الفتح محمد الميدومى بسنده وقد سـاوى الشيـخ خيـر الديـن المذكور الشيخ الحافظ السيوطى فى الرواية عند الميدومى بواسطة واحد الا ان السيوطى اخذ عن اربعة كلهم عن الميدومى واما الحافظ ابو الفضل العراقى فروى عن الميدومى بلا واسطة ومن شيوخه الحافظ الجلال السيوطى اخذ عنه صحيح مسلم وقرا عليه فهرسـة اسـماء مؤلفاته * وهى نحو مائة مؤلف واجازه بذلك وجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه ص 233 قال وكتب لى خطه بذلك ومن شيوخـه أيضا شيخ الاسلام زكريا المذكور وقال انه اجازه فى ثانى عشر جمادى الاولى سنة 894 والقاضى شهاب الدين الصير فى سنة 9

وكلاهما من تلامذة الشيخ ابن حجر والشيخ نور الدين الاشمدني الشافعي والشيخ محمد بن محمد المدلجي العثماني الشافعي شارح الشفا للقاضي عياض والشيخ الصالح العمري ابو الحسن علي نور الدين بن ابي بكر الفيش الانصاري شيخ زواية المنبولية وقف السلطان قايتباي ومن شيوخ الشيخ نور الدين المذكور عدة من الاعلام باخباره بذلك لشيخنا المذكور حين سأله وهو شيخ الاسلام الحافظ أحمد بن حجر وشيخ الاسلام يحيى المناوي وشيخ الاسلام علم الدين البلقيني والعلامة المحقق جلال الدين والشريف النسابة والشيخ عبد السلام البغدادي والشيخ برهان الدين البقاعي صاحب المناسبات وغيرهم من الاعيان واما شيوخ شيخنا المذكور من طريقة الشاذلية فمن طريقة جده القطب المذكور وهو أنه صحب والده على طريق السادة الشاذلية واقتدى به ولقنه والده كلمة التوحيد ووالده من ابيه المذكور وابوه المذكور من جده القطب محمد الحنفي وجده القطب المذكور من قطب زمانه الشهير بابن الميلق وابن الميلق اقتدى بجده شيخ الاسلام ابي العباس بن الميلق السكندري الاصولي الجدلي وهو صحب واقتدى بالشيخ الولي العارف تاج الدين ابي الفضل احمد بن عطاء الله السكندري صاحب الحكم والتنوير ولطائف المنن ومفتاح الفلاح وتاج العروس ووجد بخط القطب الشيخ الحنفي الكبير المتقدم ابن الشيخ احمد بن الميلق اخذ الطريقة صحبة وتلقيا عن سيدي ابي الدرياقوت العرشي وهو وسيدي تاج الدين ابن عطاء الله أخذا عن الشيخ الولي ابي العباس بن عمر المرسي وهو صحب واقتدى وأخذ التلقين عن استاذ هذه الطائفة الشاذلية القطب السيد الشريف ابي الحسن الشاذلي نفعنا الله ببركاته وهو صحب السيد الشريف والعلم الشهير عبد السلام ابن مشيش بباء موحدة في اوله فشين معجمة فمثناه تحتيه ثم شين معجمة وهو اقتدى بالعوث الجامع السيد الشريف ابي عبد الرحمن الحسن المدني العطار الشهير بالزيات والزيات نسبة الى محل سكنه بالمدينة قال الشيخ ابراهيم المواهبي وهاكذا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية هذا السند شريف عن شريف الى سيدنا الحسن بن علي بن ابي طالب وهو اول اقطابها عن جده المصطفى عليه السلام قال سيدي الولي العارف محمد سبط سيدي ابي الحسن الشاذلي في كتابه شفاء الغليل ودواء العليل ان طريقجدي الشيخ ابي الحسن ع لي الشاذلي ★ ص 234 فبدوها معروف مطروق بين الناس واخرها بغلبة الظن لم يتلقاها من السادة الشاذلية الا القليل والقسم الاول الى الشيخ الزيات المتقدم واما القسم الثاني وهو بقية طريق الشيخ الزيات المذكور فقد صحب واقتدى بشيخه القطب تقي الدين الفقير بالتصغير وفتح القافين منهما وهو الذي سمي بذلك تواضعا وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب فخر الدين وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب ابي الحسن علي وهو رضي الله عنه

صحب واقتدى بالشيخ القطب تاج الدين وهو صحب واقتدى بالقطب الملقب بشمس الدين وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب الملقب بزين الدين القزويني وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب ابي القاسم المرواني وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب سعيد وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب سعد وهو صحب واقتدى بالشيخ ابي محمد فتح العودى وهو صحب واقتدى بالشيخ القطب جابر وهو رضى الله عنه صحبب واقتدى بأول الاقطاب السيد ابى محمد بن الحسين بن على بن ابى طالب وهو صحب واقتدى بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شيخنا ابو الاخلاص محمد الحنفى المذكور وهذه أصح طرق السادة الشاذلية وتفضل واجازنى بها وان افعل ذلك لما طلبه من على طريق التشبيه بالقوم واجازنى بكل ما يجوز له روايته من مقروء ومسموع وغير ذلك من الباس كوفية وعرقية وطيلسان وارخاء عذبة وجلوس على سجادة وتلقين ذكر وحديث واجازنى بما اجازه به شيخه الشيخ الامام العلم الهمام عبد القادر بن محمد بن احمد الشاذلى وغيره من المشايخ نفعنا الله ببركاتهم اما شيوخه من الصوفية فخلق كثير من أشهرهم ابو الحسن على نور الدين النبتيتى بنون ثم باء موحدة ساكنه ثم مثناة فوقيتين بينهما مثناة تحتية ثم مثناة تحتيه نسبة الى قرية من قرى مصر والشيخ شهاب الدين المرحومى شيخ الولى الشهيد ابو السعود الجارحى والشيخ ناصر الدين المتوفى الشاذلى والد الشيخ ابى الحسن على الشاذلى المالكى شارح رسالة الشيخ ابن ابى زيد القيروانى الشروح المتعددة منها شرحه المشهور تحقيق المبانى قال شيخنا وكان والده المذكور من المعمرين صحب خلائق من مشايخ الصوفية منهم سيدى ابو الذهب التونسى والشيخ ابو العباس الحنفى التونسى وسيدى الولى الكبير ابراهيم المتبول وسيدى عمر النبتيتى وسيدى مدين المدفون بزاويته بمصر بطريق بولاق وغيرهم من السادة الشاذلية والوفائية وتلقن الذكر المثلث والمربع على الشيخ ابى اسحاق بن طام بن منصور الشيرازى قال شيخنا المذكور وهو لقن الفقير وله كتاب فى تلقين الذكر وفضله
ص 235 وادابه وشروطه وفى الصحبة والمصافحة واجازنى بجميع ما فيه * وكتب لى خطه بذلك ومن شيوخ شيخنا المذكور فى طريق الصوفية الشيخ ابراهيم المواهبى الشاذلى الحنفى قال قرأت عليه كثيرا من مؤلفاته فى الطريق وعلم واصول الدين ولقننى الذكر واجازنى بخطه قال وشيخ شيخه سيدى محمد المغربى لقننى كلمة لا اله الا الله قال وغير هؤلاء المذكورين من العلماء والصوفية تركت ذكرهم طلبا للاختصار وخوفا من الاطالة والاكثار قال شيخنا الشيخ محمد الحنفى المزبور قد اجتمعت بسيدى ابراهيم المبتول وسيدى محمد بن اخت الشيخ مدين المذكور وحل نظرهما على انتهى كلما فى بعض ما البته فى اجازتى ومنهم شيخنا فى الحديث والفقه وغيرهما الامام العلامة المحقق الفهامة

المدقق بقية العلماء ذوى الرسوخ الحجة العمدة الخاشع المتواضع زين بن احمد الشهير بالجيزنى بجيم مكسورة ثم مثناة تحتيه ثم زاى مكسورة ثم مثناة تحتية الى بلده على النيل تجاه روضة مصر وبين الروضة ومصر بحر النيل كان على حالة عجيبة من هضم النفس والتواضع وتفهيم الطلبة وتحقيق كلام العلماء والنظر فيه بكلام الدقة والتقيد لحفظ مقالهم ومقامهم كان اذا اشكل عليه كـلام بعض العلماء وكان بظاهره يفهم الاشكال يقول هذا من سوء فهمنا ثم لم يزل يجهد حتى يظهر صوابه ويقول كيف حالنا لو تساهلنا فى حق الناس وكان رفيقا لوالدى وابتداء القراءة معه فى مختصر الشيخ خليل على شيخهما العالم الصالح شمس الدين محـمد اللقانى فى يوم واحد وكانا كالاخوين جمعهما الصدق والتواضع والخير والعلم وكان يتحدث بتواضعهما مع انفرادهما فى بلدهما الوالد بالقضاء والاخر بالاقتاء قرأت عليه من اول الموطا الى احاديث الرضاع قراءة دراية واتقان بجودة وامعان ابدى فيها العجائـب وقـيدت عنه خصوصا فى الاعاريب الغرائـب وكان مجلسه يشتمل على فوائد لا تختصر بما يقرأ فيه وكان له صبر على البحث وتحريك الطلبة على التحصيل ويحرص على حصـول المـراد لافهامهم ويرد عليهم بكمال اللفظ كل ذلك طلبا للنفع واجازنى بذلك وبباقى الكتـاب وقرأت عليه بعضا من اول صحيحى البخارى ومسلم والشفـا واجـازنى بالكتب المذكـورة وجميع ما يجوز له وعنه روايته وسند كل عندى ومن اجل شيوخه العلمـان الزاهـران والعالمان الماهران الاخوان الجليلان البارعـان المالكيان الشيخ محمد المدعو شمس الديـن بن حسن اللقانى والشيخ ناصر الدين كان عليهما مدار المذهب المالكى والاول منهما اكبر منا واكثر فقها وكان له قدم راسخ فى الكشف واجتمع بعدد من الاولياء المصريين والمغاربة والثانى اكثر تحريرا وتحقيقا فى العلـوم
ص 236 العقلية ازداد النفع به لطـول عمـره وكـثرة ملازمته ليلا ونهـارا للاشتغال * والاشـغال وكان له صبر جميل على ملازمة الطلبة له من ذوى المذاهب الاربعة بمصر فى العلوم العقلية بحيث صار شيوخ الوقت كلهم طلبة له مـع الجماعة على اهل الدنيا بحيث جـاء وكيـل السلطان الحافظ مصر الى الجامع الازهـر وطلب الاجتماع به للتبرك والدعاء فقال ان عدل عن الاجتماع معى دعوت له والا فـلا وقد كان ابتدأ شيخه هذا بالعلم على اخيـه الشيـخ شمس الدين كما مر ثـم انـه اجتمع باخيه الشيخ ناصر الديـن وحصـل منـه النصيب الوافر فيما قرأه وحضره فيه مـن العلوم وصارت له عنده مكانة وقدمه عـلى بقية طلبته لتدقيقه وتحقيقه ومعرفته بكلام الناس وكان لا يوجه معظم كلامه الا اليـه بحيث كان اذا بحث الشيخ ناصر الدين بعض المواطن يقول له انت معنـا وكان لا يفارق مجلسه قال شيخنا وكان الشيخ ناصر الدين المذكور حقيقا بالتقدم على أهل عصره قلت وقد ادركته وحضرت بعض دروسه فى الفقه من مختصر الشيخ خليل وكان ترد عليه

الفتاوى من الاقطار من الروم وغيرها من اجلاء مشايخ ذلك الوقت ويكتب بخلاف ذلك ويبرهن عليه وكان مجلسه فى غاية المهابة كأنما على رؤوس اصحابه الطير وقد عرفت بهما فى الذيل الذى وضعته على الديباج المسمى بتوشيح الديباج وحلية الابتهاج وتوفى شيخنا المذكور بعد ان حج وزار المدينة سنة 979 واخبرنى ولد اخيه انه عند توجهه الى المدينة المشرفة على ساكنها افضل الصلاة والسلام كان كثيرا ما ينشد (اصبحت نفسى رهينة بين مكة والمدينة)

رحمه الله تعالى وطيب مرقده ومنهم صاحبنا جامع الفضائل ابو الحسن على المدعو نور الدين الانصارى ثم القرافى الشافعى المتقدم فى سند الفاتحة قرأت عليه الفاتحة كما مر وسمعت منه الحديث المسلسل بالاولية والحديث المسلسل بالاتكاء وجانبا من اول صحيح البخارى والباب الاخير منه واجازنى بذلك وبجميع ما يجوز له وعنه روايته وبما له من مؤلفات علمية ورسائل واحزاب صوفية وتقدم اسم مشيخته فى سورة الفاتحة ومن شيوخه فى صحيح البخارى وبقية الكتب الستة وغيرها من الكتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من بقية العلوم الدينية جماعة اعلام منهم الشيخ الجلال السيوطى قال رويته عنه بالاجازة العامة بلا واسطة وبواسطة جمع كثير من تلامذته كالشيخ محمد الشامى صاحب النترة والشيخ شبر موت الحركسى قال وسمعت منه الحديث المسلسل بالاولية ومن اعلى مشايخ الاسيوطى الشهاب الحجازى أحد الشهب السبعة المجتمعين فى عصر واحد وهم اعلى ما عند شيخ الاسلام الكمال الطويل القادرى ★ قال شيخنا المذكور وقد قرأت عليه كثيرا من الحديث واجازنى بجميع مرؤياته وكذا شيخ الاسلام احمد بن النجار واعلاما عنده المسند المعمر شمس الدين محمد بن ابى عمر الحنبلى بسماعه على (1) عبد البارى قال وقد وقع لى رواية الحديث وغيره من سائر المرويات ما عدى الفاتحة من الطريق المذكور عاليا بدرجة قراءة لبعض الحديث واجازة بجميع ما يجوز لى روايته من الشيخ المسند المعمر لما فوق المائة العلامة الفردى قريش البصيرى العثمانى عن شيخه الشيخ المقرى شمس الدين الجزرى عن شمس الدين ابن الخباز عن الامام محيى الدين النووى قال والجزرى المذكور شيخ الحافظ الجلال السيوطى واما شيوخه فى الطريق فقال اعلى مشايخى فيها القطب الربانى ابو السعود الجارحى تلقنت عليه المسبعات واعلى شيوخه شهاب الدين المرجومى عن مدين عن سيدى احمد الزاهد قال وتلقنت الذكر واخذت عن شيخ الاسلام احمد بن النجار المتقدم عن سيدى محمد بن اخت سيدى مدين عنه قال واخذت عن الشيخ القطب ص 237

(1) بياض بالاصل .

الشيخ شاهين الحلولى بالجبل المعظم بمصر عن شيخه حسين جلبى وسيدى احمد بن عقبة وعن الشيخ ناصر الدين اللقانى عن سيدى أحمد بن عقبة وتلميذه سيدى الشيخ الصالح العالم زروق المغربى وروى عن الاول المامه معنى بجمع الخير كله وعن الشيخ جلال الدين السيوطى عن شيخه الشيخ عبد الكبير نزيل مكة ومنهم شيخنا الشيخ المسند المعمر بهاء الدين بن عبد الله بن الشيخ العارف بالله الشيخ نور الدين على العجمى بن اليسفا التركى المعروف والده وجده بالعجمى المعروف بالشنشورى بشينين معجمتين الاولى مفتوحة والثانية مضمومة بينهما نون ساكنه ثم واو ثم راء مهملة بعدها مثنات تحتيه نسبة الى قرية من قرى مصر الشافعى مذهبا كان من اهل الخير والدين سمعت منه الحديث المسلسل بالاولية وهو اول حديث سمعته منه قال لى وهو اول حديث سمعته من اشياخه وكذلك من فوقهم الى ءاخر السند فمن شيوخه الشيخ الحافظ عثمان الديلمى شيخ الشيخ ناصر الدين اللقانى كما سنذكره عند التعرض لذكر السند وشيخ الاسلام زكرياء والحافظ جلال الدين السيوطى وذكر سنده فى الحديث المسلسل بالاولية وهو عندى بخطه فى اجازته لى وسمعت اول الموطا والجامع الصحيح وقطعة من صحيح مسلم وبالسنن الصغرى للنسائى والجامع وأول كتاب السنن لابى داوود واجازنى بذلك للترمذى وسنن ابن ماجه والشفا وكتاب جامع الاصول والترغيب والترهيب والسيرةالنبوية للعلامة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس ودلائل النبوءة بحق روايته عن المشايخ الثلاثة المذكورين بالاسانيد المتصلة المعروفة لهم والاتى ذكرها * فيه وعن الشيخ برهان الدين القلقشندى عن الشيخ عبد الحق السنباطى والشيخ تقى الدين الاوحاقى وعن شيخه وقدوته ومربيه شيخ الاسلام كمال الدين الطويل القادرى وعن الشيخ نور الدين المحلى والشيخ المعمر سعد الدين الدهى والشيخ بدر الدين المسهدى واجازنى ايضا شيخنا المذكور بمؤلفات شيخ الاسلام زكرياء ومؤلفات الحافظ الجلال السيوطى خصوصا الاحاديث الثلاث العشاريات التى اجازه بها شيخه الجلال المذكور وسندها عندى بخط شيخنا المذكور من جملة اجازته لى ومـ ر تقريبا سنة 888 من الهجرة النبوية ومنهم شيخنا القدوة بقية السلف المسند المعمر شرف الدين موسى الشهير بالبلقينى الحنفى قرات عليه من اول صحيح البخارى الى احاديث الاذان واجازنى ذلك وببقية الصحيح المذكور وجميع ما يجوز له وعنه روايته ومن شيوخه المشهورين العلامة جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وقاضى القضات برهان الدين بن ابراهيم الكركى بكافين اولاهما مفتوحة والثانية مكسورة بينهما راء مهمولة ومنهم صاحبنا ورفيقنا فى الفقه محب والدى علم المحدثين صاحب السند المتين الزاكى خلقا وخلقا الباهر بهاؤه عبقا محمد بن الشيخ محب الدين ابن الامام المحبة عين ص 238

القضات الاخيار أحمد شهاب الدين الفيشي بفاء مكسورة فمثناة تحتية ثم شين معجمة ثم مثناة تحتية نسبة الى قرية من قرى مصر كان جده من القضات المشهورين بتنفيذ الحق واظهار سطوة الشرع على الجبابرة وقيل بسيف الشرع عدة وقد عرفنا به في الديباج وكان والد ولده شيخنا في الحديث على حالة حسنة من كمال الدين والخير والصلاح والجميل مع ايتام المسلمين ومعاملتهم بكل جليل مع الذكاء الثاقب وحال حسن جدا قرات عليه اول سيرة شيخه الامام خاتمة المحدثين محمد الشامي الشافعي المسمات بسبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد واجازني بها وبالموطا وصحيح البخاري وما يجوز له وعنه روايته ومن شيوخه في الموطا وغيره شيخ الشيوخ الشيخ شمس الدين اللقاني المتقدم وعبر عنه شيخنا بالقطب والشيخ الامام المعمر الرحلة محمد بن عمر النشيلي والشيخ الصالح ابى حفص عمر العبادي الشافعي شيخ البرقوقية بصحراء القاهرة ومن اشهر شيوخه في البخاري او منهم الشيخ عمر العبادي المذكور بقراءته لجميعه عليه وشيخ الاسلام احمد بن النجار الحنبلي بقراءة غالبة والشيخ المسند المعمر الرحلة الشيخ جمال الدين يوسف السالمي المشهور بالجمل قرأت عليه المجلس الاول منه الى كتاب الايمان واجازة لباقيه والشيخ الامام المسند الرحلة المعمر محمد وهو الشيخ الابودري المالكي والشيخ الامام المسند الرحلة عبد العزيز الازدي بسماعه المجلس الاول

ص 239 منه وذكر ★ شيخنا سنده بما ستقف عليه قال لنذكر بقية السند كما وعدنا في الكتب التي ذكرها اما الموطا فقد تقدم اخذنا له عن شيوخنا المتقدم ذكرهم قال شيخنا الشيخ زين الجيزي وصاحبنا الشيخ محمد القيسي انهما اخذاه عن شيخهما الشيخ ناصر الدين اللقاني قال الثاني انه قرأه بكماله على الشيخ المذكور وبعضه على شيخه النشيلي واجازه به شيخه العبادي كما مر قالا والشيخ العبادي تلقاه عن قاضي القضات برهان الدين ابراهيم اللقاني وهو تلقاه عن الحافظ ابن حجر قال الحافظ المذكور اخبرني به الفقيه نجم الدين محمد بن نور الدين على بن الامام كمال الدين محمد بن عقيل البالسي سماعا عليه قال اخبرني به المشايخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن البتيتي ومحمد بن على بن محمد بن عبد المجيد الملقي وابو الحسن على بن محمد بن عبد القادر الهداني من لفظة قال اخبرنا به ابو الحسن محمد بن الحسين بن عتيق بن رشيق الربعي وعبد المهيمن ابن سليمان بن موسى البكري سماعا الاول سوى من اوله الى قوله الترغيب في الصلاة في رمضان وسوى من قوله بيع المكاتب الى الموطا وسماعا على الثاني لهذين وقال الملقي اخبرنا به زين الدين محمد بن محمد بن ابى الفتوح التلاصي وعبد المحسن بن عبد المحسن في اخرين وقال الهمداني اخبرنا به ابو العباس احمد بن ابى القاسم الصقلي وغيره قالوا كلهم اخبرنا به ابو الفضل عبد العزيز عبد الوهاب بن اسماعيل بن مكي

الزهري انا جدي ابو الطاهر اسماعيل بن مكي بن اسماعيل الزهري اخبرنا به الامام ابوبكر محمد بن الوليد الطرطوشي اخبرنا به ابو الوليد الساجي اخبرنا يونس بن عبد الله بن مغيث الصفار مناولة قال اخبرنا ابو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي اخبرنا عمر ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى اخبرنا ابي اخبرنا مالك بن انس رضي الله عنه بجميع الموطـا سوى ما فاته سماعه على مالك فرواية زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون عن مالك وكان يحيى بن يحيى قد سمع الموطا من زياد بسماعه من مالك قبل ان يرتحل اليه يحيى بن يحيى رحمه الله تعالى انتـهى قـال الشـيخ السيوطي في حاشية الموطـا في احاديـث الاعتكاف في حديث من اراد أن يعتكف وهذا فيما فات يحيى سماعه من مالك في الموطـا فرواه عن زياد بن عبـد الرحمـن المعـروف بشيطون وكان ثقة عن مالك وكان يحيى بن يحيى قد سمع الموطا منه بالاندلس ومالـك يومئذ حي ثم رحل يستمعه من مالك سوى ورقة في الاعتكاف لم يسمعها اوشـك فـي سماعها من مالك فرواها عن زياد عن مالك انتهى المقصود منه هاكذا انقلت هذا السند من خط شيخ شيوخنا شمس الدين اللقاني قال ابن حجر قال لنا التنوخي قـال انـا

ص 240 ابوحيان رجال * اسناده من شيخنا الى مالك فقهاء مالكيون وقال اللقاني قال ابن حجـر واخبرنا بهذا الكتاب غالبا ابو العباس احمد بن عيسى الصقلي في كتـابـه الى دمشـق قالها (1) ابو العباس احمد بن عيسى الصقلي في كتاب الينا من مصر قال اخبرنـا ابو الفضل الزهري بسنده وقال اي الزهري قرأته بمثل هذا متصلا بالسماع ليس في الطريق اجازة على ابن اسحـاق التنـوخي بالقاهرة واخبرنا به ابو محمد عبد الله بن محمد بن هارون وقاضي الجماعة احمد بن محمد زاد النشيلي ابن المحسن بـن العـمار الخزرجي والفقيه ابو محمد عبد الله بـن محمد بن هارون الطاءي اي بزيادة الطاء قال ابن حجر قال قاضي الجماعة المذكور انابه ابو الربيع زاد النشيلي شيخ شيخنا الفيشـي بعد ابي الربيع لفظ الحافظ سليمان بـن موسى بن سالم الكلاعي قال اخبرنا به الفقيه ابو عبد الله زاد العبادي شيخ شيخنا الفيشي المذكور قرأت على ابي عبد الله محمد بن ابي الطيب ابن زرقون قال اخبرنا به ابو عبد الله احمد بن محمد الخولاني زاد الفشيلي ابن عبد الله بن عبد الرحمن زاد العبادي قال اخبرنا ابو عمر وعثمان بن احمد اللخمي زاد اللقاني بعد اللخمي انا ابو عيسى عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي انا عمر ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى قال اخبرني به ابي يحيى بن يحيى انا مالك بن انس رضي الله عنه وقال ابن حجر قرأت على شيخنا ابـي اسـحاق التنوخي عن العلامة امين الدين ابي حيان بن محمد بن يوسف بن علي بن حيان اجازة ان لم يكن سماعا انا ابن هارون بسنده المتقدم ايضا وقال ابن حجر قال شيخنا يعـني التنوخي واخبرنا به آبو محمد بن ابي غالب

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

اجازة انا ابو الحسن بن القبر مشافهة عن ابي عبد الله الحميدي عن ابي عمر بن عبد البر عن سعيد بن نصر بن قاسم بن اصبغ عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى بن فذكره قال انا التنوخي قال انا ابن جبان رجال اسناده عن شيخنا الى مالك فقهاء مدنيون انتهى قال شيخنا القيشي المذكور قال شيخنا الشبلي والابودرى اخبرنا به شيخ الاسلام قطب الدين ابو الخيرمى بن ابى عبد الله محمد الخيضرى والشيخ المسند أحمد بن عبد القادر بن محمد بن طريف بالطاء المهملة وءاخره قال الشاوى بشين معجمة سماعا عليهما خلا يوما في اوائل المجلس الثالث ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى وءاخره كتاب الاعتكاف قال القطب اخبرنا الشيخان الامام الحافظ ابو عبد الله محمد بن ابى بكر ابن ناصر الدين الدمشقي والسيد الشريف العلامة اقضى القضات زين الدين عبد الرحمن بن على ابن زمام الحسن الحنفى سماعا من لفظ الاول لجميعه وقراءة على الثاني لجميعه خلا الجامع قال اخبرنا العلامة المسند شهاب الدين ابو العباس احمد بن عمر بن على بن هلال الربعي المالكى سماعا زاد الحافظ ابن ناصر الدين فقال واخبرنا به

ص 241 قاضي القضات ولى الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد * ابن خلدون الحضرى المالكى قراءة عليه من اوله وانا اسمع من اوله الى العمل فى الوضوء ومناولة الباقية مع الاجازة ح وقال الشاوى اخبرنا به مسند لديار المصرية شيخ القراء ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن عبد الواحد الشاوى مشافهة ان لم يكن سماعا قال هو وابن هلال وابن خلدون اخبرني به الشيخ الامام ابو عبد الله محمد بن جابر بن عبد الوادى ءانش بمثناة تحتيه بعد ذلك مهملة مهمزة ممدودة معجمة سماعا قال شيخنا الفيشي فوقع بيننا وبين المؤلف من طريق الحافظ ابن حجر عن البالسي ثلاثة عشر وعن التنوخي والخراط اثنا عشر ومن طريق القطب الحنصرى والعقفى عن القرطبى احد عشر ومن طريق الشاوى والعقبى عن ابن المعمار عشرة واما سند البخارى فقد تقدم اخذه عن جماعة واخذ شيوخنا كما تقدم الشنشورى عن الحافظ عثمان الديمى وعنه اخذ الشيخ ناصر الدين المتقدم هذا الصحيح وله اعنى الحافظ الديمى فيه طريقان احداهما عن شيخه الحافظ ابن حجر والثانية عن ابن طريف الشاوى عن الحافظ ابى الفضل العراقى كما نبها شيخ شيوخنا العلامة المحقق ناصر الدين اللقانى المالكى اليه ووجدت الطريق الاول بخط فريد وفيه الشيخ احمد بن الشبلي الحنفى معزيا ذلك الى الشيخ ناصر الدين المذكور فى اجازته لامير المومنين المتوكل على الله محمد العباسى قال اجزت له ان يروى عني جميع صحيح البخارى رضى الله عنه بروايتى له عن عدة من المشايخ منهم شيخ الحفاظ فى عصره ابو عمرو عثمان الديمى تغمده الله برحمته قراءة عليه لبعضه واجازة لباقيه قال اخبرنى به جماعة من المشايخ منهم حافظ العصر وفريد الدهر شهاب الدين ابو

الفضل احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمد العسقلانى الكتانى الشافعي رحمه الله تعالى قال اخبرني بـهجماعة من المشايخ ابى اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد التنوخي قال اخبرني به سنـــد الافاق شهاب الدين ابو العباس أحمد بن ابى طالب ابن ابى النعم نعمة بن بيـــان الصالحى قال اخبرنا به ابو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الترمذى قال اخبرنا به ابو الوقت عبد الاول بن عيسى الهروى قال اخبرنا به جمال الاسلام ابو الحسن عبد الرحمن بن محمد بـن مظفـــر الداودى قال اخبرنا به ابو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى قال اخبرنا به ابو عبد الله محمد بن مطر بن صالح ابن بشر الفربرى بفربر قال اخبرنا به مؤلـــف الامام العلامة الحافظ المجتهد الحجة ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى قال الشيخ اللقانى ومنهم اى من مشايخه في الصحيح شيخ الحفاظ والمحدثين الشيخ جمال الدين القلقشندى الشافعي ومنـهم شيـــخ الاسلام والمسلمين ابو اســـحاق ابراهـيم اللقانى المالكى ومنهم الشيخ الامام ⭑ المحقق شمس الدين ابو عبد الله محمد بن قاسم ص 242
الشافعي اسانيدهم الى البخارى بالطريـــق الاولى والطريق الثانى للديمى عن ابن طريف كما رأيت ذلك بخط الشيخ ناصر الديـن اللقانى في اجازة الجنابى الشهابى أحمد بن محمد العبادى سبط الشيخ الفهامة محمـــد الاقفهسى قال اجزت له أن يروى عنى جميع الجامع الصحيح بروائى عن شيخنا الامام فخر الدين ابى عمر وعثمان بن محمد بـــن عثمان بن محمد بن عثمان بن ناصر الديمى الشافعي تغمده الله برحمته بقراءتى عليـه لبعضه واجازه لباقيه بقراءته لجميعه عـلى السند ابى العباس احمد بن طريف الشاوى قال اخبرني به الحافظ ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ورفيقه الحافظ أبـو الحسن على الهيثمى والعلامة المقرى ابو اسحاق ابراهيم التنوخى والخطيب ابو الحسن على بن ابى المجد الدمشقى قال الاول اخبرنا الشيخ ابو على عبد الرحيم بن عبد الله بن يوسف الانصارى عرف بابن شاهد الجيش سماعا قال اخبرنا به المشايخ الثلاثة ابو العباس أحمد بن علي بن يوسف الدمشقى وابو الطاهر اسماعيل بن عبد القوى بن عزوز وابو عمر وعثمان بن عبد الرحيم بن رشيق سماعا عليهم لجميعه سوى من باب المسافر او اخذ به السير يعجل الرجوع الى اهله في اخر كتاب الحج الى كتاب الصيام ومن باب ما يجوز من الشروط في الجهاد ومن باب غزو المرأة في البحر الى باب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فاجازه بسماع الثلاثة من الشيخين ابن القاسم هبة الله بن علي البوصيرى وابن عبد الله بن حمد الارتاحى قال البوصيرى اخبرنا به ابو عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى سماعا وقال الارتاحى اخبرنا به ابو الحسن على ابن الحسين بن عمر الفرا اجازة قالا اخبرتنا ام الكرام كريمة ابنـة أحمد المروزية قالت اخبرنا به ابـــو الهيثـم

محمد بن مكى الكشميهنى ح وقال الهيثمى قرأته على الشيخ مظفر الدين محمد العسقلانى قال اخبرنى به ابو عبد الله محمد بن ابى بكر الصقلى ح وقال التنوخى وابن ابى المجد اخبرنا به ابو العباس احمد بن ابى طالب الصالحى الحجار سماعا قال التنوخى لجميعه وقال ابن ابى المجد للثلاثيات منه ومن كتاب الاكراء الى اخر الصحيح واجازة منه بسائره زاد فقال واخبرتنا به أم محمد وزيرة التنوخية سماعا وقاضى القضات تقى الدين سليمان بن حمزة بن ابى عمر وابو بكر بن محمد بن عبد الدائم وابو المعالى عيسى بن المطعم وفاطمة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفرا قالوا كلهم وكذا الصقلى واخبرنا به ابو عبد الله بن الحسين بن المبارك الزبيدى قال الصقلى والحجار ووزيرة وابن عبد الدائم سماعا لجميعه وقال الباقون حضورا قال التقى سليمان لجميعه وقال المطعم لما عدا من باب تحويل الاسم الى اسم احسن منه الى باب الرقاق لاعيش * الاعيش الاخرة وقالت ص 243
فاطمة لقطعة منه وهى من باب الركاب والعرر للدابة الى باب نسبة اليمن الى اسماعيل زاد الحجاز والتقى سليمان وابن عبد الدائم والمطعم فقالوا واخبرنا به ابو الحسن محمد القطيعى وعلى بن ابى بكر بن روزية القلانس اجازة وزاد الحجاز والتقى والمطعم فقط فقال واخبرنا به ثابت الجندى وعمر بن كرم الدينورى ومحمد بن زهير شعرانه ومحمد بن عبد الواحد المدينى اجازة قال الثمانية اخبرنا به ابو الوقت عبد الاول الهروى سماعا لا (1) اللقى فمن باب غيرة النساء ووجدهن الى آخر الكتاب واجازة لسائره قال اخبرنا به ابو الحسن عبد الرحمن المظفر الداوودى قال اخبرنا به ابو محمد عبد الله بن حموية السرخسى بسماعه هو والكشميهنى اخبرنا به ابو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربرى قال اخبرنا به مؤلفه الحافظ المجتهد أبو عبد الله البخارى قلت تقدم ان شيخنا الفيشى اخذ الصحيح عن الشيخ ابى حفص عمر العبادى والعبادى اخذه عن ابن طريف الشافعى فساوى شيخنا المذكور وشيخه الشيخ اللقانى فى الشاوى فى ان كلا منهما بينه وبين واحد وكذا شيخنا سيدى محمد الحنفى اخذ عن الشيخ عبد القادر الشاذلى وهو عن الشاوى وتقدم ايضا لشيخنا الفيشى المذكور انه اخذ عن الابى درى وهو اخذه عن ثمانية وعشرين شيخا بقراءة الحافظ عثمان الديمى منهم جدى اقضى القضات محمد شمس الدين القرافى تلميذ البساطى واحضرت فيه الفتوى بعده وقد ذكرته فى ذيل الديباج وما له من مزايا وجدى هذا اخذ عنه الصحيح العلامة عبد العزيز السنباطى المتقدم شيخ شيخنا الشيخ نجم الدين الغيطى وجدى المذكور اخذ عن المعمر المسند الشيخ شرف الدين ابى الطاهر محمد بن ابى اليمن عز الدين محمد بن

(1) بياض بالاصل .

التومك الربعى سماعا عليه الثلاثيات مــن الصحيح واجازة لسائره عــن المسندة أم محمد زينب (1) الرحمة بـن عبـد الرحيم المقدسية مكاتبة منها قالت انبأنا عبد الخالق بن الانجب النشيتوى عن ابى بكـر وجه بن طاهر بن محمد السحامى عن ابـى سهل محمد بن احمـد الحفصى عن ابـى الهيثم محمد بن الكشمهينى انا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربرى سماعا قال انابه مؤلفه محمد بن اسماعيل البخارى سماعا عليه مرتين مرة ببخارى ومرة بفربر انتهى ورجاله اقل عددا مما قبله وسند الحافظ السيوطى فيه تقدم اخذ عدد من شيوخنا عنه وقال اعنى الحافظ السيوطى اخبرنا بصحيح البخارى الشيـخ جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن أحمد القمصى بقراءتى عليه من كتاب البيوع والمسند لحب الدين ابو عبد الله محمد بن على الحلبى
ص 244 المعروف بابن الالواحى بقراءتى عليه مـن كتاب * البيوع الى اخـــر الصحيح واجازة منها بسائره قالا اخبرنا به ابو الحسن على بن محمد بن محمد بن ابى المجد الدمشقى سماعا لجميعه قال الثانى الا من قوله باب من خص بالعلم قوما دون قوم الى باب هل يخرج من الميت من القبر بعده فاجازة قال اخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن سعد بـن المنجا التنوخية قالت اخبرنا به ابو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن المظفر بن داوود بن الداوودى قال اخبرنا به ابو محمد عبد الله بن حموية الحموى قال اخبرنا بـه ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى قال اخبرنا به البخارى واما صحيح مسلم فقـد تقدم اخذ شيوخنا المذكورين له ومنهم الشيخ محمد الحنفى قال ارويه سماعـا لبعضـــه واجازه لباقيه عن جماعة من المشايخ منهـم شيخنا الحافظ الجلال السيوطى قال اخبرنا به شيخ الاسلام علم الدين البلقينى سماعا لبعضه واجازة لباقيه وشيخنا العلامة تقى الدين ابو العباس احمد بن الشيخ كـمال الدين محمد السمشى سماعا عليه بمجالس من اوله واجازة لسائره قال البلقينى اخبرنى والدة اجازة انه لم يكن سماعا قال اخبرنا العلامة شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن القحام الشافعى سماعا عليه من اوله الى حديث ابى مسعود الانصارى انبأنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية اثر سما كانت من اليل الحديث الى الحديث الذى فيه خروج الموحدين من النار ما جازه منه للقوت ولباقى الكتاب قال شيخنا البلقينى وانابه غالبا ابو اسحاق التنوخى عن ابـى الفضل سليمان بن حمزة عن ابى الحسن على بن الحسين بن المعتز عن الحافظ ابى الفضل محمد بن ناصر السلامى عن الحافظ ابى القاسم عبد الرحمن بن ابى عبد الله برسده عن الحافظ بن بكر بن عبد الله ابن محمد بن زكرياء بن الحسن الخورقى عـن

(1) بياض بالاصل .

ابى الحسن مكى بن عبدان النيسابورى عن الامام القدوة مسلم قال الحافظ بن حجر هذا السند فى غاية العلو وهو جميعه بالاجازات وتقدم اخذ شيخنا الشيخ نجم الدين الغيطى له عن اخذ شيخ الاسلام زكرياء قال قال شيخ الاسلام زكرياء انا بصحيح مسلم المشايخ الاسمية الحفاظ الرحلة ابو القيم رضوان العقبى وامام المحققين ابو عبد الله القاياني وحافظ العصر الحافظ احمد بن حجر ومسند الوقت ابوذر عبد الرحمن الزركشى قراءة على الاول وسماعا على الباقين قبل القاياني لجميعه وعلى الاخرين اولهما للكثير وثانيهما لبعضه وقال يعنى الشيخ زكرياء وقال شيخنا الثانى انا به الحافظ يعنى ابن حجر قال ابن رضوان وابن حجر انابه ابو الفضل الربعى سماعا لجميعه بقراءة ثانيهما وشيخ الاسلام ابو حفص عمر البلقينى سماعا للاولى لبعضه واذنا للثانى زاد ابن حجر فقال واخبرنا به ابو الحسن محمد الالسى سماعا لجميعه وقال القاياني انابه امام المصنفين
245 ص الشراح عمر بن على الانصارى عرف بالملقن * اذنا قالوا انابه الزين عبد الرحمن بن عبد الهادى الحنبلى سماعا لجميعه الا البلقينى فلبعضه قال انابه ابو العباس احمد بن عبد الدائم بن احمد المقدسى سماعا لجميعه ح قال الزركشى وهو اعلم ممن تقدم انابه ابو عبد الله بن ابراهيم الخزرجى البيانى سماعا قال انابه الشرف ابو الفضل هبة (1) بن تاج الامناء ابن عساكر الدمشقى قال (2) وابن عبد الدائم انابه المويدين بن محمد الطوسى اذنا قال انابه فقيه الحرم ابو عبد الله محمد بن الفضل بن احمد الفرادى سماعا قال اخبرنا به أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودى سماعا قال انابه ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن شعبان الفقيه الزاهد سماعا قال انابه مؤلفه الامام مسلم ولم نستوعبه السنة فى هذه الكتب الثلاثة من طريق شيوخنا المذكورين لتعدد شيوخهم خشية الاطالة .

الفصل الثانى

فى سلسلة الفقه الموصلة الى الامام مالك بن انس امام دار الهجرة رضى الله تعالى عنه من طريق شيوخنا المالكية وسياتى من طريق شيخ الاسلام زكرياء الانصارى المتقدم سلسلة اوائلها شافعية وما بعد ذلك مالكية اما من طريق شيوخنا المالكية فقد اخذنا الفقه عن جماعة من الشيوخ الا ان اكثرهم نفعا لنا شيوخ الوقت فى الفقه وهم المشايخ الاربعة المتقدمون وهم والدى يحيي بن عمر بن أحمد بن يونس الانصارى وينتهى نسبه الى سيد الخزرج سعد بن عباده واشتهر بالقرافى شهرة جده من ذرية المولى الكبير والعارف الشهير عبد الله بن ابى حمزة الازدى نفعنا الله بمدده والشيخ عبد الرحمن الاجهورى والشيخ عبد الرحمن التاجورى والشيخ زين الجيزى نور الله مرقدهم وطيب مشهدهم وهم اخذوا عن عدة من الشيوخ اجلهم فقها

(1) بياض بالاصل .
(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

الشيخ المدعو شمس الدين بن حسن اللقاني المتقدم ذكره وهو اخذ عن الشيخ الامام الورع الزاهد مفتي المسلمين نور الدين السنهوري والسنهوري اخذ عن الشيخ العلامة القدوة مفتي المسلمين زين الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم الانصاري الخزرجي القاهري والشيخ عبادة اخذ عن قاضي القضات جمال الدين عبد الله بن مقداد بن اسماعيل بن عبد الله الاخفهسي المعروف بالاقفص شارح الرسالة والمختصر والاقفهسي اخذ عن الشيخ الامام الحجة الفهامة قاضي القضات تاج الدين ابي البقاء بهرام بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الدميري القاهري شارح مختصر الشيخ خليل وصاحب الشامل والتصنيفات العديدة واخذ الشيخ بهرام عن شيخ المذهب وحامل لوائه الناظر الى مسائله كانها مجموعة بين يديه الواقف على نقول الذهب كانها محصلة لديه الامام الزاهد ضياء الدين خليل بن اسحاق بن موسى القاهري الشهير بالجندي صاحب المختصر في الفقه وشارح ابن الحاجب الفرعي والمتكلم على بعض المدونة وهو تفقه بالشيخ الامام العالم * العامل الزاهد ولي الله تعالى ابي محمد عبد الله بن سليمان المنوفي صاحب ص 246
الكرامات الكثيرة والاوصاف الجميلة الشهيرة وهو تفقه بشيخ المالكية في زمانه العلامة ركن الدين ابن القويع بالقاف فوار بعدها موحدة ثم عين مهملة وبالشيخ الامام شمس الدين محمد بن ابي القاسم التونسي مختصر تفسير ابن الخطيب كذا ذكره الشيخ خليل المذكور زاد الحافظ شيخ الاسلام ابن حجرفي كتابه الدرر الكامنة في ابناء المائة الثامنة في مناقب شيخه الشيخ ابو عبد الله المتوفي ان ابن القويع تفقه بالشيخ يحيى بن الفرج بن زيتون والشيخ شمس الدين التونسي وان حسس وابن الناوس ولما ذكر شيخ شيوخنا الشيخ شمس الدي اللقاني المذكور سنده من شيخه البرهان اللقاني الى الشيخ خليل كتب الى قاضي القضات برهان الدين الدميري المالكي في اتصال السلسلة من الشيخ خليل الى الامام مالك فلم يجبه كذا وجدته بخط سيد الشيخ شمس الدين المذكور وهو عندي لاكن رايت في سند قاضي القضات بمكة المكرمة نجم الدين ابن يعقوب تخريج العلامة المحدث نجد محب الدين المدعو جار الله من الحافظ عز الدين بن عبد العزيز بن الحافظ نجم الدين عمر بن الحافظ تقي الدين محمد بن فهر الهاشمي المكي الشافعي الذي سماه شفاء القلوب لمرويات قاضي القضات نجم الدين بن يعقوب قال بعد ان ذكر السند المتقدم الى الشيخ عبد الله المنوفي وترك بياضا يسيرا ثم ذكر السلسلة من الامام الحجة ابي محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري الى الامام كما سنذكره فكتب على التخريج المذكور الشيخ المحدث الحافظ شمس الدين محمد الداوودي تلميذ شيخ الاسلام الحافظ الجلال السيوطي انه يقال ان المنوفي اخذ من ابن عطاء الله وهو قريب لقرب زمن الشيخ عبد

الله المنوفي من الشيخ ابن عطاء الله انتهى وان كان الشيخ خليل لم يذكره من مشايخ شيخه اذ لا حصر في عبارته قلت قال شيخ شيوخنا الشيخ شمس الدين اللقاني كما وجدته بخطه والشيخ خليل رفيق اخذ معه عن الشيخ عبد الله المنوفي وهو أحمد بن عمر بن علي بن هلال الربعي نسبة الى ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان المتقدم في سند الموطا تفقه على ابن هلال المذكور قاضي القضات احمد فخر الدين المخلطة وفخر الدين تفقه بجماعة منهم الفقيه الجليل ابو حفص عمر بن فراح السكندرى وابن فرح تفقه بجماعة منهم ابو محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى وتفقه ابن عطاء الله بجماعة منهم الاستاذ المحقق ابوبكر الطرطوشي وتفقه الطرطوشي بجماعة منهم العلامة الحجة القاضي ابو الوليد سليمان بن خلف الباجي وتفقه الباجي بجماعة منهم المقرى الاديب ابو محمد مكى بن ابى طالب بن مختار العيشي الاندلسي وتفقه مكى بجماعة منهم الامام القدوة الورع الزاهد جامع مذهب مالك وشارح اقواله ابو عبد الله
ص 247 محمد بن ابى زيد عبد الرحمن القيرواني * صاحب الرسالة وتفقه ابن ابى زيد بجماعة منهم الامام الزاهد احد الحفاظ المعدودين والفقهاء المبرزين ابو بكر محمد بن اللباد بن وشاح اللخمي الافريقي الشهير برائده وتفقه بن اللباد بجماعة منهم امام القدوة الزاهد الموصوف باجابة الدعاء يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكتاني العلوى الافريقي صاحب كتاب اختلاف ابن القاسم واشهب المعروف بابن عمر وتفقه يحيى بن عمر بجماعة منهم الامامان الحجة الزاهد ابو سعيد عبد السلام المدعو سحنون باسم طائر لحدته فى المسائل ابن سعيد بن حبيب التنوخي الافريقي والامام العلامة القدوة ابو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الاندلسي وهما تفقها بجماعة منهم الامامان الجليلان الفقيهان ضابطا المذهب ابو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جناده العتقى المصرى والعلامة الزاهد ابو عمر اشهب ابن عبد العزيز بن داوود بن ابراهيم القيسي العامرى الجعدى وهما تفقها بامام دار الهجرة النبوية الحجة المجتهد ابن عبد الله مالك بن انس رضى الله تعالى عنه وهو تفقه بالامامين ربيعة ونافع وتفقه ربيعة على سيدنا انس بن مالك ونافع على سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وهما ممن اخذ عن سيد المرسلين وامام المتقين وقائد الغر المحجلين الى جنات النعيم ابى القاسم محمد الامين صلى الله عليه وسلم وعلى ءاله الاكرمين وصحبه الطاهرين ورضى الله عن سائر الائمة المجتهدين واما طريق شيخ الاسلام زكرياء فاروى عن شيخنا الصالح المعمر يوسف المدعو جمال الدين المتقدم ولد شيخ الاسلام زكرياء الانصارى صاحب حاشية تفسير القاضي البيضاوى وشارح البهجة وغيرها من المؤلفات الفريدة عن والده المذكور بالسند الاتى ذكره فيه بالكتب التى تذكر فيه فالمدونة قال الشيخ زكرياء اخبرنى بها ابو عبد الله القاياني اذنا

عن ابي حفص الباغيني انبأنا الجمال ابو علي الانصاري عن ابن القاسم محمد بن محمد بن سراج العامري انبأنا ابو القاسم احمد بـن يزيد بن تقي اخبرنا محمد بن عبد الرحمن الخزرجي اخبرنا محمد بن الفرج مولى ابن الطلاع اخبرنا ابو عمر احمد بن محمد بن عيسى عن عبد الرحمن بن احمد التجيبي عن ابيه عن احمد بن خالد بن يزيد عن محمد بن وضاح عن سحنون واما الرسالـة قال الشيخ زكرياء اخبرنا أبو اسحاق الصالحـي اذنا عن الفقيه ابي عبد الله محمد ابن عرفة انبأنا ابو عبد الله محمد بن عبد الخالـق عن ابن عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع عن مكي عن ابي طالب وابي عبد الله بن عابد كلاهما عن ابن ابي زيد واما مختصر ابن الحاجب الفرعي قال اعني الشيخ زكرياء اخبرني ابو الفتح محمد المراعي اذنا عن ابي طلحة الحدادي انبأنا الشريف ابـو أحمـد
ص 248 الدمياطي عن ابي عمر بن الحاجب واما مختصر الشيخ خليل قال ★ الشيخ زكرياء اخبرني به ابو النعيم العقبي وغيره اذنا عن البـدر حسين البوصيري اخبرنا به مؤلفه اذنا وكان خاتمة اصحابه فذكره انتهى فاستفده الخاتمة احسن الله تعالى الخاتمة وجعلها لكل سوء حاسمة وافاض الله تعالى على هذا المجد العالي والشرف الغالي وادام لديه مزايا جليل المسالك وحرس مهجته ودولته وابقى رفعته وصولته بحرمة النبي والملائك وقد تقرر في كتـب الحديث ان السند خصوص هـذه الامـة وشرفها في القديم والحديث وهو نعمة واي نعمة وسلسلة عالية تتصل بمن هدى الى الخير وسنة عالية بالوفاء لمن روى حديثا تقام به سنة او ترد به بدعة فله الجنة وقد اجاز الائمة الاجازة بالكتابة ورغبوا في الانابـة وتحصل الاصابة لتكون هذه الفضيلة الجليلة والحالة الجميلة متصلة غير مقطوعة مرفوعة غير موضوعة وجرى على ذلك أماثل العلماء واجلاء الكمال النبلاء وحازوا من ذلك اجـرا وافرا وثوابا فاخرا وقد طلب من هذا الفقير سلوك هذا الطريق وان اكون من هذا الفريق وسند باهل الاجازة انما قضى الموت مرقى (1) الاماجد وقد رغب ولي الامر أيد الله به الدين وقمع به الطغات والمتمردين في لقاء هذه السلسلة وطلب ازديادها ودوام الخير المستمر والاجر المستقر فتوجهت الى هذا الامر الجليل والشأن الجميل رجاء الاجر الجزيل واجزات جناب عن الاسلام والمسلمين عون المظلومين غوث المكروبين قاطع دابـر المارقين والكافرين مؤيد الدين سيف الله القاطع وسنانه النافذ اللامع ونوره المستبين حضرة امير المومنين مولانـا احـمد سلطان القطر المغربي المومى اليه في طي هذا الكتاب والمنعوت بجليل الوصف المستطاب في هذا الخطاب لازال بعزة الجناب بالفاتحة الشريفة بالطريق المذكورة المنيفة والموطا وصحيـح البخاري ومسلم وباقي الكتب الستة والشفا والسيرة المذكورة وسيرة ابن سيد النـاس وفقه خليـل وجميع مـا يجوز لي وغـنى روايته من مقروء مسموع ومجاز ومناولـة ووجـارة ووصية كتابة مراسلـة وفـروع

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

وأصول ومعقول ومنقول وتأليف وتخريج منقول من كتب تفسير وقراءات وكتب حديث وصحاح وسنن ومسانيد ومعاجم ومستخرات وسير ومغازي واصول وكلام وتصوف ووعظ وتواريخ ودواوين خطبية وشعرية وقصائد مفردة نبوية وغيرها مما هو لى ولغيرى ونظم ونثر وبما لى من مؤلفات لفقتــها وجمعتهــا وضممتها ورتبتها ارجوا من الله سبحانه ان تكون لقاصدها مؤلفه وان لا تكون فى شؤونها مختلفة اذ ليس كل من الف الف ولا
ص 249 كل من تحلى بحلية وصف خصوصا عنــد اختلاف الغرض * ومـا يكـون لهـا عرض والمدار على حسن النية وخلوص الطوية فمنها ما تم وهو شرح مختصر الشيخ خليل الذى سميته عطاء الله الجليل الجامع لما عليه من شرح جميل وحاشية القامـوس المسمـات بالقول المانوس وشرح ديباجة القاموس مؤلف مستقل لم اقف على من كتب على ذلك شرحا مستقلا واجوبة حوادث فقهيـة وهى احكـام التحقيق باحكام التعليق والدرر النفائس فى هدم الكنائس واداء الامانة بالتزام ما اشترط عن اسقاط الحصافة وهى من افراد قاعدة اسقاط الحق قبل وجوبه وقد حصل منهـا الدمامين شيعا ونظمها وزاد التناءى اربعـا وكملت على ذلك الى ان اوصلتها ثلاثيـــن ونظمتها وشرحتها والدرر المنيفة فى الفـراغ عن الوظيفة والدرر المنثورة فى هبة السيد لام الولد والمدبرة الى غير ذلك مـــن الاجوبـة التفسيرية وغيرها مما وقع فيه البحث بين فضلاء بلدنا ومن ذلك هداية السالك بمعرفة شراح مدونه الامام مالك وذيل الديباج وحلية الابتهاج تكملة طبقات ابن فرحـون ومـــا شرعت فيه وارجو الله سبحانه اتمامه شرح الموطا وقد رايت الإمام فى النوم فى واقعة طويلة وسألته قراءته فاجاز لى ذلك وشرح التهذيب وجل القصد منه تعييـن المشهـور خصوصا ما ذكره الشيخ ابو الحسن الصغير من الخلاف فى تقييده المشهور وبعض تقاييد على اوائل ابن الحاجب والمذيل على حاشيـة الحلبى لسيرة ابن سيد الناس وهى حاشية جليلة وبهجة النفوس فى المحاكمة بيـــن الصحاح والقـاموس فيـما نسبـه صاحـب القاموس الى الجوهرى من الوهم وغير ذلك من منثور ومنظوم وسائر ما يصح اسناده الى عما تلقينه عن اساتذتى وشيوخى واولياء تمكنى ورسوخى مما يصح اسناده اليهم من معلومات او تتوقف فيه الرواية عليهم مــن مقاداتهم ومولدى فى ليلة السابع والعشرين من رمضان عام تسع وثلاثين وتسعمائة كما سو بخط والدى واسئل الله لى حسن الخاتمه ولمن دعى لى بها اجازة عامة مطلقة تامة بشرطها المعتبر عند اهل الاثر متلفظا بها عند كتبى لها ومتبعا سنن الاكرمين من اهلها وقلت :

ولو كان علمى شربـة لسقيتـه — وبالغت فى فعلى لتحصيل قصده
ولم لا وقد جاء الزمان بمثلــه — ورغبته فى العلم مـد لسعـده
فدم وابق وانشر مكرمات جليلة — وصل واستطل وارغم عدواً بصده

بقيــت بقــاء نستمد ظــلالــه ودمت جمالا للزمــان ورفـــــده

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب ربنــا اغفــر لـنا ولاخــواننا الذيــن سبقونا بالايمان ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ربنا * عليك توكلنا واليــك انبنــا واليك المصير اللهم انى اعوذ بك من علم لا ص 250 ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشفع اعوذ بك من شر هؤلاء الاربع اللهم انى اسئلك ولهذه الحضرة العلية توفيقا فى العلم والعمل يستمر اقباله واسعادا يحفظنا من الخطا والخطل يتوالى اجلاله واقبالا من فيض الفضل العـلى يزيد نواله ويزين كماله وخاتمة تبلغ الى السعادة الاخروية وحالـــة توصل الى الاستنــاد الى جنــاب الحــضرة القاسمية المصطفية ورتبة فى جنات النعيم وفى حال (1) ولى ذلك والقادر عليه والمرشد الى الخير والسابق اليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد امام المرسلين وخاتم النبيئين وعلى جميع الانبياء والمرسلين وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين الاكرمين وكان الفراغ منهذا التقريروالتحرير فىاوائل جمادى الاولى سنة (1000) الف من الهجرة النبوية الهاشمية قال ذلك وكتبه العبد الفقير محمد بدر الدين بن يحيى بن عمر بن أحمد بـن يونس الشهير بالقرافى المالكى من ذرية ولى الله القطب الكبير عبد الله بن ابى حمـزة الازدى نفعنا الله تعالى بامداداته وخلواتــه ءامين ءامين .

ذكر منظوماته أيده الله وأدبياته الرائعـــة

أقول ان هذا الامام ايده الله تعالى وان كان فى سائر العلوم علما تأتم الهدات به فلا كفن الادب فهو الروض الذى لاتزال طيور أفكاره صادحة على أريكة وشموس احسانــه بازغة من فلكه وروحه الزكية سارحــة فــى رياضة كارعة فى حياضه لا تكاد دواوينـه تفارق راحته ولا يروى فى غير واديه انسه وراحته حتى تملأ من حفظ اللسان وتضلـع واشرق من ثنيات الانسان وطلع وجلا فكره كل مخدرة تستلب قلوب البرايا لاجرم هو ابن جلا وطلاع الثنايا فهو ايده الله اخذ من شرف الشعر باسمه وتعرف على حكمه آية فى قرضه ونقده وحله وعقده حسن الاختراع لطيف التوليد غريب المنزع قد نازع راية السبق فى هذا المضمار فحول الخلفاء والامراء والابناء من قومه واسرته من ءال على والعباس ومروان كالرشيد بن المهدى والواثق ابـن المعتصم وعبـد الله بـن المعتـز العباسيين وسليمان بن الحكم المروانى الخليفة الـذى كان بقرطبة وتميز بـن المعتز مـن الشيعـة الخلفاء بمصر ولئن تقدموه ايده الله زمانا فما تقدمون احسانا بل ربما كان أسلس عنانا واحد لسانا وسنانا والطف اشارة واجزل عبارة بالفاظ لو مازجت البحر لاعذبته ومعان لو واجهت دجى اليل لازاحته وسيشهد لمـا ذكرت شاهد عدل مما اجريه * من كلامه ص 251 الذى يعد من السحر وله الانفراد بالبراعة فى علم المعمى من فنون الشعر ومعرفة طرقه

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

واسمائه والقابه وهى طريق يدق على الخواطر سلوكها ولا يهتدى اليها من العقول الا ملوكها وقد رأيت ان اعول فى اثبات ما له من ذلك ايده الله وترتيبه على تقييد شريف بخطه الكريم وقد تكلم فيه على بعض مآخذه والموازنة بين كلام القوم وكلامه واذا انتهى الى بيت من ابيات المعمى شرع بتفسيره لاهل الادب بابه حتى يطّلعوا على ما اشتمل عليه من المحاسن ويعلوا بذلك فضل اهل البيت وقد قسم ايده الله المنظوم المرتب الى الابيات المزدوجة والمثلثة والمربعة والمقطوع ونصه بسم الله الرحمن الرحيم قال ايده الله من أوليات شعرى ما قلت فى وردة مقلوبة بين يدى محبوبة

ووردة شفعت لى عند مرتهنى   راقت وقد سجدت لفاتر الحدق
كأن خضرتها من فوق حمرتها   خال على خده من عنبر عبق

ومن يعلم الخال العنبرى الذى يوضع على الخدود يعلم عقم هذا التشبيه ولى وصف رقيب ملازم :

رقيبى كأن فى الارض مرآة شخصه   فاين تولى الطرف منى يراه
مقيم بوجه الوصل حتى كأنما   وصالى هلال والسواد صداه

وفى غير ذلك المعنى :

ايا روضة ضنت على بزهرها   ولم يتلق ناظر اى سناك
ايبحى لنفسى من شذاك بقاءها   اذا فت طرفى على انفى يراك

وهذا ماخوذ من قول الشريف الرضى:

عار صار فى ركب الحجاز وسله   فمتى عهدى باكناف جمع
واستملا حديث من سكن   الخنيف ولا تكتباه الا بدمعى
فانى ان ارى الديار بعينى   فلعلى ارى الديار بسمعى

وهو ماخوذ من بشار قوله :

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم   الاذن كالعين توفى القلب احيانا

وانت اذا تأملت هذا وجدتنى اقنع بالقليل من الرضى وبشار وذلك ان من يحدثهما يصف لكل منهما حبيبه واين هو وباية حالة تركه فيتعلل بذلك وقد قيل

يكفى المحب من الحبيب قليل   وينوب عن شخص الحبيب خياله

ص 252 انه لم يكنه فانه تمثيل * وما متعت به انا لا يغنى فتيلا وما هو الا كما قال الارجانى :

سال الصدى عنه واصغى للصدى   كيما يقول فقال مثل يقاله
ناداه اين ترى محط رحاله   فاجاب اين ترى محط رحاله

وقد علمت أن الشم انما يحصل بواسطة تكييف الهواء المتصل بالخيشوم بتكييف

الرائحة لا بطريق نقل الرائحة من ذى الرائحة الى الهواء لاقتناع انتقال الاعراض وقولى ابيحى لنفسى بقاءها التى هى الرائحة ولا بقاء لها بغيره ليس كقول الرضى ولا تكتباه الا بدمعى ومن المزدوج ايضا :

علــى جــدول غطــت بشعرهـــا   ليلا يرى الشمس الرقيبة لى طرف
فبت ارى فى جدولى بدر وجهها   غريقا ونقطات العبير به كلـــف

ومنه وهو فى التجنيس المركب :

لما ناى المحبـوب رق لى الـدجـا   واتى يعللنى بزهـر كواكبـــه
اول غراب الليل ودك ياحشـا   البين مرءى الصباح كواكبـــه

ومنه ايضا وقد جرى ذكر بيتى الـواثق وقوله ولو درى حل به الويل :

طرقت حماه والاسـود فوادربـه   فتولى فى الظبا وهـــو يبعـــد
فعلمت آساد الثرى كيف تقـــدم   وعلم غزلان النقى كيف تشـــرد

وفى طريق التعمية فى اسم نسيم :

يا هلالا طلوعه بين حجـــبى   وغزالا كناسه بيـــن جنبـــى
ان سهما رميت غادرهما لـــو   تناهى ما شك آخـر قلبـــى

فقولى ان سهما تنصيص وغادر هما اسقاط وهو اشارة لاسقاط هما مـن هـذا الاسم وقولى لو تناهى انتقاد والانتقاد هـو اشارة الى الكلمة ليوخذ جـزء الاسم المطلوب كأن يذكر الوجه او الصدر او التاج الصافى والرأس ويريد به الحرف الاول من الكلمة او يذكر القلب والجوف والحشى والخصر ويريد به الوسط او يذكر الآخـر والمنتهى والختام ويريد به آخر الكلمة فقولى لو تناهى معناه انه اخذ لفظة هم غير متناهية ايضا اردت باخر قلبى الياء ايضا لتسميـــةفبقيت الميم من هم وقولى ما شك آخر قلبى وهو ان تذكر الاسم وتزيد المسمى او تذكر المسمى وتريد الاسم وقد تم الاسم واعلم انهم لم يشترطوا فى استخراج التعمية بطريـــق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها بـــل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظـــة هيئتها الخاصة فاذا وقع ذلك فمن المحسنات★ ص 253
ويسمى العمل التديل وفى اسم غزال وهو ما جمع بين تعمية ولغز : واملد مطوى الحشا زال ردفه فلاّ خصر الا ان تصورته وهما :

بنصف اسمه يرمى القلوب وعكس   ما بقى ابدا اذن المحب به حمـا

فقولى املد اردت بـــه بعمل المترادف غصن مطوى الحشى انتقاد وزال ردفه قضيب به عرضين ازلت به النون بعمل الاسقــاط الباقى من غصن بعد طى الصاد التى بوسطه واثبته بموضعه بعمل الانتقاد واوضحت ذلك بقولى فلا حصر وان كنت لا احتاج اليه ليلا يكون فى البيت شىء خارج عن التعمية ومنهفى اسم شلاف :

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

واحور وسنان الجفون كأنما سقي لحظه من ريق فيه يقرقف
نضر صارما لافل صارم لحظه تزايد منه منذ سل تلادف

فقولى تلادف من طريق التسمية وفي العمل التذييلي وهو ان يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها وهو من المحسنات كما سبق

من شقاقي ققصته وهو خشف لم أقل ف ان قلت فات فهمت
املك ممنمفه تحلل خصر وثنى عن حبه ما عدلت

فقولى املد اردت الالف بعمل التشبيه وتحلل خصر منه انتقاد اردت بالخصر وسط لفظه منه وتحلله ان ينحل السكون الذى على النون وقولى وتثنى اى الالف من التثنية الا التثنى فتم الاسم بحركاته وعدده ومنه أيضا ولها حكاية :

وصفوا اشتياقى للحبيب وسرهم قول الحبيب انا انافيه
قلبي له حجر فقلت مغالطا : للحاسد المؤذى انافيه

وفي هذا البيتين عدة من المحسنات غير التعمية منها جناس التورية المسمى عندهم بالملفق وجدوه بانه يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين وهذا هو الفرق بينه وبين المركب وقل من فرق بينهما ومنه الاستخدام وعهدى بالفقيه على بن منصور الشيظمى تعرض الى شرحها بكراسة والتعمية فى هذين البيتين بالعمل الحسابى وهو كثير الا ان هذا العمل احسب ابا عذرته اذ لم أره لغيرى ومادة التعمية فيه انا انافيه قلبي له حجر فقولى انا انافيه اضرب انا فى هو قولى فيه نص فى الضرب ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك بـ وقولى قلبي له حجر بعمل القلب يصير رجح فصار المجموع هياني وحقك يرجح وفيه التورية ⋆ وهيماني وحقك الخارج من هذا ص 254
الضرب فبصيتكم بالواشي وهو من المحسنات ايضا اعنى قوله له وحقك وتصلح ان تسمى هذه التعمية بالافتنان لان الافتنان عندهم ان يفتن الشاعر فياتي بفنين متضادين من فنون الشعر فى بيت واحد وهذا وقع التضاد فيه فى كلمة واحدة فظاهر انا انافيه يضاد هيماني وحقك يرجح الذى يخرج بطريق الحساب فافهمه ويمكن استخراج تعمية اخرى من قولى للحاسد انافيه ومن المزدوج ايضا وفيه التورية .

ان يوما لناظرى تبدى متملى من حسنه تكحيلا
قال جفني لصنوه لا تلاقى ان بيني وبين لقياك ميلا

ومنه ايضا :

هدب الجفون بصحن خدك سجلت ولدى الهوى زكتهم عيناك
فقضى الهوى جور السكرى زورا شهدت لهم انى على مضناك

ومنه وفيه التورية :

بستان حسنك ابدعت زهــراته ... ولكم نهيت الحسن فيه فما انتهى

وقوام غصنك بالمسـرة ينثنــى ... يا حسنــه زمـانـة للمشتهــى

ومن الابيات المثلثة قولى وقد قطفت وردة من روض المسرة فى زمان النرجس

وافى بها البستان صنـوك وردة ... يقضى بها لمـا مطلـت وعــودا

اهدى البهار محاجرا وأتى بهــا ... فى وقته كيـما تكــون خدودا

فبعثتها مرتـــادة بنسيمهــــا ... نثنى من الروض النظير قـدودا

ومنها ايضا :

لى حبيب يأتى بكـل غـريب ... هو عندى منـكر ومعــرف

لست أشكو لصيرفى ونحوى ... انه لى نحـى وفى تصــرف

فعملــه فـى لازم متـعـد ... ومـزيـد مجـرد ومضعــف

ومن الابيات المربعة :

تبدى وزند الشوق يقدحه النوى ... فتوقد انفاسى لظاه وتـضــرم

وهش لتوديعى فاعرضت مشفقا ... على كـبد حـرى وقلب يقسـم

ولولا ثواه بالحـشى لاهنتهــا ... ولاكنــها تعزى اليـه فتكــرم

فاعجب آساد الشرى كيف تحجم ... على انه ظبى الكناس ويقـدم ★ ص 255

ومنها ايضا :

تحالفت منـه عينـاه الى سبـب ... كان اتفاقهما بـه عـلى عطــب

فحدقة العين تقصينى وتؤيسنى ... واللحظ يطعمنى فيه ويسخر بى

اـكوا نهاى وشوقى وافتراقهما ... فى امره وكلاذا زاد فى تعـبى

ان طعت ذاك فمن لى فاتنى ارب ... او طعت هذا فمن لى فاتنى حسبى

ومنها ايضا :

لا وطرف علم السيف فقــد ... وقوام لقنا الخــط تهــد

ووميـض لاح لمــا بســمت ... فارتنا منه درا او بــــرد

ومنها ايضا :

ما هلال الافــق الا حاســد ... منه حسنـا وعـلاء وغيـــد

ولــذا عـــاش قليلا ناحـلا ... كيف لا يفنى نحولا من حســد

ومن مقطـوع :

من عنبر الشحرام من مسك دارين ... بلى ومنه نسيمـات الرياحيــن

مهفهف ان نثـنى قلـت مقتضب ... من قضب نعمان او من كتب بيرين

ذنبـى اليـــه ولا ذنـب محبـته ... لاجلها بسهام اللحظ يرمينــى

اما اميجلة ظلما رضيت بــــه	لو انـــه دام منه كان يكفيـــنى
معذب قد حرمت النـــوم بعدكم	فانعم بنوم هنى غـير مفتـــون
(1) على ورد ذاك الخد برق	فم يعوض الخد من ورد بنسرين

توقيعاتـــه أيـــده الله

كانت تصدر عن مولانا امير المومنين ايده الله توقيعات نبيلة تتيه بها الرقاع وتتهاداها الاقطار والبقاع يرمى بها الى الاغراض فيصيب فيها الكلا والمفاصل باوجز لفظ وارشـــق عبارة فمنها ان مولانا الهمام كافل الامة بعد الامام بادى الغرر فى حياه الليـــالى والايـــام مولانا الامير الاجل الاكمل الاصيل مولانا ابا عبد الله محمد الشيخ المامون بن امير المومنين وولى عهده كتب الى ولانا امير المومنين ايدهم الله تعالى ايام مخيمهم بمحلتهم السعيـــدة بظهر الزاوية من ساحة فاس المحروسة في عام تسعيـــن يفاوضه فى امر اوقف نفوذه
ص 256 على اذنه الكريم وموافقة رأيه الشريف * وكان في الرقعة والله تعالى اعلم ان امر مولانا امير المومنين بذلك ووافق فوقع له مولانـا الامام امير المومنين ايده الله تعالى بضمير المتكلم المعظم وهونا واثبت امام وافق معناه وافقنا فلم ندر ساعتئذ بايهم ايدهم الله تعالى نعجب معز عبيدهم ولا من ايهم حماهم الله تعالى نتعجب امن حسن توقيع مولانا امير المومنين وايجازه ام من ذكاء مولانا ولى عهده اعزه الله واهتدائه بديهة الى فهمه وهو على ما كان عليه حينئذ من صغر السن ولله در من قال صغيرهم عند الانام كبير ومنها ما وقع به ايده الله تعالى وخلد ملكه لسكية صاحب السودان (999 هـ) كان لما عقد له مملوك الجناب العالي الامامى جوذر باشى السلم من بعد مغالبته والايقاع به وبجنوده وتشريده عن كاغوا قاعدة مملكته حسبما قدمنا وكان السلم معقودا على مال يبذله سكية وضريبة ضربها عليه المعظم جوذر باشى ورفع شأن السلم الى مولانا امير المومنين ايده الله فوقع لسكية بقوله تعالى أتمدونني بمال فما ءاتنى الله خير مما ءاتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون فكانت العاقبة كما اقتضى التوقيع الكريم ومنهـا ان اديبا يعرف بعلم الدين الخليلى كان ورد على ابوابه الشريف مـن البلاد المشرقيـة مستجديا ومسترفدا ولما ازمع القفول لبلاده مملوء الحقائب موفى الرغائب انشد عنـــد الوداع من نظمه بين يدى مولانا امير المومنين ايده الله تعالى :

اسير عنك ولى فى كل جارحـة	فم يحدث عـن احسانكم عجبـا

(1) بياض بالاصل .

لا نلت قصدى اذا ما كان فى أملى   أكون فى خدمة المنصور ان رغبا
فان رضى بى فيا فخرى ويا شرفى   وان ابى الملك المنصور واحربا

فوقع له ايده الله على لفظة رغب رغبنا فيك وعلى أن رضى بى رضينا بك وعلى أن ابى اردناك ومنها انى رفعت الى جلالة العالى ايده الله تعالى مرة رقعة اشكوا لفضله العميم بعض ما أهمنى من امور دنياى فبرز لى توقيعه الشريف ايده الله تعالى ببيتين فى نظمه البارع :

يا كاتبا اذا كتب   غرس روضا ذا فنن
ان جوابى الذى يشكو   دناه اردد حزن

ص 257 وانت اذا تأملت هذا التوقيع الشريف وجدت بيتيه عامرين بمحاسن جمة * اما اولا فلدلالتهما على شرف القائل فان كل من له ذوق سليم يفهم أن هذه نفس ذى عزة وسلطان وعلو شأن وهمة من شأنه أن يشكى اليه وتعرس قلاص الامال لديه لما تدل عليه قرينة ان جوابى الذى يشكو ادناه من العظمة والجلالة والعز العريق الاصالة واما ثانيهما فلما افاده قوله اردد حزن من مواجهة الشاكى بالمواساة والتسلية وهذا هو الشأن فى الشكوى الى ذى مروءة فكيف بسبط النبوءة واما ثالثا فلما يدل عليه مجموع البيت الثانى من كرم قائله ايده الله وسعة بذله لما تقرر ان الموصول من معيار العموم فهو بذلك وعدمه ايده الله تعالى لكل من يشكو الدنا كائنا من كان برد الحزن عنه ودفع الهم عن ساحته بالمرادف الذى هو درهم الملغز فيه وما كفاه ايده الله وخلد ايامه حتى اكد الوعد بالادات الدالة على تحقيق الحصول على الامنية وتمام البغية الهنية وبيان اللغز الذى زمله ايده الله تعالى بشعار التورية المركبة فى الاصل ان قوله اردد يرادف در حكاية لقول العامة وحزن يرادف هم فحصلت التورية المركبة فى درهم برمته وفى دورهم مفككين وهذا من السحر الحلال ونكتة الدرهم لا يهتدى لصوغها الا من صاغ الله جوهره النفيس من اطيب المعادن واشرف العناصر ومحاسنه ايده الله فى هذا الباب كثيرة سئل الله تعالى ان يزيد مقامه الشريف تماما على الذى احسن .

ذكر تصانيفه وتئاليفه

كنا وقفنا بما اوردنا من علوم مولانا أمير المومنين ايده الله لتبقى الاطلاع عليها الراية والعلم واوقدنا المسارين اليها فى دياجى نفس هذا الكتاب نارا على علم وعجلنا لوفد أهل الادب من القرى الذى قدمنا من منظوماته الرائقة ما تغدوا به ارواحهم اللطيفة وتستطعم حلاوته اذواقهم السليمة وءانالان ان اجمع ارباب المعارف اجمع على موائد مؤلفاته الكريمة التى تشبع نهمتهم ويحتقرون عندها نعمتهم فاقول ان مولانا الامام امير المومنين ايده الله لما امتلات حواصل تحصيله من درر الكلام وملك

الدقيق من حر النضر والنظام فاصبح يتصرف فيها تصرف الملك المقتدر ويصرفها الى ما يشاء
من الانشاء فيبتدر وكان بما قلد مع ذلك من رعاية الخلق وسياسة الغروب والشرق
ومارس من الحروب وكابد من الاهوال والخطوب وعاني من انتظام الممالك بين
الشروق والغروب واقعد الناس بسياسة الملك واعرفهم بنظم ذلك السلك ومن اعلم
ممن تنثال على بابه امور العجم والعرب والسودان والروم والترك تسامت همته
ص 258 الشريف ايده الله ★ الى تدوين كتاب في علم السياسة ودعاه خلد الله دولته الى تخبيره
واجراء جياد الاقلام في ميادين تحريره مقصدان سنيان احدهما ان في الاشتغال
بذلك شغلا بمصالح العباد وحياطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة لتحصين الحصون
واختطاطها وتشييد المعاقل وتوطيدها وتعبئة الحروب ومكائدها والاتها وخدعها وانواعها
والحصار والاته (1) وادواته ومعرفة انواع مدافع القذف والرجم واسمائها والقابها
وكيفية عملها طولا وقصرا وخفاء وتفريع ذلك عما يقتضيه غرض الرمي الى البعد او القرب
او الى السماء او الى الارض او الى الاستقامة او الى الانحراف وتحت التي يرمى بها شواظ
النار وتعداد انواعها وقسمتها الى الحجرية والمعدنية وغير ذلك مما تقتضيه السياسة
العلمية حتى في اقامة الحدود وافراديات لذكر ماخذها من الشرع وانتزاع اقوال
العلماء فيها من الكتاب والسنة لا كمثل من تصدى من الملوك الى التصنيف فيما هو
من نوع البطالة في حقه بالنسبة الى ما هو اوكد من مصالح الخلق كما فعل المنصور
يعقوب بن يوسف بن عبد المومن من خلفاء الموحدين في العكوف على تصنيف كتاب الفه
على مذهب امامهم في نفس الرأى واخذ الناس في سائر الاقطار بحفظه والعمل به كما هو
مشهور فكان اشتغاله بذلك عما هو أهم من مصالح العباد محض بطالة لوجود من هو
اقعد به واقدر عليه من علماء زمانه والمقصد الثاني انه ايده الله رءا كل من تعرض الى
التدوين في هذا الفن قصاراه الوقوف عند السياسة العلمية الراجعة الى المصطلح في
الوزير والنديم والمشير وتنمية الخراج والعدل في الرغبة وسيرة الملكة في الموكب والمركب
والملبس ونحو ذلك مما تعرض اليه السلطان ابو حمو من ءال زيان ملوك المغرب الاوسط
في كتابه المسمى بواسطة السلوك وكل اكتفى بالقول واضرب صفحا عن العمل ولله
در من قال نحن الى امام فعال احوج منا الى امام قوال فارى ذلك مولانا امير المومنين ايده
الله ان يجمع بين الفائدتين ويفوز بالخصلتين وسمى ايده الله تعالى هذا التاليف الشريف
بكتاب العارف في كل ما تحتاج اليه الخلائف واستهل براعة خطبته الشريفة بما هو اشرق
من مطالع البدور وابهى من شموس الخدور ورأيت أن املى الخطبة الشريفة بكمالها ليعلم
منها موضوع الكتاب ونصها نحمدك اللهم على ما اثلت من رياسة وعلمت من سياسة
وذهبت من ملك ونظمت من سلك وكفيت من اعداء وهديت من ءاراء ونصلي على مبلغ

(1) بياض بالاصل .

انبيائك وخاتم انبيائك المؤيد باهل ارضك وسمائك من به اقمت لنا على خلقك الحجة وبلسانه الصادق نهجت لهم فى اتباعنا الحجة صلاة تكون لهم كفاء ولمجده السامي وفاء

ص 259 وبعد * فبنا حاجة الى تكميل نفوسنا فى قواها البشرية باستعمالها فى حقائق المعلومات العلمية والنظرية وعلوم الحكمة العملية اولى بنا فيما نحن فيه واعون على ما نجلبه لهذا الامر العلوى الفاطمى او ننفيه فلنصرف اولا عنان القول اليها ولنوجف بالخيل والرجل فى ميادين هذه الطروس عليها ومن الله سبحانه نستمد وعلى عونه جل اسمه نعتمد وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا به ومنها الجزء اللطيف الذى جمع فيه لنفسه ايده الله الادعية المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى سائر ما يستعمل من العادات والعبادات وفى سائر الحركات والسكنات وما يقال فى المساء والصباح استخرجت من معادنها من كتب الايمة وجمع العلماء على تتبعها واستقصائها حتى انتظمت قلادة جمعها وانسقت دررها فى سلك الترتيب والتبويب والتأليف الغريب والعمل المرجو والقبول عند السميع المجيب واتخذه ايده الله تعالى اصلا يرجع اليه فى اوراده التى يعكف عليها فى الخلوات والجلوات وكهفا يلوذ به عند قرع ابواب حضرة الملك العلام لما يرى ايده الله تعالى ان انجح الوسائل التى يهب عليها نسيم القبول ويفتح بها كل باب مقفول هو ما سأل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وليه وخليله فتوخى ذلك ايده الله لهذا القصد الجميل واعتمده انجح وسيلة وتوج هذا الكتاب من انشائه الشريف بخطبة بارعة تسعى امراء الكلام على الاقدام حافية وهى لك الحمد يا من طيب بريحان ذكره انفاسا ناشقة وارواحا وانهل من جريال هيلالته وعلى من سلافة سبحاته وتكبيراته افئدة ظامية واشباحا والصلاة والسلام على نبيك وعبدك المبتعث وقد ادلهم الخطب فكان السوق الضلالة صباحا ولابواب الهداية مفتاحا والرضى عن ءاله وصحبه المقتدحين بهديه زند الايمان فاورى بعد ان كان شحاحا وبعد فان اضوأ صبح يمزق جلابيب ليل الغفلات واضوع ند تستنشقه الانفاس بالاصال والبكرات واسد ساعد تحل بانمله عرى الازمات ويرمى عن قسيه جيش الذنوب الموبقات ذكر الله بارى البريات والتملق له سبحانه بكريم الدعوات سيما بكلم من اولى (1) الكلمات فهى للتصديقات بالنسبة اليها تصورات فصلى الله على نبيء ءايات نبوءته بديهيات وءايات سائر اخوته من النبيئين عليهم السلام نظريات وانى لما حملت من ثقل هذه الامامة حملا عظيما وحزت من تراث النبوءة والمنة لله جسيما واعوزوان كنت الامام الفائز الاخ العاضد واذا عظم المطلوب

ص 260 قل المساعد * هذا والقلوب متفرقة والاهواء على حب المفاسد متفقة وللانسان فى خاصته لقب اخرى من شافهته بشؤنها العجم والعرب لذت بمن له الطول واستقدرت من له القدرة وبيده القوة والحول وجئته سبحانه من بابه بان تملقت له بكم اخص احبابه فالتام بجمد

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

الله الامر وانشق وانصدع فجر الاستقامة عن ليل الاعوجاج وانفلق وكنت ابدا حريصا
على جمع تلك الكلم الكريمة من بطون الدفاتر والغوص على دررها واستخراجها من قعر تلك
البحور الزواخر الى ان وقع التشبث بالجامع الكبير والوضع الذى وسم كل موضوع سواه
بالتصغير فالفى على كل ربوة من ربله روضة مورقة وعلى كل ورقة وردة مونقة فجردت
منه العدد من مثله يلتمس الشفاء وكتبته محذوف الاسناد متصل الاعداد على هيئة
الوظيف والاوراد لم انظم بين تلك اليواقيت خرزه ولا سقتها بتعريف لم يزدها معرفة
فلكل كلمة نبوية من ذاتها طرب وعلى كل قطيع من جريالها حبب وبما تنبئك مقاطعها عن
ميزها عجب وما ورد موقوفا على الصحابي ربما اخرته فيما حشدته وجعلته ساقة للباب
مهما وجدته والله سبحانه وتعالى يتم النفع به ويجعله سببا موصلا لخدمة بنيه آمين
وكان ايده الله تعالى من قبل الخلافة وفى ايام الفراغ من الشواغب على عهد الخليفة
الغالب بالله اخيه قد انبعثت همته الشريفة الى جمع اشعار العلوية من امهات الادب
والدواوين الشعرية وعزم ايده الله على افرادها بديوان يصبون عصابتها الشريفة من المخالطة
بمن دونها فى النسب ويأخذ لها البيعة بالتقديم على رعايا الادب وربما قيد من ذلك
تقاييد ثم قطع عن وصل هذا العمل ما كان من الخروج عن المغرب الى جهة المشرق عند
انتقال الغالب بالله بطوت حسبما قدمنا وجاءت دولة المعتصم بالله بفتن كقطع الليل
وحروب سال على الارض من دمائها السيل وكان ايده الله صالى حرها حتى خمد وخائض
لججها حتى سكن وركد فاتصل بذلك القطع وتأكد المنع الى ان جاءت ايام الخلافة العلية
والدولة الكريمة الهنية فنسخ حكم الهزل حينئذ الجد واستولى على الفكرة الكريمة فى
مصالح العباد وفتح البلاد وحياطة الخاص والباد الكدح والكد وصرفت العناية من ذلك
الى ما هو الزكى الاسد اللهم الا ان يكون من التأليف ما يدخل فى جنس هذا العمل
فانه مما يتناوله الحد واما ماله ايده الله وخلد ايامه من التقاييد الشريفة والانقال
العجيبة على الاسئلة والاجوبة العلمية والفوائد الادبية فبيد الفضلاء من ذلك ما اغنى عن
ص 261 تسيطره فى هذا الباب لشهرته وكان التأليف منذ تقلص * ظلال الدول بالمغرب وبلوغها
الى سن الهرم والضعف قد انقطع بانقطاع اهله وخرست السن الاقلام وغاضت مياه
المحابر واستوحشت ربوع الدفاتر واموت منازل العلم حتى تدارك الله الدعاء الباقى
وجدد الدين بهذه الدولة الكريمة الحسنية فاستقل جد الاسلام من عثاره وحيى ميت
العلم الدارس ونفخ فى شبحه روح الحياة فنهضت به الدولة وبسائر مناصب الدين
فى معارج السمو والارتقاء تصعد من فلك الى فلك حتى انتهت به من خلافة مولانا امير
المومنين ايده الله ودولته الشامخة الانف الى الفلك السابع وهناك استوى على اشرف
المناصب واسمى المراتب ففهقت حياض العلم والتحصيل واعملت مشيخة العلم الى الحضرة

الشريفة من أوب وصوب الرسيم والدميل واينع رياض التدريس في سائر الحواضر وامهات الامصار بعد ان صوح بهيجه واستعار من الحسرة اجيجه واستدارت في سماء الدروس هالاتها وازينت من المشيخة الجهابذة بدراريها فنفق سوق العلم وكثر حاملوه وتعددت ايمته ومشيخته وشحذ امير المومنين ايده الله الهمم واغرى بكل من اهله وجذب بضبع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التاليف في ايامه السعيدة وجدته الشريفة وتبارى الفضلاء بحضاره فاحرزوا قصبات السبق من كل فوار العنان يستل من قراب فكرته الوقادة سيفا ماضي الغرار فيبارق به المناصل (1) الخزانة الكريمة العلية الامامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف اهل العصر في كل فن حتى في الطب والهندسة واخص بمزية الذكر من هذه التصانيف الشريف الكريم الذى تعرض فيه صاحبنا العلامة الفقيه الحافظ المتفنن الدراك سابق الحلبة وفارس الميدان ابو عبد الله محمد بن عبد الله الرجراجى الى الجمع بين تقييدى الامامين البسيلي والسلوى عن شيخهما صدر الايمة وعالم علماء الملة شيخ الاسلام وعلم الائمة الاعلام ابى عبد الله بن عرفة مع شرح ما لم يتكلم عليه المفيدان من الاى الكريمة وكل ذلك باقتراح مولانا امير المومنين ايده الله وبمشاركته الكريمة بما كان ايده الله تعالى يوثر تفسير الامام ابن عرفة الذى بتقييد تلميذيه الامامين المذكورين ويحضره عند قراءة ورده من المصحف الكريم لمراجعة ما يستشكل من المعانى الشريفة القرءانية والاسرار التنزيلية ثم لا يجد وليجة من دون مطالعة التقييدين معا اذ ربما قيد احدهما على ما اغفل الاخر وبالعكس وربما تخطيا معا محل الحاجة ولم يلمم احدهما بساحتها ولا عاج عليها بركاب تقييده فوقع لذلك الاختيار الكريم والرأى الشريف على الجمل بين ★ التقييدين لفائدة الجمع اجمع بين ص 262
كلام الفحلين على محل واحد وسند الثلمات التى اتصل كلاهما بكلام الاخر مع التتميم بشرح ما اغفل الامامان رأسا من الاى الكريمة وندب لهذا الشأن العظيم ايده الله علماء الحضرة والحلبة التى نجمت بدولته السعيدة وتخرجت بعنايته الشريفة الفقيه ابن ابى عبد الله والقى منه ايده الله من يدعوا به الراية فوضى بالشرط وتخطاه الى امام بالكلام مع الامام ابن عرفة بما لم يخل من ابحاث لطيفة وفوائد جمة منيفة ثم اثنى عنان القول الى شرحى الامام نخبة علماء الاسلام شيخ المثابة العلية الامامية الشريفة المنصورية وشيخ الجماعة ابى العباس احمد بن على المنجور على رجز ابن زكرياء فى علم الكلام وانا استغفر الله من رد الصدر الى العجز بتأخير ا لشيخ عن ابن ابى عبد الله ولاكنى اعتذر بشرف شرح كلام الله تعالى على شرح البتر واقول ان الشيخ رضى الله عنه شرح هذا المنظوم المعزو لابن زكرياء التلمساني بشرحين جليلي النفع عظيمى الفوائد اما الصغير منهما وهو الذى بيد الناس فهو الذى سهل به الشيخ الطريق الى هذا الرجز وقتم

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

به بابه النقل وهو الذى عليه معول شيوخ الكتاب واليه مرجع العلماء المتعاطين لتدريسه اليوم وهنا الكبير فما هو الا كما قيل إتى الوادي فطم على القرى فان الشيخ رضي الله عنه جرى فيه ملء العنان لغاية لا يلحق فيها شاو لكثرة ما جمع من الانقال واورد من الابحاث وبسط من المعاني فلو اقترحه ابن التلمساني على الامام لقال هذا فوق مقترحي حتى او طالعه البيضاوى لقال لطوالعه اعزبي ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذا في مسودته بين اوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلافى مولانا الامام امير المومنين ايده الله امره وبحث عنه فرفعه الى مقامه العلى اولياء الشيخ مبدد الشمل فتوجهت اليه العناية الكريمة فانتظم جمعه وترتبت قلادته وكتب الله لمولانا الامام امير المومنين ايده الله مثوبة استخراجه من لفيف الاهمال وانقاذه من لهوات التلف وهو من العيون التى استأثرت بها الخزانة الشريفة الامامية ومن المخدرات التى اسبل عليها حجاب الصون بخطوط الشيوخ من مهنة الابتذال ومن تاليف الشيخ التى جل نفعها وسمى الى اعلى المقامات وضعها حاشيته الكبرى التى علق على شرح الامام ابى عبد الله السنوسي لكبراه وهى التى يتوكا عليها العلماء اليوم عند النهوض باعباء هذا الشرح ويستضيئون بقبسها فى مدلهمات اشكاله ومنها فهرسة شيوخه الكبرى التى جمع لمولانا امير المومنين ووسمها باسمه الشريف وقد شحن سفينتها التى استوى بها على جودى الكمال ببضائع راجحة الوزن من كلام شيوخه وفوائدهم ومحاضراتهم ★ وبسط احوالهم واخبارهم ومن ملح اهل العصر وانشاداتهم والالم ببعض ادبياتهم ولابـــد بعد هذا من مراقى المجد الى ءاى السعد وهو ص 263
جزء لطيف تكلم فيه عـلى مـا لسعد الديـن التفتازانى من الاى التى استشهد بهـا فى فصوله على تلخيص المفتاح للقزوين ثم اسموا من هذه المراقى الى مرتبة الهادى الى ((1)) المرادى تاليف الشيخ الامام الاوحد الفذ الفريد استاذ المغرب فى وقته فى علوم القـــراءات وسيبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ ابى العباس احمد القدومى وكان مولانا امير المومنين ايده الله عند وجهته الاولى بركابه العالى لفاس اشار على الشيخ ابى العباس رحمه الله بالتعليق على الفية ابـن مالك فاسرع الاجابة وقابل الاشارة الكريمة الامامية الشريفة بما يجب لها من (1) لذلك وعكف عليه وكان رحمه الله من اهل الجد والعناية فما مضت ستة اشهر او ثمانية والله اعلم حتى حرر تصنيفا جليـــلا مـن مجلدين ضخمين ما اتفق للمتاخرين ولا للمتقدمين فى فن العربية مثله ولا نسج فاضل ولا عالم على منواله لو رءاه الفارسى لترجل بين يديه او لمحه ابن عصفور لطار من قفصه اليه لما التزم فيه رحمه الله من الاثيان بجميع ما لاهل فاس من طبقته وطبقة شيوخه واشيـــاخ اشياخه من الابـحاث اللطيــفة والايـرادات العجيبة واللطائف الغريبة والاجوبة المرقصة وجعل الكلام مع المرادى أس العمل ثم ما ترك ياقوته أو درة يتيمة او لؤلؤة مكنونـة الا

(1) بياض بالاصـل .

وغاص عليها في معادنها من شراح الشذور وكافيه ابن الحاجب وتسهيل الفوائد وغيرها من عقائل الفن فطرز بها الكتاب وكلل بها تاج مفرقه وفضل بها عقوده الثمينة فصار هذا المصنف الغريب طرازا تزهوا به الطاف الخزانة الشريفة الامامية ومما تميس به تيها وعجبا على الخزائن الملوكية تأليف الفاضل العلامة السرى النزية (1) الرحالة الحاج ابى جمعه سعيد بن مسعود الماغوسي التى منها شرح لامية العجم املاه بالبلاد المشرقية ورفعه الى حضرة مولانا امير المومنين ايده الله وقد وسمه باسمه الشريف وعليه تقريظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام ثم شرح لامية العرب له ايضا املى جله او كله ببلاد المشرق ايضا وهذبه من بعد قفوله للمغرب بمراكش دار الخلافة خدم به المقام العلى الامامى الاحمدى المنصورى موسوما بشريف اسمه النبوى الكريم واذا وصلت الى شرحه على درر السمط في اخبار السبط الامام ابن الابار في تابين اهل البيت وصلت الى الروض الانفس حسن تصنيف وترصيف وتنضيد وتفويف ومزج الشرح بالمشروح شرح الحياة بالروح يتضوع منه مسك النبوءة ويندى بماء الرسالة (1) جمع من اخبار ص 264 أهل البيت واستوعب من حسن مئاثرهم وشريف دولهم ★ والالمام بكل من ولى منهم وذكر وقائعهم متعلقا في ذلك باذيال ابن الابار وقلما طارسه لاشتمال الدرر مع صغر حجمها وجازتها على علوم جمة من اخبار اهل البيت التى يكتفى في الاشارة اليها بلطيف التلويح وبديع التلميح ومن الاقتباسات القرءانية والحديثة ومن التضمينات الشعرية ومن الاسرار الادبية والبيانية فلم يرع له الفاضل ابو جمعه ذلك تلويحا الا اوضحه ولا تلميحا الا شرحه ولا اقتباسا الا اقتبس من تدر مشكاته (1) ليالى السطور بساطع اشعاته ولا تضمينا شعريا الا وكمله ان كان من قصيد او مقطوع بما قبله وبعده من الابيات وعزاها الى بانيها وعرف الملم من وفد اهل الادب باهليها واذا انتهى الى الاسرار العربية والبيانية فهناك تظهر صولته وتقوى على دول العربية دولته والمنقبة العأيمة التى ذهب هذا المصنف العجيب بفضلها هو ما ذكرنا من جمع اخبار اهل البيت جمعا مستوفى لكون الكتاب ورد فيهم على الخصوص وبذلك صار روضا انفا كما ذكرنا بحيث لو وقع الناظر في خميلة من خمائله ما احب الانتقال عنها واذ ذكرنا اهل البيت فلنلمم من مئاثرهم بديوان الشريف الفاضل السرى محمد بن ابى الفضل المكى المتقدم الذكر وهو الذى جمع فيه مدائحه في مولانا الامام امير المومنين ايده الله لاطرب السامعين من اشعاره بذكر سلع والعقيق واشوقهم بها الى الحمى والبيت العتيق وكان كتاب الدولة وجماعة اهل الادب

(1) بياض بالاصل .

وعلماء القريض بالحضرة العلية يستريب بما ينتحل هذا الفاضل وانا اسئل ستر الاغضاء واحكي ما حكي انشد رحمه الله عند وفادته على الابواب الشريفة في قصيدة قام بها بين يدي مولانا امير المومنين ايده الله وهي :

أترى زمان الرقمتين يعود — ومذيب جسمي بالبعاد يعود
أم هل زمان نوى الاحبة ينقضي — عنا ويقضى للدنو وعود
ويضمنا دار الهوى بطويلع — ويظلنا ظل هناك مديد
دار عرفت بها الصبابة والصبى — والعيش غض والشباب جديد
بابانة العلميين من لمتيم — فتكت به منكم قنى وقدود

مطبعة و مكتبة عصرية
الرباط

الفهارس العامة

فهـــرس الفصـــول

فهرس الوثائق

فهـــرس اسمـــاء الاعلام

فهـــرس أسمـــاء القــبائــل

فهـرس أسمـاء الامـاكـــن

فهـــرس اسمـاء الكتـب

فهـــرس القطـع الشعريـة

لقد اعتمدت على النسخة المخطوطة من (مناهل الصفا) الموجودة بالمكتبة الملكية بالرباط ، ويسعدني أن يكون مسك الختام التنويه بالمكتبة الملكية وشكر القائمين عليها لما ابدوه من مساعدة مكنتني من نسخ المخطوط ومقارنته .

وفي الوقت نفسه ، أرجو أن يعتبر هذا المجهود المتواضع محاولة للكشف عن الحقيقة جهد الامكان والله المستعان .

ع . ك